



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ



نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب

من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي

(من السادس إلى التاسع الهجري)

أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ

اختصاص تاريخ العصور الوسطى

إشراف:

أ.د. بوبه مجاني

إعداد الطالب:

رشيد باقة

السنة الجامعية 2006 - 2007م

المقدمة:

عاش عالم البحر الأبيض المتوسط منذ مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تحولات جذرية، سياسية واقتصادية، على جانب كبير من الأهمية، كانت سببا في تغيير الأوضاع التي كانت سائدة بالمنطقة منذ أزيد من أربعة قرون، بحيث تقلص على إثرها نفوذ أطراف الصراع التقليدية، الخلافة الإسلامية و الإمبراطورية البيزنطية، في حين انتقلت بؤابر القوة والنفوذ تدريجيا إلى أطراف جديدة ممثلة في قوى الغرب اللاتيني.

فقد عرف العالم الإسلامي، خلال هذه الفترة، مرحلة من التدهور والانحطاط نستح عنها انقسام خطير في الجبهة الداخلية، عندما خرجت مصر والشام عن الخلافة العباسية، إثر انتصار المذهب الشيعي، واستقرار الفاطميين بالقاهرة، كما انفصلت بلاد المغرب وصقلية، من جهة أخرى، عن الخلافة الفاطمية، و ظهرت بها دويلات ضعيفة لم تكن قادرة على حماية سواحلها من العدوان الخارجي. وكانت بلاد الأندلس هي الأخرى، أن نسقط أمام ضربات الجيوش المسيحية المرابطة في الشمال، عقب انهيار سلطان الأمويين بها، بسبب الفوضى والنزاعات الداخلية بين القبائل العربية والبربرية، لولا تدخل المرابطين في الوقت المناسب، الذين أضافوا عمرا جديدا للوجود الإسلامي بالمنطقة.

أما على مستوى الجبهة البيزنطية، فلم تكن أوضاع الإمبراطورية بأحسن حال من أوضاع أعانم الإسلامي، إذ عصفت بها -هي الأخرى- رياح الانهيار والتفكك بسبب الخلافات المذهبية، والصراعات السياسية، التي زعزعت استقرارها، وبتددت قدراتها وأفقدتها السيطرة على زمام الأمور، مما جعلها فريسة سهلة أمام القبائل التركية التي

اجتاحت أراضيها، وانتزعت منها إقليم الأناضول (آسيا الصغرى) سنة 464هـ — 1071م.

وكان من الطبيعي أن تستفيد دول أوروبا اللاتينية من هذا الوهن والضعف اللذين طرأ على القوى التقليدية بحوض المتوسط. فبدأت تعد العدة للنهوض وتكتيف جهودها للانتقام لهزائمها في الماضي، و ساعدها على ذلك وصول جحافل من قبائل الشمال (النورماند)، الذين غزوا سواحل الأندلس والمغرب وجزائر المتوسط، واستقر بهم المقام أخيراً في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، وأمكنهم الحال من إخراج المسلمين منها سنة 1090م، بعد أقل من ثلاثين عاماً من وصولهم إليها. وكان لهذا النصر الذي نحقق على يد النورماند فاتحة عهد جديد أمام مسيحيي أوروبا الغربية لإعلان حرب الاسترداد على الأراضي التي فتحها المسلمون من قبل، بهدف استرجاع مجد الإمبراطورية الرومانية وممتلكاتها على الضفة الشرقية والجنوبية للمتوسط، ودخل العالمان إثرها في مرحلة جديدة من الصراع هو ما اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية.

وبقدر ما كانت هذه الحروب طويلة وعنيفة زادت من توسيع فجوة التقارب بين العالمين المسيحي والإسلامي، بقدر ما كانت فرصة ثمينة للمدن البحرية الإيطالية التي حققت من ورائها مكاسب مادية معتبرة. إذ نظرت هذه المدن وعلى رأسها، جنوة والبندقية وبيرة، إلى الحرب اندائرة بين المسيحيين والمسلمين من زاوية المنفعة الاقتصادية لا غير، فراحت تحابي الطرفين المتحاربين، تقدم المساعدات المادية للحملات الصليبية من جهة، ومن جهة أخرى، تبرم المعاهدات والاتفاقيات مع سلاطين مصر وبلاد المغرب لبيع الأخشاب والحديد والعبود، متحدية بذلك دعاوي البابوية وقراراتها التي تقضي بمنع بيع مثل هذه السلع التي يستخدمها المسلمون في حروبهم ضد المسيحيين، وكان شعار المدن الإيطالية طيلة هذه الحروب: "نحن إيطاليون أولاً، ثم بعد ذلك مسيحيون".

سياسة تغليب المنفعة الذاتية التي اتبعتها المدن التجارية الإيطالية في علاقاتها مع الأطراف المتصارعة، جعلتها تستفيد من امتيازات كبيرة بالموانئ الإسلامية أهلتها لأن تلعب دور الوسيط التجاري بين أوروبا والشرق على مدى خمسة قرون تقريبا.

ونعد مدينة جنوة بموقعها الاستراتيجي على ساحل أنبحر أنيراسي، على اتجهة المقابلة لسواحل بلاد المغرب والأندلس، من المدن البحرية الإيطالية التي ساهمت بقسط وافر في ازدهار النشاط التجاري والمبادلات بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي على امتداد المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى، كما نجحت، مثلها مثل باقي المدن الإيطالية الأخرى -البندقية- بيزة- فلورنسا- في نسج علاقات متينة مع حكام مصر والشام وبلاد المغرب والأندلس، وعقدت معهم الاتفاقيات التي منحت لرعاياها فرصة الاستفادة مما كانت توفره الأسواق الإسلامية من سلع وبضائع مطلوبة بكثرة لدى مجتمعات أوروبا الغربية.

غير أن علاقات الجنوبية مع حكام العالم الإسلامي، سواء في المشرق أو في المغرب، لم تعرف الاستقرار أو الانفراج الطويل، بسبب ما جبل عليه أبناء القومونة من طباع عدائية تجاه المسلمين. إذ كثيرا ما جنح الجنوبيون إلى تفضيل سياسة المواجهة العسكرية في تعاملهم مع المسلمين، من خلال اللجوء إلى أعمال القرصنة والصوصية لتحقيق بعض المكسب التجارية الآتية، وأحيانا يندفعون في حملات عسكرية صليبية منظمة كلما تحسسوا ضعفا ووهنا لدى الطرف الإسلامي، حتى إذا ما فشلت مساعيهم الحربية انقلبوا على أعقابهم من خلال إظهار النوايا الحسنة في المسالمة بالتودد والتقرب إلى الحكام المسلمين، حتى لا يضيعوا نصيبهم من منافع التجارة بالأسواق الإسلامية.

ومن هذا المنطلق جاء أحياني لموضوع أبحث بهدف أتكشف عن جانب من مسار العلاقات التي ربطت جمهورية جنوة الإيطالية مع بلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأخيرة من العصور الوسطى، وللفادة العلمية الكبيرة المرجوة من ورائه، من خلال

محاولة فهم طبيعة الصراع الإسلامي المسيحي، والظروف التي هيأت له، وكذا حدود التقارب والتفاهم بين الطرفين المسيحي والإسلامي، ومدى ديمومة التواصل بينهما في ميدان العلاقات السياسية والمبادلات الاقتصادية.

كما جاء اختياري لهذا الموضوع، من جهة أخرى، لعدم وجود دراسات حول تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين بلدان المغرب وأوروبا إبان مرحلة العصور الوسطى بالجامعات الجزائرية على وجه الخصوص، علماً أن هذه الدراسات قد لقيت عناية كبيرة من قبل الأوروبيين منذ زمن بعيد، وأنجزوا في هذا الميدان، العديد من الأبحاث والدراسات تقيمه، معتمدين على ما تتوفر عليه خزائن الأرشيف عندهم، من وثائق ونصوص في شكل خطابات ومعاهدات تبادلها حكام العالم الإسلامي مع بلدان أوروبا خلال تلك الفترة.

كما تأتي أهمية موضوع البحث، في كونه يعد جزءاً مكملًا لبعض الدراسات المحدودة، التي أنجزت في بعض الجامعات العربية بالشرق، والتي تناولت جانباً من نشاط المدن الإيطالية الصليبي والتجاري في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.⁽¹⁾ ومع ذلك، تبقى هذه الدراسات قليلة ومحدودة مما يتعين توسيع ميدان البحث فيها وإثرائها كما هو جارٍ العمل به في الجامعات الأوروبية.

(1) عادل زيتون: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (بحث في النشاط التجاري لتجمووريات

الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط القرنين 13-14م)، دار دمشق، ط1، 1980

فيب حصاد... عالور: علاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي، دار المعارف، 1980

- عفاف صبرة: العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من 1100-1400م)،

مطبعة الجبلاوي، مصر، 1983

- نجلا محمد عبد النبي: مصر والبندقية (العلاقات السياسية والاقتصادية في عصر المماليك)، ط1، 2001

- مصطفى حسن محمد النكيناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى الإسلامي، (1088-

1171م)، الإسكندرية، 1981

----- العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي (1171-1291م)، .. 1981

والحقيقة أن موضوع العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى بعد من الموضوعات الشائكة بالنسبة للمهتمين بميدان البحث في الجامعات العربية بسبب قلّة المصادر التي تؤرخ لهذه الفترة، وما توفر منها فهو موجود بدور الأرشيف الأوربية (فرنسا- إيطاليا- إسبانيا)، كما أن أغلب هذه المصادر مدون باللغة اللاتينية، واللغات الأوربية الكلاسيكية، مما يتعين على الباحث في هذا الميدان بذل المزيد من الجهد والمال للوصول إليها وترجمتها.

ولقد اعتمد الباحث في كتابة فصول الرسالة على عدد من المصادر العربية واللاتينية، يأتي في مقدمة هذه المصادر التي أفادت البحث في بعض جوانبه، ما دونه الإخباريون الجنوبيون حول الأوضاع التي عاشتها المدينة منذ ظهور نظام القومون بها، وكذلك الأعمال والأنشطة الحربية والتجارية التي دأب على ممارستها أبناء القومونة خلال بعض المراحل من تاريخ العصور الوسطى.

ونخص بالذكر، في المقام الأول، كتاب الحوليات الجنوبيه *Annali Genovesi*، الذي يعد أول وأهم مصدر يؤرخ لتطور الأوضاع الداخلية لقومونة جنوة وأنشطتها الحربية والاقتصادية فيما وراء البحار.

وتكمن أهمية هذا الكتاب، في أنه يجمع عدة مؤلفات لإخباريين جنوبيين معاصرين. كلهم دونوا الأحداث التي عاشتها مدينتهم في زمانهم، وكانوا شهود عيان على تلك الأحداث، بدءا من الروائي *Caffro di Cashiefelone*، الذي كان أول من بدأ بتدوين الأحداث التي عاشتها قومونة جنوة في الداخل والخارج، انطلاقا من موقعه كأحد الشخصيات المرموقة في المجتمع الجنوبي، حيث كان يشغل منصب القنصل ضمن الهيئة المنتخبة التي كانت تدير شؤون القومونة، بمعنى أنه كان على إطلاع مباشر بجميع الأحداث والتحديات التي واجهتها القومونة على عهده.

وبعد وفاة مؤلف الحوليات الجنوبية الأول كافارو سنة 1166م، واصل مجموعة من الإخباريين من بعده تدوين الأحداث التي تخص جمهورية جنوة، حتى صارت الحوليات تشتمل على عدة أجزاء كلها تؤرخ، بكثير من المصداقية، للأحداث التي تخص جمهورية جنوة من 1099م إلى سنة 1293م .

ثم يأتي في المقام الثاني السجل الشامل لجميع الوثائق التي صدرت في مدينة جنوة، وهي الوثائق التي تم جمعها وتدوينها ابتداء من القرن الثالث عشر في كتاب خاص حمل اسم Liber Jurium الذي حوى أكثر من 340 وثيقة كلها صادرة عن حكومة القومونة تم استمر العمل بالتدوين في هذا السجل، إلى غاية القرن الثامن عشر الميلادي حتى بلغت مجموع السجلات المدونة تسع (09) مجلدات. وكان نابليون بونابارت قد وضع يده عليها، أثناء حملاته على إيطاليا وأخذها إلى باريس، وقد تمت طباعتها لأول مرة في القرن التاسع عشر. ولأنها لم تكن تحوي على جميع النصوص والوثائق التي تؤرخ لمدينة جنوة منذ القديم، فقد عهد سنة 1928م للخبير الجنوبي Cesar imperiale بإعادة طباعتها، مع مراعاة إضافة جميع الوثائق والنصوص الناقصة، فجاءت مدونة شاملة على جميع النصوص والوثائق الخاصة بتاريخ جنوة تحت اسم، Codice Diplomatico، حيث وصل مجموع هذه الوثائق 597 وثيقة ونصوص تاريخية، منها تسعة (09) فقط تخص الفترة السابقة عن نشأة نظام القومون في جنوة أي (قبل 1100م). كما حوت هذه المندونة على جميع الرسائل والخطابات التي أرسلتها سلطات جنوة أو وصلت إليها من الخارج.

كما اعتمد الباحث، بالإضافة إلى ذلك، على مصادر الحروب الصليبية الخاصة بالمجموعة الأوروبية (Historiens occidentaux) الذين دونوا حوادث الحروب الصليبية في المشرق والمغرب كشهود عيان، أو نقلوها عن رواة سابقين منهم: وليام الصوري، السير دي جوانفيل، روبرت دي كلاري، فيلها ردين، وغيرهم من الذين أشاروا إلى نشاط المدن الإيطالية أثناء الحملات

الصليبية، وفصول الحرب الدائرة بينهم من أجل فرض النفوذ والسيطرة على تجارة البحر المتوسط.

فيما تبقى الوثائق الرسمية التي حفظت في شكلها الأصلي بأرشيف جنوة، والتي تضم مجموع المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمتها جمهورية جنوة مع حكام بلاد المغرب، منذ عهد الموحدين إلى غاية سقوط الدولة الحفصية؛ وكذلك الرسائل والخطابات المتبادلة بين حكام بلاد المغرب وسلطات قومية جنوة، طيلة هذه الفترة، إضافة إلى السجلات الخاصة بعقود الشركات التجارية، وعقود التأمين على السلع، وعقود كراء السفن، التي أشرف على تحريرها مونتقون راسميون في مدينة جنوة، وفي بعض المراكز والموانئ التجارية بالخارج، من أهم المصادر، على الإطلاق، التي وفرت للباحث مادة تاريخية دقيقة، أستعان بكثير منها في معرفة طبيعة النشاط التجاري لرجال أعمال الجنوية ومدى حجم الاستثمارات والمبادلات التي حققها التجار في موانئ بلاد المغرب. ومن حسن الحظ، أن مجموع هذه المعاهدات والوثائق الهامة، قد تولى جمعها وترتيبها ونشرها مجموعة من المؤرخين المختصين، نذكر من بينهم، دي ماس لاتري De Mas Latrie، شيادونو Chiadono، نيكولا جورجيا N, Jorga، روبرتو لوبيز R, Iopez، هملكار كروجر H.E. Krueger، شارل، إ. ديفورك Ch, E, Dufourca، ميشال بالار M. Balard، جاك هيرس J. Heers، جورج جيهل G, Jehel، جيوبيسناريو G. Pistarino وغيرهم ممن ساهموا في نشر هذه الوثائق، التي أضحت في متناول الباحثين، يصلون إليها دون عناء ومشقة، ولقد استطاع الباحث الرجوع إلى هذه الوثائق، وعمل على ترجمة بعض منها وتوظيفها في رسالته.

ويعتبر كتاب الرحالة الجنوي Anselmo Adorno بعنوان Itineraire (الرحلة). خاتمة هذه المصادر الهامة التي تؤرخ لحياة مدينة جنوة وعوامل قوتها وازدهارها طيلة فترة العصور الوسطى. وميزة هذا الكتاب أنه عبارة عن مدونة سجل فيه أخبار

ومعلومات دقيقة استقاها من خلال ما وقف عليه شخصيا وشاهده بعينه أثناء رحلته التي قادته في قافلة تجارية بتاريخ (72-1471)، من مدينته جنوة إلى مدينة تونس، ثم منها إلى الإسكندرية وبلاد الشام، وبذلك، تعد هذه الرحلة من المصادر القيمة التي استفدنا منها في معرفة جوانب هامة تتعلق بأنواع السفن الجنوبية، وظروف ومواقيت السفر في البحر، وإجراءات الاستقبال في الموانئ الإسلامية، فضلا عن نظام حياة الجاليات الجنوبية بالفنادق، وعلاقاتها بالسلطات المحلية.

أما بخصوص المصادر العربية التي أفادت البحث في بعض جوانبه، فيجب التنبيه إلى أنه لا توجد مصادر عربية أولية نتاج موضوع نشاط جبهة الصليبي وأنجاري في سواحل بلاد المغرب، على وجه الخصوص، فلم يتطرق إلى هذا الجانب سوى حفنة من المؤرخين ولكن بطريقة سطحية تفتقر لعنصر التركيز والتدقيق فيما أورده من معلومات، بحيث لم تتعد رواياتهم الإشارة إلى بعض المحطات الخاصة بالنشاط الصليبي، الذي كانت تقوم به سفن جنوبية، بين الحين والآخر، على بعض الثمن والسواحل المغربية. في حين أفادت الكثير من المصادر العربية في كتابة الفصل الأول من الرسالة، المخصص لدراسة الأوضاع في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث أعطتنا هذه المصادر صورة واقعية عن تدهور الأوضاع بالعالم الإسلامي، والأسباب التي كانت وراء هذا التبدل، وما ترتب عنها من نتائج وخيمة تمثلت في نهضة ممالك أوروبا الغربية، وقيامهم بحملات عسكرية صليبية على مواقع المسلمين في الأندلس وصقلية، في مرحلة أولى، لتمتد بعد ذلك إلى سواحل بلاد المغرب والمشرق، ومن بين المصادر العربية التي اعتمدنا عليها في تحرير الفصلين الأول والثالث، ابن حوقل - التيجاني - النويري - القلقشندي - ابن الأثير - ابن عداري - ابن الخطيب وابن خلدون.

وهناك مشكلة أخرى صادفتنا أثناء عملية البحث تتعلق بمسألة التأريخ لبعض الحوادث، إذ غالبا ما يقع اختلاف كبير بين المصادر العربية والمصادر اللاتينية لحادثة معينة بعينها، ويرجع هذا إلى اختلاف التقاويم الزمنية عند كل فريق.

ولقد تطلبت طبيعة الدراسة تقسيم البحث إلى خمسة فصول، تناولنا في الفصل الأول الظروف التي كانت وراء تبدل الأوضاع في عالم البحر الأبيض المتوسط، مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، ترتب عنها تقلص نفوذ الإسلام والإمبراطورية البيزنطية على مياه البحر المتوسط، في حين أخذت تنتقل بواخر التفوق والسيطرة على مياه هذا البحر إلى القوى المسيحية بأوروبا الغربية.

وخصص الفصل الثاني للوقوف على تاريخ مدينة جنوة، وتحديد العوامل التي كانت وراء نهضتها السياسية والاقتصادية والعسكرية، ميرزين، في ذات السياق، الدور البارز الذي لعبته الأرستقراطية الجنوبية في تدعيم مسار الحركة الصليبية، وحروبها المتواصلة مع جيرانها من أجل الحصول على المزيد من النفوذ والمسنمرات فيما وراء البحار.

وركزنا في الفصل الثالث على إظهار نشاط جنوة الصليبي على سواحل المغرب والأندلس، مركزين على الحملات والغارات التي شنتها البحرية الجنوبية، على مدى القرون الأربعة الأخيرة من مرحلة العصور الوسطى، وكانت سببا في توتر العلاقات، في أكثر من مرة، بينها وبين دول المغرب، ودفع بسكان المدن الساحلية المغربية إلى ريدود فعل قوية، بين الحين والآخر، من خلال تسيير غارات قرصنية خاطفة ضد مصالح الجنوبية في الحوض الغربي للمتوسط.

أما الفصل الرابع فقد خصصنا لدراسة طبيعة العلاقات التجارية التي حاولت جنوة نسجها مع حكام بلاد المغرب، بهدف الاستفادة من السلع والبضائع التي توفرها أسواق المغرب، كالذهب، والأصواف، الجلود ومواد الصباغة. ونظرا لأهمية هذا الجانب، فلقد حرصنا على تتبع مسار حركة نشاط تجار جنوة بالموانئ المغربية، خلال فترات الازدهار،

وكذلك خلال مراحل الانكماش، مدعين الدراسة بجداول رقمية عن حجم الاستثمارات الجنوبية التي وجهت إلى أسواق المغرب.

وشمل الفصل الخامس توضيحا وافيا عن مختلف التنظيمات التجارية والمعاملات المالية في تجاره جوده مع بلاد المغرب، بدءا بالشركات التجارية التي كانت بمثابة الدعامة الأساسية على توسيع ميدان التجارة الخارجية الجنوبية، وتطور أشكال العقود التجارية فيها، التي شملت على عقود الشراكة، عقود التأمين على السلع، القرض البحري، وعقود كراء السفن التي استهدفت، كلها تمويل التجارة الخارجية عبر البحر المتوسط. وافتسام الأخطار، كما سمحت بالتالي، باستخدام أكبر قدر ممكن من رؤوس الأموال في العمل التجاري.

واختتمت البحث، بتقديم حوصلة لأهم النتائج التي تم التوصل إليها. كما ألحقت بالبحث عدد من الوثائق الأصلية في شكل معاهدات ورسائل وخطابات، وعقود تجارية، قمت بترجمتها من لغتها الأصلية اللاتينية إلى اللغة الفرنسية لتكون مرجعا لمن يريد مواصلة البحث في هذا الحقل من الدراسات. وإني إذ أقدم هذه الدراسة للمكتبات الجامعية في بلدي، أمل أن أكون قد أضفت إليها مؤلفا جديدا في ميدان العلاقات بين الشرق والغرب خلال مرحلة العصور الوسطى. ولا يفونني في هذا المقام أن أقدم بجزيل شكري وعظيم نقديري للأستاذة الدكتور بوبه مجاتي أستاذة تاريخ المغرب الإسلامي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة قسنطينة- لتفضلها بالإشراف على هذه الرسالة وإثرائها، وعلى توصياتها وإرشاداتها الصائبة طيلة فترة البحث.

فشكرا جزيلا للأستاذة، مرة أخرى، وأسأل الله أن يجازيها أحسن الجزاء. كما لا يسعني إلا أن أسدي جزيل شكري وخالص عرفاني إلي الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين شرفوني بموافقتهم على قراءة رسالتي ومناقشة محتواها.

وأني على يقين من أن ملاحظاتهم وتصويباتهم العلمية الدقيقة ستضيف الكثير لعملتي المتواضع وتزيد من قيمته العلمية.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ العلامة كرسئوف بيكار Ch, Picard الذي استضافني في جامعة السوربون خلال فترة الترتيب، وزودني بنصائح وتوجيهات قيمة ساعدتني على تخطي الكثير من العقبات في طريق البحث، كذلك أوجه نفس عبارات الشكر والتقدير للأستاذ المحترم دومينيك فاليريان Dominique Valerian على ما قدمه لي من مساعدات وكتب وأبحاث أثرت الموضوع وزادت من قيمته العلمية.

الفصل الأول

الأوضاع العامة في عالم البحر الأبيض المتوسط مع بداية القرن 5م / 11 هـ

(1) - الأوضاع بالحوض الشرقي.

أ- الأوضاع في الإمبراطورية البيزنطية.

ب- الأوضاع بالشرق الإسلامي.

* - الخلافة العباسية في بغداد.

* - الخلافة الفاطمية في مصر.

(2) - الأوضاع بالحوض الغربي.

أ- الأوضاع في بلاد المغرب.

ب- الأوضاع في بلاد الأندلس و جزيرة صقلية.

ج- أوضاع الغرب اللاتيني.

* - الأوضاع العامة في عالم البحر الأبيض المتوسط مع نهاية القرن 5هـ / 11 م.

عرفت منطقة البحر الأبيض المتوسط، خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، أحداثا سياسية وعسكرية على جانب كبير من الأهمية، انعكست مظاهرها السلبية فيما طرأ من تحولات جذرية على الشكل العام للقوى البحرية والتجارية بالمتوسط. عندما أخذ نفوذ أطراف الصراع التقليدي بين الدولة الإسلامية - الإمبراطورية البيزنطية - في التراجع، في حين بدأت بوادر القوة والسيطرة تنتقل إلى أطراف جديدة.

وهكذا ما أن أشرف القرن الحادي عشر الميلادي على نهايته حتى برزت إلى الوجود قوى الغرب المسيحي، ممثلة في بعض المدن البحرية الإيطالية، (البندقية، جنوة، بيزة)، وعناصر من الإقطاعية النورماندية، مدعمين بتأييد من البابوية، يدفعهم حماس فياض للسيطرة من جديد على مياه المتوسط وجزره، وذلك بهدف إحياء أمجاد الإمبراطورية الرومانية، عندما كان هذا البحر، في العهد القديم، بحرا رومانيا.⁽¹⁾ إلى أن انتهى الأمر في الأخير إلى انتصار أساطيل غرب أوروبا على قوة المسلمين والروم البيزنطيين، وصار الأوروبيون الغربيون، مع نهاية القرن الحادي عشر، مرة أخرى، سادة المتوسط من شرقه إلى غربه.⁽²⁾ وكان الذي جعل هذا التحول ممكنا، في هذا الطرف بالذات، الكوارث التي حلت بالقوتين الشرقيتين التقليديتين: الإمبراطورية البيزنطية، والخلافة الإسلامية

⁽¹⁾ سيطرت الإمبراطورية الرومانية قبل سقوطها، مع نهاية القرن الخامس الميلادي، على كل الأراضي المطلة على

حوض البحر المتوسط من شرقه إلى غربه، ندرجه أن سكان الإمبراطورية اعتادوا تسمية البحر المتوسط Mare

Nostrum أي بحرنا. للمزيد راجع :

- H.Pirenne : Mohamed et Charlemagne, nouvelles société d'édition,

Paris.1937.p 143.

Dictionnaire encyclopédique d'histoire. la méditerranée, Ed Bordas, 1986

⁽²⁾ J. Carpenter et F.Lrbrum: Histoire de la méditerranée. Ed seuil. 1998 ,p101.

(1)- الأوضاع بالحوض الشرقي.

أ- الأوضاع في الإمبراطورية البيزنطية:

اتفق معظم المؤرخين الذين تخصصوا في دراسة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية أن الإمبراطورية عرفت مرحلة من القوة والاستقرار والتطور على عهد الأسرة المقدونية (86م-1056م)، حيث بذل أباطرة هذه الأسرة جهودا مضنية لإيقاف مظاهر الفوضى والانحلال والتفكك التي تردت فيها الدولة، منذ سقوط الأسرة الهرقلية القوية⁽¹⁾، بسبب الخلافات المذهبية والصراعات السياسية الداخلية، إضافة إلى ما كانت تتعرض له حدود الإمبراطورية من اعتداءات خارجية على عدة جبهات⁽²⁾

فلقد تدعمت السلطة البيزنطية خلال حكم هذه الأسرة بتدابير وإنجازات ناجحة على المستوى الخارجي والداخلي رفعت كثيرا من قدر الإمبراطورية ومهيبتها حتى غدت بيزنطة، مرة أخرى، إبان هذه الفترة، القوة الرئيسية في الحوض الشرقي للمتوسط فتمكنت - بادئ ذي بدء - من وقف الزحف الأجنبي على أراضيها بإقليم آسيا وأوربا، وأمكنها الحال كذلك، في زمن قياسي، من استرجاع سيطرتها على معظم الثغور الهامة بغرب آسيا وأطراف البحر الأسود وبلدان البلقان وإقليم جنوب إيطاليا، كما استطاعت كبح

⁽¹⁾ Vasiliev, A : Histoire de l'empire byzantin, T1, p263.

⁽²⁾ عانت بيزنطة خلال فترة العصور الوسطى من هزيمة دينية خلفت بلبلة بين أوساط الإلهائي، وقسمت سكان الإمبراطورية إلى حزبين متناحرين. ويعود منشأ هذا الخلاف العقائدي إلى سنة 726م عندما أقدم الإمبراطور ثيودور III L'icône du christ الذي كان من الأنصار المعانين لتقديس الصور، بتعطيم صورة المسيح المعلقة على باب قصره. فكان ذلك التصرف منطلق الخصومة بين المؤمنين والمعارضين فيما صار يعرف بـ iconoclastes et

Les destructeurs et adorateur des images. أي iconodules

نلمزيد راجع :

- R.Lopez: Naissance de L'Europe ; librairie Armand Colin 1962, p74.

- تعرضت حدود الإمبراطورية خلال فترة العصور الوسطى. لاعتداءات خارجية على عدة جبهات : انصقالية والافار من جهة الشمال والغرب، والفرس والمسلمين من جهة الشرق .

- Vasiliev, A : opcit, T1, p171.

جامع الأرستقراطية المحلية المستبدة التي كانت وراء العديد من المحاولات الانقلابية للاستيلاء على الحكم⁽¹⁾، وذلك من خلال إرساء أسس حركة إصلاح داخلي هدفت إلى توطيد دعائم الإدارة وهيبة الدولة في قلوب الأهالي، كما تم لها اجتثاث نعرة الهرطقة الأيقونية التي كانت وراء تقسيم سكان الإمبراطورية إلى فريقين متعادين وسمت علاقات القسطنطينية مع روما والغرب المسيحي عامة. ⁽²⁾ ولعل حالة الاستقرار السياسي و الازدهار الاقتصادي التي بلغتها بيزنطة على عهد الإمبراطور باسليوس الثاني Basilius II (976 – 1025 م)، أحد أبرز أباطرة الأسرة المقدونية، لم تعرف لها مثيلاً منذ أيام هرقل العظيم، بحيث صارت القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية، تضاهي روما القديمة في أوج عزها، وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها في التجارة والمال والترف والجمال. ⁽³⁾

غير أن هذه الحالة السعيدة التي بلغتها بيزنطة سرعان ما تعرضت للاضطراب، منذ وفاة الإمبراطور باسليوس الثاني، حيث دب الضعف، مرة أخرى، في جسم الإمبراطورية، وكان مصدر تلك المشاكل، التي كتب على الإمبراطورية أن تعانيها على امتداد النصف الثاني من القرن 11م، يكمن في الصراع العنيف الذي خاضته الحكومة العسكرية ضد الأرستقراطية العقارية من أجل السيطرة على السلطة. ⁽⁴⁾

ومن المؤسف على حياة الإمبراطورية، أن هذا النزاع المحلي أهدر في اللحظة التي كان يتحتم على الإمبراطورية رص صفوفها وجمع كل إمكاناتها لمواجهة الأخطار الخارجية المحدقة. ولكن أياً من الطرفين لم يتفطن إلى خطورة الموقف وانهارت تبعاً لذلك الجبهة الداخلية، بسبب تلك المنازعات السياسية، التي زعزعت

⁽¹⁾ - Bury, J.B: Eastern Roman Empire, p169.

⁽²⁾ م. هسي: العالم البيزنطي، مترجم، القاهرة 1997، ص 61.

⁽³⁾ Ch. Diehl: Byzance Grandeur et décadence. Ed, Flammarion. Paris 1979, p 19

⁽⁴⁾ Ostrogowski, G: History of the Byzantine state, oxford, 1956, p84

استقرار الدولة، وبددت قدراتها المادية والبشرية، وأفقدتها السيطرة على زمام الأمور، مما جعلها فريسة سهلة أمام هجمات القبائل التركية السلجوقية التي اجتاحت أراضي الإمبراطورية من جهة الشرق، وانتزعت منها إقليم الأناضول (آسيا الصغرى) الغني، على إثر انهزيمة السحيقة التي ألحقتها تلك القبائل البدوية بقيادة ألب أرسلان. بالجيش البيزنطي في موقعة مانزكورت الشهيرة عند أطراف أرمينيا سنة 1071م.⁽¹⁾ ومنذ ذلك العهد أخذت قبائل السلاجقة الرحل تستقر في هضاب آسيا الصغرى التي أضحت جزءا من دار الإسلام. وكان هؤلاء السلاجقة أول الشعوب الآسيوية التي استطاعت أن تثبت أقدامها في بلاد الروم، كما أنهم أول من وضع الأساس لتتريك آسيا الصغرى، منذ أن شرعوا في إرساء قواعد مملكة تركية بالمنطقة سنة 1077م التي اشتهرت، في تلك الفترة، باسم "سلطنة الروم" وجعلوا عاصمتها الأولى "نيقية" Nicea. وكاد هذا الغزو السلجوقي أن يقضي تماما على سلطان البيزنطيين في آسيا، لولا طموحات أخرى أكثر أهمية حالت دون مواصلة تلك القبائل التركية، السنية المذهب، مشروع غزوها المدمر، الذي باشرته على حساب الأراضي البيزنطية، عندما وجهت فجأة أنظارها باتجاه بلاد الشام، والديار المصرية، لانتزاعها من أيد الأسرة الفاطمية الشيعية الضعيفة.⁽²⁾

وبالموازاة مع ما كانت تعانيه الإمبراطورية من مشاكل عويصة على الجبهة الشرقية الآسيوية، فقد تعرضت أملاك الإمبراطورية من جهة الغرب لنفس المصير، عندما اجتاحت قبائل بدوية أخرى، جاءت هذه المرة من شمال أوروبا، وهم النورماند أو

⁽¹⁾-Cahen C: « The Turkish Invasion: The selkhuhs in a history of the Crusades »
ed K.M. Setton, vol 1. USA, 1969, p 33-44.

- Ch. Diehl. & G. Marcais : le monde orientale 385-1081, 2^{ème} Ed. Paris. 1944, p236.

⁽²⁾ ابن الفلاسني: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أنور أمدروز Amedroz، بيروت 1998، ص 108-113.

- صدر الدين بن علي الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية. المسمى زبدة في أخبار الملوك

والأمراء من الدولة السلجوقية، طبعة لاهور 1983، ص 34.

(سكان الشمال)، آخر معاقل الإمبراطورية البيزنطية المتبقية لها بغرب البحر المتوسط . وبالتحديد بجنوب البر الإيطالي، في مقاطعتي برينديزي و باري، المطلتين على الساحل الأدرياتيكي. ⁽¹⁾ وبذلك قطعوا عنها نهائيا كل سبل التواصل مع الغرب الأوروبي. انتزعوا منها طريق التجارة الحيوي، الذي ظل يربط شرق المتوسط مع غربه، و كان يوفر لها، على الدوام، عائدات معتبرة. ⁽²⁾

ثم بعد أن تمكنت هذه القبائل من تجريد بيزنطة من أملاكها القديمة على البر الإيطالي، أمكنها الحال، في بضع سنين، من انتزاع جزيرة صقلية المجاورة من أيدي المسلمين، ليحولوا أنظارهم، بعدها بقليل، نحو الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتيكي بهدف الاستيلاء على مقدونيا، بل لقد شنغوا في القسطنطينية نفسها ⁽³⁾.

وانجر عن هزائم البيزنطيين المتتالية أمام الأتراك في آسيا الصغرى، وأمام النورمند في جنوب إيطاليا، أن فقدت الإمبراطورية أهم وأغنى المقاطعات التي كانت توفر لها موارد مالية معتبرة، وانهارت، تبعا لذلك، الجبهة الداخلية، بسبب تناقص الدخل، وإيرادات الضرائب، التي كانت توفرها لها تلك المقاطعات. إلى درجة ، حسب ما أشار إليه شاهد عيان : "... إن خزينة الدولة صارت خاوية تماما ، وأن أبوابها لم تكن تغلق." ⁽⁴⁾ هذا الأمر بالطبع قد عجل بعودة المنازعات الداخلية والخلافات السياسية من جديد، وعاشت الإمبراطورية، على اثر ذلك لسنوات طويلة، في جو من الفوضى والحروب الأهلية، بحيث تعاقب على عرش الدولة، في ظرف خمسين سنة، أكثر من ثلاثة عشر

⁽¹⁾ J.Marie· Martin : L'Italie Normande XI-XIIs. Ed. Hachette· 1994.p34.

⁽²⁾ A.Ducellier : Les Byzantins· Histoire et culture. Ed Seuil· 1988.
p 149-150.

⁽³⁾ P.Aube: Les Empires normands d'orient. Ed.·Hachette pluriel· 1995 .
p50-83

⁽⁴⁾ -Briatianu· G.T : Etudes Byzantines d'histoire économique et sociale· Paris·
1938. p213.

إمبراطورا، بينهم امرأتان. ⁽¹⁾ وكان معظم أولئك الأباطرة رجالا عاجزين، غير قادرين على إيقاف مسببات التدهور والانحلال، التي أوصلت الأوضاع في الإمبراطورية إلى الدرك الأسفل من الضعف والانحطاط.

ولتفادي تفاقم الأزمة لجأت الحكومة البيزنطية إلى اتخاذ تدابير مستعجلة، كحل لمنع الانهيار التام للاقتصاد، بأن تنازلت عن بعض مهامها الحيوية، كجباية الضرائب مثلا، إلى أفراد خواص ليتولوا هذه المهمة بدل مؤسسة الدولة بسبب تفشي ظاهرة الرشوة والاختلاسات. ⁽²⁾ كما منحت مزيدا من الامتيازات التجارية للمدن الإيطالية بموجب معاهدة 1081م ⁽³⁾.

وعلى عكس ما كانت تنتظره الحكومة، فقد كشفت هذه المبادرة المرتجلة عن نتائج كارثية، لم تجلب هذه السياسة لغالبية سكان الإمبراطورية سوى مزيدا من التعب والمشاكل، مما جعلهم يفقدون، منذ هذا التاريخ، كل أسباب السيادة والعزة، بعد أن وقعوا فريسة كبار الملاك والإقطاعيين المحليين، من جهة، وسيطرة المدن التجارية الإيطالية، التي أحكمت قبضتها على كل مقدرات البلاد الاقتصادية، من جهة ثانية. ⁽⁴⁾ ونواصبت أسباب التدهور والانحلال على جميع المستويات حتى بلغت حدا لم يعد باستطاعة القائمين على شؤونها تدارك الأوضاع، واضطروهم الأمر في النهاية، إلى الاعتراف بالعجز التام عن حماية الدولة من الانهيار والسقوط، فولوا وجوههم شطر الغرب الأوربي لطلب النجدة، لانقاذ ما تبقى من أملاك الإمبراطورية في آسيا قبل فوات الأوان. ⁽⁵⁾

⁽¹⁾ Briatianu- G.T - op.cit., p213-14.

⁽²⁾ J.Lacourt Gayet : histoire du commerce, T II de l'ancien monde jusqu'à la fin du XVs. E d. spid . Paris 1950. p226,

⁽³⁾ L. Bréhier : La civilisation Byzantine, Ed. Albin, Michel, 1970. p193-194

⁽⁴⁾ Ch.Diehl ,& G,Marcais: op.cit.,p205-207.

⁽⁵⁾ L. Bréhier : Vie et mort de Byzance. Ed Albin. Michel. Paris(IV), 1947. p294-301

ب)- الأوضاع بالمشرق الإسلامي:

* - الخلافة العباسية في بغداد

أما على مستوى الجبهة الإسلامية في المشرق، فلم تكن الأوضاع بأحسن حال من الأوضاع التي سادت في الإمبراطورية البيزنطية. التجارة القريبة. فالخلافة العباسية في بغداد بدأت، هي الأخرى، تفقد هيبتها، منذ نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع للميلاد، وضعفت قوتها، بسبب إفراط الخلفاء في تجنيد العناصر الغير عربية في الجيش، والحرس. ⁽¹⁾ و لما كان هؤلاء الجند الغرباء لا يفهمون جيدا معنى الجهاد المقدس، والدفاع عن المثل العليا للأمة الإسلامية، فقد استهوتهم بسرعة إغراءات المناصب في أجهزة الدولة، ودفعت بهم رغبة التملك والسيطرة إلى الاستحواذ على زمام السلطة في بغداد، فشددوا قبضتهم عليها، إلى درجة أن أضحى خلفاء بني العباس رهائن في أيدي هؤلاء الجند الأتراك أو الفرس القادمين. إلى أن صارت السلطة الفعلية، منذ القرن التاسع، في يد كبير قادة الجند الذي اتخذ لنفسه، من وقتها، لقب السلطان ⁽²⁾.

وبالموازاة، لما حدث في بغداد، أخذ كبار القادة في المقاطعات يطالبون، هم أيضا، بقيادة مستقلة عليها، ويتصرفون على هواهم في أحوال تلك الولايات ومواردها. وعلى هذا النحو قسمت أملاك الدولة العباسية إلى إقطاعيات وأتابكيات، ثم أخذت تلك الإقطاعيات تتفصل تدريجيا - إداريا و ماليا - عن الديوان المركزي. الشيء الذي مهد السبيل إلى نشوء أرسقراطية إقطاعية أجنبية تنزع إلى ضرب من الاستعمار العسكري، الذي لم يكن دوما في خدمة الدولة المركزية بل. هو على أقل تقدير، في صالح فئة اجتماعية لا تمت بصلة إلى الأهالي. ⁽³⁾ ومن الطبيعي أن هذا الوضع سوف يشجع على

(1) ابن العربي: تاريخ الزمان، مترجم، دار المشرق، 1986م، ص 99 و 102.

(2) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سنجوق، دار الأفاق الجندية، بيروت، ص 16-27.

(3) - Michel le Syrien : chronique, Ed. Chabot, T III, Paris, 1905. p191-193.

ظهور حركات ثورية، وخلافات دينية مذهبية. وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية و تفككها في تلك الفترة، ازدياد وتيرة الحركات الانفصالية التي قامت في جسم الدولة، والتي أدت إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة.⁽¹⁾

وفي غياب كني لهيئة الدولة المركزية، سرعان ما أفضى النزاع بين انمستأثرين بحكم تلك الإمارات المستقلة، والمطالبين بشرعيتهم عليها، إلى مزيد من الفوضى والتفرقة.، كما تزايدت، تبعاً للظروف التي أحاطت بهذه التطورات السياسية، خلال هذه الفترة، أسباب التنافر العرقي، وخاصة بين العرب والأترك والأكراد، وكانت النتيجة في الأخير، أن شعرت الأمم النصرانية في أوروبا العربية بسريان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الإسلامية بديار الشام. فأخذوا يتجهزون لسلبهم إياها.⁽²⁾

* -- الخلافة الفاطمية في مصر.

نفس أوضاع الضعف والتفكك التي تردت فيها الخلافة العباسية في بغداد، منذ منتصف القرن العاشر، عانت منها، بصورة مماثلة، الخلافة الفاطمية في القاهرة. ذلك أن الأسرة الفاطمية، التي أمكنها الحال من تأسيس دولة عزيزة الجانب ببلاد المغرب سنة 296هـ = 909م، عاصمتها المهدية. سوف لن يمر وقت طويل على قيمها حتى يبدأ حكامها في التفكير بجدية للاتجاه صوب الشرق، بهدف الاقتراب من أصولهم، ومنبت عقيدتهم.

⁽¹⁾ عن الدويلات الإسلامية التي انفصلت عن الخلافة العباسية بالشرق، راجع: C.Cahen, leçons d'histoire Musulmane (VIII-XIS) Vol III, centre de document Universitaire, 5 place de la Sorbonne, Paris V. 1961. p13-30

⁽²⁾ ابن شداد : الأعلاق الحاضرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان،

دمشق 1962.. ص 32 او 203.

- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت تحقيق فرانسيس هويس، بيروت 1969. ص 17.

وبعد محاولات فاشلة⁽¹⁾، تحقق لهم النصر أخيراً عام 360هـ = 969 م، على يد القائد جوهر الصقلي الذي دخل مصر على رأس جيش قوامه مائة ألف فارس من عساكر المغرب، وبين يديه أكثر من ألف ومائتين صندوق من المال⁽²⁾. فتمسك له الأمر في استلام مصر من غير قتال⁽³⁾. ثم شرع في بناء مدينة القاهرة بالاضاحية الشمالية لفسطاط عمرو بن العاص⁽⁴⁾. وبعد ما استقر منكه بديار مصر، سير جيشاً إلى الشام ففتحها وأقام فيه الدعوة لسيدته المعز لدين الله الخليفة الفاطمي⁽⁵⁾. هذا الأخير الذي سوف يقرر، بعد مرور أربع سنوات من دخول جوهر المظفر إلى مصر، مغادرة المهديّة عاصمة أجداده بإفريقية، ويختار الاستقرار تهانبا في القاهرة العاصمة الجديدة التي بنيت خصيصاً له، وجعلها دار الخلافة الشيعية⁽⁶⁾. ومنذ هذا التاريخ سوف تقطع مصر، لأول مرة، تبعيتها للخلافة السنية ببغداد، وتصبح دولة مستقلة بصورة حقيقية.

(1) مجهول: كتاب العيون والحائق في أخبار الحقائق، ج4، تحقيق عمر السعيد، ط1972، ص86 و 176-177 / 211-212.

(2) لسان الدين: الخطب، شرح رقم الحلق ونظم الدول، إعداد، تعليق، دراسة، دمشق 1990، ص139.

- الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب تاريخ عيون الأخبار، تحقيق محمد العيلاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1958، ص666.

(3) وجوهر القائد جاء مصر - قتال بين رجب السعدي نصر - الصفي: تحفة ذوي الألباب ممن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب، القسم الأول حققه إحسان بنت سعيد حكوس...، ص384 و 387.

- عبد الله بن محمد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلوس أحمد البنوي، ENAL، الجزائر، 1984، ص50.

(4) المقرئ: كتاب المواعظ والاعتبار، السفر الثاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1989، ص129.

- ابن أياس: دافع الزهور، ج1، تحقيق مصطفى رياذة، ط2، القاهرة 1980، ص185.

(5) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جII، طبعة القاهرة، ص158-159/.

- الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص34.

(6) العلاتي: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلطين، تحقيق يسوع عاشور، طبعة جامعة أم السعونية، ص. 200-201.

وعلى غرار ما حدث مع خلفاء بغداد السنيين، لم يفلح خلفاء القاهرة الشيعيون، من جانبهم، في إرساء قواعد ملك مستقر ودائم، وفرض النظام والطاعة. فلقد استعانوا هم كذلك، لتدبير شؤون الحكم والإدارة، بعناصر أجنبية، من البربر، والسودان، والأتراك، والأرمن⁽¹⁾ مما فتح الباب، مع مرور الوقت، على صراعيه لظهور الممارعات العرقية، والانقسامات الداخلية، ووقعت البلاد، لسنين عديدة، فريسة للتخريب والنهب، وبلغ التخريب مداه حينما نهب قصر الخليفة بالقاهرة عام 460هـ/1067 م.⁽²⁾ إلى أن أفضى الأمر، في النهاية، إلى بروز قواد جيش أقوياء من الغرباء، سيطروا على الوزارة ودواليب السلطة، وصار بمقدور هؤلاء الوزراء، على غرار ما حدث في بغداد، اصطناع الخلفاء والإطاحة بهم على هوامهم.⁽³⁾ ثم عظمت المحن و المتاعب على الدولة الفاطمية، عندما أخذ أمراء الأتراك السلاجقة يوسعون نفوذهم على حساب ممتلكاتها في بلاد الشام، فانتزعوا منها أهم الأقاليم بهذه الديار، دمشق والقدس.⁽⁴⁾

ولما كان على الفواطم، رغم مشاكلهم الداخلية أن يتصدوا لهؤلاء المعتدين، قبل أن يستفحل أمرهم و يزحفون على القاهرة عاصمتهم. إذ لم يكن يخفى على أحد، وقتذاك، من أن أولئك الأمراء الأتراك السنيين الموالين للخلافة العباسية، كانوا يرغبون في القضاء على المذهب الشيعي وتقويض أركان الدولة التي ترعاه في مصر. وسوف يؤدي النزاع بين الجبهتين السنية والشيعية، خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، إلى مزيد من العداء، والتفرقة والتخاذل بين أبناء الأمة الإسلامية، الذي سيقضي لاحقاً على قدرات

(1) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، مترجم، ص216/
G.Wiet : L'Egypte arabe, p 238-240

(2) نيكيتا ايليسيف : الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، مترجم، مؤسسة دار الكتاب، بيروت، 1986، ص329.

(3) نفس المرجع، ص324.

(4) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مج26، تحقيق عزيز سريال عطية، ط الهند، 1920.

الطرفين، عندما تطأ أقدام الصليبيين أرض الشام و فلسطين، وتنتزع منهما إحدى أكثر الأماكن قداسة. المسجد الأقصى المبارك عام 1099م.⁽¹⁾

ولطالما بقي النفور والعداء بين بغداد والقاهرة، سبقي الاستعمار الصليبي بالمنطقة مدة أطول⁽²⁾. وهذا ما أثار، بالفعل، انتباه كثير من متقفي العالم الإسلامي بمختلف مذاهبه وتياراته في ذلك الوقت، وكتبوا ينبهون إلى هذه الحالة. ويكفي أن نورد في هذا الشأن، رأي اثنين من كبار العارفين بواقع الأمة الإسلامية في تلك الفترة. الأول شيعي المذهب والثاني سني.

كتب النرحانة ابن حوقل يصور هزائم المسلمين أمام الروم المسيحيين وينفق في أسباب تلك الهزائم، وهو شاهد عيان كان يتنقل بين الشرق والغرب خلال تلك الفترة العصبية، قائلا: "...وقد ألح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر، فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب ويأخذونها من كل جهة ولا غياث ولا ناصر، ومن المسلمين بناظر، والملك فيهم هامل شاغر، والملك جماع مناع، والعالم يسرق ولا يشبع، ويفتي بالباطل على ما يبلغ، ولا يخاف معادا ولا مرجعا، والفقير ذئب أدرع في كل بلية يشرع، وبكل ريح يسري ويقلع، والتاجر فاجر مسقع، لا يعاف حراما ولا مطمعا، والديار والأعشار بيد الأعداء متسلمة، والأملاك مغتصة مصطلمة، والأرض من أربابها إلى الله تعالى متظلمة، وهذه جمل صفة بحر الروم وجزائره وما عليه مما يحتاج إلى علمه."⁽³⁾

(1) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط2، 1958، ص196 / و208.

(2) لم يتمكن المسلمون في مواجهة الصليبيين والانتصار عليهم إلا على عهد صلاح الدين الأيوبي، الذي أنهى الخلافة الفاطمية في مصر ووحّد المشرق الإسلامي. للمزيد راجع.

- ابن شداد: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض. منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ص185-186.

أما مؤرخ الموصل العلامة ابن الأثير، الذي عاصر هو الآخر، في فترة لاحقة. هذه المحن التي ألمت بالعالم الإسلامي بسبب العداوة والتنافر والتطاحن بين أبناء الأمة الإسلامية، فقد علق على هذا الوضع المزري بحكمة وتبصر قائلاً "...واختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد."⁽¹⁾

(2) - الأوضاع بالحوض الغربي:

أ- الأوضاع في بلاد المغرب:

نفس الأحداث التي أتينا على تلخيصها في المشرق كان لها ما يقابلها، بعض الشيء، ببلاد المغرب. ذلك أنه عندما عقد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله العزم على نقل عاصمة دولته الفتية من إفريقية إلى مصر، عمد إلى تقسيم ممتلكاته بالمغرب إلى عدة ولايات، بهدف منع، على ما يبدو، كل محاولات الاستقلال والتوسع. فعهد بولاية إفريقية و المغرب الأوسط إلى أمير قبيلة صنهاجة يوسف بن بلكين بن زيري بن مناد، مكافأة له على إخلاصه لتسيعة من جهة⁽²⁾، و لكسب ود الصنهاجيين، وهم بطن من بطون بربر البرانس المرهوبي الجانب من جهة ثانية، بعد أن كسب أجداده ود بربر كتامة الأقوياء من قبل. أما جزيرة صقلية بالبر الأوربي، فقد أوكل شؤونها لأسرة من الكلبيين المواليين لمذهبه⁽³⁾. في حين أبعد ولاية طرابلس عن نفوذ البيت الزيري بإفريقية، وجعل تتبعها لمصر مباشرة، بأن عين عليها أحد رجال كتامة المخلصين عبد الله بن يعلف النكتامي.⁽⁴⁾ ومنذ البداية لم يتفق للزيريين، أصحاب إفريقية الجدد، ما اتفق للفاطميين قبلهم من العزة والنفوذ، لأن الفاطميين عندما بادروا بالانتقال إلى مصر، أخذوا معهم أسطولهم

⁽¹⁾ ابن الأثير: الكامل مع 10، دار بيروت للطباعة والنشر، 1982، ص 284.

⁽²⁾ النورير السراج: التحلل السننسية في الأخبار التونسية تحقيق نجيب الهنيئة، مجلد II، دار

الغرب الإسلامي 1984، ص 42/- ابن زغلون: التنكار، ص 23.

⁽³⁾ أنويري: نهاية الأرب، مج 28، ص 23.

⁽⁴⁾ الوزير السراج: المصدر السابق، ص 42/- ابن خلدون: العبر، مج 4، قسم 7، ص 103.

البحري الذي كانوا قد ورثوا جزءا منه، في الواقع، عن الأغلبية.⁽¹⁾ و لم يكن مستبعدا على الإطلاق، أن تكون النية المبيتة من لدن الحكام الشيعة في التصرف على هذا النحو، القصد منه أن لا يتركوا لأتباعهم الذين استخلفوهم على ممتلكاتهم بالمغرب شيء من القوة تجعلهم بإمكانهم القيام بثورة ضدهم أو التفكير في الانفصال عنهم.

ولقد خلف هذا التصرف، بالفعل، آثاره الوخيمة على الأوضاع الأمنية بالمنطقة، إذ رغم كل الجهود التي بذلها بنو زيري لاستدراك النقص الفادح في قطع الأسطول، إلا أن البحرية الزيرية ظلت ضعيفة، ولم تبلغ من القوة وحسن التسيير ما بلغت بحرية الفاطميين ولا بحرية الأغلبية من قبل.⁽²⁾ ففي أكثر من مرة عجزت القوات البحرية الزيرية عن التصدي لهجمات أساطيل قوى الغرب المسيحي، وفي مقدمتها مدن البحرية الإيطالية، جنوه وبيزة، وكذلك نورماند صقلية⁽³⁾.

وإلى جانب تلك المصاعب الخارجية التي واجهتها إمارة بني زيري الفتية من جهة البحر، كان على حكام إفريقية الجدد، مواجهه مخاطر أدهى وأمر عصفت بالجنبة الداخلية، بحيث لم تكد تمضي بضع سنوات على رحيل الفاطميين إلى مصر حتى تفجرت الثورات القبلية و الفتن المذهبية في أنحاء عديدة من بلاد المغرب، و بذل حكام بنو زيري جهودا مضنية لإخماد تلك الثورات.⁽⁴⁾ ولئن نجحوا، لبعض الوقت، في إعادة الهدوء إلى ربوع المغرب، إلا أنهم لم يتمكنوا من إخماد جذور التمرد والعصيان، واستمرت ثورات القبائل اشتعالا وامتد لهيبها إلى المغرب الأوسط و المغرب الأقصى وإفريقية نفسها، وكان أعنفها ثورات زناته البدوية بالمغرب الأقصى التي وجدت المناصرة والتأييد من لاة أهل

⁽¹⁾ R.Fossier : Le Moyen age, vol 2, p180.

⁽²⁾ حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط (الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية).

الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1991. ص87-88.

⁽³⁾ ابن خلدون: مج 5، قسم 9، ص431-32.

- De Mas latrie: Relations et commerce, p13-4

⁽⁴⁾ ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس تحقيق محمد شمام، الرباط ط3، 1967، ص81-82.

السنة بالأندلس.⁽¹⁾ وقد جلبت هذه الفتنة الدمار و الخراب لمختلف أقاليم المغرب، وساعت أحوال البلاد الأمنية، وتدهورت الحياة بالمدن الواقعة على طرق التجارة الصحراوية، كسجلماسة و تيهرت وتلمسان.⁽²⁾ واضطربت بلاد المغرب بأسرها بالفتن، على حسب تعبير المؤرخ ابن خلدون : "... وأخذ العديد من زعماء القبائل في المغرب كل يحاول أن يؤسس لنفسه ملكا بحد سيفه ".⁽³⁾ فأسس بنو يعلى إمارة لهم في تلمسان،⁽⁴⁾ و استأثر بنو خزرون الزناتيون بطنابلس ونواحيها⁽⁵⁾، ثم أصاب دولة بني زيري نفسها الضعف والانحلال بحكم شقاقهم مع أولاد عمومتهم بني حماد، الذين استقلوا بالجزء الشرقي من بلاد المغرب الأوسط وبنو فيه قلعته، وقطعوا كل صلة لهم مع القيروان.⁽⁶⁾ و لم يكتفوا بذلك بل خلعوا طاعة الفاطميين وأعلنوا تبعيةهم للنوالة العباسية.⁽⁷⁾ فقتلهم تبعاً لذلك ملك الزيبيين بالمغرب، وانحصر في عاصمتهم القيروان ونواحيها. و يصور مؤرخ المغرب ابن خلدون بدقة مدى ما وصلت إليه مملكة بني زيري من الانحسار والتقلص نتيجة تلك الفتن والانقسامات، عند تولي الأمير تميم ابن المعز حكم البلاد سنة 453هـ - 1062م، فيقول: "... فلم يكن له إلا ما صمته أسور."⁽⁸⁾ أي إلا المهديّة، العاصمة الجديدة، المحاطة بالأسوار.

(1) ابن حيان: المقتبس في بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، نشر وتوزيع، دار الثقافة، ج 4، ص 27=32.

(2) م.لمبارد: الذهب الإسلامي من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي، من كتاب بحوث

في التاريخ الاقتصادي، ترجمة ونشر توفيق اسكندر، القاهرة، 1060، ص 63-64.

(3) ابن خلدون: ج 7، ص 44 وما بعدها.

(4) ابن الأثير: الكامل، مج 9، ص 152-153.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، تحقيق و مراجعة ج.س، كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط 3.

بيروت 1983، ص 274 و 277.

(6) ابن خلدون: ج 7، ص 46.

(7) ابن الأثير: ص 99، ص 521-522.. / الذهبي: كتاب نول الإسلام، ج 1، ص 259.

(8) ابن خلدون: مج 6 ص 328.

على أن أشد كارثة ابتلي بها حكام أقاليم المغرب على الإطلاق، و كانت سببا في تقويض دعائم حكمهم من غير أن يحسبوا لها حساب: هجرات القبائل العربية الهلالية باتجاه إفريقية وبلاد المغرب الأوسط مع منتصف القرن الحادي عشر، والتي أنزلت الخراب والدمار بالأوطان، بما لم تعرف البلاد متيلا لها بين الغزوات التي تألفت عليها منذ العهود القديمة، فبدلت من معالمها العمرانية وخلخت نظامها الاقتصادي... وإفريقية والمغرب لما جاز إليهما بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر اثرومي كنه عمرانيا، نشهد بذلك آثار العمران فيه من المعتم والمنازل البناء وشواهد القرى والمدن»⁽¹⁾

وكان سبب مجيء قبائل العرب البدوية هذه إلى بلاد المغرب مرتبطا بما جد من توتر في العلاقات بين الخليفة الفاطمي المستنصر والمعز بن باديس الزيري الصنهاجي، في مطلع الأربعينات من القرن الخامس الهجري، عندما أعلن الأمير الصنهاجي فجأة انفصال إفريقية عن الخلافة الشيعية بالقاهرة، وأظهر ولاءه للخلافة السنية ببغداد، ولما عجز الخليفة الفاطمي وقتها عن القيام بعمل عسكري حاسم لقمع الفتنة التي اجتاحت أقاليم المغرب وإرجاع العلاقة الشرعية بين القاهرة وولاية إفريقية إلى سابق عهدها، فقد اهتدى إلى حيلة ذكية بأن سلط على بلاد المغرب قبائل البدو الأعراب، من بني هلال و بني سليم، كسوط عذاب انتقاما من أولئك العصاة انماقين عن مذهبهم، فتقدمت القبائل المغيرتان إلى الأقاليم الغنية في ربوع المغرب تزرع الفساد والدمار، وتهلك الزرع والضرع كأنها جراد منتشر. "... فشنوا الغارات وقطعوا السبيل وفسدوا الزرع

(1) ابن خلدون: المقدمة، درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، II، 1996، ص 140.

والضرع، وقطعوا الثمار، وحاصروا المدن، إلى أن ضاق بالناس الأمر، وسأعت الأحوال، وانقطعت الأسفار ونزل البلاء بالديار".⁽¹⁾

لم يستطع الزيريون الصمود أمام جحافل الأعراب، فأجبروا على مغادرة عاصمتهم القيروان، ولادوا بالفرار إلى قلعتهم الساحلية المحصنة المهدية. كما عرف الحماديون في المغرب الأوسط بدورهم المصير نفسه مع جحافل الأعراب، حيث فر الناصر حماد بما تبقى من حاشيته إلى بجاية الحصينة، وترك عاصمته القديمة - القلعة - عرضة للنهب والتخريب على يد الهلالية،⁽²⁾ وانجر عن هذه الكوارث انهيار الأمن وانتظام بربروع إفريقية والمغرب، ولم يعد بالبلاد حكمه مركزيه نافذة تتولى ضبط الأمور والسهر على استتباب الأمن، مما أتاح الفرصة أمام بعض المغامرين للاستبداد بالحكم في نواحيهم، فتحولت بلاد المغرب إلى مجموعة من الإمارات الصغيرة شبيهة بدول الطوائف في الأندلس. "...وتغلب كل منهم على موضعه كما فعل ماوان، الحارثي بالأندلس".⁽³⁾

ب- الأوضاع في بلاد الأندلس وجزيرة صقلية:

ليس من المبالغة في شيء إذا قلنا إن الأوضاع التي سادت بلاد المغرب خلال القرن الحادي عشر الميلادي كان لها ما يشابهها بعض الشيء في ديار الأندلس، ذلك أن سلسلتي الأمويين التي كان عزيز الجانب حتى القرن العاشر، قد أخذت في الانهيار بسرعته

(1) ابن بسام لشتنبريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم 4، ج 7 - 8 تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000، ص 394.

-التحاني: الرحلة، تقدم حسن حسني عند الوهاب، الدار العرسية للكتاب، لسان، تونس 1981، ص 18.

(2) ابن الأثير: مع 10، ص 45-46.

(3) ابن عذاري: البيان، ج 2، ص 10 - المقري: نفع الطبيب، مع 1، ص 409.

عقب وفاة محمد بن أبي عامر المنصور،⁽¹⁾ فاضمحت السلطة السياسية من بعده، وعمت الفوضى أنحاء البلاد، واقتسم بلاد الأندلس الإسلامية عدد من الأمراء المغامرين والملوك الصغار، الذين شغفوا بحب السلطة والجري وراء متاع الدنيا الفانية، فأهملوا شؤون البحر، وركنوا إلى استتجار من يتولون القتال بدلهم، من المرتزقة والأرقاء. وفي هذا شهادة للعلامة الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب: «... فلما نمت الدولة العامرية وبقي الناس لا إمام لهم، ثار كل قائد بمدينة، وتحصن في حصنه، بعد تقديم النظر لنفسه، واتخاذ العساكر، وإدخاره الأموال، فتافسوا في الدنيا وطمع كل واحد في الآخر، و كذلك لا يصلح أمر بين نفسين فكيف سلاطين كثرة وأهواء مختلفة.»⁽²⁾ ولا يستثنى من ملوك الطوائف هؤلاء، الذين بنع عددهم ثلاثة وعشرين.⁽³⁾ إلا واحداً هو مجاهد بن يوسف العامري الذي جعل نفسه أميراً على دانية وبنى أسطولاً بحرياً قوياً استطاع أن يوسع به سلطانه، فاستولى على جزر البليار وضمها لأملاكه عام 405هـ - 1014م، كما غزا بأسطوله جزيرتي كورسيكا و سردينية و سواحل إيطاليا، وكاد أن يحتلها لولا تعاون أهل جنوه وبيزة بمساعدة من البابوية لصدّه و إبعاده عن المنطقة⁽⁴⁾.

وبموت مجاهد العامري اختفت تماماً البحرية الإسلامية في الأندلس، وظهر الضعف على الحياة السياسية والعسكرية بها. ومما زاد من حدة الضعف والانكسار الذي أمست عليه

⁽¹⁾ «... ودانت له أقطار الأندلس كلها، ولم يضطرب عليه شيء منها لعظم هيئته وحسن سياسته ودانت له هذه الحال بصعد وعشرين سنة إلى أن توفي سنة 393 هـ في طريق العرو.»

التويري: نهاية الأرب، مج 23، ص 405.

⁽²⁾ لسان الدين ابن الخطيب: تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق نيفي بروفنسال، ص 144.

⁽³⁾ وول نيورنت: قصة الحضارة، مج 13، 14، دار الجيل - بيروت، ص 290.

- محمد عبد الله عنان: دول الطوائف في الأندلس منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة التحافي ص 3، القاهرة، ص 172.

⁽⁴⁾ ابن الأثير: مج 9، ص 295. - التحميري: التروص ألعضار، ص 314.

- كيليليا سارنللي تشركوا: مجاهد العامري قائد الأسطول العربي غرب المتوسط في القرن الثامن

الهجري، ط 1، القاهرة 1961، ص 124 و 203.

الأندلس، نشوب النزاعات بين ملوك الطوائف أنفسهم، ولجوء بعضهم، من أجل ضمان مصالحهم الضيقة، إلى الاستنجاد بقوات مسيحية معادية للاستعانة بها في حروبهم ضد إخوانهم المسلمين، متجاهلين، في ذات الوقت، أن النصارى وحدهم هم الذين سيستفيدون من تناحرهم. وليس أبلغ تعبير على وصف حالة الأندلس عقب هذه انفتحة، وفيام دول الطوائف، ما قاله الأدفونش لسفير المعتمد بن عباد: "... كيف أترك قوما مجانيين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم، كالمعتضد والمعتد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع ضيماً ولا حيفاً، فقد اظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغالي والعيان، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سداً".⁽¹⁾

ولم يكن التمزق الذي وقع في الأندلس منذ أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، سياسياً فحسب، بل كان تمزقاً اجتماعياً أيضاً. بمعنى أن العناصر المختلفة التي يتألف من امتزاجها نسيج المجتمع الأندلسي، قد انفردت عقدها وتفككت وأصردا، وانقسمت إلى فئات وعناصر متناحرة: العرب، البربر، المولودون، والصقالبة، وغيرهم من الأقليات العرقية التي دب الخصام بينها عندما اندفعت كل فئة من تلك الفئات تقتطع لنفسها، بما أوتيت من قوة العدة والسلاح وأساليب المكر والخيانة، قرية أو مدينة تقيم عليها ما تعتقد إنه إمارة أو مملكة. "...وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها، من تاريخ ابتداء الفتنة سنة 400هـ، عدة توار تسوروا على البلاد، فضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقبوا بألقاب الخلفاء، وخطبوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستباحوا الفساق من الأرقاء، والصنائع

(1) عبادة كحيلة: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ط1، 1998، ص243.

الطلاق في محاربة بعضهم البعض... واستجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم انه أحق من صاحبه. (1)

ومن الطبيعي أن يشجع هذا الوضع الذي تردت فيه الأندلس الإسلامية القوى النصرانية المصنوية تحت نواء التبوية على انهوض والانقضاض على الممالك الأندلسية المتناحرة، فاستطاع ملك قشتالة الفونسو السادس (الأدفونش) أن يوسع ملكه على حساب الأراضي الإسلامية في الجنوب، ويسترجع مدينة طليطلة إلى حظيرة النصرانية سنة 1085م، (2) واتخذها، منذ ذلك الحين، دار ملكه، وعاصمة إسبانيا النصرانية، بعد أن حكمها المسلمون (2/ ذسنة) (3).

ولم يكتفي باسترداد طليطلة، قاعدة ملك الروم، وعاصمة القوط القديمة، بل واصل اندفاعه بحماس وإصرار كبيرين على ما تبقى من أملاك المسلمين في الأندلس. بعد أن خيل إليه أنه باستطاعته استخلاص كامل التراب الإسباني من أيدي المسلمين المتغافلين، فانطلق في حملة عسكرية واسعة صوب الجنوب حتى وصل إلى جريزه ضريف Farifa. قبالة العدو المغربية، واقتحم بحصانه في البحر في حركة استفزازية يفهم من ورائها أنه لن يكتفي باسترداد إسبانيا فحسب، بل في مشروعه توسيع أعماله الحربية للسيطره على بلاد المغرب أيضا. (4) كما أسهمت المدن الإيطالية في هذا العدوان عن طريق البحر، فقامت بتوجيه عدة غارات فرسنية على المدن الساحلية منها المريه وفالنسيه، و أجبرتيم على دفع إتاوات ضخمة لفدية نفسيهما من أعمال النهب و السلب. (5)

(1) أبو بكر العربي: كتاب شواهد الحجة، دراسة وتحقيق، محمد يعنى، المجلس الأعلى للدراسات

العلمية، مدريد، 1996، ص 300-301.

(2) -Ishaq Ibn ak Hasan Al Zayyat: El " Dikr Al AQALIM" -

مخطوط درسه وحققه Francisco Castello. P247

(3) أشباح يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج2، ص 69.

(4) F. Cardini : Europe et islam histoire d'un malentendu, Ed., le seuil. P202.

(5) R. Lopez : Aux origines du capitalisme Génois.(A.H.E.S).T9. 1037. p 445/457.

ولما كان على ملوك الطوائف الضعاف أن يختاروا بين الخضوع كرها لملك قشتالة القوي، أو هجرة الديار الأندلسية طوعا، فقد اهتموا إلى حل ثالث للخروج من المأزق وهو الاستجداء بأخوانهم في الدين بالعدوة المغربية. (1) وكان أمير اشبيلية المعتمد بن عباد، الذي اشتهر بالذكاء ورجاحة العقل، أول من شعر من ملوك الطوائف هؤلاء بأن أيام الأندلس صارت معدودة إن لم يعودوا إلى رشدهم، وقال مقاطعا رأي كل متردد، عندما عرض عليه أمر الاختيار بين الخضوع لفردناند القشتالي أو التحالف مع ابن تاشفين اللمطوني : " أني إن أسندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن أسندت إلى فردناند أسخطت الله. " (2) "...وأنه أفضل لي أن أكون راعي جمال بالصحراء من أن أكون راعي خنازير بقشتالة..." (3).

ومن دون تردد لبى يوسف بن تاشفين، الذي كان قد فرغ للتو من تأسيس الدولة المرابطية على ربوع المغرب الأقصى ، نداء الواجب للدفاع عن الملة وحماية إخوته في العقيدة، فأعد جيشا كبيرا من البربر، وعبر مضيق جبل طارق ، وأمكنه التحل في ظرف قصير من وقف هجمات الملك القشتالي الفونسو، وإلحاق الهزيمة به في موقعة الزلاقة الشهيرة بموضع من أحواز بطليوس Sagrajas سنة 1086م (4). ثم عمد يوسف بن

(1) "... وعند ذهاب شوكة المسلمين وانكشف للنصارى ضعفهم، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين طنبوا المعازل وأخذوا بالتحرب كثيرا منها، من غير مؤونة ولا منقعة، ثم نجا أنباقي من التمسكين إلى المرابطيين واستصرخوهم، فلباهم أمير المسلمين... للمزيد راجع: - أبو بكر العربي: المصدر السابق، ص 301. - انظر كذلك: ابن بادم: الأخيرة، قسم، 1 و 2، ص 716 .

فإذا أراد الله نصر الدين *** استصرخ الناس ابن تاشفين

(2) الحميري: انروض المعطار في خبر الإفطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1980، ص 288.

(3) - لسان الدين ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 248-9

(4) - عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 116-19

تاشفين، بعد هذا النصر الباهر، إلى افتتاح السلطنة من أيدي أمراء الطوائف، وعمل على توحيد البلاد وإخضاعها لنفوذه، وأيده على هذا العمل وقوف عدد كبير من الفقهاء وعامة الناس إلى جانبه واعتبروه رسولا منقادا سيرته العناية الإلهية إليهم. ⁽¹⁾ فسارت البلاد طائعة مختارة للإدعان لسيدها الجديد. الأمير يوسف بن تاشفين، الذي صار يحكم مملكة مترامية الأطراف تمتد من حدود بلاد الإفرنج شمالا إلى أقصى حدود الصحراء الكبرى جنوبا. ...² وكان ملكه من مدينة أفراغ أول بلاد الإفرنج قاصية شرق بلاد الأندلس إلى آخر عمل شنترين والأشبونة على البحر المحيط من بلاد غرب الأندلس وذلك مسيرة ثلاثة وتلاتين يوما طولا، وفي العرض ما يقرب من ذلك، وملك المغرب في بلاد انعدوة من جزائر بني مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبل الذهب من بلاد السودان. ⁽²⁾

أما الأوضاع بجزيرة صقلية التي تقع على الضفة المقابلة للمهدية، فلم تكن على أحسن ما يرام هي الأخرى، فبعد أن ظلت هذه الجزيرة، لمدة طويلة، حصن الإسلام المنيع في وسط البحر المتوسط، أخذت تفقد قوتها وأهميتها الدفاعية، وابتليت مثل جيرانها بالمغرب والأندلس بالمشاكل الداخلية من جراء سلوك التتافر وانصراف بين المغرب والبربر. ولقد زار الجزيرة الجغرافي ابن حوقل وهي في هذه الظروف الحالكة، ووصف ما بين أهلها من النزاع والنفور والتباغض وصفا يدعو إلى العجب، ويدل على أن الخلاف بين المسلمين لم يصل في بلد من البلاد إلى مثل ما وصل إليه الحال في صقلية،

(1) - ابن بسام: الخيرة، قسم 1 ص 716.

(2) - ابن أبي زرع: الأليس المطرب، ج II، تحقيق محمد الهاشمي الفيثي، الرباط، 1936 ص 77.

إلى درجة، حسب شهادة الرحالة نفسه "...أن الابن كان ينافي أباه ويرفض الصلاة معه في مسجد واحد.... فكان لكل قادر منهم مسجد جامع و إمام" (1).

هذه الصورة القائمة تفسر، بالطبع، سبب إخفاق أهل الجزيرة، وهم على هذا انحال، في التصدي لخطر عساكر النورماند الذي بدأ يستفحل ويتقوى منذ أن استقر بهم المقام في جنوب إيطاليا سنة 452هـ - 1060م (2). إذ من معاقلم الأولى هذه انطلق قائدهم المغوار روبرت جويسكار يؤازره أخوه روجار، في مغامرات جريئة استحققت ثناء البابوية وتشجيعها، يذكان حصون صقلية لانتراعها من أيدي المسلمين، وكان البابا جريجوريوس السابع (1073-1085م) - الشيطان المقدس كما يلقب عادة - قد وعدهم بإقرار ملكهم على الجزيرة إن تم استطاعوا انتزاعها من المسلمين، الكفرة العجزة، على حسب وصفه لهم. (3) وبالفعل ففي ظرف أقل من 30 سنة، من انطلاق جنود النورماند المغامرين في تنفيذ مشروع البابوية، أمكنهم الحال من افتكاك الجزيرة من أيدي المسلمين بسهولة ويسر سنة 484هـ - 1090م. "... فلم يلقوا من يدفعهم، واستولوا على ما مروا به في طريقهم. " (4) "... ومازال الطاغية روجار يفتتحها قطرا قطرا ، ويأخذها كفرا كفرا إلى أن استولى عليها جميعها، وذلك في مدة ثلاثين عاما " (5).

وكان لهذا النصر غير المنتظر الذي تحقق على يد النورماند في جنوب إيطاليا وصقلية فاتحة عهد جديد أمام مسيحيي أوربا الغربية قاطبة لإعلان الجهاد المضاد

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص156

(2) Delarc : Histoire des normands en Italie depuis les premiers Invasions jusqu' à L'avènement de Gregoire VII, vol1, Paris 1833.p116

- Haskins, C.H: The Norman in European history. Boston, 1962. p109.

(3) Amari, M : Storia di musulmani di Sicilia. T3, 1972. p235.

(4) ابن الأثير: معج 10، ص197.

(5) الحميري: الروض المعطار. ص367.

- ابن الوردي: تنمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، ج II، المطبعة

الخيرية 1969 ص7.

Contre djihad على الإسلام والمسلمين بهدف استرجاع مجد الإمبراطورية الرومانية وممتلكاتها على الضفة الشرقية و الجنوبية للمتوسط.

ج- أوضاع الغرب اللاتيني:

تميزت الفترة التي تمتد من أوائل القرن الخامس الميلادي حتى أوائل القرن التاسع بالغزو الذي تعرضت له أوروبا الغربية وعالم البحر الأبيض المتوسط من قبل مختلف الأقوام الرحل، والشعوب البدائية، وهي شعوب المغول والجرمان، ولقد ترتب على هذا الاجتياح الكاسح أن خيم الظلام بشكل كامل على بلاد أوروبا الغربية، و تردت الأوضاع بها، وعمت الفوضى ربوعها، وتراجعت المدينة فيها إلى أدنى مستوياتها. وهو ما ظهرت نتيجته، بشكل واضح، في التحول الذي طرأ على الحكومة والمجتمع الأوروبي، حيث انهار نظام الدولة الإمبراطورية، وتصدعت وحدتها السياسية فيما أخذت مدنية جديدة في النمو على أنقاض المدنية الرومانية القديمة، تلك هي مدنية العصور الوسطى التي تقوم دعائمها الأساسية على النظام الإقطاعي Feudal system . وهو نظام بدائي يقوم على زراعة الأرض، ويتكفل بحاجات الناس البسيطة، وليس لتبادل السلع فيه إلا مركز ثانوي. وإذا أردنا أن نتعمق في فهم طبيعة هذا النظام في ذلك الزمن لا يمكننا أن نطلق عليه بحق اسم نظام الاقتصاد المغلق أو اقتصاد الاكتفاء الذاتي⁽¹⁾.

ومن الثابت أن الطابع الزراعي للاقتصاد الأوروبي في ظل هذا النظام الإقطاعي الجديد، ظل قائما لفترة طويلة، أما النشاط التجاري فقد تراجع بشكل كبير، واقتصار على المبادلات المحلية الضيقة، كما غلب عليه، على نطاق واسع، نظام المقايضة (troc) ، أي

(1) ج كوتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، مترجم ، طبعة الإسكندرية

استبدال سلعة بأخرى، وغالبا ما كانت السلع المتبادلة مما توفره الأرض و محيطها⁽¹⁾. وربما ساعد على انحطاط التجارة، خلال تلك الفترة، موقف الكنيسة نفسها التي ظلت تنتظر إلى الكسب التجاري على أنه عمل غير حلال. وأن الأرض هي وحدها المورد الطيب الذي يجب أن يعيش عليه الإنسان.⁽²⁾

ولما كان من غير الممكن أن نتصور الظواهر الاقتصادية بمعزل عن الأحداث السياسية، لذلك كان من الصعب عودة النشاط التجاري إلى أوروبا قبل انطلاق الحركة الصليبية مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، ذلك لأن القارة الأوروبية قد تعرضت، قبل هذه الفترة، لسلسلة من الغزوات والاعتداءات المسلحة سدت عليها كل السبل و المنافذ للتواصل مع العالم الخارجي.

فمن جهة الجنوب استطاع المسلمون الفاتحون إحكام سيطرتهم على كل مياه الحوض الغربي للمتوسط وجزره، ثم تقدموا إلى أبعد من ذلك فانترعوا التخوم الجنوبية لأوروبا، واتخذوا شعورها وخلقائها الصالحة للملاحة قواعد لأساطيلهم للإغارة منها على أنقواع الداخلية للمسيحية، فكان من نتيجة هذا الوضع أن حرموا على أوروبا الاتصال بأهم طريق للتجارة مع العالم الخارجي، وهو طريق البحر الأبيض المتوسط⁽³⁾.

وفي الوقت الذي وصل فيه نشاط المسلمين البحري إلى ذروته في الحوض الغربي للمتوسط، تعرضت حنود أوروبا الشرقية إلى اجتياح آخر مدمر، كان وراءه شعوب البلغار والصقالبة، ترتبت آثاره الوخيمة في انقطاع الطريق التجاري البري الذي يصل أورب بقرارة أسب⁽⁴⁾.

(1) هـ. موسى: ميلاد العصور الوسطى، مترجم ص 382.

(2) H. Pirenne : histoire de l'Europe, Vol VIII., P 153.

- T. Goff : Marchand et banquiers du moyen-âge, p77.

(3) M.Canard : L'expansion Arabe... p59-60

-G. Duby: Guerriers et paysans VII – XIIs, p130-1

(4) Ph. Contamine : l'économie médiévale, p137-138.

أما من جهة الشمال، فقد انحدرت في نفس الفترة أقوام من الغزاة أخذت تطرق أبواب غاله وبريطانيا، مدفوعين إلى ذلك بعوامل عديدة من ذلك مثلا: الضغط الذي تعرضت له البلدان المسيحية من جهة الشرق، وازدياد الكثافة السكانية في شبه الجزيرة الاسكندنافية، الأمر الذي دفع بهؤلاء الغزاة، الذين اصططح الغرب على تسميتهم باسم النورماند Normanus، أي سكان الشمال، أن يندفعوا من مواقعهم بالأراضي الاسكندنافية الباردة صوب الجنوب بحثا عن أراضي جديدة صالحة تكفل لهم العيش بسلام. وتضمن لهم الاستقرار والثروة. ⁽¹⁾. وفي طريقهم إلى المغامرة الخارجية توقفت جماعة منهم واحتلوا أجزاء من بلجيكا وشمال فرنسا وسواحل إنجلترا ⁽²⁾. فيما اتجهت جماعة أخرى إلى إسبانيا، ومنها توغلت صوب الجنوب إلى مياه المتوسط، واستقر بهم المطاف أخيرا، بعد رحلة شاقة، في جنوب إيطاليا ⁽³⁾، ومن مواقعهم الجديدة هذه، راحت تلك القبائل المحاربة تتازع المسلمين للسيطرة على جزيرة صقلية، وأمكنها الحال، بتأييد ومساعدة من البابوية في روما، من طرد المسلمين منها والآنفراد بها سنة 484هـ- 1090م ⁽⁴⁾. ومنذ ذلك الوقت بات من المؤكد أن نجاح النورماند في الاستيلاء على جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا قد حقق أعظم النتائج لصالح الأمم المسيحية الأوروبية، من حيث أنه فتح المجال أمامها واسعا للوصول إلى مياه البحر المتوسط، ومن ثمة العودة مرة ثانية إلى النشاط التجاري عبر طريق البحر الأبيض المتوسط الحيوي.

⁽¹⁾ Douglas, D.C : the Norman achievement 1050-110, London, 1963.p35-36

⁽²⁾ G.Duby : Le moyen age .Histoire de France de Hugues Capet à Jeanne d'arc (987-1460). Ed Hachette. 1987. p198-199

⁽³⁾ Ph. Contamine : La guerre au moyen-age . Ed nouvelle Clio, puf. 1980 p 143

- J.M. Martin : L'Italie Normandes. p34.

- Christopher Kleinhenz : Medieval Italy in Encyclopaedia, vol 1. N. York, and London, 2004. p166.

⁽⁴⁾ Jehel,G: La Méditerranée médiévale de 350 à 1450. Ed,Armand Colin. Paris 1992. p 57-8

وهكذا فبعد أن توقفت المدنية بالغرب الأوروبي ردها من زمن. بسبب تلك الحروب والاضطرابات وأعمال السلب التي رافقت غزوات تلك الشعوب المهاجرة، لم تلبث أن استأنفت سيرها بخطوات ونيدة ابتداء من القرن العاشر الميلادي على وجه التحديد ، عندما بدأ الاقتصاد يعود إلى نصابه، والسلام إلى محرابه. وكان الفضل في توجيه المجتمع الأوروبي نحو هذا الاتجاه يعود، بالدرجة الأولى، إلى المؤسسة الدينية، ممثلة في بابوية روما، التي نجحت، بعد جهود مضنية، في إيجاد صيغة عملية لمنع الحروب بين أمراء الإقطاعية، وفرض ثقافة الأمن والسلام بين مسيحيي أوروبا، من خلال " سلام الرب" ⁽¹⁾ *Paix de Dieu*، حيث بات من المحرم قطعاً على الأمة المسيحية، وفق هذه النصوص الدينية التي وضعت لتمرير مشروع سلام الرب، شن الحرب بين أتباع العقيدة المسيحية أو مهاجمة رجال الدين والحجاج والتجار والفلاحين والنساء والمسنين وممتلكاتهم من الثيران والبغال، ومستلزمات الزراعة عموماً. وبعبارة أخرى كان سلام الرب يحمي أغلب العناصر السكانية في المجتمع المسيحي من التعرض لهجوم المتحاربين. ⁽²⁾

ومع عودة الأمن والاستقرار إلى ربوع أوروبا، استقامت الحياة داخل الضيعة الإقطاعية، وشرعت فئات التجار المتنقلون وجماعة الأحرار المعدمون يتوافدون على القلاع والمدن الإقطاعية يبحثون عن فرص للعيش وممارسة أعمالهم الحرة المرتبطة بالتجارة والحرف ⁽³⁾، واستأنف أمراء الإقطاع، من جهتهم، من هذه الحركة الاقتصادية الناشئة، لما صارت تشكل من مصدر ثمين على حياة المدينة وتطورها. لذلك أقبلوا

⁽¹⁾ R.Fossier : Le moyen age, vol 2, p93.

⁽²⁾ G.Duby : Le moyen-age , histoire de France de Hugues à Jeanne d'arc (987-1460)..p150 -1

⁽³⁾ J. Wolff : histoire économique de L'Europe 1000-2000, Ed Economica, 1994, p 38-39

F.Gouret : Histoire de L'économie Européenne. Ed Albin Michel, 2000. p 34-49.

يلتزمون الوسائل المادية والقانونية لتوفير الحاجيات اللازمة لهذه الفئات المهاجرة التي أصبحت تشكل جزءا مكملا لنسيج مجتمع المدينة الجديد، بأن سمحت لهم، في البداية، بالإقامة والعمل بجوار حصونهم وقلاعهم، نظرا للفائدة التي تعود على سادة المدن من وراء فرص الضرائب والإتاوات على أعمال التجار والحرفيين، كما انهموا ببسط أنس عبر الطرقات البرية والمائية، وأقبلوا على تشييد الجسور وإقامة الأسواق لجلب المزيد من التجار والسلع والأعمال. وكانت أكثر الإغراءات التي كان بإمكانهم تقديمها لهؤلاء النازحين المغامرين هي منحهم مزيدا من الحريات Les chartes de Franchises حتى قيل وقتها: هواء المدينة يصنع رجالا أحرار. ⁽¹⁾ L'air de la ville rend libre وأمام تضاعف عدد السكان الأحرار داخل القلاع والحصون، اتسع محيطها، وتعددت أنشطتها الاقتصادية حتى أضحت مراكز حضرية ضخمة Urbain centre تعج بالحركة والنشاط. ثم تطلب الأمر، نتيجة هذه التطورات الجديدة التي عرفتها المدينة، أن نهضت طبقة التجار والحرفيين الأحرار، التي أضحت تمثل طبقة مميزة تعرف بالبورجوازية Bourgeoisie تطالب بمزيد من الحقوق والحريات لضمان ممارسة أعمالها في كنف الأمن والاطمئنان. ⁽²⁾ كما سعت، في ذات الوقت، سواء بالنضال والثورة، كما حدث في بعض المدن، أو عن طريق الشراء بالمال، كما جرى في جهات أخرى، لننحون كطرف شريك في إدارة شؤون المدينة ⁽³⁾، واتساهمة في صياغة القوانين والداستير التي تحدد حقوق وواجبات كل فئة وطبقة داخل المدينة، فيما صار يعرف، منذ ذلك العهد، بنظام القومون La Commune، التي صار لها الأولوية على إدارة شؤون

⁽¹⁾ A. Brunet : La civilisation occidentale. P53.

- Goff.J : article «ville» dans dictionnaire raisonné de l'occident Médiéval. Paris. 1999. p 1183-1200.

⁽²⁾ Cambridge, Médiéval history, vol 5. Cambridge University press.1932. p 208-209.

⁽³⁾ Y. Reuouard : les Villes d'Italie de la fin de X^e S au début du XIV S. tome 1, Ed (S.E.D.E.S), Paris 1969, P 34-35..

- J.P Delumeau. L'Italie au moyen age V- XV^e., P 88-90.

المدينة. ولدينا أمثلة واضحة عما بلغته بعض المدن الأوروبية من تطورات سياسية واقتصادية، ما حدث في إيطاليا حيث تأسست مدن عملاقة، مثل البندقية، وجنوة، وبيزّة، وفلورنسا التي حققت تطورا وازدهارا كبيرين بفضل نشاطها في ميدان الصناعة والتجارة مع العالم الخارجي إلى أن وصل بها الأمر. في ظل غياب الدولة المركزية الأم. إلى إعلان نفسها جمهوريات مستقلة⁽¹⁾ Cites Républiques أخذت تتسابق لإقامة الحصون وتنظيم الجيوش، وبناء الأساطيل، وضرب النقود. وإقامة الأحلاف والعلاقات الدولية مع العالم الخارجي باسمها الخاص. ثم دخلت معترك المنافسة والحروب لتوسيع حدودها واحتكار السلع والأسواق وإنشاء المستعمرات وغيرها.⁽²⁾

صحيح أنه لم تعد أوروبا إلى وحدتها القديمة، كما كان الشأن على سيد الإمبراطورية الرومانية، ولكنها بدأت تعرف ميلاد نهضة اقتصادية سرعان ما أخذت معالمها تتضح أكثر فأكثر، منذ منتصف القرن الحادي عشر للميلاد، عندما أخذت حركة التجارة والصناعة تعود تدريجيا إلى شئ من النشاط، بعد الفتور الذي لزمها لعدة قرون ؛ تم ما لبثت بعض المدن الرومانية القديمة أن بدأت تعرف نهضة بطيئة مودنة بنمو الحريات المدنية، وتستعيد جزءا من ماضي عظمتها وثروتها، ونتج عن هذا التطور انتظام التجار والصناع في المدن داخل نقابات وطوائف مهنية، سرعان ما عكفت على المطالبة بشروط تضمن لهم حرية النشاط والاستثمار، وأدت، في نهاية المطاف، إلى تشكيل طبقة اجتماعية وسطى مستقلة. وبمرور الوقت وجدت حالة من السلام والاستقرار مكنت التجار من مباشرة نشاطهم، وتكثيف الصلات الودية مع مراكز الحضارة الإسلامية

(1) Y. Renouard: op cit, p 125-126 & 233-235 & 172.174.

- The Cambridge economic history of Europe, Vol III, Economies organization and policies in the middle ages. Cambridge university press, 1965. p 222-223.

(2) Y. Renouard : Le rôle des hommes d'affaires italiens au moyen age (Revue de la méditerranée) N02, T15,p 122-1214

في بلاد الأندلس وشمال إفريقيا، ثم جاءت أخيرا الحروب الصليبية لتضيف عاملا قويا في مضاعفة النشاط التجاري بين أوروبا والعالم الإسلامي.

وكانت المدن البحرية الإيطالية، وعلى رأسها البندقية وجنوه، بوجه خاص، المستفيد الأول من هذا التحول الإيجابي الذي غمر مناحي الحياة في أوروبا حيث لعبت المدينتان، بلا منازع، دور الوسيط التجاري بين أوروبا والعالم الإسلامي لفترة تقارب خمسة قرون. ⁽¹⁾

⁽¹⁾ - A.E. Sayous : " les transformations des méthodes commerciale dans L'Italie Médiévale" (A.H.E.S). 1929. P 161-176.

الفصل الثاني

* جنوة أهمية موقعها، تاريخ نشأتها، وعوامل نهضتها السياسية والاقتصادية.

(1) - أهمية موقع مدينة جنوة وتاريخ نشأتها

أ- أهمية موقع جنوة.

ب- الظروف التاريخية منذ نشأة المدينة إلى القرن 10م.

(2) - تطور النظم السياسية بمدينة جنوة وأثره على انتعاش الحياة بها.

أ- نشأة نظام القومون. La Commune

ب- ظهور الاتحادات المهنية ودورها في ترقية وتدعيم السلطة السياسية بالمدينة

(3) - نشاط رجال الأعمال الجنوبية وأثره على نهضة القومونة وازدهارها.

أ- مساهمة الجنوبية في الحروب الصليبية

ب- مشاركة الجنوبية في الحركة التجارية بين أوروبا والمشرق.

(4) - صلات جنوة مع الإمبراطورية البيزنطية وأثره في ازدهار النشاط

الاقتصادي بالمدينة.

أ- ظروف انتشار النفوذ الجنوبي بالموانئ والأسواق البيزنطية.

ب- مستعمرات الجنوبية في القسطنطينية والبحر الأسود

(5) - حروب جنوة ضد منافسيها على تجارة البحر المتوسط.

أ- حروبها ضد جمهورية بيزة.

ب- حروبها ضد جمهورية البندقية

1- أهمية موقع مدينة جنوة وتاريخ نشأتها.

أ- أهمية موقع جنوة

تأتي أهمية موقع مدينة جنوة Genua⁽¹⁾ ، في الأصل، من موقع شبه الجزيرة الإيطالية في حد ذاته. فإيطاليا تقع في وسط جنوب القارة الأوروبية، وهي تشكل شريطاً برياً يمتد على مسافة كبيرة إلى داخل مياه البحر الأبيض المتوسط. بحيث تقسم حوض المتوسط إلى شطرين متساويين تقريباً، مما أعطاها مكانة ذات ميزة لا تضاهي. فهي تمثل، بموقعها هذا، الوسط الأكثر ملاءمة لكل النشاط التجاري، والعلاقات بين أقطار عالم البحر المتوسط؛ بل بين كل أقطار المعمورة كلها، على اعتبار أن التجارة العالمية، منذ انعهود القديمة، وحتى نهاية العصور الوسطى، لم تخرج عن إطار حوض المتوسط. كل الطرق تؤدي إلى روما". صورة واضحة للصلات التي كانت تربط روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية بالعالم الخارجي، و ليس من المبالغة في شيء، إذا قلنا إن روما هي التي خلقت هذا العالم المتوسطي بفعل احتلالها له، انطلاقاً من موقعها المنفرد الذي ينوسط حوض البحر ائمتوسط. هذا ائبهر ائذي يعد أكبر ضريق لتتواصل ائتجاري والحضاري بين شعوب قارات العالم القديم، على الإطلاق.

و المدقق في خريطة إيطاليا على الأطلس الجغرافي يلاحظ مدى تفرد موقعها بميزات كثيرة، فهي تلتحم من جهة الشمال مع القارة الأوروبية بشريط بري، يتكون من أراضي سهلية منبسطة، تمتد من الشرق إلى الغرب، نقطعها وديان صالحة للملاحة، بحيث وفرت هذه المنطقة، التي تعرف بـ "Lombardia"، منذ القديم لسكانها

(1) - جنوة، هو الاسم اللاتيني القديم، أما حديثاً فصارت تعرف باللغة الإيطالية Genova للمزيد.

Dictionnaire General de Biographie et Histoire. 6 Ed, Paris 1873.

Virginia, W.J : Genoa the superb, the city of Columbus, Boston,

USA,1892,P.109-10

كل الظروف، والموارد الملائمة للاستقرار والنشاط، وجعلت منها، على مر العصور منطقة عبور، و جسر يربط سكان جنوب القارة الأوروبية مع وسطها وشمالها. أما القسم الثاني، الذي يشكل شريطاً ضيقاً يمتد على مسافة طويلة إلى داخل مياه البحر الأبيض المتوسط، كأنه يريد أن يفصل عن القارة الأوروبية ليقترّب أكثر من القارة الإفريقية⁽¹⁾. فيتميز بانعدام الأراضي المنبسطة، وانتشار سلاسل جبلية في شكل كتل ضخمة متقطعة تمتد من الشمال إلى الجنوب، بمحاذاة الساحل الغربي، وهي تلامس، في أكثر من موضع مياه البحر، إلى درجة لم يعد من السهل إيجاد السبيل للتواصل بين أجزاء الشريط الساحلي، إلا عن طريق مياه البحر.

و عند نقطة التقاء القسم الشمالي للبر الإيطالي مع القسم الجنوبي منه، عند رأس خليج ساحل " ليجوريا Liguria " المطل على البحر التيراني Mer Tyranienne تقع مدينة جنوة الرائعة " Genoa the Superb " كما يسميها محبوبه⁽²⁾. عند بقعة ضيقة من الأرض، فوق سفح ربوة صغيره نض عنى حنيج ينمير بمياه مرتفعة تساعد على الرسو والإبحار. وربما يكون اسم " جنوة Genua " نفسه قد اشتق من طبيعة المكان الذي تأسست عليه المدينة الذي يعني، في اللغة اللاتينية، الممر أو المصبب le débouché. بمعنى الممر الذي يفتح على البحر. فعلى طول ساحل الخليج الذي يمتد من مونكو إني سبازيا، ترتفع سلسلة جبال l'Apennin بحيث لا تنزلت بينها

(1) أعتاد نابليون بونابرت تسمية الجزء الشمالي من إيطاليا باسم « إيطاليا القارية Italie continentale » أما القسم

الجنوبي منها فيطلق عليه اسم « إيطاليا شبه الجزيرة l'Italie presque ile ». راجع

- H Leo : Histoire d'Italie, pendant le moyen age, Tome I, paris 1837, P1.

2)- Virginia, J : Genoa the superb, p62.

- كما أشار من جهته القلقشندي إلى أهمية موقع جنوة، فكتب يصور ذلك الموقع: "... وقاعتها بلاد جنوة الواقعة على

خليج كبير، يسمى سكانها "الجنوية" وهم صانعة مشهورة من الفرنج،، تتميز:

- صبح العشى، ج5، ص 405



ساحل ليجوريا (المجال الجغرافي لقومونة جنوة)

وبين مياه البحر سوى ممرا ضيقا لا يتعدى مئات الأقدام⁽¹⁾. ومن الطبيعي أن انحصار الأرض المنبسطة بهذه المنطقة، ووجود مثل هذه التضاريس الوعرة، قد صعب من مهمة السكان للاستغلال بالزراعة، وتربية المواشي، الشيء الذي جعلهم منذ العهود الأولى، يندفعون مجبرين إلى البحر، حتى قيل وقتها : " أنه لو انعدم البحر في هذه الربوع لكان سكان جنوة من أكثر أهل الأرض فقرا على الإطلاق"⁽²⁾. فوعورة الطبيعة في هذه الربوع وقسوتها هي التي دفعت السكان إلى الاشتغال بالبحر. لذلك لم يكن من المدهش أن يشتهر الجنوبيون في أوروبا، على مر العصور، كبحارة ماهرين. فالبحر يقدم دائما الاستقبال لشعب تنقصه الأرض.

ب - الظروف التاريخية منذ نشأة المدينة إلى القرن 10م.

أما عن تاريخ نشأة المدينة و تطورها عبر العصور فالروايات تشير إلى أن بداية تمركز السكان بها، حسب ما كشفت عنه الحفريات، يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. فقد عثر على مجموعة من القبور مختلفة الأشكال والأحجام، توحى باحتمال وجود تعايش مجموعات عرقية بها منهم: الأتروسك Etrusques، والليجوريين liguriens والإغريق Grecs⁽³⁾. وعندما قامت الجمهورية في روما (509-27 ق م) ودخل الرومان في حروب ضد جيرانهم في الشمال والجنوب⁽⁴⁾. وبدأ يتشكل الحلف الروماني، إنظم سكان جنوة -شأنهم شأن سكان البر الإيطالي- إلى الحلف الروماني⁽⁵⁾، وأضحت المدينة، منذ

(1) Ch.Klenhenz: Medieval Italy in Encyclopedia. Vol. I. N. York & London, 2004, p399.

(2) H.Leo: op.cit, p9.

(3) R.B.Bandinelli : les étrusques et l'Italie avant Rome, (paris) 1973. p58-63.

(4) A.Piganiol : la conquête romaine, paris 1995, p.75-6.

-Y. le Bohec : Histoire Romaine .textes et documents, 1^eEed.PUF, paris, 1997
P42-43 & 52-60

(5) R.S.lopez : « Aux origines du capitalisme Génois » in (Ann.d'hist.Econom et social) op.cit, p429.

تلك الفترة، مركزاً أمامياً لانطلاق الجيوش الرومانية في حروبها خارج حدود إيطاليا، كما أخذت الحياة بالمدينة، تبعاً لذلك، تصطبغ بالصيغة الرومانية. فانتشرت اللغة اللاتينية بين أهالي المدينة، وأخذت الثقافة اللاتينية هي الأخرى، تنغرس، شيئاً فشيئاً، في مختلف مناحي الحياة، ومنذ ذلك الوقت، سارت المدينة بخضى وطيعة في طريق النمو والازدهار⁽¹⁾.

و مع دخول الديانة المسيحية إلى روما على يد الحواريين، وتواصل انتشارها ببطء بين سكان الإمبراطورية، شهدت مدينة جنوة ميلاد أول تجمع ديني مسيحي، خلال القرن الثالث الميلادي، تحت إشراف القساوسة⁽²⁾. ثم سرعان ما استقرت الحياة الدينية بها بشكل منتظم على يد القديس "سان سيرو" San Siro حوالي سنة 360م، ومنذ ذلك الوقت أصبحت المدينة تتخذ من هذا القديس شفيعاً وحامياً لها⁽³⁾.

و نظراً لموقع مدينة جنوة، على الطريق الروماني القديم، "Via Aurlia" لذي يربط وسط شبه الجزيرة الإيطالية بالقارة الأوربية عبر الساحل⁽⁴⁾، فقد جلب لها هذا الموقع، على امتداد فترة العصور الوسطى المبكرة، متاعب كثيرة، حيث تعرضت المدينة لغزوات الشعوب البربرية التي استهدفت، في أكثر من مرة، روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية ومقر البابوية الكاثوليكية، ففي السنوات الأخيرة من القرن الخامس (488 - 496م) تعرضت جنوة لهجمات جنود تيودوريك، قائد عشائر الأستروغوث ostrogoth عندما كان في طريقه لغزو روما، و خضعت جنوة، على إثر ذلك، رشحاً من زمن، لنفوذ هذا الملك الذي أمكنه الحال من تأسيس مملكة جرمانية بإيطاليا عاصمتها رافنا Ravenna

⁽¹⁾ Lopez.R.S : op cit, p.430.

⁽²⁾ Leo.H: op.cit,p9-10

⁽³⁾ To de negri: storia di génova., p39.

⁽⁴⁾ Ch.Klenzenhz : opcit,p399.

(1)، قبل أن يتمكن البيزنطيون من إنهاء مملكته بعد عمر قصير من إنشائها (539م)
(2).

ولما كان من الصعب، أن يتخلى البيزنطيون عن إيطاليا لأن الإمبراطورية الرومانية من دون روما، المدينة الخالدة، تعدو أمرا لا يصدق. على اعتبار، حسب قناعة أباطرة القسطنطينية، أن الإمبراطورية البيزنطية هي امتداد طبيعي وتاريخي لإمبراطورية روما. لهذا عمد إمبراطور القسطنطينية القوي جيستيان، إلى بذل الكثير من الجهد والمال في سبيل تحرير إيطاليا من سيطرة البرابرة وإعادتها إلى حضن الإمبراطورية⁽¹⁾. ولقد رحب سكان المدن الإيطالية، في البداية، بالجيوش البيزنطية، وساعدوها بالتزاد والتمون، كما حيوا الإمبراطور جيستيان، وشكروا حسن صنيعة، وعظموا شأنه كمحرر ومنقذ لهم من سيطرة البرابرة⁽²⁾.

غير أن الحملات العسكرية التي بعثت بها بيزنطة إلى إيطاليا لتحريرها من نير البرابرة، لم تحقق على ما يبدو، هدفها الرئيس من دون أن تجلب النمار والخراب على المدن الإيطالية. فلقد لحق الخراب والانهيار مدينة جنوة من جراء هذه الحرب، ونعطلت المرافق والأشغال بها. وعمت الفوضى ربوعها، وانحدرت الحياة فيها إلى الحضيض. بعد أن قضى على العديد من النخب بين صفوف الأرستقراطية، وتلاشت روابط التواصل بين

⁽¹⁾ N.Ecantor : Medieval history, the life and death of a civilization, vol.I, New York, 1969, p156.

⁽²⁾ R.Fossier: le moyen- age, vol. 1. les mondes nouveaux 350-950, Ed. Armand colin, paris 1982, p83-4.

⁽³⁾ L.Bréhier : Vie et mort de Byzance..., p28-9.

-H.Pirenne : histoire de l'Europe des invasions au XVI siècle, Paris 1936, p17.

⁽⁴⁾ E.Ilot: les invasions germaniques, paris 1945-p420.

-هـ.سانت موسى: ميلاد العصور الوسطى، مترجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

1998، ص 80-179

فئات المجتمع، وشعر أهالي جنوة بالإهانة لما أصابهم من ويلات الدهر، وامتلات قلوبهم حقدا وضغينة على البيزنطيين، الذين لم يكن لهم من هم سوى استثمار انتصاراتهم إلى أقصى حد لتدعيم وجودهم بإيطاليا. لذلك رفض سكان جنوة التعامل معهم والانصياع لأوامر حكامهم. بل ذهب بهم التدمير من البيزنطيين إلى حد التصرف في السعي لإيجاد السبيل إلى التملص من سيطرتهم⁽¹⁾.

ثم لم يمض وقت طويل حتى اجتازت قبائل اللمبارد، وهم شعب من شعوب الجرمان، كذلك، جبال الألب وانقضوا على شمال إيطاليا، وأخضعوا المدينة لسيطرتهم. بعد أن ازاحوا عنها كابوس البيزنطيين⁽²⁾. ومنذ ذلك الوقت، غدت مدينة جنوة، بموجب مرسوم عقد التبعية الذي صدر سنة 958م، إقطاعية تابعة لمملكة لمباردية⁽³⁾.

ولما خفت البيت للمباردي تحت ضربات ملك الفرنجة شارلمان، غرقت المدينة، مرة أخرى، تحت نير حكم البيت الكارولنجي، وصارت جزء من ممتلكات الإمبراطورية الكارولنجية الإقطاعية، مما جعلها في عزلة عن باقي أقاليم شبه الجزيرة الإيطالية لفترة طويلة⁽⁴⁾. وتعد هذه المرحلة من أحلك فترات تاريخ جنوة في العصور الوسطى.⁽⁵⁾

و الملاحظ أن تلك الأحداث المؤلمة التي تعاقبت على مدينة جنوة، لم تغير شيئا من رتابة الحياة البسيطة التي اعتاد السكان إتباعها منذ أمد بعيد، فأهل جنوة، طيلة هذه الحقبة الحالكة، لم يكن لديهم شيء ذا قيمة يخسرونه على الأرض، فمدينتهم تنعدم بها الزراعة والصناعة، على حد سواء، وحياة الناس فيها مرتبطة بشكل كلي بالبحر⁽⁶⁾. لذلك فإن

.....

⁽¹⁾ D.Waly : the Italian city republic. 3ed. N.york.& London.1988. p34-5.

⁽²⁾ J.P.Delumeaux & I.H.Donat : L'Italie au moyen age. Ve -XVs.
Ed. Hachette, paris 2002 , p8-12.

⁽³⁾ Y.Renouard : les villes d'Italie de la fin du Xe S au début du XIV S,
(S.D.E.S) .T1, paris 1969, p230

⁽⁴⁾ Sismondi : histoire de républiques italienne. vol 1. p249.

⁽⁵⁾ R.Lopez : au origines du capitalisme... p435.

-H.Leo : op.cit, p132-34.

⁽⁶⁾ Y.Renouard : les villes d'Italie . op.cit, T1, p230.

محاولات جنوة للخروج من عزلتها والظهور على ساحة الأحداث في حوض البحر المتوسط، لم تبدأ، في الواقع، إلا مع منتصف القرن العاشر الميلادي⁽¹⁾. وكان الذي دفع بها إلى واجهة الأحداث، في هذه الفترة، الغزوات الإسلامية البحرية التي قام بها الفاطميون من قواعدهم في إفريقية وصقلية. والتي استهدفت، على فترات متكررة، اندييه نفسها والسواحل المجاورة لها⁽²⁾، مما دفع سكانها، بتحريض من البابوية، إلى إبداء الاستعداد لصد الغزاة، وبذل المزيد من الجهد لتعقبهم في مياه وجزر المتوسط⁽³⁾. ومنذ هذه الأحداث أخذ مواطنو جنوة يحترفون أعمال القرصنة والحروب خارج حدودهم، لما وجدوا فيها من مكاسب مادية وتجارية.

2- تطور النظم السياسية بمدينة جنوة وأثره على انتعاش الحياة بها.

ارتبطت الأوضاع السياسية التي مرت بها مدينة جنوة، خلال فترة العصور الوسطى بالظروف العامة التي عرفتها القارة الأوروبية خلال هذه الحقبة. فلقد ساد غرب أوروبا، عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية وتقسيمها، تنظيمًا اجتماعيًا من نوع خاص. حيث يورع الناس في ذلك العهد العنيم، إلى ثلاث فئات: فئة رجال الدين (الكهنه وكس)، الذين أسندت لها الوظيفة الروحية لتأمين النظام العام وخلصه، وفئة المحاربين النبلاء والفرسان، أوكلت إليها المهام العسكرية لنشر السلام الإلهي، وفئة هاتين الطبقتين تآني فئة الفلاحين والعمال الذين يتوجب عليهم، وفقا لأحكام هذا التنظيم المثنى، الإسهام بعملهم في إعالة المجتمع لضمان استمرار حياته⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ST. A. Epstein: Genoa and the genoese. 958-1528, London 1996, p25-6.

-R.lopez : au origines du capitalisme... p442.

⁽²⁾ A.Gustiniani : Annali Genovesi, T1, 1854, p124.

-Amari .M : storia di Muslimani di sicilia, T2, p221.

⁽³⁾ R.Lopez : la révolution commerciale dans l'Europe médiévale, paris, 1974, p96-7.

-H.C.Kruger : the Italian cities and the Arabs before 1095. in (History of the crusade, vol1, p40-53.

⁽⁴⁾ L.Gautier : la chevalerie, 2ed, paris 1890, p470-80.

وعلى الرغم من طغيان التنظيم الإقطاعي على قطاعات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا عصور وسطى، إلا أن هذا لم يمنع من حين لآخر، خاصة في أوقات السلم، أي عندما تضع الحرب أوزارها، ويعود الأمن إلى المدن والطرق، من قيام حركة بسيطة للتبادل التجاري بين بعض المراكز المأهولة بالسكان، حتى ولئن ظلت تلك الحركة في البداية ضعيفة ومحدودة، إلا أنها لم تلبث أن أخذت تنمو وتتوسع، منذ مطلع القرن الحادي عشر⁽¹⁾، وساعدها على الانتشار والتطور، بداية استقرار الأوضاع بحوض البحر الأبيض المتوسط، بعد أن توقف المد الإسلامي على سواحل وجزره⁽²⁾. إضافة إلى تراجع غارات الشعوب البربرية النوتية (انورماند والهنغار) على أطراف أوروبا، منذ أن نجحت البابوية في استمالتهم لاعتناق العقيدة المسيحية⁽³⁾.

ومن الملاحظ أن حركة إحياء المدن في أوروبا و بداية انتعاش الحياة بها قد ظهرت أول ما ظهرت في شبه الجزيرة الإيطالية، وبخاصة في مقاطعتي لمبارديا Lambardia و توسكانيا Toscana أين بقيت المدن الرومانية القديمة civitates . محافظة على جزء من كيانها المنلي. حتى في أسوأ مراحل الفوضى التي صاحبت الغزو البربري لإيطاليا⁽⁴⁾. وذلك بسبب استمرار ارتباط وتبعية بعض المدن والمقاطعات في إيطاليا للإمبراطورية البيزنطية، وبقاء تواصلها مع حركة التجارة النشطة في البحر الأبيض المتوسط. فالمدينة لا يمكن لها أن تعيش إلا من خلال حركة البيع والشراء. « Pas de commerce pas de grandes villes. »⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ R.Latouche: the birth of western economic. London, 1961, p301.

⁽²⁾ J.le Goff : la civilisation de l'occident médiéval. Ed Arthaud, paris 1984. p70 &96.

⁽³⁾ R.Fossier : le moyen age, vol.2 ,p124.

⁽⁴⁾ H. Pirenne: les villes du moyen age, Bruxelles 1927, p7 et suivent.

⁽⁵⁾ E .Lavissee & A.Rambaud : Histoire générale du IV eS à nos jours. Ed Armand Colin Paris 1873. p414

ولطالما استمرت تجارة البحر المتوسط قائمة ونشيطة، فإن بصيصا خافتا من النشاط والحياة سيستمر في مدن الساحل الإيطالي، وبخاصة جنوة، بيزة، البندقية وأمالفي، التي أهلها موقعها الممتاز للعب دور الوسيط الاقتصادي بين أوروبا والمشرق⁽¹⁾. و مع مرور الوقت استغاد سكان هذه المدن البحرية من عائدات تجارتهم الدولية، وأخذت، على إثر ذلك، تتشكل بها نخبة متميزة ضمت بين صفوفها جماعة التجار وأصحاب الحرف الحرة، الذين سرعان ما اختلفت مصالحهم مع مصالح فئة الإقطاعية الزراعية، لأن النظام الإقطاعي السائد في المدينة لم يعد يناسب دورها الاقتصادي⁽²⁾. وعرفت المدينة، عقب ذلك، حقبة طويلة من الحروب والفتن، أدت في النهاية إلى حدوث تحولات كبيرة في بنائها الاجتماعي والسياسي فيما صار يعرف وقتذاك، بالحركة القومونية Le mouvement Communale⁽³⁾.

أ- نشأة نظام القومون La Commune

و لما كانت جنوة، منذ عهد الرومان، تخرأ بنبط الحركة استنهر سكانها كبحاره ماهرين مولعين بالحرية وحياة المغامرة، لهذا جاءت حركة القومون وتنظيم السلطة بها مبكرا. إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن بداية ظهور نواة تنظيم سياسي بمدينة جنوة يعود إلى منتصف القرن العاشر الميلادي، أي منذ الفترة التي شهدت تعاقب الغارات التي شنها البحرية الإسلامية، على فترات متكررة، ضد المدينة، وما تبعها من أعمال النهب والتخريب التي طالت ممتلكات الأهالي، وبخاصة مصالح التجار والحرفيين وأصحاب السفن⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ St.A.Epstein : op.cit, p26-7.

⁽²⁾ R.Pernoud : les origines de la bourgeoisie. Ed PUF, paris 1947, p18-20.

-R.H.Bautier: the economic development. London, 1971, p106-7.

⁽³⁾ B.Doumerg : les communes en Italie du XII au XIV S, p35-37.

⁽⁴⁾ Bragadin.M.A : Histoire des républiques maritimes italiennes en moyen age. Ed Payot , paris, 1955, p31-2.

ونظرا لانعدام سلطة محلية منظمة وقوية تسهر على أمن المواطنين، وتحمي أملاكهم، لأن شؤون المدينة، حتى ذلك العهد، كان يشرف عليها ممثل عن البابوية برتبة أسقف Evêque، مقره كنيسة "سان سيرو" San siro⁽¹⁾، الذي اقتصرت صلاحياته على استيفاء الرسوم والضرائب⁽²⁾. فكان من الطبيعي. والحال على هذا المنوال. أن يتفطن سكان المدينة لما يدور حولهم من أحداث، ويكتشفون أن نظام الحكم الأسقفي المسلط على مدينتهم، لم يعد يناسب حياتهم التي أضحت مرتبطة أكثر من أي وقت مضى، بأمن المدينة واستقرارها، كما لم يعد هذا النظام يخدم، في نفس الوقت، مصالحهم الاقتصادية التي صارت تتأثر. هي الأخرى. بما يجري من أحداث على أنساحه الخارجية. ومنذ ذلك الوقت، أخذت العناصر الفعالة داخل المدينة تنشط في اتجاه تأسيس حركة نقابية تضامنية لتتبيت نفوذهم على حساب الأسقف "سيد السلطة". فانتظموا، في البداية، ضمن إطار رابطة مهنية تسمى Compagna Communis (الهيئة المتحدة)، عكفت على المطالبة بحقوق تضمن حريتهم. وتحمي أموالهم. وتخدم مصالحهم الاقتصادية.⁽³⁾

ب- ظهور الاتحادات المهنية ودورها في ترقية وتدعيم السلطة السياسية بالمدينة.

ولما كان غالبية سكان مدينة جنوة يمتنون الأعمال الحرة- حرفية وتجارية - وتكاد تنعدم في وسطهم فئة نبلاء الإقطاعية الزراعية، بسبب نقص الأراضي الصالحة للزراعة في محيط المدينة. لذلك اتفقت رغبة غالبية العناصر المشكلة للمجتمع الجنوبي

⁽¹⁾ X.Renouard : les villes d'italie p281.

⁽²⁾ Virginia. W.T : Genoa the superb, p112.

-Bragadin.M.A. op.cit. p.32.

⁽³⁾ Heers,J : la ville au moyen-age en occident paysages, pouvoirs et conflits.

Fayard Ed, paris 1990, p35-6.

-Heers, J : les parties et la vie, op.cit. p20.

-J.le Goff : Marchand et Banquiers du moyen age, p42-3.

على التقارب والتعاقد فيما بينها للعيش معاً، مما ساعد على تدعيم صفوف
الهيئة السياسية الجديدة (compagna)،⁽¹⁾ وتفرعت منها هيئات وجمعيات سائبة
وصل عددها سنة (1099م)، سبعة (7) اتحادات مهنية، تمثل مختلف الفئات السكانية
والعائلات الكبيرة⁽²⁾.

وأمام تزايد نفوذ هذه الهيئات المدنية، وجد الأسقف نفسه عاجزاً عن مقاومة
حركة النزعة الاستقلالية التي عمت أرجاء المدينة، فسلم لها مطالبها ومنحها كل ما تطمح
له من نفوذ سياسي⁽³⁾، وعلى إثر هذا الامتياز الذي حصل عليه أهل جنوة، بعد حصول
ضویر، حصلت المدينة خصوة هامة نحو تشكيل نظام حكم جمهوري مستقل عرف عرف
بنظام القومون «la commune»⁽⁴⁾، بحيث لم ينته القرن الحادي عشر (سنة 1099م)
حتى تشكل في جنوة قومونا تحت إدارة هيئة منتخبة في طرف سكان المدينة المنصوبين
بذورهم، داخل اتحادات أو نقابات مهنية، واعترف الجميع لأول مرة بسلطة قومون
المدينة «communia collegium civitates»⁽⁵⁾.

ومنذ هذا التاريخ لم تعد شؤون المدينة تخضع لتصرف السيد الإقطاعي، ولا
لأسقف ممثل البابوية، إنما أصبحت مقاليد السلطة الفعلية بأيدي هيئة قضائية منتخبة
تعرف باسم القناصل «consuls» يمثلون مختلف الاتحادات المهنية والتجمعات الأسرية
التكبرية بحياء المسية⁽⁶⁾، وقد وصل عدد أعضاء هذه الهيئة المنتخبة سنة (1099م)، ستة

R.Fossier: le moyen age, vol2, p350. - H.Leo: op.cit, p331.

-V.Kenouard: les villes d'Italie, II., p281-

B.Doumerg: les communes, opcit.p35.

⁽¹⁾ «في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، مترجم، ص 222-223»

⁽²⁾ D.Weley: the Italian city republic. , p34.

⁽³⁾ Cambridge Economic history, Vol3, p27.

-J.de Goff: Marchand et banquier, p42.

⁽⁴⁾ G.proccaci: histoire des italiens, p26.

-Lopez: naissance de l'Europe, p278.

-B.Doumerg: les communes, p119.

قناصل يباشرون مهامهم لمدة سنة⁽¹⁾. وهم مكلفون بالإشراف على السلطة التنفيذية التي من مهامها جمع الضرائب لتوفير العائدات اللازمة للدفاع عن أمن المدينة ومصالحها، كما يترأسون المصالح القضائية التي تعنى بحل المنازعات والخلافات بين فئات المجتمع الجنوبي، وبخاصة السهر على استتباب الأمن، ومعاقبة المجرمين والمخالفين لحرمة الأسراف والقوانين أمام محكمة المدينة City Court⁽²⁾. كما يدخل ضمن اختصاصات هيئة القناصل بمدينة جنوة تجييش الجيوش، وقيادة الفرق العسكرية أثناء الحروب. سواء كان ذلك في البر أو في البحر.⁽³⁾ إلى جانب مراسلة الحكومات الأجنبية، وإبرام المعاهدات السلمية والاتفاقيات التجارية.⁽⁴⁾

ولم تكن سنطات هيئة القناصل المنتخبة دائمة ولا مطلقة، بل فرضت عليها رقابة صارمة، بحيث يتوجب على القناصل عند انتهاء مهامهم، تقديم تقارير مفصلة بالخدمات التي باشروها والمصاريف التي أنفقوها أثناء عهدهم أمام جمعية عامة، هي بمثابة برلمان شعبي parlamento، تقام في الساحة العامة لهذا الغرض، ويحضرها كافة سكان المدينة.⁽⁵⁾ ومن حسن الحظ أن أرسيف مدينة جنوة حافظ على ندوة بالاحداث التي عاينها المدينة أثناء فترة التحول وقيام نظام القومون بها، وهي المدونة التي كتبها أحد أبناء مدينة جنوة من النبلاء كافارو Caffaro على شكل حوليات، تبدأ من سنة 1099 د. عندما بدأ يشغل منصب قنصل في حكومة المدينة إلى سنة 1163م تاريخ توفقه عن الكتابة بفترة وجيزة قبل وفاته (1166م).⁽⁶⁾ وقد واصل الكثير من المؤرخين الجنوبيين أسير جودو

⁽¹⁾ E.Perroy : op.cit p262-3.

-Heers, J: les partis et la ville, p26-1.

⁽²⁾ Clough.S.H : Economic History of Europe, 3ed USA, 1952, P49

⁽³⁾ Docheard, R : « les galeries génoises dans la manche et la mer du nord à la fin du XIII et au début du XIV S » dans (Bull institut historique belge de Rome) 1938, p-25.

⁽⁴⁾ Sismondi : op.cit, p209-10.

⁽⁵⁾ D.Weley: the Italian city republics, p37.

⁽⁶⁾ Historical Dictionary of the crusade. (corlissk. slack editor), Oxford 21903, p55.

بعد كافارو كتابة حوليات المدينة إلى غاية سنة 1293م، مما وفر للمؤرخين القدر الكافي من المادة الخبرية التي أفادت كثيرا في فهم ظروف تطور الأوضاع في جمهورية جنوة خلال تلك المرحلة.⁽¹⁾

وفي وسط هذا الانسقرار السياسي والازدهار الاقتصادي الذي عمت به جنوة في ظل نظام القومون، تجند أبناء المدينة التجار ورجال الأعمال لبذل قصارى جهدهم للنهوض بمدينة جنوة وجعلها قوة مهيمنة الجانب. شأنهم في ذلك شأن جيرانهم من المدن البحرية المجاورة، وبخاصة البندقية والبيزانة، فعكفوا على إقامة الحصون، وتنظيم انجيوس، وبدء السفن الحربية.⁽²⁾ وقد توجت جهودهم بانتصارات كبيرة، إذ ساركت جمهورية جنوة، جنبا إلى جنب، مع القوى المسيحية في الحروب الصليبية التي استهدفت العالم الإسلامي، على مدى قرنين من الزمن، وحققنت من ورائها مكاسب مادية كبيرة، كما حربت جاراتها القريبة جمهورية بيزة، وقضت عليها قصصا مبرحة سنة 1284=683هـ.⁽³⁾ ولاحقت جمهورية البندقية على نجارة البحر المتوسط، ووقفت في مواجهتها الند للند حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

3- نشاط رجال الأعمال الجنوبيين وأثره على نهضة القومونة وازدهارها.

Ed.Belgrano, L.F. : Annali genovesi di Caffaro e de suoi continuatori dal
MCCIX al MCCIX CIII. Roma 1980.

- تشمل الحوليات على المؤلفات التالية:

- كافارو، Caffaro، بعض الفقرات من (1099 إلى 1163م)

- كونشيليري، Cancelliere (1164 إلى 1173م)

- أرخيو باتي، Orgio Pani و مائير سكريبا، Marichio Scriba من (1197 إلى 1219م)

- بارطليميو، Maestro Bartolmeo (1225 إلى 1249م)

- ديورلون (من 1240 إلى 1279م) - ديورلون، Doron من 1280 إلى 1293م

⁽¹⁾ C.Stephenson : medieval history, p566.

-G.Sellery : medieval foundation of western civilization, London, 1929, p333.

⁽²⁾ Georg Caro : Genova e la supremazia sul mediterraneo (1257-1311), vol 2

(ASLSP Nuova serie) XIV, Genova, 1971, p122-135.

-M.Balard : Gènes et l'outre mer, vol. 1, p26-8.

تجمع أغلب المصادر التي تناولت تاريخ تطور جنوة إبان المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى، (1000 إلى 1500م) على أن نهضة المدينة وتطورها سياسياً واقتصادياً، ارتبط بشكل كلي بما قام به أبناء المدينة المنحدرين من العائلات البرجوازية من أعمال بحرية وأنشطة اقتصادية، عادت بالنفع والتخير على المدينة واهلها. فمنذ أن تحرر سكان جنوة من التبعية السياسية للإمبراطورية وجدوا أنفسهم مدفوعين، من غير خيار، للاستغلال بالأعمال الحرة، وبخاصة تلك المرتبطة بالبحر. لأن الطبيعة التي تحيط بمدينة جنوة لا تسمح بتأنا الاسترزاق من الأرض، والأرض في هذه الربوع هي التي تدفع بسكانها إلى البحر. لهذا السبب ظلت الحياة في مدينة جنوة مرتبطة بما يوفره البحر من فرص الاسترزاق، وأضحى بالتالي، الأعمال المرتبطة بالتجارة الخارجية وصناعة السفن وأعمال القرصنة من أهم الأنشطة الحيوية التي اعتمد عليها غالبية سكان جنوة.⁽¹⁾

فمنذ القرن الحادي عشر الميلادي بدأ أبناء مدينة جنوة الأحرار يجوبون مياه البحر المتوسط شرف وغرباً بحثاً عن المغنم التي باتت توفرها المغامرة البحرية، وسكنوا لأجل ذلك سبلا شتى. فكانوا أحياناً يبذلون مساعي سلمية بغرض التقرب من الحكومات للحصول على الامتيازات التجارية في الأسواق والموانئ، وأحياناً يلجؤون إلى خوص غمار القرصنة والحروب البحرية لانتزاع مناطق نفوذ حيوية بالجزر والموانئ، حتى في وقتها إنه لم يحدث، على الإطلاق، في أيه بقعة من البعد أن اجتمعت الأعمال التجارية والأعمال البحرية (القرصنة) كما حدث في جنوة.⁽²⁾

ومن خلال هذا النشاط البحري المكثف الذي أقيمت عليه كل فئات المجتمع الجنوبي تقريباً، بدأ سلطان بعض العائلات الكبيرة داخل المدينة يتقوى، ونفوذها الاقتصادي يتعزز. ونذكر على سبيل المثال، عائلات "امبريائسي Embriacci"، دي لا فونطا della

⁽¹⁾ Y. Renouard : les hommes d'affaires italiens au moyen age, p147 ou 47.

⁽²⁾ J.B.Freedman & K.M.Figg : trade travel and exploitation. In: (médiéval ages Encyclopedia), N.york, 2000, p208-10.

di volta ، "بريوني Bruoné ، "ايزو دي مري Uso di Mari "دي كاسترو di castro " عائلة دوريا Doria " ، " عائلة سبينولا Spinala " ، وغيرها من العائلات التي لعبت دوراً ريادياً في حركة التجارة والتوسع بحوض البحر المتوسط.⁽¹⁾ واستطاعت أن توسع شبكة أعمال واسعة مع موانئ الأندلس وغرب أوروبا وبلاد المغرب والمشرق، حتى قبل أن يتجهز الصليبيون للخروج في حملتهم المظفرة إلى بلاد الشام.⁽²⁾

أ- مساهمة الجنوبية في الحروب الصليبية.

ومما يدل على تغلب المبادرة الفردية وسيطرتها على جميع الشؤون العامة الداخلية والخارجية لجمهورية جنوة، طيلة مرحلة التفوق والازدهار الذي وصلت إليه القومونة على مدى أربعة قرون تقريباً، على خلاف ما كانت تسير عليه الأمور في المدن الجمهورية الإيطالية الأخرى المجاورة (البندقية - فيورنسا - ميلانو - بيرغا)، أن تسير شؤون المدينة الإدارية والسياسية قد انقسمت أبعداً منذ البداية، العناصر القوية والعائلات المتنفذة بالمدينة⁽³⁾. كما أن الجيوش التي خرجت في حملات بحرية، سواء للعدوان على المسلمين، أو لمنافسة القوى البحرية والتجارية الأخرى على السيطرة على مضايق النفوذ في العالم، كلها كانت مشككة، في غالب الأحيان، من فرق خاصة وعناصر

⁽¹⁾ Y Renouard : les villes d'Italie, I, op.cit, p234.

⁽²⁾ كشفت وثائق جنيريه القاهرة عن وجود تجار جنوبيين وبيزارية في القسطنطينية والإسكندرية منذ الأعوام الأولى لاستقرار الفاطميين في مصر (969م = 359هـ). وكان يتم استغلالهم، شأنهم شأن الأمازيغيين والسنداقية، في فنائيق خاصة، كمد توريد مصر أخرى، من نفس الفترة، إلى وجود تجار جنوبيين في شمال سوريا. انظر راجع: - كاهن كلود: "تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين" أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة.

ج 2، ص 871-72

-Goeitein,S.D : A Mediterranean society, the Jewish communities in the Documents of the Cairo Geniza, vol I, 1967, P40-42.

⁽³⁾ Heers, Les partis et la ville, op.cit, p 21-22

من المرتفعة تعمل لحسابها الخاص⁽¹⁾. هذا بالإضافة إلى أن قوافل التجارة التي تنشط في بيع وشراء السلع من مختلف الأسواق العالمية، هي في معظمها أيضاً ملك لمستثمرين خواص وأصحاب شركات متعددة الأسهم⁽²⁾. ويبقى الدور الذي لعبته الفردية الأرستقراطية الجنوبية أثناء الحروب الصليبية، التي استهدفت بشكل مباشر البلاد الإسلامية ممثلة في تلك الدعوة البابا "أربن الثاني"، التي وجهها لمسيحي غرب أوروبا عام 1096م-490هـ، للخروج في حرب مقدسة إلى فلسطين لمحاربة المسلمين وانتزاع المقدسات المسيحية منهم. استجابة فورية وحاسمة منقطع النظير، من قبل أهالي قومنونة جنوة الذين كانوا أول من هب من القوى المسيحية في أوروبا لتلبية نداء البابا،⁽³⁾ وشرعوا بجهود بتعب والرجاء والتفاني تتسمهمة في هذا المشروع الصليبي، خاصة وهم أصحاب خبرة طويلة في هذا المضمار، إذ سبق لهم، قبل هذا التاريخ، بحوالي أكثر من قرن من الزمن، الدخول في مغامرات حربية صليبية ضد المسلمين في منطقة غرب المتوسط وأجزوههم على ترك مواقعهم المتقدمة على سواحل البروفانس وجزر كورسيكا و سردينيا⁽⁴⁾.

إن السفن الإثني عشرة الأولى، التي خرجت من ميناء جنوة تحمل مؤن وأسلحة وآلات الحصار لجيش الصليبيين الذي كان يزحف من ناحية البر قصدًا بيت المقدس في فلسطين، كانت كلها موجهة من قبل رجال الاعمال الأحرار الذين ينتمون إلى العائلات البحرارية الكبيرة في جنوة.⁽⁵⁾ ولقد كانت القومونة هؤلاء الخواص بل أو كنت إتيهم مهمة الإشراف على المستوطنات التجارية Les colonies التي منحها الصليبيون لها

⁽¹⁾ Bragadin: op.cit, p48

⁽²⁾ Heyd, op.cit, T1, p147

⁽³⁾ Caffaro: de lebratione civitatum civilisation orientis. (R.H.C) H. occ. TV, p 45-50.

⁽⁴⁾ R.S.Lopez: Storia della colonie genovesi nel mediterraneo. 2e-Ed, 1966. p 68-70.

⁽⁵⁾ Heyd, W : op.cit, T1, p147. Bragadin: op.cit, P48.

مقابل جهودها في إنجاح الحملة. ⁽¹⁾ الشيء الذي مكن هؤلاء الخواص من الاستفادة من عائدات الأنشطة الاقتصادية في تلك الأحياء لحسابهم، وحققوا من وراء هذه العملية أرباحا طائلة شجعتهم على استثمارها في القطاعات الصناعية والحرفية، والتوسع في إنشاء الشركات التجارية البحرية، وتطوير المرافق الحيوية بالمدينة. وليس ادن على تعاضد ثروة رجال الأعمال الجنوبية من جراء مشاركتهم في الأعمال الحربية أثناء الحملة الصليبية الأولى. إن أفراد عائلة امبرياتشي Embriacci الذين شاركوا أثناء الحملة بسفينتين حربيتين، وساهموا مباشرة بفرقهم الخاصة إلى جانب الجيوش الصليبية في حصار بيت المقدس، واستيلاء عليه في يونيو 1099م = 492هـ. فت حققوا مغنم وأرباحا خيالية من وراء هذه العملية. إذ تذكر الروايات التي سجلتها بعض الحوليات. 'أن سفينتي الأخوة امبرياتشي رجعتا من المشرق محملتين بكنوز من الذهب والفضة والتحف والأحجار الكريمة، بما لم يسبق لسكان المدينة رؤيته أو السماع عنه من قبل'. ⁽²⁾ ولم تزد الامتيازات التي استفاد منها رجال أعمال جنوة ببعض امتواي الشمية التي استولى عليها الصليبيون في الحملة الأولى. إلا إصرارا وحماسة من قبل باقي مواطني القومونة، سواء كانوا من النبلاء أو من فئات الشعب العامة، على بذل المزيد من الجهد من خلال السعي للانخراط في التجارة، أو الالتحاق بقطاع الملاحة البحرية. لما صرت توفره هذه المنهج من فرص كبيرة تحقق عائدات مالية معتبرة. فأقبلوا على تأسيس الشركات التجارية وتجهيز القوافل وإرسال البعثات إلى الأسواق والمعارض العالمية لعقد الصفقات التجارية، إلى درجة أنه في ظرف خمسين سنة من بداية مغامرة أبناء جنوة في حركة التجارة العالمية بحوض البحر الأبيض المتوسط، تمكنت أربع عائلات بورجوازية كبيرة من احتكار ثمانين بالمائة من عائدات التجارة الخارجية لجمهورية جنوة. ⁽³⁾

⁽¹⁾ Caffaro: Deliberatione civitatum :op.cit. TV. P58-65.

⁽²⁾ caffari de caschifelne : op cit. T. V pp 45-75.

⁽³⁾ R.Renouard: les villes d'Italie. op.cit,T1, p234.

وإلى جانب هذا النشاط المكثف من جانب الأرستقراطية، شرعت القومونة من جهتها في استثمار جل إمكانياتها المادية والبشرية لخوض غمار المنافسة الحربية ضد المدن البحرية المجاورة. بأن أقبلت على توسيع ميدان العمل في مجال صناعة السفن لتغطية حاجتها المتزايدة منها. وبخاصة السفن الحربية التي أصبح اصطب عليها، خلال هذه الفترة المضطربة، أكثر من ضرورة لاستعمالها في حماية القوافل التجارية من أخطار القرصنة، التي انتشرت بحدة بحوض المتوسط⁽¹⁾. كما أن احتياجات الصليبيين لوسائل النقل البحري، أثناء حملاتهم المتكررة على بلاد الشام، قد حفز صناع السفن الجنوبيين على توسيع الاستثمار في هذا القطاع، وإدخال التعديلات الثقيلة على سفن النقل من خلال توسيع حجمها وزيادة سعة حمولتها، بما يضمن توفير أماكن إضافية تستوعب أعدادا أكثر من الأفراد والسلع.⁽²⁾ وانفردت جمهورية جنوة، دون غيرها، من أن حكومتها امتنعت عن التدخل في عملية صناعة السفن، أو السعي لاحتكارها، كما فعلت حكومات الجمهوريات الإيطالية الأخرى، وبالأخص (البندقية وبيز و فلورنسا). إذ بقيت هذه الصناعة الحيوية منوطة بشركات تابعة للخواص، بحيث يشترك أكثر من رجل أعمال في ملكية السفينة، أو تأجيرها واقتسام أرباح عائداتها.⁽³⁾

وفي ظل هذا النظام الذي سيطرت فيه المبادرة الفردية على شؤون القومونة، استقرت الأوضاع على الجبهة الداخلية، وتعرزت مكانه جنوة على الساحة الخارجية، يسد كفل لها لعب دور الوسيط الأساسي في العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، على قدم المساواة مع منافستها التقليدية جمهورية البندقية. ففي بلدان المشرق حافظ رعايا جمهورية

⁽¹⁾ G. Caro: Genova e la supremazia sul mediterraneo, vol.I, 1974, p.26-7.

⁽²⁾ Byrne, E.: Genoese shipping in the twelfth and thirteenth centuries, Cambridge, 1930, p.6-9.
سليمان: الحروب الصليبية والشرق اللاتيني (11-14)، مآرجح، ط1، القاهرة، 2003، ص 284.

⁽³⁾ Byrne, E.H.: opcit, p.6- 9

R.S.lopez: Storia della colonie genovesi nel mediterraneo, .p 42-3.

جنوة على مواقعهم في عكا، وبيروت، وطرابلس وإيطكية. كما نجحوا على غرار رعايا البندقية، وبيزة، من نسج صلات ودية مع حكام مصر، منذ القرن العاشر الميلادي. واستفادوا من امتيازات هامة بما فيها الحصول على فندق بميناء الإسكندرية لإيواء رعاياها، وتعيين قنصل لسمين الجالية أمام السلطات المحلية. وقد بلغ حجم الاستثمارات التجارية الجنوبية الموجهة لمصر في ظرف تسع سنوات (1155-1164م) 9031 ليرة⁽¹⁾. أي بمعدل ألف ليرة تقريباً سنوياً.

ولم تنقطع العلاقات بين حكومة جنوة وسلطات القاهرة، رغم ما كان يصدر عن أهالي جنوة، بين التحين والآخر، من تصرفات عدوانية تجاه المسلمين.⁽²⁾ تشهد على ذلك معاهدات الصلح والتجارة التي أبرمها سفراء الجمهورية مع سلاطين مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك.⁽³⁾ فالوثائق الجنوبية المتعلقة بنشاط رعايا القومونة في مصر والشام، على امتداد القرون الأربعة الأخيرة من العصور الوسطى، تشير إلى أن مدينة الإسكندرية تعد من أكثر الموانئ التجارية بالنحوض الشرقي المتوسط استقطاباً لرحلات القوافل التجارية الجنوبية المبحرة باتجاه الشرق،⁽⁴⁾ بها كان تجار جنوة يجدون ضالّتهم من السلع الشرقية التي كثر عليها الطلب بين سكان الغرب اللاتيني، وفيها أيضاً، كانت اتسع الأوربية تلقى رواجاً كبيراً، وبخاصة، تلك التي يكثر الطلب عليها من طرف المسلمين.

⁽¹⁾ L. Bach: La Ville de Gènes au XIII^e, Copenhagen, 1955, p 50-52

⁽²⁾ Krueger, C.H: The Genoese merchant, their partnerships and investments 1155 to 1164, in onore to Armando Sapori, Milano, 265-66

جنوة شاركت مباشرة في معظم الحملات الصليبية التي استهدفت بلاد الشام ومصر، وبصورة خاصة في حملة

الملك لويس التاسع في سبتمبر سنة 1248م. انظر: راجع.

مصطفى حسن النكاشي: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي، أضواء جديدة على الحركة الصليبية،

"إسكندرية"، 1981، ص 356 وما بعده.

⁽³⁾ عن المعاهدات التي أبرمتها جمهورية جنوة مع حكام مصر، راجع بهذا الشأن:

-Heyd, W: Histoire du commerce du levant, T1, p141-20.

-Byrne, E: Commercial contracts ... p140-50.

-Canaletto, M.T: Nuova storia della repubblica di Genova. T., p309-11.

⁽⁴⁾ Depping, G.P: Histoire du commerce entre le levant et l'Europe au moyen age- T1, p75.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وساردينيا، القريبتين منها من جهة البحر، مما جعلها تصطدم بأطماع جاراتها جمهورية
بيزة التي كانت تسعى، هي الأخرى، للسيطرة عليهما. ودخلت الجمهوريتين، من وقتها،
في حروب طويلة عاد النصر في الأخير لأبناء جمهورية القديس جورج⁽¹⁾ St George

وكانت أول صلات ينجح الجنويون في إقامتها مع أمم أوروبا الغربية، تلك التي
أقاموها مع حكام صقلية الجدد، "النورماند" الذين استخلفوا العرب في حكم الجزيرة منذ
سنة 1090م. ⁽¹⁾ ولقد منح ملوك النورماند للجنويين في صقلية مواقع امنة وامتيازات
هامة مكنتهم من الحصول على موطأ قدم بهذه الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي التي
سكنت منذ تقديم محطة عبور إجباري على الطريق البحري الذي اعتاد سكن الغرب
سلوكه باتجاه الشرق. ⁽²⁾ وعرف الجنويون كيف يستفيدون من الامتيازات التي حصلوا
عليها بالجزيرة وسخروها لخدمة تجارتهم مع المشرق على المدى الطويل، فأقاموا بميناء
مدينة مسينا Messina التي تقع على المضيق الذي يفصل جزيرة صقلية عن البر
الإيطالي مستودعات لتخزين السلع التي تصل تباعا من الشرق. ⁽³⁾ كما أقاموا باثمينية
فندقا وفنصنية لرعاية مصالح التجار. ⁽⁴⁾ وحافظ الجنويون على مصالحهم في صقلية
حتى عندما انتقلت الجزيرة- فيما بعد- إلى أيد أباطرة الألمان من أسرة الهوهنشتوفن. ⁽⁵⁾
ومن جزيرة صقلية المحطة الرئيسية في طريق الشرق عبر المتوسط، راحت
حنوة تعمل بكل ما تملك من قوة على توسيع نفوذها باتجاه الغرب للوصول إلى موانئ
جنوب فرنسا وشرق إسبانيا، في إطار مسعى استراتيجي يضمن لها سيطرة التفوق

⁽¹⁾ لم تشارك حنوة النورماند في حروبهم ضد المسلمين في جزيرة صقلية، لكنها ساندت الأمير يوهنند أثناء الحملة
تصليبية الأولى، في الاستيلاء على أنطاكية.

⁽²⁾ Annali Genovesi. T1, p12-20.

- Renouard, y : Les Villes, d'Italie, op.cit, p135

⁽³⁾ Yver, G: le commerce et les marchands dans l'Italie méridionale au
XII et XIVs, paris. 1903. p246-90.

⁽⁴⁾ Yver, G: op cit, p290

⁽⁵⁾ J, B, Freedman & K, M, FiGG : Trade, travels and explorations in the medieval
Ages. Op cit., p210

والسيطرة على المحطات الرئيسية في طول الطريق التجاري الرابطة بين شرق المتوسط وغربه. ومنذ مستهل القرن الثاني عشر الميلادي نجح تجار جنوة في إنشاء حركة تجارية نشيطة للغاية بينها وبين مدن الساحل الجنوبي الغربي الفرنسي، خاصة في مقاطعتي ألبروفانس Provence و لانغيدوك Languedoc وكامارغ La Camargue. بين ذلك العديد من المعاهدات التي عقدتها جمهورية جنوة مع سادة وأشراف هذه المدن الفرنسية الساحلية. ⁽¹⁾ إن ورد في بعض بنود تلك المعاهدات التي عقدتها القومونة مع برتران Bertram كونت تولوز عام 1109م، تأكيدات واضحة بعدم السماح للتجار الأجانب، وعلى رأسهم تجار جمهورية بيزة منافستها التقليدية، من ممارسة أي نوع من الأنشطة التجارية بهذه الثغور، وبأن لا تفتح موانئها إلا للسفن الجنوبية والأمد التي تسمح لهم جنوة بذلك. ⁽²⁾ وب نفس السياسة تعاملت مع حاكم مونتبلية من خلال معاهدة 1155م، التي منح بموجبها مواطنو جنوة كل التسهيلات التي تضمن لهم احتكار النشاط التجاري نوحدهم بالميناء. مع الاستفادة من الإعفاءات الجمركية التكنه. ⁽³⁾

والواقع أن كل مدن الساحل الجنوبي الفرنسي فرضت عليها مثل هذه الإملاءات المجحفة ولم تتوان في معاقبة المخالفين للشروط المبرمة إلى درجة أنه كانت ترسل أساطيلها للإغارة وهدم الموانئ التي تجرأ على استقبال السفن البيزرية. كم حدث سنة 1176م. عندما أغارت على ميناء مرسيليا عقاب نه لمختلفتها لهذا الحضر ودرته. (cd destruendam et portus eivsdeim marsilian) ⁽⁴⁾ وكان الغرض من إصرار رجال أعمال جنوة على إبعاد أية منافسة أجنبية لهم في هذه الجهات، هو محاولة خلق

⁽¹⁾ L.Ganshof: « Notes sur les ports de Provence du VIII en XS (Revue Historique) CL XXXIII. 1938. p28-37.

⁽²⁾ Canale.M : op.cit. T1,p333.

⁽³⁾ Germain.A : Histoire du commerce de Montpellier.Vol 1. 1861, paris, p113&234-6.

-Ann Genov. T1. p188.

⁽⁴⁾ Jehel .G : les Génois en Méditerranée. p41..

تفوق بحري لصالحهم بالنصفة الغربية للمتوسط شبيه بالتفوق الذي انتزعه البنادقة لصالحهم في البحر الأدرياتيكي.

وعلى هذا الأساس استمر نشاط تجار جنوة بالموافى الغربية في ازدهار وتوسع خاصة منذ أن نجحوا في ربط أسواق مدن الساحل الجنوبي بأسواق مدن وسط وشمال فرنسا، مما يعني بالضرورة استفادة تجار جنوة من السلع الأوروبية التي كانت تصل إلى مقاطعة شامبني الواقعة بوسط شرق فرنسا أين كانت تقام أسواق موسمية ضخمة يأسها تجار القارة الأوروبية من جميع الجهات، اشتهرت باسم معارض شامبي (les foires de champagne) التي اكتسبت شهرة ورواجا كبيرين صينه القرنين (12-14م).⁽¹⁾

ولقد أفادت ظروف الأمن والسلام التي سهر كونتات ولوردات مقاطعات شامبي على توفيرها أثناء انعقاد هذه المعارض⁽²⁾ كثيرا تجار جنوة الذين وسعوا في أعمالهم التجارية والمالية لدرجة أنهم اشتهروا كأكبر موردين للسلع الأوروبية إلى المشرق من خلال هذه الأسواق على الإطلاق. حتى فين بشاتهم. في ذلك الوقت: سكن الفلاندرز ينتجون ومقاطعة شامبني تباع والجنوبيون يصدرون.⁽³⁾ ولقد وجد الجغرافي اليهودي بنيامين التظلي الذي زار المنطقة بين سنتي 1166-1167 أم جالية كبيرة من الجنوبيين بها. وهاله ما رأى من نشاط كثيف يقومون به فعلق قائلا: إن المدينة تزين برخائها إلى وجود انتجار الجنوبيين والبيازنة.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ Chapin, E : les villes des foires de champagne des origines au début du XIVs. paris. 1937, p25-40.

-S.painter : opcit,p224-26./ -Clough,S.B : opcit,p219-20.

⁽²⁾ Cambridge economic history. Vol3; p128.

-charpin,E: opcit;p219-20. .

⁽³⁾ Wolff : opcit,p70.

-H laurent : un grand commerce d'exportation au moyen age : la draperie des Pays bas en France et dans les pays de la méditerranée du XII au XVs. Paris 1935. p, p41-43.

⁽⁴⁾ بنيامين التظلي: رحلته بنيامين، مرجع، بغداد، 1945، ص 195.

وظل رجال أعمال جنوة ينشطون في التجارة بين أوروبا والمشرق إلى أن أخذت هذه المعارض في الانهيار مع مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، بسبب الحروب التي اندلعت بين ملك فرنسا فيليب الرابع وأمراء الفلاندرز. وبذات الأوضاع الأمنية تتدهور بالتصرفت، من جراء تلك الحروب، تم نجوء أمراء انمقاصعت إلى فرض المزيد من الضرائب والإتاوات على التجار لتغطية نفقات الحرب.⁽¹⁾ فأضطروا على إثرها، تجر جنوة إلى مغادرة المكان، ونقلوا أعمالهم إلى مناطق الإنتاج بالأقاليم المطلة على بحر شمال وبحر البلطيق ومياه الأطلسي، أي المناطق التي تشمل شمال جرمانيا والأراضي المنخفضة وجزيرة بريسان وبلاد الفلاندرز⁽²⁾، التي صاروا يقصدونها بواسطة السفن عن طريق البحر.

و كان العامل الأساسي الذي أعانهم على انمضي قدما في مغامرتهم للوصول إلى أسواق شمال غرب أوروبا، التطور الباهر في ميدان فنون الملاحة ووسائل النقل البحري . بعد إدخال آلة البوصلة والخرائط البحرية، والشروع في استخدام السفن الشراعية الكبيرة. ونعت جنوة رائدة في بناء السفن الضخمة، استتير أنها بين القرون الأخيرة من انعمور الوسطى، كاصحاب خبرة ومهارة لا تضاهى في هذه الحرفة، وإليهم يعود الفضل في إدخال نوع جديد من السفن، لأول مرة في الملاحة البحرية بالمتوسط التي تعرف بـ: نايفي navi والمغامرة بها فيما وراء مضيق جبل طارق إلى مياه المحيط الأطلسي وبحر الشمال.⁽³⁾ إذ تعود أول رحله بحريه تصل إلى مدينة بروج على سحر بحر الشمال عبر المحيط الأطلسي . تلك التي أرسلتها جنوة سنة 1297م.⁽⁴⁾ لتكون بذلك جنوة أول من

⁽¹⁾ H.pirenne :: Histoire du Moyen.age.TVIII. p36.

⁽²⁾ Y.Renouard: « le rôle des hommes d'affaire italiens Italiens au moyen age » (Revue Mediterraneene). N°2.T15. p123-4...

Heers.J : types de navires, op.cit, p109-11.

⁽⁴⁾ Doeheard,R: " les Galerie Genoise.op:cit.35-6

- Braudel E : La méditerranée l'espace et l'histoire - p60

دشن خط ملاحى يتجه رأسا من البحر المتوسط إلى بحر الشمال، وأول من يفتح الصفحة الأولى في تاريخ العلاقات التجارية البحرية بين موانئ جنوب القارة الأوروبية، وموانئ الجهات الشمالية والغربية منها. وقد تفوق تجار جنوة على كل الأمم التجارية الأوروبية في الأخرى في حجم المبادلات مع هذه الجهات إذا وصل عدد السفن التي ترسبها القومونة سنويا عشرة (10) سفن من الحجم الضخم تنقل حمولة الواحدة منها 800 طن⁽¹⁾

4- صلات جنوة مع الإمبراطورية البيزنطية وأثره في ازدهار النشاط الاقتصادي بالمدينة.

فتحت المغامرة البحرية التي أقبل عليها الملاحون الجنوبيون إبان الحملة الصليبية الأولى و ما تبعها من حملات متلاحقة، أبواب الشرق الكبير قاطبة أمامهم، لاكتشاف كنوزه العجيبة. فإلى جانب المصالح والامتيازات التي حصلوا عليها بالإمارات الصليبية في بلاد الشام، ولجأهم، كذلك، في إرساء علاقات وثيقة مع حكام البلاد الإسلامية، في مصر وبلاد المغرب، استفاد تجار جنوة، إلى جانب ذلك، من الظروف المواتية التي صاحبت التحولات التي عرفتتها منطقة البحر المتوسط منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. من نسج علاقات مباشرة مع دول وسط آسيا وأطراف البحر الأسود، و توصل بعض الجنوبيين المعاصرين إلى موانئ الهند والصين وإندونيسيا.⁽²⁾ على أن أكثر التمرير التجارية التي استفاد منها أبناء مدينة القديس جورج بأقاليم الشرق قاطبة، تلك التي حققوها

¹ Heers, J: Gènes au XVS, P310

Samhaber, E : Histoire du commerce, T2, Ed Arthaud. Paris, 1963, 98-9

- Lopez, R.S: China silk in Europe [JAOS] LXXII, (1952) ,p 72-76.

على أراضي الإميراطورية البيزنطية، لموقعها الإستراتيجي عند نقطة التقاء القارة الأوروبية بالقارة الآسيوية.⁽¹⁾

أ- ظروف انتشار النفوذ الجنوبي بالموانئ والأسواق البيزنطية.

والجدير بالملاحظة أن صلات الجنوبيين الأولى بالمقاطعات البيزنطية قد جرت في جو من العنف والتمرد، بسبب حالة التوتر والحرب التي كانت تميز علاقات المن البحرية الإيطالية جراء التنافس الحاد فيما بينها لأجل السيطرة على تجارة آسيا وشرق المتوسط. لذلك فعند منح حكومة بيزنطة سنة (1082م) امتيازات تجارية فوق أراضيها لجمهورية البندقية، ثم بعد ذلك سنة (1111م) لجمهورية بيزنطة، كمكافأة لهما على المساعدات البحرية التي قدمتها هاتين الجمهوريتين للإمبراطورية أثناء حروبها ضد النورماند في إيطاليا وإقليم جنوب إيطاليا،⁽¹⁾ سارعت حكومة جنوة بشورها إلى التقرب من حكومة القسطنطينية، وعرضت خدماتها عليها. وكانت بيزنطة، في الواقع، أشد حرصاً على إرضاء الجنوبيين والتودد إليهم، حتى تقطع الطريق أمامهم لأية مبادرة للتقارب أو التحالف قد تحدث بينهم وبين الأمير بوهمن صاحب إيطاليا الذي كان، على ما يبدو، يخطط لغزو القسطنطينية.⁽²⁾ واستفادت جنوة من امتيازات تجارية معتبرة، منحها

- L. Brehier : La Civilisation byzantine. p196

A. Ducellier & M. Kaplin, & B. Martin : *Le Proche Orient médiévale*, p198

من المعتقد أن فريق جويوم أختاروا حتى محافظ على تجميعه لأهمية استراتيجية البيرونية وكذلك التمازج والاختلاط بين صديقه 1440
لغربية وشمال إفريقيا من قبل القوافل التجارية غير أن عهد منتصف القرن التاسع عشر لتفصيل جاءته فواتر التورينج
وسيطا على التجميع بالهذه والسيد به إضافة لوجوده به أن بوصفها فواتر الخيش التورينج في الخلف التجميع
الأولى متوالي على مدينة إيطالية سنة (1098) و كذا في المدينة في الأصل بعد عن الألفاظ البيرونية فخلت، هذا
دور التورينج استراتيجية التي تدعو في هذا صدى التورينج تسمى في المخطط البيرونية والتاريخ، التي ذلك مع بعضه بين
التجميعية ويرة التورينج راجع.

Haskins, John: *The Norman in European History*, p. 202-3.

- Vasiliev, A : the Byzantine Empire , Madison, 1952. p 305-6.

²¹ - L. Bréhier : La civilisation Byzantine, p193-4

- Ballard, M : La Roumanie Génoise début XII début du XV^s. Tr. (Ecole Française de Rome). 1978, p22

لهذا الإمبراطور أمانويل كومنين (1143-1180م) بموجب اتفاقية Chrysobulle سنة 1155م. ورغم أن هذه المرة الأولى التي تستفيد فيها قومية جنوة من امتيازات اقتصادية في بيزنطة، ومع ذلك، فقد وضعتها في عداد الأمم الأكثر رعاية في الإمبراطورية، أو بالأحرى، جعلها على نفس المنزلة مع جمهوريتي البندقية وبيزّه.⁽¹⁾ ومن جملة الامتيازات التي استفاد منها رعايا جنوة لدى بيزنطة: تخصيص حي تجاري لمواطني القومية بالقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية، مع تخفيض من قيمة الرسوم الجمركية Commerchium على السلع الجنوبية بكافة الموانئ البيزنطية إلى أربعة بالمائة، بشرط أن يتمتع مواطنو جنوة، من جهتهم، عن ماصرة أعداء الإمبراطورية. coronatis nel non coronatus وأن تُتْرَك حُكُومُهُم بِتَقْدِيرِ المساعدات التي تحتاج إليها الإمبراطورية، من عساكر وسفن، عندما تكون في حالة حرب.⁽²⁾

لكن يبدو أن دخول جنوة ميدان النشاط التجاري بالأراضي البيزنطية قد أزعج كثيرا البلقية والبيزنطية، الذين لم يسوا حروبها ضدهم في منطقة الحوض تعري للمتوسط، وإبعادهم منها بالقوة.⁽³⁾ لذلك اتفقت رغبتهما على توحيد جهودهم لمهاجمة مصالح الجنوبية في القسطنطينية، والتصديق على تجارها في مختلف موانئ شرق المتوسط. ووصل الأمر بقوات الجمهوريتين المتحالفتين إلى حد مهاجمة حي الجنوبية بالقسطنطينية سنة (1162م) ونهبه وتدميره⁽⁴⁾.

ولم تفلح تدخلات الأباطرة البيزنطية لوقف العدوان على رعايا جنوة الذين اضطروهم الحال في النهاية، بعد أن سقط عدد كبير من إخوانهم ضحايا ذلك العدوان. إلى

⁽¹⁾ - Ballard, M : op cit, p22

⁽²⁾ - Wolf, R.L. : « Romania : the Latin empire of Constantinople », (speculum) XXIII, 1948, p11-2

⁽³⁾ - L.Brehier : vie et mori de Byzance, p390.

⁽⁴⁾ - Bréhier, L. : la civilisation byzantine, p196.

الانسحاب من كافة الموانئ والمدن البيزنطية.⁽¹⁾ وشعر أهالي المدينة وقتها بالامانة وأقسموا على الشار. ومنذ ذلك الحين، أطلقت القومونة انعان لمواطنيها للقياد بأعمال القرصنة والعدوان ضد سفن ومصالح البنادقة والبيزانة اينما وجدت. وقد سجلت أحداث هذه الفترة، نقطة البداية لحرب ضروس سوف يخوضها أهالي جنود ضد كل من مواضي بيضاء والبنقية، وكانت مياه البحر المتوسط مسرحاً لهما.⁽²⁾

لم يئأس حكام جنود برغم الصعاب وعنف المنافسة، من مواصلة سعيهم لأجل استعادة مكائهم بالأراضي البيزنطية، فأوفدوا سفارات عديدة إلى القسطنطينية للتفاوض بشأن عودة التجار إلى أحيائهم السابقة، والمطالبة بتعويضات عن الخسائر التي لحقت رعايهم جراء العدوان الذي وقع عليهم من صرف البنادقة والبيزانة.⁽³⁾ ومن أيدى أباطرة بيزنطة تفهما واستعداد للتعامل مع حكومة جنود، إلا أن تسارع الأحداث التي جرت وقتها بالقسطنطينية جراء الصراع العنيف بين الأسر الحاكمة من أجل الاستحواذ على كرسي العرش، قد عجلت بسقوط النظام الإمبراطوري واحتلال القسطنطينية من طرف جيوش الحملة الصليبية الرابعة، التي قادتها واشرفت عليها جمهوريته البندقيه سنة 1204 م.

كانت جمهورية القديس مرقس المحرض الأول للفكرة التي كانت وراء تحويل الحملة الرابعة عن غرضها الصليبي المباشر، وتوجيهها إلى القسطنطينية،⁽⁴⁾ والنتيجة كانت مفرعة بالنسبة لجنود التي لم تشارك في هذه الحملة، فقد قرر حكام القسطنطينية

⁽¹⁾ - Annali Genovesi, T1, p63-4.

⁽²⁾ عن حروب جنود ضد البندقيه وبيضاء، راجع لاحقاً ص 74-90...

⁽³⁾ أوفدت جمهورية جنود ثلاث سفارات إلى القسطنطينية للتفاوض بشأن عودة رعايها إلى مواقعهم داخل أراضي

الإمبراطورية البيزنطية لتزيد راجع:

-Annali Genovesi, T1...p61.

-canale, M: Nouava istoria, T1, p319 & T11, p365-6

⁽⁴⁾ Brand, C.M : Byzantium confronts the west (1180-1204), Cambridge. 1968- p20-3.

الجدد إبعاد التجار الجنوبيه نهائيا عن المنطقة، وحرمانهم من أبسط الحقوق والامتيازات في كامل ربوع الإمبراطورية، بموجب اتفاق " قسمة الغنيمة " أو اقتسام رومانيا « partitio Romanie »⁽¹⁾ الذي وافق عليه قادة الحملة الصليبية الرابعة بعد الاستيلاء على عرش بيزنطة وتأسيس إمبراطورية لاتينية على أنقاضه في 12 أبريل 1204م. فيما صارت البندقية المستفيد الأكبر في هذه الربوع⁽²⁾.

ومنذ أن استقر الصليبين في القسطنطينية، شرعت حكومة جنوة، التي رفضت الاعتراف بشرعية حكام الإمبراطورية الجدد، في تقديم الدعم للقراصنة وتشجيعهم على خلق المتاعب لتجار البندقية وبيزة، وعرقلة نشاطهم بالمناطق التي فتحوها، كما كثفت، من جهة أخرى، اتصالاتها مع اليونانيين لحثهم على الانتفاضة ضد الغزاة الجدد⁽³⁾.

وزاد من إصرار قومونة جنوة على المضي قدما في مشروعها المكلف هذا، للإطاحة بنفوذ البنادقة وسلطانهم القوى على مضيق البوسفور، الكوارث التي لحقت بمستعمراتها في بلاد الشام، وضياح أغلب مواقعها الساحلية بشرق المتوسط، على اثر الانتصارات التي حققها صلاح الدين الأيوبي، و التحالف الذين جاءوا من بعده، على الإمارات الصليبية ببلاد الشام. وكانت آخرها سقوط مدينة عكا سنة 1291م.⁽⁴⁾ التي كانت حتى ذلك الحين كما يقول ابن الأثير، "من أكبر المراكز التجارية في آسيا وملتقى تجار الفرنجة و اليونانيين".⁽⁵⁾

⁽¹⁾ Ville hardwin,G : the conquest of Constantinople ,p88.

-Muller,W: :the Latin in the Levant ,p28-9.

-Willehardouin,G: opcit ,p88.

⁽²⁾ Ducellier,A : Moyen orient medieval. ,p200.

-wolf,R.L : "Romania: the Latin empire of Constantinople, op cit,p21-35.

⁽³⁾ Bréhier,L : vie et mort de Byzance, p390.

-Grousset R :les croisade, PUF 1949,p114

⁽⁴⁾ س.ع. عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص235-6.

⁽⁵⁾ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص123.

كان من الضروري على الجنوبيين بعد أن خسروا مواقعهم كلها في أقاليم منطقة شرق البحر المتوسط أن يفكروا في الدخول في مغامرات حربية ضد البنادقة لاستعادة نفوذهم الصانع بالتغور البيزنطية. لذلك راحوا يتحينون أية فرصة تسنح لهم في أي مكان لكي يتأروا نهزائمهم. ويردوا للبنادقة الإساءة بمتئها. لذلك لما عرض عليهم إمبراطور نيقية "ميشال باليولوجوس Michel Paleologus (1259-1281م)، زعيم اليونانيين الأشراف المتمردين، مشروعه الرامي إلى تفويض أركان الإمبراطورية اللاتينية، وإعادة بعث عرش الإمبراطورية اليونانية المغتصب. سارعوا إلى تأييده، واعتبروه فرصة ثمينة سمح لهم، بنورهم من طرف أعدائهم البنادقة من مواقعهم في قلب رومانيا. ⁽¹⁾ وهكذا توافقت مصالح حكومة إمبراطورية نيقية، التي كانت بحاجة ماسة إلى أسطول بحري تستعين به في مهاجمة القسطنطينية من جهة البحر، مع رغبات الحكومة الجنوبية، التي كانت، هي الأخرى، تبحث عن أي حليف يسندها في حربها ضد البندقية وبيزة في هذه المنطقة. ومن دون تماطل تم توقيع معاهدة تحالف بين الطرفين لتعمل مع في الميدان الحربي لأجل تحرير القسطنطينية من أيدي الغزاة اللاتين (معاهدة نيمفيود Nymphum) عام 1261م. ⁽²⁾ ولم يثن من عزيمة حكومة جنوة شيء في المضي قدما لتحقيق هذا المشروع التجاري المربح، تما فيها قرارات الحرمان التي أصدرها بابا الفاتيكان لإرغام انغومونه عن الاندول عن مشروعاتها في موازنة التروم الأرثوذكس. لأن موقفه هذا يسير بعكس اتجاه مشروع البابوية الذي خطط له منذ زمن بعيد، و الهادف إلى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وإزالة ما بينهما في شقاق. ⁽³⁾ و هو المشروع الذي أصبح ممكن

⁽¹⁾ - إسحق عبيد: الإمبراطورية البيزنطية في عهد باليولو غوس (1261-1282) مطبوعت، ص 113-116.

⁽²⁾ - Heyd, W : op.cit. T2, p.427.

-L. Brehier : vie et mort de Byzance. p390-2.

-Vassiliev, A : opcit, T2, p534-36. / -Muller, W : op.cit., p118.

انثوني بروج: تاريخ الحروب الصليبية ، ص 235.

-فيشر، هـ، أ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ج 1، ص 245.

التنفيذ، في هذا الوقت بالذات، بعد أن تمكن اللاتين، أتباع المذهب الكاثوليكي، من الاستحواذ على عرش القسطنطينية.

ولقد أثمر التحالف القائم بين جنود وإمبراطورية نيقية عن تحقيق النصر المبين، إذ تمت السيطرة على القسطنطينية في زمن قياسي، وفبضت جنوة تمن تعويضها الفعال مع البيزنطيين، امتيازات كبيرة شملت أحياء تجارية وقلاع وبيوت وحوانيت وكنائس وعقارات في مدينة القسطنطينية، و في مدن بيزنطية أخرى هامة⁽¹⁾؛ فضلا عن تخصيص أحياء تجارية و مقرات القنصليات لرعايا جنوة على الجزر الهامة التابعة للإمبراطورية في كل من البحر المتوسط وبحر ايجة، مثل جزر خيوس Chios، ولبسوس Lipsos، وكريت Crète، ونجروينت Negropente⁽²⁾ وغيرها، مما وضع قومونة جنوة، بفضل تلك الامتيازات، في مصاف الدول ذات الأفضلية في علاقاتها مع بيزنطة، واستفاد مواطنوها من تسهيلات مميزة في ميدان الاستثمارات، ففي عام 1257م حصل رجل الأعمال الجنوبي مانويل زكاريّا Manuel Zaccaria من الإمبراطور ميخائيل باليولوجوس على امتياز تسمح له باستغلال مناجم الشب L'Alun الموجودة في مدينة "فوكييه phoccea" بأسيا الصغرى.⁽³⁾ ولقد احتكرت عائلة زكاريّا عملية استغلال أحجار الشب والتجارة فيه في كامل ربوع الإمبراطورية، وكانت هذه المادة المستخرجة في "فوكييه" تصدر بكميات كثيرة على بلدان أوروبا الغربية، لأنها كانت مطلوبة بكثرة من قبل أصحاب مصانع النسيج لاستعمالها في الصبغة وتثبيت الألوان.⁽⁴⁾ و جمعت

⁽¹⁾ Canale, M: opcit, T2, p194/ -Heyd, W : opcit, T2, p533-6.

⁽²⁾ A.Sapori: Le marchand Italien au moyen-age. Microfilm, N°4° 2846: Bibliothèque de la sorbonne, P. 50-51.....

⁽³⁾ Cahen, C: « l'Alun avant phocce: un chapitre d'histoire économique islamo-chrétienne au temps des Croisades ». (revue d'histoire économique), 1965, p446-8.

-Lopez, R.S : "Market expansion: the case of Genoa" (JEH), XXIV, 1964, p450-1.

- Lopez, R.S: east and west in the early middle age: economic relations" . (Xe congresso internazionale di science Storiche), Roma, 1955. , vol III, p156-60.

⁽⁴⁾ cahen, c : » l'Alun avant phocce -p448-9.

عائلة زكاريّا الجنوبية من تجارة الشب ثروة هائلة لدرجة أنها صارت بإمكانها تقديم إعانات مادية وعسكرية للإمبراطورية البيزنطية، كما قدرت الإمبراطورية حسن صنع هذه العائلة معها وكافاتها بأن تنازلت لها عن جزيرة خيوس Chios في بحر إيجه لتتخذها قاعدة للتصدي للأتراك العثمانيين الذين بدعوا يهدون الإمبراطورية من جبهة الأناضول (آسيا الصغرى).⁽¹⁾

ب- مستعمرات الجنوبية في القسطنطينية والبحر الأسود

على أن أهم مكسب تجاري فرح به الجنوبيون بأراضي الإمبراطورية، وكفل لهم تفوقا على جميع الأمم التجارية الأخرى، حصولهم على امتيازات تسمح لهم بإقامة مستوطنات وأحياء تجارية على شواطئ البحر الأسود مع الإعفاء من الرسوم الجمركية. ونظرا لأهمية منطقة البحر الأسود في التجارة الدولية، في ذلك الوقت، فقد سعى الجنوبيون، بكل الوسائل لإرضاء إمبراطور نيقية وحمله على إبعاد الأمم التجارية الأخرى من مزاحمتهم في هذه المنطقة، وحضي طلبهم بقبول الإمبراطورية ميخائيل الثامن، حيث جاء في أحد بنود معاهدة نيمفي Nymphen Albend الخامس... يسمح للجنوبيين بإقامة مستوطنات تجارية وكنائس وقنصليات لهم في البحر الأسود، ويتعهد الإمبراطور بعدم السماح لأي تاجر أجنبي الاشتغال بالتجارة فيها، ماعدا الجنوبية والبيزنطية.⁽²⁾ فأتى الجنوبيون عند خليج الساحل الشمالي الغربي للبحر الأسود مستوطنة هامة عند ميناء كافا Calla، الذي سرعان ما أصبح هذا الميناء المنقلى المفضل للتوافر الآسيويين لسهولة وصول السلع إليه.⁽³⁾ وقد وقف ابن بطوطة لما كان في طريقه إلى الصين، عند هذا

⁽¹⁾ Muller: « Genoese in chios », (E.H.R.), XXX, 1915, p420-3.

-Heyd,W : opcit.T2.Ti.p438-9.

-Heers,J :Gènes au XVes,p274-5.

⁽²⁾ Muller: the Latin in the Levant. p118.

-Balard, M: la Roumanie genoise. T1,p44.....

⁽³⁾ Bratianu, G.I : recherches sur le commerce Genoie dans la mer noire au XIIIes paris 1929 p49-53

الميناء وكتب واصفا أهميته التجارية : "... وصلنا على مدينة الكافا وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر سيكونها النصارى وأكثرهم جنوبية... ورأينا في مرساها نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري".⁽¹⁾

ومن موقعهم المفضل هذا بالبحر الأسود عمل التجويون على ربط صلات ودية مع حكام المقاطعات المجاورة - الكومان والبغار و الخزر و الأرمن - الذين سمحوا لهم بإقامة منشآت تجارية على أراضيهم. فأقاموا، تبعا لذلك، مستوطنة أخرى " تانا TANA" إلى الشمال من كافا، عند نهاية بحر ازوف على مصب نهر الدون.⁽²⁾ ثم شيدوا مستوصه تالته على الساحل الشرقي للبحر الأسود عند مدينه طرابيزوند Trabizonde. (3) ومن الطبيعي أن تستفيد جنوه كثيرا من هذه المستعمرات الثلاثة التي أقامتها على أطراف البحر السود، بحيث صار في وسع رعاياها المقيمين بهذه المستعمرات الاتصال مباشرة بمنتجات بلاد فارس والهند، والصين، وروسيا وبلغاريا. فالسلع الثمينة التي كثر انطلب عليها بين اوساط الطبقات الراقية في المجتمعات الإسلامية و الأوروبية، على سواء، كالتحرير والتوابل والفراء والأخشاب، كنت تأتي على رأس قائمة البضائع التي أختص تجار جنون في طلبها بأسواق البحر الأسود. ومنها كان يتم شحنها بكميات كبيرة إلى مراكز الاستهلاك بأسواق البحر المتوسط و أوروبا.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ابن بطوطة، الرحلة، المساء تحفة النظر في غرائب الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1992، ص 335-37.

⁽²⁾ Bratianu, G. I : sites des notaires Génois de para et du caffà à la fin du 13^e s (1281-1290). , Bucarest, 1927, p18-36.

- A.Saporit: Le marchand Italien au moyen age, conférence et bibliographie. Paris, 1952. p59

⁽³⁾ Bratianu, G. I : recherche sur le commerce Génoise dans la mer noire.p55-6.

⁽⁴⁾ Balard, M : « les Génois en Asie centrale et en extrême orient au XIV^es. un cas exceptionnel » dans : Economie et société au moyen age, a Mélanges offerts à E.Perroy) publication de la Sorbonne. Paris, 1973. pp681-688.

كما اشتهرت المونى الجنوبية على البحر الأسود، خلال هذه الفترة كأكبر مستودعات العالم في تجارة الرقيق، وتميز تجار جنوة عن غيرهم كأكبر موردي العبيد لسلطين المسلمين.⁽¹⁾ وإلى هذا العهد يعود رخاء وازدهار التجارة الجنوبية في المشرق. وإلى هذا العهد، كذلك، يسجل التاريخ لأول مرة، تفوق تجار جمهوريه جنوة على غيرهم من الأمم الغربية في الاستفادة من عائدات التجارة الدولية في العصور الوسطى.

(5) - حروب جنوة ضد منافسيها على تجارة البحر المتوسط .

لم تكن مدن جنوة والبندقية وبيزا، عندما بدأت تباشر النشاط البحري ضد مواقع المسلمين في عرض مياه المتوسط، مجرد قوات بحرية مغامرة، ولكنها كانت قد أصبحت بتفعل جمهوريات مستقلة تدير شؤونها حكومات مستنيرة، ولديها قدرات عسكرية على جلب كبير من الغنم والنفعية.⁽²⁾

لذلك كان من الطبيعي أن تدخل هذه القوى البحرية والتجارية الفتية في نزاعات مستمرة سمرت، في الكثير من الأحيان، عن نشوب معارك طاحنة بينها.⁽³⁾ وكان الناعث على هذه النزاعات المتكررة يكمن أحياناً في الخلافات حول مسائل الحدود بينهما، خصوصاً في مستعمراتها المتواجدة بالشرق . وأحياناً بسبب التحالفات الغير برينة مع قوى أجنبية أخرى، فيما يبقى عامل الغيرة والحسد الدافع الأساسي الذي كان يوماً وراء تاجيح نار الفتنة والصراع بين أهالي تلك المدن التجارية المتجاورة. إذاً غالباً ما كان مواطنو هذه القومونات الذين أخذ أعدادهم يزداد، شيئاً فشيئاً، يفضل الانتماء

⁽¹⁾ Balard, M : remarque sur les esclaves à Gênes dans la moitié du XIII^e.
in Mélanges de l'école française de Rome, 80, 1968, p653-6.

⁽²⁾ Symonds, J.A: The Renaissance of Italy, Vol. I, N York, 1935, p14-16
- Monday, J H: the medieval Town, N York, 1958, P 36.

عن حروب جنوة ضد جيرانها من المدن البحرية الإيطالية. راجع:

⁽³⁾ Annale Genovese, T2/ p149/ T7 p 66 & 138/ T3, p89 / T4, P89-90



٥. الخريطة الماسية لإيطاليا مع نهاية القرن 15م

الاقتصادي⁽¹⁾، يرفضون رؤية جيرانهم يتفوقون عليهم في المال والأعمال والنفوذ. عصر اشتدت فيه حدة المنافسة والتفاخر بين الحكومات المحلية. ولقد واجه أبناء مدينة جنوة الأحرار، أثناء سعيهم للظفر بنصيب من الامتياز التي اصبحت توفرها التجارة الدولية في مياه البحر المتوسط والبحر الأسود، مواقف صعبة اضطرتهم، في أكثر من مرة، إلى اللجوء في نزاعات ومعارك طاحنة ضد منافسيهم من المدن البحرية المجاورة، وبصورة خاصة ضد البنادقة والبيزنطة. واستمر العداء والحروب بين أبناء هذه الجمهوريات المستقلة لعهود طويلة، ولم تنتج آثارها بعد أن تحول تيار التجارة الشرقية عن مساره التقليدي من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي، على إثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي⁽²⁾.

أ- حروبها ضد جمهورية بيزة

وهكذا فعندما اشتركت، لأول مرة، قوات جنوة إلى جانب قوات بيزة سنتي (1015-1016م) نظراً للمسلمين من مواعيد بجزيرتي سرينيد وكورميك⁽³⁾، استمر على ما وجدت القوتان الجارتان نفسيهما، بمجرد انتهاء العمليات العسكرية المشتركة، أمام خلافات حادة بسبب تقسيم الغنائم⁽⁴⁾، وتطورت حدة الخلافات بينهما إلى أن أدى الأمر بهما، في النهاية، إلى رفع السلاح ضد بعضهما البعض. وتذكر الروايات المعاصرة أن قومونة جنوة جندت في هذه الحرب كل من كل قبيلة من الرجال بين الثامنة عشر والسبعين من العمر، وسلكت بيزة، هي الأخرى، نفس السلوك، وظل أبناء المدينتين

⁽¹⁾ Hutchinson, L.: Oriental trade and the rise of the Lombard Commune, a quarterly journal of Economie, Vol. XVI, N.York, 1966, p. 111-16.

⁽²⁾ نعيم زكي في: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب...، ص 35-46.
فلروق يعمل أنطون، التي تحول التجارة الدولية إلى رأس الرجاء الصالح وبحال البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، مطبعة الأسفار الإسكندرية 1988، ص 67-93.

⁽³⁾ Dover: de Sardinia insula, Berlin, 1866, p 50-63.

⁽⁴⁾ Bragadin, M.A : histoire des république, P 33

⁽⁵⁾ Sismondi, M.S. : Histoire des Républiques Italiennes, T1, P 205

يقتتلون يد بيد في هذه الواقعة، حتى هلك نصف المحاربين من الطرفين، وارتفعت أصوات الشعب المسيحي في كامل إيطاليا تناشد المدينتين الجنوح إلى السلم والمصالحة. وكتب الراهب سلمبين *salimbene* وقته يقول: « بين أهل بيزة وأهل جنوة من الحقد والاشمئزاز الطبيعي بقدر ما بين الأرميين والأفاعي». (1).

ولم تتوقف المعارك بينهما إلا بعد محاولات متكررة وضغوطات كبيرة مارسها كل من الباب (بنوا الثامن *BEAUFORT VIII*) و (ليوا التاسع *Leoluca*) لإقناع حكومتي البلدين بصبر و زلة العيون عن هذه السياسة العدوانية. وأعلن بذلك على آخر جهودهم الحربية وتسخيرها لقتال المسلمين، أعداء الأمة المسيحية، واستخلاص البحر التيراني من أيديهم. (2) غير أن جل المبادرات التي بذلت في سبيل بناء جسر السلم والتقارب بين الجمهوريتين البحريتين الطموحتين قد كشفت عن محدوديتها وهي ما تزال في بداية الطريق. و سرزاد في تعميق هذه الخلافات بين المدينتين المعاندات اقتصاديه الكبيرة التي أضحت توفرها المغامرة العسكرية في عرض مياه المتوسط بسبب ما انتهت إليه حال المسلمين من ضعف وانكسار. (3)

وهكذا فعندما انطلقت الحملة الصليبية الأولى باتجاه المشرق، حولت كل من جنوة وبيزة ميدان نشاطهما إلى الضفة الشرقية من المتوسط. فقامتاهما بمدى أهلية هذه المنطقة في التجارة الدولية. فلطالما حاول بعض المغامرين من أبناء المدينتين، قبل انطلاق الحركة الصليبية، ارتياد السواحل الشاميه والمصرية للإسهام في تجارة المشرق الأدنى، ولكن الظروف، وقتذاك، لم تكن في صالحهما، نظرا لوجود منافسين أقوياء

(1) وول ديورنت. المرجع السابق، ص 15، ص 130.

(2) Ann Genovesi, T1, P280.

- De Mas laterie : relations et commerce, P 14-16

- Sismondi, M.A : op. cit. T 1 p 294-295.

(3) أرشيبالد، ل : المرجع السابق، ص 344-5 ...

-Balard . M : croisade et Orient... P 278.

سبقهم إلى هذه الجهات، وأقاموا علاقات مميزة مع أصحابها.⁽¹⁾ فالبنادقة والامالفيين كانوا قد اعتادوا التجارة مع الموانئ الإسلامية والبيزنطية في شرق المتوسط منذ زمن مبكر، حتى أضحت هذه التجارة بالنسبة إليهم ضرورة حيوية لا يمكن بأي حال من الأحوال التفريط فيها، أو السماح باقتسام فوائدها بسهولة مع أطراف أجنبية.

لهذا السبب كان على رجال أعمال جنوة التزاد الحذر والتريث والتربص إلى أن يحين الوقت المناسب. وعندما سحنت الفرصة، في إطار مشروع الحركة الصليبية، التي بادرت بها واشرفت عليها المؤسسة الدينية (البابوية)، كان أبناء مدينة جنوة أول من استجاب لنداء البابا للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى ضد المسلمين في المشرق، وكانوا هم أول من بادروا بإرسال السفن والمساعدات اللازمة لقادة الحملة الصليبية أثناء زحفهم البري على سواحل بلاد الشام.⁽²⁾ واستحقوا لقاء عملهم هذا، مكافآت كبيرة بالمدن والموانئ التي استولى عليها الصليبيون في موانئ سورية وفلسطين.⁽³⁾ ومنذ هذه الحقبة دخلت جنوة في نزاع مستمر مع الأمم التجارية الأخرى. بسبب تعارض المصالح، خصوصاً عندما أخذت كل أمة تسعى لمسد الطريق في وجه منافسيها، من خلال التجهج

(1) تعود بداية صلات بعض المدن البحرية الإيطالية مثل البندقية وأمالفي وجاليتي وميلانو مع موانئ شرق المتوسط إلى أواخر القرن العاشر الميلادي، وتعود نشأة أوردها المورج بحرين بعد التمسك بها، وحدث انسحاب في القاهرة سنة 386هـ/ 996م. "..... أنه تاريخ 386هـ جمع بين تطورات الاختلاف بين ملوك النواحي، وأتت المولانا التي كانت عاصمة روم واصلت فيه حرج الأتراك، ولاح ذلك، عام 387هـ، حصار المملوكين على ميناء الجمعة لسبع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة 386هـ، فوقع فيه نار في تلك اليوم وأحرق مائة ستة عشر مركباً، وألهم الرعية بحرية نهر الروم والسفينة (الأتراكين) الرعيين -المنجق- إلى مصر، فدار عليهم الرعية والسفينة وقتلوا منهم مائة وستين رجلاً ونهبوا دار مائت التي في اترقائين بمصر وكان بها ست عظيم نهبوا الروم لأنهم كانوا تارلين فيها.....".

- يحيى الأططكي: تاريخ الأططكي المعروف بصفة تاريخ أوتبخا، تحقيق عمر عبد السلام شعري .

طرابلس، لبنان، 1990، ص ص 233-34

(2) Caffaro: Deliberatione civitatum, op.cit. TV,p45-50.

- ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص 422

(3) Byrne, E.H : « Genoese colonies in Syria in the crusades and others historical essays. » . N York.1928.p136 & 163

- Renouard.Y : Les hommes d'affaires italiens au moyen age... p 48-9

سياسة التحالف مع حكام الإمارات الصليبية الطامعين بدورهم في عرش مملكة بيت المقدس اللاتينية.⁽¹⁾ وكانت النتيجة اندلاع سلسلة من الحروب الدامية بين هذه الأمم التجارية وحليفاتها من الإمارات الصليبية.⁽²⁾ ثم لم تلبث أن تجاوز هذه الحروب حدود الأرض المقدسة لتتحول إلى حرب توسعية استعمارية على أكثر من صعيد، وهيى هذا الوضع العدائي المتصاعد مناخا ملائما للمغامرات العسكرية بين أبناء الجمهوريات الإيطالية البحرية استمرت فصولها حتى نهاية العصور الوسطى.

ولم يكن التنافس حول مناطق النفوذ بالبحر المتوسط، وإنشاء والمستوطنات ببلاد الشام، وحدهما الدافع وراء تزايد علاقات جمهوريه جنوة مع المدن التجارية الإيطالية الأخرى، بل ساهمت عوامل سياسية أخرى مرتبطة بالشأن الأوروبي في إذكاء فتيل الحرب بينها وبين هذه المدن، يأتي في مقدمة هذه العوامل: الخصومة التي اندلعت مع منتصف القرن الثاني عشر (12م) بين المؤسستين القويتين، وقتذاك، في أوروبا الغربية، المؤسسة النديوية (الإمبراطورية) والمؤسسة النديية (البويية)، حول من يملك منهن الشريعة للسيطرة على إيطاليا،⁽³⁾ ولقد وصل النزاع بين المؤسستين إلى ذروته باعتلاء الإمبراطور فريدريك الثاني (العلماني) عرش الإمبراطورية سنة 1220م، الذي

⁽¹⁾ Grousset, R. : Les croisades, T3, p 8-9 & -Ranciman, St : History of the Crusade, 13, p193

- يوشع براون : عالم الصليبيين ، مترجم ، ص 62-3
 "منظر رائع : به عزم سعد صراح أشير سيرة النفس ، على مرع بين كورنا - دي بوزجن - وبن حدي دي لوزجنان ، من أجل الفوز بعرش مملكة بيت المقدس ، سعى كل منهن إلى البحث عن حليف يساعده من بين أمن البحرية الإيطالية ، فكل أن تحدى جنوة مع كورنا في حين سبب بيرة جدي دي بوزجن ، و-ارت بين الفريقين حروب عنيفة ، انتهت بانتصار كورنا وحليفته جنوة مونة ضرر بيرة من مواقعها في صور ، ثم تحدث التصراع بين النديين وحلفهم عند استرجع النديين منية عك التي أعقب الحملة الصليبية الثالثة عام 1191م ، للمزيد بهذا الشأن راجع :

- س ، ع ، عاشور : الحركة الصليبية ج2، ص 885 .

⁽²⁾ Sources d'histoire Médiévale IXe milieu du XIVs. S/direct) de ch.Brunel & E.Lalou .Ed Larousse. 1992. p145 et 156-157.

-J.le Goff : la civilisation de l'occident médiévale, p300-1

تحمس أكثر ممن سبقوه من الأباطرة الألمان، لتجسيد فكرة أولوية السلطة المدنية على السلطة الدينية. وسعى إلى ضم إقليم إيطاليا بالقوة، وتوحيد ألمانيا و إيطاليا تحت سلطة الإمبراطورية.⁽¹⁾ وهي الخصومة التي كانت سببا في تقسيم المجتمع الألماني والإيطالي إلى فئتين، أو حزبين متعادين: حزب يناصر الإمبراطور، وآخر يساند البابوية. فيما صار يعرف، في التاريخ الإيطالي، منذ ذلك الوقت، بحزب (الجيلاف والجيلين (Guelfs & Ghibelines).⁽²⁾ ففي خضم هذا الصراع الذي جرت وقائعه على السبيل الإيطالي وجدت القومونات الإيطالية المتحررة نفسها مضطرة، حسب ما تقتضيه الظروف والمصالح الذاتية، إلى مناصرة هذا الحزب أو ذاك، نجد نفسها في النهاية طرف فعلا في معادلة هذا العراك الدموي الذي طال أمده فترة تزيد عن المائة حول.⁽³⁾

وهكذا ففي غضون هذه الفترة المضطربة التي اختلفت فيها مصالح المدن الإيطالية، وانقسمت في ولائها بين الإمبراطورية والبابوية، وثقت جمهورية جنوة علاقاتها مع عصابة من منصفة لمبارديا التي تؤلف الحزب المعادي للإمبراطورية (الجيلين)، فسي

⁽¹⁾ Heers: précis d'histoire du moyen âge, Ed., PUF, 1968, p133-4.

⁽²⁾ أصل اختلاف يعود إلى خضم وقع سنة 1158 بين هنري الخامس HENRI V الإمبراطوري ذلك له لما توفي الإمبراطور هنري الخامس HENRI V سنة 1125، ولم يكن له وريث على العرش، ثم سقو روفيت، فبعد حرب حول ترسيم شخص معين بولاية غرمن، ففي حين استمر مرادف صدام حول فرنز بريك بريوت وأخوه كونراد من عائلة الهوهنشتوفن، التي تنتمي إلى عشيرة Wechs، ناصر بوقاف إلفم شمال ألمانيا (بولير) بوق سيموني من عشيرة Werblingen، وآخر على إثره لفرينغ في حروب معبر طويلة، ونظر لتدخل المؤسسة الدينية (البابوية) في هذا النزاع المحلي، ووقوفها إلى جانب فريق ضد فريق آخر فقد انقسم ميدان الصراع إلى فصلي، وانفق معه اسم معين (منصرعين مجزوف: Guelfs and Ghibelines)، وصار اسم الجيلين مرادفا للإمبراطورية أعداء البابوية، فيما صار اسم الجيلين مرادفا للبابوية أعداء الإمبراطورية. ولم تنتهي أحداث الصراع بين البابوية والإمبراطورية في كل من ألمانيا وإيطاليا، بل بعد

آخر مولوك الهوهنشتوفن، للمزيد حول هذه المسألة، راجع:

- De Chenier, Histoire de la lutte des papes et des Empereurs de la maison des Souabe, Paris.1841, p 42-60.

- Jhon.Ph : The Italian-city from Commune to Signoria, Oxford, 1997.p 98-100.

⁽³⁾ فيشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ج1، ص 196-7.

حين انحازت غريمتها جمهورية بيزة الى عصبة (الجبليين) المعادي للندوية.⁽¹⁾ فكان هذا الوضع كفيلا بان يدفع أكبر مدينتين واقعتين على ساحل البحر التيراني إلى التطاحن مرة أخرى. وشهد العالم المسيحي باستغراب فصولاً من هذا الصراع الدموي بينهما الذي جرت وقائعها بموانئ جزيرة صقلية على امتداد عام 1197م.⁽²⁾

و لم تكن طموحات جمهورية جنوة ترمي إلى بسط كامل سيطرتها على مياه البحر التيراني. كما هو عليه الشأن بالنسبة لجمهورية البندقية، التي نجحت في جعل حوض البحر الأدرياتيكي منطقة خالصة لنفوذها.⁽³⁾ لذلك راحت تتبع خطوات منافستها بيزة في كل اتجاه و تضايق عليها في كل مكان. في المشرق والمغرب. وفي صقلية وكورسيكا. وأندلس وجنوب فرنسا. مما هيا الظروف. مرة أخرى. لعودة اشتراكات المسلحة من جديد بين أبناء المدينتين التي سرعان ما تطورت إلى حرب مستمرة بين الجمهوريتين. انتقلت شرارتها إلى أوساط الجاليات القاطنة بالمستوطنات التجارية في الإمارات الصليبية ببلاد الشام. حيث اندلعت أعمال عنف ضارية بين الجنوبية والبيزارنة في سواحل عكا وصور وصيدا.⁽⁴⁾ لم تكرر أحداث العنف هذه حتى أصبح صاهرة مألوفة، بحيث كلما نشبت حرباً بين الجمهوريتين بيزة وجنوة. تنتقل مصالحيها إلى ما وراء البحار حيث تقطن جاليات المدينتين.

ولقد وصل النزاع بين أبناء الجاليتين في بلاد الشام ذروته. هذه المرة. مع وصول الإمبراطور فريدريك الثاني في حملته التي أرغم على انقياد بيت الحملة السادسة عام (1228-1229م). إذ جلبت هذه الحملة معها بذور الصراع الدائر منذ

⁽¹⁾ Haulle ville: histoire des commune lombardes. 1847. P 169-170.

- De Cherrier : op.cit . P 118.

⁽²⁾ Bragadin : op.cit . P 69.-/ Leo. H : op.cit . p 342 -343..

⁽³⁾ Renouard.Y: Les Villes, op. cit., T.1 p87-8.

⁽⁴⁾ أنشيت. ن. . المرجع السابق. ص 316-315..

⁽⁵⁾ Vitry, de.J: the history of Jerusalem, ed.london. 1896. p64-70.

-Rey.E.G: les colonies franques en Syrie au XII et XIIIes. paris 1883-p89-92.

R-Richard : le Royaume latin de Jérusalem. , paris. Puf. 1953- p283-8.

زمان بين أنصار الإمبراطور ومؤيدي البابا إلى فلسطين، خصوصاً بعدما تبين للجميع أن الإمبراطور فريديريك لا يضمن أدنى حد أو كراهية تجاه المسلمين⁽¹⁾، وأنه قد يأت إلى بلاد الشام ليحامي المسيحيين المنهزمين، ويقوي شوكتهم، وإنما جاء بهدف توسيع نفوذه بضم الأراضي المقدسة إلى إمبراطوريته وسلطانه. وتحقيق الحلم الذي عجز عنه أجداده من قبل.

ولقد باتت نوايا الإمبراطور فريديريك الثاني في السعي لفرض سلطانه على الإمارات الصليبية ببلاد الشام واضحة ومفهومة، منذ أن أقدم على الزواج من يولاندا أرملة "جور-ي برانار" وورثة ממكة بيت المقدس الصليبية حيث استغل هذا الأمر ليضغط على حكام تلك الإمارات الصليبية، لحملهم على الاعتراف له بحقه في إمارة بيت المقدس⁽²⁾. غير أن الأمور لم تسر وفق ما كان يخط له الإمبراطور، إذ وقف أغلب الأمراء و البارونات في طريق مشروعه، بتحريض من بابا الفاتيكان الذي سعى، هو الآخر، بكل ما يملك من جهد ونفوذ، لتفشل مشروع الإمبراطور والإضاحة به يهتبا.

واستمرت العداوة والمعارك بين أبناء المدينتين وحلفائهما حتى بعد موت الإمبراطور فريديريك الثاني سنة 1250م لسنين طويلة، هلك خلالها أعداد كبيرة من مواضعي المدينتين، إلى أن تحقق النصر أخيراً لأبناء جمهورية القديس جورج على أبناء جمهورية بيزة في معركة كبيرة جرت وفاتها في 6 أغسطس سنة 1284م. بالتقريب من جزيرة ميلوريا Meloria قبالة ساحل كورسيكا⁽³⁾. ولقد خسرت جمهورية بيزة في هذه

⁽¹⁾ بحث برستة ود وسلاط الم السلطان الكامل، يوضح له فيها بأنه ما جاء الم فلسطين لمحاربة المسلمين، إنما خرج مكرها للحفاظ على ملكه، راجع نص الرسالة:

J.F. Michaud : histoire des croisades. Ed. abrégée. paris. Laffont.1970.p392.

-أماري-م: المكتبة الصقلية، ج2 ص14.

⁽²⁾ J.M.Bagnandez : les croisades une tranche d'histoire méditerranée،

Paris, 1995. p113-16.

⁽³⁾ H.leo : opcit,p741.

المعركة كل ما تملك، حتى علق الناس وقتها قائلين: '... من أراد أن يرى بيزة فعليه أن يذهب إلى جنوة'. « S'il on voulait voir Pise, c'était à Gènes qu'il faut ... »⁽¹⁾ « Aller... ».

وأخيرا رأت جنوة، الفخورة بنصرها، أن أحسن وسيلة لحسن الإبقاء على عدوتها المنهزمة بيزة خارج حلبة المنافسة مستقبلا، ضرورة أن تفرض عليها معاهدة صلح وتحالف، تتعهد بموجبها حكومة بيزة بعدم الاعتداء على أملاك الجنوبيين، وبإعادة ترميم كل ما تخرّب من أملاك الجالية الجنوبية من جراء الحرب، وبهذا النصر الجميل الذي تحقق لأبناء مدينته أنفيس جورج، أراحت جنوة عقبه ثقيله من ضيقه لتتفرع، بعد ذلك، بكل طاقاتها لمواجهة العقبة الأساسية لجمهورية البندقية.

ب- حروبها ضد جمهورية البندقية.

تعد جمهورية البندقية، التي تقع على الساحل الشمالي للبحر الأدرياتيكي أول مدينة بحرية إيطالية عرفت نظام الحكم المحلي. إذا يرجع تاريخ انتخاب أول حاكم مدني بها لإدارة شؤون المدينة إلى عام 687م، وكان يعرف بالدوج Doge Dux⁽²⁾ كما أن البندقية تعد من المدن القلائد في إيطاليا التي حافظت على صلاتها مع الإمبراطورية البيزنطية، ولم تقطع تبعيتها الاسمية لها حتى في أحلك فترات النزاع المذهبي بين أباطرة القسطنطينية وباباوات الكنيسة الكاثوليكية في روما.⁽³⁾ وتدين مدينة البندقية في ازدهارها

⁽¹⁾ E.Lavisse & A.Ramnaud : histoire générale T2, Ed.Armand colin.paris.1893.p514.

⁽²⁾ Daru, le conte: histoire de Venise, part 1. Bruxelles. 1840. p10-13.

-Bailly; A: la Serenissime République de Venise, Paris. 1946. p8-10.

- سيل شارل: البندقية جمهورية أرستقراطية مترجمة، القاهرة، 1948، ص 16-19

⁽³⁾ - انقطعت علاقات الكنيسة البيزنطية في القسطنطينية عن الكنيسة الكاثوليكية في روما رسميا سنة 1053م بسبب

حداقات مذهبية : ثم تطورت الأمور فوصلت القطيعة بين الاثنين واليونانيين وبذلك التباينة في الغرب كل

الاقتصادي المبكر إلى علاقاتها المميزة مع بيزنطة. حيث حصّ التجار البنادقة بمواني الإمبراطورية، منذ البداية، بامتيازات وحقوق هامة سمحت لهم بالنشاط التجاري مع الأقاليم المطلة على السواحل الشرقية للمتوسط، وضعتهم في مقدمة القوى البحرية اللاتينية التي جحت في إقامة علاقات ودية مع المسلمين، منذ أن دخلت تلك الأقاليم في حظيرة الإسلام. وإلى هذا العهد ترجع المصادر اللاتينية قصة الحادثة التي تروي كيف تمكن تجار البندقية المقيمون بمدينة الإسكندرية من سرقة رفات "القديس مرقص Saint Marc" ونقلها إلى مدينتهم التي صارت، منذ ذلك الوقت، تعزّر بتسمية نفسها باسمه. "جمهورية القديس مرقص" *La République de Saint Marc* ⁽¹⁾

ومن الطبيعي أن ينظر البنادقة بعين غير راضية إلى هؤلاء القادمين الجدد، الذين جاؤوا يزاحمونهم على أرض ظلوا وحدهم تقريبا، حتى ذلك العهد، سادة فيها. أما الجنويون الذين اتاحت لهم الحروب الصليبية فرصة ثمينة للمساهمة في فوائد التجارة الترفيه الدولية فيهم، بالمثل، لم يكونوا على استعداد للتفريط بسهولة في مكاسب هذه التجارة المربحة مهما كلفهم الأمر. وسوف يبدلون كل ما في وسعهم للحصول على الامتيازات والحقوق التي ترفع مدينتهم إلى نفس المرتبة التي وصلتها مدينة البندقية. وتوجد في الواقع عداوة قديمة بين المدينتين تعود إلى نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر، عندما أظهرت البندقية، وقتها، سنوك مربيا، وموفقا غير مبال حيل

ما في وسعها لإنهاء ندبة أقاليم جنوب إيطاليا بيزنطة، فيما عملت الإمبراطورية البيزنطية من جهتها على إعادة إرساء تنظيم الحكم البيزنطي في هذه المناطق، للمزيد:

F. C. Lane: Venise une République.p40

فيشر: هـ.أ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ج. 1، ص 177-178.

⁽¹⁾ بين الفترة الممتدة بين 827 و828م، استطاع تجار من البندقية مقيمون بمدينة الإسكندرية من سرقة رفات "القديس مرقص St. Marc" وهو أحد كتبة الإنجيل، Evagélisme، ونقلوها إلى مدينتهم. للمزيد راجع:

-Heyd,W : Histoire du commerce du levant ,T1. p125.

-Brehier,L : la civilisation byzantine, p182.

-Fc.lane : Venise une république maritime,p40.

الحرب الدائرة بين جنود ومسلمي صقلية والمغرب والأندلس، إلى درجة اتهامها صراحة بالوقوف إلى صف المسلمين، وشكوها، أكثر من مرة، للبابوية بتهمة تقديم العون والمساعدة للمسلمين، وبخاصة العتاد الحربي الحديد والأخشاب.⁽¹⁾

ومن البدايه سكنت الجزر انوافعه على صريق السفن المتجهه إلى الشرق بؤرة خلاف وصراع بين المدن البحرية الإيطالية، وبصورة خاصة بين البندقية وجنوه، لكن هذه الجزر تمثل محطات هامة في طريق القوافل يقصدها التجار للاستراحة والتزود بالمواد، وإصلاح السفن التي تتعرض للعطب⁽²⁾. ولم تكن البنادق قد حصلوا، منذ زمن مبكر، من أبصره ببربطة على أنمايزات خاصة سمح لهم بإنشاء مستوطنات جارية على العديد من تلك الجزر المنتشرة عبر البحر المتوسط وبحر إيجة⁽³⁾. فقد أثار هذا الوضع مشاعر الضيق والحقد لدى الجنوبيين الذين أخذوا بنورهم يتقربون من سادة القسطنطينية للظفر بما سبقهم فيه البنادق، وتوافقت تحركات قومونة جنوة باتجاه القسطنطينية مع التوجهات السياسية الجديدة التي اتبعتها أسرة كومنين من توليها مقاليد السلطة في القسطنطينية، وبدأت تتبع سياسة جيدة تلب إلى التقرب والمصالحة مع مختلف المدن الإيطالية البحرية لحملها على تقديم الدعم والمأزرة لها لوقف الزحف النورماندي السائر قدما في جنوب إيطاليا⁽⁴⁾، ومن ذلك الوقت بدأت الظروف ملائمة، لأول مرة، لحدوث التقارب بين حكومة القسطنطينية وقومونة جنوة، استغانت على إثره، هذه الأخيرة، من مزايا معتبرة وضعتها في مرتبة متميزة بوضع إينافيد⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ Amari.M : storia di musulmani di sicilia ,vol1,p225.

⁽²⁾ E.Braudel : la méditerranée et la monde méditerranéen à l'époque de Phillipe II.T1. p1054-6.

⁽³⁾ Heyd,W : opcit.T1. p193-4.

-Fe. Lane : Venise une republique. opcit. p54-5.

⁽⁴⁾ Haskim : the Normans in the Europe history. p203-206

⁽⁵⁾ IR Freedman &K M FIGG : op cit. p211-12

غير أن البندقية التي تعودت الاستئثار لوحدها من مزايا التجارة مع بيزنطة لم يرق لها أن ترى طرفاً آخر يزاحمها على هذه المصالح، ومن ثمة أخذت تحتاط من هذا التقارب، وفسرته على أنه تحالف مريب وسلاح موجه ضدها، الغرض منه أحد من نفودها بالمنطقة. ومنذ تلك اللحظة، بدأت تخصص نتوجيه ضربة وقائية قبل أن يغيب العدوان عليها، فاستغلت عداوة جمهورية جنوة مع بيزنة ونسقت جهودها مع هذه الأخيرة، وأغار الاثنان على ممتلكات الجنوبيين بالقسطنطينية وأوقعوا فيها النهب والتخريب⁽¹⁾.

ولقد أثار هذا الحادث المروع الذي تعرض له أبناء مدينة جنوة فوق تراب الإمبراطورية غضب الإمبراطور أمانيول Emmanuel، كما ساءد، في انوفت نفسه، بين سكان الإمبراطورية، شعور بالاستياء والاستكثار، سرعان ما استحال إلى عدا بغيض تجاه جاليات البندقية، التي لم يغفروا لها ضخامة الامتيازات الكبيرة التي حازت عليه في ربوع الإمبراطورية، والتي صارت تشكل عبثاً ثقيلاً على المجتمع البيزنطي⁽²⁾. وفي وسط هذا انجوا المنسجون بالعداء ثارت جماعات هتجة من عامة ألبيرنطين، فاقصموا على أحياء البنادقة وأملاكهم وعاثوا فيها فساداً وتخريباً، مما اضطر غالبية مواضلي البندقية إلى مغادرة مواقعهم بالمدينة التي عنها القوضي والتعسف من نور رادع، وانقطعت تجارة البندقية، جراء ذلك، مع بيزنطة زمناً طويلاً⁽³⁾.

استمرت حكومه البندقية كثيراً من تصرفات أبصره بيزنطة التي لم تدور في أحد من نشاطاتها التجارية على أراضيهم. في حين أغدقوا الامتيازات على منافستها جنوة، ومن ثمة أخذت تعد العدة للثأر لنفسها بتوجيه ضربة للإمبراطورية البيزنطية، وابتسم لها الحظ أخيراً عندما جاءت جيوش الحملة الصليبية الرابعة تلمس العون من حاكم البندقية

⁽¹⁾ Balard, M: la Romanie Génoise: T1, op.cit, p16-19.

⁽²⁾ Guimart, L: La Lagune inspirée. In Venise au temps des galères, Librairie hachette 1968 p36-37

⁽³⁾ ح. هيسي: العالم البيزنطي، مترجم، ص 167.

- النضحي حاتم: بيزنطة وأمنس الإيطالية (العلاقات التجارية) 1081-1204، ط1، ص 75-6.

الدوق أنريكو داندالو Enrico Dandolo للاستعانة بأسطول دولته في نقل المحاربين إلى الضفة الشرقية للمتوسط⁽¹⁾. ولما كانت هذه الحملة على خلاف سابقاتها، بنفصها التنظيم المحكم، والتموين الكافي، والقيادة الرشيدة، بسبب عجز الداعين لها عن إقناع الملوك وأمراء الإقطاعية الكبار لتلتحقوا بهذا المشروع، وتقديم الدعم والتمويل له، كما جرت العادة مع الحملات السابقة، فقد انحصر أمر تأطيرها في يد حفنة من النبلاء المغموين السذج⁽²⁾. لذلك وجد حاكم البندقية الدوق داندالو Dandolo، العجوز الداهية، في العرض الذي تقدم به الصليبيون فرصة ثمينة لاستغلال الحملة في خدمة مصالح مواطليه، واستعادة ما ضاع منهم من مواقع وأماكن على ضفاف البسفور وبحر إيجه⁽³⁾. وكانت النتيجة مذهلة، إذ سقطت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية في أيدي الصليبيين في يوليو 1203م، وجرى اقتسامها بين المنتصرين⁽⁴⁾، وضمن البنادقة حصّة الأسد فيها⁽⁵⁾، حتى لقب دوق البندقية بسيد الربع ونصف الربع في الإمبراطورية seigneur du quart et demi de l'Empire. وبهذا أصبحت البندقية، مرّة أخرى، القوة الأولى في بلاد اليونان، في حين خسرت جنوة موقعها بالمنطقة بسبب عدم مشاركتها في الحملة، على أنه منذ هذه اللحظة، سوف يملك أبناء جنوة بدورهم كل السبل لاسترجاع مجدهم الضائع في بيزنطة. فكان عليهم، بادئ ذي بدء، استغلال مشاعر الكراهية التي

⁽¹⁾ D.E. Queller : the fourth crusade (university of Pennsylvania press), 1977, p84-7.

⁽²⁾ فيشر، هـ. أ. المرجع السابق، ج1، ص 242.
- أنثوني تريج: المرجع السابق، ص 328.

⁽³⁾ Villehardouin, G. de : la conquête de Constantinople, p19-20.
- M.Kaplan: « le sac de constantinople » in les croisades s/direction de R.Delort, Ed de seuil, 1988, p200- 203.

⁽⁴⁾ Pears, (E) : the fall of Constantinople, p295-298.

- Jorga, N: the Byzantine Europe, p170- 4.

⁽⁵⁾ Freddy. Thiriet: Le Quart et demi de la Romanie. in Venise au temps des Galères d hachette. 1968 p57.

كان يضمها اليونانيون تجاه الغزاة اللاتينيين، وراحوا يحثونهم على المقاومة⁽¹⁾، فيما لجأ القراصنة الجنوبيون، بالموازاة مع ذلك، إلى تكثيف نشاطهم البحري ضد مصالح البندقية في مياه البحر المتوسط وبحر إيجه لعرقلة اتصالات البنادقة مع مستوطناتهم في الشرق⁽²⁾، وركزوا هجماتها، بالدرجة الأولى، على مواقع البندقية بالإمارات الصليبية، في كل من عكا وصور، مما تسبب في عودة الممارسات الدامية إلى سيرتها الأولى من جديد، وكانت أعنفها على الإطلاق تلك الحرب التي اندلعت بين جاليات المدينتين في مدينة عكا في أواسط القرن الثالث عشر بسبب جملة من الخلافات، يأتي في مقدمتها اختلاف حول ملكية دير "سان سباس ST Sabas"، الذي يقع عند نقطة فاصلة بين حدود أحياء الجاليتين المتخاصمتين، عندما ادعى كل طرف حقه في ملكيته⁽³⁾، ولما فشلت جميع سبل التصالح لإنهاء هذا الخلاف بالطرق الودية، تآزمت العلاقات بينهما إلى حد أن وصلت إلى التشابك بالسلاح في شوارع وأحياء مدينة عكا، ألحقت أضراراً فادحة بمصالح الطرفين، وانقسمت

⁽¹⁾ ترقب عن سقوط القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في أيدي المسلمين سنة 1204م، انظر: المساعدة الإمبراطورية إلى عدة مماثلت حمل حكامها لقب أميراطور، ממלכה "بيروس" Eperus في الشمال الغربي من بلاد البلقان، وتضم أسبوس وجزء من البلقان، يعنى غريغوريا شاس "أندرس" Theodor Angelus، يسكنة هذه Nicaea في الشمال الغربي من آسيا الصغرى وتخضع لثيودور لامسكاريوس Theodore Lascaris، يعنى الشوافي الجنوبية الشرقية للبحر الأسود كانت تقود بعضاً ממלכה في برونو Trbizonde البيزنطية تحت سيطرة من فروع أسرة كومنين، وإن كانت هذه المملكة الأخيرة قد قامت في الحقيقة بمساعدة جورجيا Georgia في عزو القسطنطينية، ومما الدية أخذت هذه المملكة تسعى لتباعد عنها على عكس الإمبراطورية، وكانت ممملكة بقلية كبرى المخلص للم المشروع خصوصاً في عهد الإمبراطور ميخائيل باليوجوس MICHAEL PALAEOLOGUS الذي كان يلعب بكفاءة عالية في إدارة شؤون المملكة، تمثل على تحديد نفوذ مختلف مع البيزنطية في مارس 1261م، سيم يستعيد امتيازات تجارية واسعة لقاء وعدهم بإياد بالمساعدة، وتحقق مشروعه، حيث استرد القسطنطينية في 25 يونيو 1261م، وتفردت أمرته بحكمها بعد ذلك، قرية قرس من الترمز، إلى أن سقطت نهائيًا سنة 1453 على يد القوات العثمانية، للمزيد راجع:

Geana kapelos, d.j : Emperor Michael Palaeologus and the west. 1258-1292, p126-8.

⁽²⁾ Balard, M: la Romainie Génoise T1, p93-6.

- ش ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، ص 54-55.

⁽³⁾ Brehier, L: Vie et mort de Byzance, p390

-Pernoud, R : Les croisades, op.cit., p265.

القوى الصليبية المتواجدة ببعض المدن بالشامية، مرة أخرى، إزاء هذا الصراع. فتلقت الجنوبية الدعم من فيليب دي مونفرات. صاحب صور، الذي قام بطرد البنادقة من ممتلكاتهم القديمة بالمدينة⁽¹⁾، كما هبت العائلات الجنوبية من آل أميريأتشي المقيمة في مستوطنة جبيل القديمة إلى نجدة مواطنيهم بعكس⁽²⁾.

أما البنادقة فقد وجدوا الدعم والمناصرة من البيزنطة، حلفائهم القدماء، إلى جانب كل من الأمير بوهمند السادس صاحب إنطاكية. وكذلك فرسان الهيكل وجماعة التجار البروفنسيين⁽³⁾. وارتفعت أصوات في عدة جهات من العالم المسيحي تندد بهذه الحرب التي شنت صفوف أبناء الأمة المسيحية وبددت فدراتها، وألحقت أضراراً بائغة بالتجارة في حوض المتوسط. وفي الأخير مال النصر لصالح البندقية ومعسكرها القوي في موقعة 1258م عندما تحقق لها النصر على القوات الجنوبية، وبذلك قضت على مصالح مواطني جنوة في عكا، وتم إخراجهم بالقوة من المدينة، بعد أن هدمت بيوتهم وحواليتهم وأبراجهم، واقتسم البندقيون وحلفائهم أموالهم⁽⁴⁾.

ولكي تعوض عن هزائنها بمدن الساحل الشامي، اضطرت جنوة إلى نقل ميدان الحرب إلى عرض مياه البحر المتوسط، بحيث أعطت الحكومة الجنوبية توصيات لجميع القيادات البحرية بأن تتبع سفن وأساطيل البندقية أينما اتجهت، وأرسلت البندقية، من جهتها، تعزيزات كبيرة لحماية أساطيلها من اعتداءات انجوي، مما اضطر الأمر، في ضل تنامي اعتداءات القرصنة على قوافل التجارة، إلى دخول الدولتين في سباق متسارع لبناء الأساطيل الحربية لاستعمالها في حراسة القوافل التجارية من هجمات القرصنة. وازدادت

(1) Byrne, E : Genoese colonies in Syria. opcit.p178.

(2) Ibid.

(3) J. Richard : opcit, p299./.-Grousset, R : opcit, T3, p541.

(4) F.c. lane : op.cit,p122.....

الأحقاد، تبعا لذلك، بين الخصمين، إلى درجة أنه لم تعد سفن البنادقة و الجنويين تلتقي في عرض البحر من دون أن تتصادم.⁽¹⁾

ولم يتوقف عنف الصراع الشرس بين قوات البحريتين الجنوبية و البندقية إلا بعد محاولات حثيثة للتصالح بينهما بدلتها كل من باب اتفاكيان كلمنت الرابع . Clement IV . والملك الفرنسي لويس التاسع Louis IX ، الذي تدخل هو الآخر بكل ثقله، لأنه كان في حاجة مستعجلة للحصول على دعم الدولتين له في مشروعه الذي كان بصدد التحضير له لغزو تونس. ⁽²⁾ وتم عقد هدنة بين الجمهوريتين عام 1270م، اتفقا بموجبها على أن تتوقف الحرب بينهما، وأن تسترجع كل أمه أملكه و موافعها القديمه. ⁽³⁾

أما الجنويون، فمنذ أن اضطرتهم الظروف إلى هجرة أماكنهم بديار الشام، عقب الهزيمة المذلة التي لحقت بهم على يد البنادقة وحلفائهم، فقد نقلوا مركز عملياتهم إلى بيزنطة، وتحالفوا مع إمبراطور نيقية لضرب مصالح البندقية في القسطنطينية و بحر إيجه . وتحقق لهم ذلك من دون عناء، عندما تمكن الإمبراطور باثيونوجوس من الاستيلاء على القسطنطينية، وإنهاء الحكم الأجنبي اللاتيني بها عام 1261م، فظفر على إثر ذلك الجنويون بما كان قد وعدهم به الإمبراطور المنتصر بموجب اتفاقية نيفيود Nypheum ، ⁽⁴⁾ وزادهم فوق ذلك، أن منحهم أحياء البنادقة ومواقعهم في رومانيا. ⁽⁵⁾ ومنذ ذلك الحين صار مواطنوا جنوة تتمتعون بأكبر نصيب من النفوذ في القسطنطينية، و يقيمون اعترافيل في طريق البندقية إلى بحر إيجه والبحر الأسود، مما ترتب عن ذلك أن تفجرت الأحقاد والكرهية من جديد بين الأمتين، وشهد العالم، مرة أخرى، أسوأ ط من الحروب

⁽¹⁾ F.C.Lane: op cit, p122-3

⁽²⁾ M.Vierge.Francheshini : Guerre et commerce en méditerranée du X au XX s, Paris 1991, P103-119.

⁽³⁾ Ibid

⁽⁴⁾ راجع ما سبق..

⁽⁵⁾ Proccaci . op.cit. p36.

والصدامات الدامية هلك فيها أعدادا كبيرة من أبناء المدينتين، جرت معظم وفائعها بمضايق البسفور، والرندليل، وبحر إيجة، خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر، إلى أن انتهت بانتصار جنوة انتصارا ساحقا على البندقية في موقعة " كرزولا Cruzola بالبحر الأدريناتيكي في سبتمبر 1298م. ⁽¹⁾ حيث دمرت البحرية الجنوية الأسطول البندقي تدميرا كليا، واضطرت البندقية، تحت ضغط الهزيمة، إلى قبول الصلح مع جنوة، بفضل وساطة دوق ميلانو " ماتيو سفورزا Matteo Sforzo " ⁽²⁾ واحتفظت جنوة المنتصرة بكامل مواقعها على ضفاف لبسفور والبحر الأسود، وهي المواقع التي بقيت تابعة لها حتى نهاية الإمبراطورية البيزنطية على يد الأتراك العثمانيين سنة 1453م. والمؤكد أن عنف هذا التطاحن المستمر بين قومونة جنوة ودوقية البندقية، هو الذي عجل بسقوط الإمارات الصليبية في بلاد الشام الواحدة وراء الأخرى، إلى أن خرج الصليبيين نهائيا من المنطقة بسقوط آخر معقل لهم، مدينة عكا عام 1291م ⁽³⁾.

⁽¹⁾ F.C: Lane: Venise.op.cit,p131-32

⁽²⁾ Renouard.Y : op.cit,T1, p127.

⁽³⁾ Grousset.R : op.cit, T3, p748.-.

* - الفصل الثالث

* - نشاط جنوة الصليبي في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر

(1) - تدهور البحرية الإسلامية في غرب المتوسط منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.

(2) - نشاط القرصنة الجنوبية في غرب المتوسط قبل بداية الحروب الصليبية.

(3) - الحملة الصليبية على المهديّة سنة 1087 د.

(4) - تصاعد أعمال القرصنة والعدوان البحري الجنوبي على عهد المرابطين والموحدين.

(5) - العدوان الجنوبي على مدينة سبتة (629-633هـ = 1231-1235م)

(6) - مساهمة الجنوبية في الحملة الصليبية الثامنة على تونس 1270=669هـ

(7) - أعمال القرصنة والعدوان البحري الجنوبي على بلاد المغرب خلال القرنين

الرابع عشر والخامس عشر الميلادي.

(8) - مشاريع الصليبيين لغزو بلاد المغرب ودور الجنوبية فيها.

(9) - حملة جنوة على مدينة طرابلس عام 1354م.

(10) - جنوة والحملة الصليبية على مدينة جربة 1388 - 1398م.

(11) - الحملة الجنوبية الفرنسية على مدينة المهدية 1390م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - تدهور البحرية الإسلامية في غرب المتوسط منذ القرن 5هـ-11م

ما من شك أن المسلمين صارت لهم الغلبة على مياه الحوضين الأوسط والغربي للبحر الأبيض المتوسط، منذ نهاية القرن السابع الميلادي. أي منذ الفترة التي اضطلع القائد حسان بن النعمان الغساني بقيادة الجيوش الإسلامية الموجهة لفتح شمال إفريقيا. فقد بادر حسان بمهاجمة قرصاجية عاصمتها إفريقية البيزنطية، وأقوى قاعدة بحرية لـ"أسطول الروم" بمياه الحوض الغربي للمتوسط، وتم الاستيلاء عليها سنة 76هـ (695م)⁽¹⁾. ليستمد، بعد ذلك، إنشاء بالقرب منها، أول ترسانة إسلامية ببلاد المغرب. صار يعتمد عليها في ترسيخ حركة الفتح العربي الإسلامي في شمال إفريقية من جهة، وإبعاد شبح الغارات البحرية البيزنطية المباغتة على التحوط الساحلية، من جهة ثانية.

جاء في كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري⁽²⁾: "كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر، ويحسن عونهم، حتى يصلوا إلى ترشيش، وهي تونس، وكتب إلى النعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة واعدة للمسلمين، إلى آخر الدهر، وأن يجعل على النبريز جز الخشب لإنشاء المراكب يجدهم إرود في نهر والبحر وأن يغار منها على ساحل البحر".

وكان التوفيق الذي لازم حسان في مشروعه الضموح المتمثل في بناء قاعدة بحرية إفريقية، الحافز الذي مهد الطريق، فيما بعد، أمام القادة الذين حكموا بلاد المغرب لإنشاء أسطول بحري قوي توجهت مهمته لنقصاء على معاقل الروم البحرية المنتشرة بمختلف الموانئ والجزر الواقعة بالحوض الغربي، وكانت تشكل خطرا ماثلا ومستمرا على

(1) أرشيدالدوس، المرجع السابق، ص 100.

(2) ص 38.

السواحل المغربية⁽¹⁾. وقد تجلت مظاهر نشاط الأسطول الإسلامي المغربي على عهد ولاية موسى بن نصير الذي خلف حسان بن النعمان على ولاية المغرب.

ففي عهده انتقل الأسطول المغربي من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. استعملها بسلسلة من الغارات البحرية الخاضعة على مواقع الزووم بالجزر القريبة، على نحو ما كان يقوم به الأسطول الشرقي بالحوض الشرقي للمتوسط، وعلى عهد موسى بن نصير، كذلك. سجل الأسطول الأموي الإسلامي نصرا بحريا كبيرا ساعد على تقدم المغاربة لفتح شبه الجزيرة الأيبيرية الواقعة على البر الأوروبي.⁽²⁾ كما هاجم الأسطول الإسلامي الذي تدعم بقواعد بحرية جديدة، أقيمت في بعض الموانئ الواقعة على السواحل المغربية والأندلسية، أهم الجزر المسيحية القريبة من المواقع الإسلامية، منها: سوريقة، ميورقة⁽³⁾، ساردينيا، وجزيرة قوصرة (بنطارية).

وكانت ابلع الحملات أثرا على مصير سيادة البيزنطيين الحربية في غرب المتوسط. تلك التي قامت بها بحرية الاغالبية ضد جزيرة صقلية سنة (212هـ-827م)، التي تقع

⁽¹⁾ اختلف المؤرخون العرب في نسبة تأسيس دار الصناعة بقونس، منهم من نسبها إلى المهاجر، ومنهم من نسبها لحسان بن النعمان، وآخرون يرجعونها لنقله موسى بن نصير، ونحن نأخذ رأي الشرقي ونعتمد رأي سن جلد، حسب ما جاء في المقدمة : ... وأوعز الخليفة عند الملك إلى حسان بن النعمان عمن إفريقيا بتأسيس دار الصناعة بقونس لإنشاء الآلات البحرية- برنس على مر صد الجهاد، وفيها كل فن صقلية يدرى به السلاطين... -المقدمة، طبع، بيروت، 1996، ص233.

⁽²⁾ بعد سقوط قاعدة الزووم بقرطاجنة، نقل البيزنطيون أعمالهم الحربية إلى قاعدة حوزرتي صقلية، وسموها حينئذ يوجيون الغارات على السواحل المغربية، للمزيد:

-Archibald, Lewis: European Naval and Maritime history 500-1500, p43.

⁽³⁾ فعلى متن الأسطول البحري الذي أنشأه موسى بن نصير، عبر هذا القائد المضيق بجيشه الرئيسي الذي يقدر بـ 12 ألف إلى العودة الشمالية سنة 93هـ عندما بلغته أخبار انتصارات طارق بن زياد، الذي سبقه إلى الأندلس قبله بسنة، للمزيد

-Ch.Picard : les Musulmans et la mer, p9.

⁽⁴⁾ - اماري، م: المكتبة العربية الصقلية، ص. 112 و 116-219.

- حسن حسني عبد الوهاب: قصة جزيرة صقلية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني، عدد2.

1959، ص59-63.

عند بوابة الطريق المؤدي الى الحوض الغربي للمتوسط.⁽¹⁾ وبإتماد المسلمين فتوحهم لهذه الجزر سجلوا سيطرتهم البحرية التامة على حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي، واثاحت لهم الفرصة. عندئذ. لشن الغارات على التخوم والسواحل الجنوبية للقارة الأوروبية، وبخاصة على اراضي جنوب شبه الجزيرة الإيطالية، وأقاليم جنوب شرق فرنسا، وأقاموا فيها الحصون بها، وبلغت هذه الغارات ذروتها حين تقدمت الجيوش الاسلامية إلى مصب نهر التبر Tibre.⁽²⁾ ثم توغلت حتى وصلت الى ضواحي روما، واعتدت على أملاك البابوية فيها، وأرغمت البابا يوحنا الثامن على الترضوخ لدفع جزية سنوية.⁽³⁾

ولم تفلح محاولات الحكومة البيزنطية، رغم المجهودات المتكررة التي قام بها أسطولها البحري لنجدة إيطاليا، في استعادة الأراضي التي فتحها المسلمون. إذ بقي كمر مرة كان أسطولها يتعرض لهزائمه قاسية على أيدي البحرية الإسلامية⁽⁴⁾. وفي الأخير اعترف البيزنطيون بعجزهم وإخفاقهم وسلموا بالأمر الواقع.⁽⁵⁾

وعلى هذا الأساس. فلم يكد ينتهي القرن التاسع حتى انقلبت السيادة الكاملة في البحر المتوسط إلى أيدي المسلمين. ونيس أدل على تفوق المسلمين في البحر. خلال هذه الفترة. ما كتبه المؤرخ ابن خلدون :... والمسلمون خلال ذلك كان قد فتحوا على لجة هذا البحر. وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهية. والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من

⁽¹⁾ خرجت حملة الأغاثية بقيادة اسد بن العرات على جزيرة صقلية سنة 212هـ - 827م. وتمكنت من تحقيق النصر واستيصره على الجزيرة بسقوط بارسو العنصره. سنة 216هـ - 831م. لتريد رابع
أ- ماري: المكتبة العربية الصقلية... ص 169.

⁽²⁾ Vasiliev, A. Byzance et les arabes, t. 1, p. 177-8.
- Archibald & T.T. Runyan: op.cit, p. 44.

⁽³⁾ مقدارها خمسة وعشرون ألف مارك فضي.

- سيديو: المرجع السابق، ص 274.

- أما قيمة الغنائم التي عاد بها المسلمون من روما، خلال هذا الهجوم فقد بلغت ثلاثة أطنان ذهب وثلاثون طن فضة.

⁽⁴⁾ سيديو: المرجع السابق، ص 243.

⁽⁵⁾ Jehel, G: la méditerranée Médiéval, p. 38.

صقلية إلى النير الكبير المقابل لها من العدو الشمالية، فتوقع بملوك الإفرنج وتشتحن في ممالكهم... واتحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل إفريقيا والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونها، واساطيل المسلمين قد ضربت عليهم صرعا الأسد على فريسته، وقد مات أكثر من بسيط هذا البحر عنده وعداء، واختلقت في طرقه بلما وحربا، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح".⁽¹⁾

ولم يزل سلطان المسلمين على مياه الضفة الغربية للمتوسط ثابتا قويا قرابة قرنين من الزمن. إلى أن ابتلى أهل أقطار المغرب والأندلس وصقلية ببلاء التخاصم والفرقة والتضاحن، أي منذ أن أخذ حكام هذه الأقطار، يوجهون أساطيلهم وجيوشهم لمحاربة بعضهم البعض⁽²⁾، وذمب التهور والخذلان ببعضهم إلى خيانة دينهم ووطنهم بالتجرء إلى طلب عون الجيوش المسيحية لمقاتلة أبناء ملتهم.⁽³⁾ فتألفت عساكر الأمم المسيحية، من الإيطاليين والفرنسيين والإسبانيين، فانقضت على مواقع المسلمين المتقدمة في النير والبحر، وأخذوا ينتزعونها منهم الواحدة تلو الأخرى.

ويعود منشأ هذا الصراع الذي كان سببا مباشرا في ضعف وانحيار قوة البحرية الإسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط إلى منتصف القرن الرابع البحري (11م)، منذ أن بدأ النفور العقائدي بين أتباع المذهب الشيعي في المغرب وأنصار العقيدة السنية في الأندلس يخيم على رقعة الحدود المجاورة بينهم؛ ثم سرعان ما أخذ هذا الشعور بالنفور والتباغض يتجه باتجاه منحني عدائي بين أتباع المذهبين، عندما أخذت سفن كل

⁽¹⁾ المقدمة، ص 233.

⁽²⁾ للمزيد من التفهم عن واقع هذا الصراع وأطواره راجع:

-الحسن الحناحي: "الصراع الفاطمي الأموي في المغرب خلال القرن الرابع هـ"، (كراسات

التونسية)، عند 103-104 سنة 1978، ص 17-32.

⁽³⁾ -M.Terrasse : islam et occident méditerranéen de la conquête aux ottomane. paris . 2001.p94.

منهما تتعقب الأخرى. وتؤديها. وشهد مواطنو العالم الإسلامي في حيرة وعجز تصادم عساكر دولتين إسلاميتين في أكثر من موقعة⁽¹⁾. فكانت النتيجة أن ضعفت الجبهة البحرية الإسلامية في غرب المتوسط. إذ بدلا من أن توجه أساطيل المسلمين قوتها نحو الجبهة النصرانية المعادية، اجتهد كل من الفاطميين في المغرب. والأمويين بالأندلس في سحرية بعضهما البعض. وتشير الجيوش والأساطيل لإفناء نفوذها السياسي وقدراتها العسكرية⁽²⁾.

استمرت مظاهر الفوضى وعدم الاستقرار في كامل ربوع بلاد المغرب والأندلس، حتى بعد أن فرر الفاطميون نقل قاعدة ملكهم من إفريقية إلى مصر سنة 358هـ/974م. ذلك أن الإمارات التي تقاسمت تركة الفاطميين في بلاد المغرب وصقلية، وجدت نفسها عاجزة تماما عن فرض الأمن والنظام على مستوى الجبهة الداخلية، بسبب تقادم حدة الصراعات بين القبائل والأسر الحاكمة،⁽³⁾ فضلا عن تسجيل عجزها الكامل في فرض النفوذ والسيدة على مستوى الجبهة الخارجية. من جهة البحر بسبب عدم امتلاكها لوسائل الدفاع البحري اللازمة، لأن الفاطميين عندما هاجروا بلاد المغرب إلى المشرق، أخذوا معهم كامل أسطولهم البحري، وجيوشهم البرية. فلم يتفق للإمارات المغربية الناشئة ما اتفق للفاطميين قبلهم من العزة والنفوذ. لذلك فشلوا فشلا ذريعا في صد الغارات الأجنبية التي استهدفت سواحلهم أكثر من مرة.⁽⁴⁾

كذلك أخذت أوضاعا مماثلة، في ذات الوقت، تسود في بلاد الأندلس اثر انقضاء الخلافة الأموية بقرطبة وقيام دول ملوك الطوائف، التي أهملت شؤون البحر والجهاد،

⁽¹⁾ المقصود به، صراع ملوك الطوائف بالأندلس، ولجوء بعضهم إلى الاستجداء بعون الأمم النصرانية، لمزيد، راجع: -E.G.Gomez: "l'Espagne mauresque, l'age d'or de Cordoue et de grenade", in: l'islam d'hier à Aujourd'hui, ed, bordas paris 1981, p267.

⁽²⁾ R.Fossier: le moyen age, vol2, l'éveil de l'Europe 950-1250, p178.

⁽³⁾ ابن خلدون : ج 7، ص44 وما بعدها.

⁽⁴⁾ ارشادالديوبس : الترخيع السابق، ص312.

باستثناء واحد منهم هو مجاهد بن يوسف العامري، الذي جعل نفسه أميراً على دانية، وبنى أسطولاً وجهه لغزو جزيرة سردينية وسواحل إيطاليا التيرانية.⁽¹⁾ غير أن غياب أبسط مواقف الدعم والمساندة له من طرف إخوته في العقيدة في كل الأندلس وبلاد المغرب، قد جعل مشروعه التجريء هذا ينهار وهو في بداية الطريق، عندما هبت مدن إيطاليا البحرية، وتحالفت لمحاربته بدعم وإشراف من بابوية روما، فهزموه وأخرجوه من الجزيرة، وتعقبوه في مياه الحوض الغربي حتى قضوا عليه.⁽²⁾

وبينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها في العالم الإسلامي، بدأ نوع من صحوة الضمير يسري في نفوس مسيحي أوروبا الغربية، الذين لم يتركوا فرصه رؤيه المسلمين يتقاتلون فيما بينهم، ويبددون قدراتهم الدفاعية بأيديهم، فاندفعوا يتهيؤون للانقضاض وأخذ الثأر، عندما يحين الوقت المناسب، وفي وسط هذه الظروف السانحة شرعت المؤسسة الدينية (البابوية) تتشبط، في اتجاه توحيد قوى النصرانية وتوجيهها لحرب المسلمين، ومنذ ذلك الوقت اتجهت جهود المدن البحرية الأوروبية، وبخاصة تلك المجاورة للبحر الإسلامي، في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، إلى إحياء النشاط البحري، وبناء الترسانات استعداداً للمواجهة، فيما قام الأمراء المسيحيون بإنشاء الاستحكامات والقلاع، بقصد طرد المسلمين من بعض مواقعهم المتقدمة في شواطئ البروفانس وجزر كورسيكا وساردينيا.⁽³⁾

⁽¹⁾ عن مجاهد العامري وأعماله البحرية، راجع، كتاب كلينيا سارنلي، تشاركوا: مجاهدة العامري قائد الأسطول العربي في غرب المتوسط في القرن الخامس الهجري، ط1، القاهرة، 1961، الفصل الخامس بالخصوص.

⁽²⁾ Agostuno, Gustiniani, Annuali de la republica di genova, vol1, p126.

-R.lopez: storia della colonie genivesi nel mediterraneo, p25-26.

-كلينيا سارنلي تشاركوا: المرجع السابق، ص202-204.

⁽³⁾ M.Balard : " une méditerranée chrétienne (1000a1500)" in, la méditerranée médiéval p14-16.

-H.Jansen, ch. picard, A.nef: la méditerranée entre pays d'islams et monde latins (Milieu Xe- milieu XIII). Ed. sedes (Paris2000). p158.

وكان النصيب الأكبر من هذا العمل البحري الشاق قد تكفل به سكان مدن الساحل الإيطالي، وبصورة خاصة، سكان جنوة وبيزة والبندقية، إلى جانب قبائل النورماند النازحة، الذين أخذوا ينسقون ضرباتهم لانتزاع الجزر والمواقع الهامة التي احتلها المسلمون من قبل. فانقضوا على مواقع المسلمين في البحر فاسترجعوه كله. ثم انقلبوا على أملاك المسلمين في البر، فسطوا على بعض من أجزائها، إلى أن قامت الحروب الصليبية، مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، فتحركت جموع الصليبيين باتجاه الشرق الإسلامي، واستولت على أجزاء من فلسطين وبلاد الشام واستوطنتها. فاتحة بذلك عهداً جديداً، عهد التفوق الأوروبي على مياه الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط، الذي أضحى منذ هذا الوقت طريقاً آمناً للأمم اللاتينية، كما كان عليه الحال قديماً زمن الإمبراطورية الرومانية. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ تشيسسي Cessi: "منذ نهاية القرن العاشر كانت النهضة البحرية اللاتينية ناجحة وأحررت انتصارات بحرية وأخذت ترسم خطوط المسنقل".⁽¹⁾

2- نشاط القرصنة الجنوبية في غرب المتوسط قبل بداية الحروب الصليبية:

تسببت حالة الضعف والفوضى والانقسام، التي أصابت مسلمي بلاد المغرب والأندلس وصقلية، منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، في تدهور البحرية الإسلامية بالحوض الغربي للمتوسط، وتغلصت، على أثرها، غارات المسلمين الوافدة على السواحل الأوروبية المجاورة، فطالما وفرت تلك الغارات المتكررة على الموانئ والسواحل الجنوبية للقارة الأوروبية، على مدى ثلاثة قرون من الزمن، الحماية المطلوبة، والغنائم الوفيرة التي كانت تحتاج إليها الدول الإسلامية لضمان بقائها وتفوقها، في عصر تنامت فيه مشاعر الكراهية والعداوة بين أبناء الديانتين المسيحية والإسلام، إلى درجة أنه صار من المستحيل

⁽¹⁾ Cessi, R: oriente e occidente nel medio Evo. (Milano 1935), p150-162.

على أبناء الأمتين القبول بالتعايش أو التجاور في وئام وسلام، وأضحت القناعة الوحيدة لدى الضرفين، في ظل هذا الوضع المفعد بالكرهية وفقدان الثقة، هو أن تكون على استعداد دائما للمبادرة بالهجوم، وإلا فسوف تتعرض حثث للعدوان والهجوم المصاد.

وعليه فمنذ أن خفت ونيرة الغارات الإسلامية على لشخوم البرية المسيحية المجاورة، وتقلصت الغارات البحرية على الجزر والموانئ القريبة، بسبب تقاعس الأمراء عن مواصلة رسالة الجهاد، وانشغالهم بخلافاتهم الداخلية، حتى نهضت من الساحل الأوروبي الجنوبي، وأخذت تستعد للاعتداء بشؤون البحر مجددا، يدفعها حماس فياض ورغبة جامحة في روية ميد البحر الأبيض المتوسط تعود إلى نفوذه وسيطرته مرة أخرى، كما كان عليه الحال زمن الإمبراطورية الرومانية، لما كان هذا البحر خاصصا كلية لسيطرة الرومان. ⁽¹⁾

وكان أول من استفاد من هذا التحول المفاجي الذي طرأ على الأوضاع بالتحوض الغربي للمتوسط، من الساحل الإيطالي، وفي مقدمتها جنوة، وبيز، وأينف، حيث انفس مصالح هذه المدن البحرية التجارية الثلاثة على التعاون، والتآلف للانصاف في عملية الهجوم المضاد لطرد المسلمين من مواقعهم المتقدمة في بعض الجزر والشعور القريبة، في صقلية، وسردينية، وكورسيكا، وجزائر البليار، وجزء من الساحل الجنوبي الإيطالي ⁽²⁾، فضلا عن بعض تجيوب انجوية ذاتيم الدولة "أفريقية"، وأسي هذا العهد بدأت مدينة جنوة، تمارس بشكل رسمي ومننظم، نشاطا بحري هجوميا ضد مواقع المسلمين على امتداد الحوض الغربي للبحر المتوسط.

⁽¹⁾ راجع ما سبق، الفصل الأول

⁽²⁾ M.Balard: "une méditerranée chrétienne, op.- cit-p16-17.

⁽³⁾ عن تاريخ الوجود الإسلامي على جنوب فرنسا، وأثارهم فيها، راجع: شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، من منشورات دار احياة بيروت 1995 .
-Ph.Senac: "Provence et piraterie sarrasine", in islam et l'occident.
Ed maison neuve (paris1982), p35-48

والجدير بالملاحظة، أن نهضة أبناء مدينة جنوة وتحولهم إلى تبني سياسة الهجوم البحري ضد المسلمين لم يأت، في البداية، بدافع حب المغامرة والعدوان، أو السعي للتوسع والبحث عن المغائد، إنما جاءت أعمالهم كردة فعل حتمية لما كانت تتعرض له مدينتهم من غارات مدمرة تقوم بها، بين الحين والآخر، البحرية الإسلامية. فقد عانت مدينة جنوة، شأنها شأن المدن الإيطالية الساحلية الأخرى، منذ منتصف القرن التاسع الميلادي، من ويلات الغزو والنهب الذي استهدفها على فترات متتالية، حيث أغارت البحرية الإسلامية التي كانت تخرج، تارة من مراسي صقلية، وتارة من موانئ إفريقية والمغرب الأوسط، على المدينة وأخذوا به دماراً وخراباً، إلى درجة أن حاكم المدينة ألكونت أدهمار Adhemar قتل في إحدى هذه الغارات⁽¹⁾.

ولما تكررت حملات المسلمين المدمرة على المدينة ونواحيها، وعجز السكان عن دفعها عنهم، لجأوا إلى تدابير وقائية كبناء الأسوار والحصون Castello، لحمايتها من هجمات القراصنة المسلمون. غير أن تلك التدابير، لم تمنع، على ما يبدو، المسلمين من مواصلة غاراتهم، فلقد أشارت المصادر اللاتينية والعربية، على حد سواء، أنه بين سنتي 933-935م، أغار الأسطول الفاطمي على جنوة، واقتحم أسوارها، واستطاع أن يحرق كثيراً من السفن التي خرجت لصده، وغنم الأفارقة (Africani)، كما صورتهم المصادر اللاتينية، في هذه الحملة مغنم كثيرة، وسبوا النساء والأطفال⁽²⁾. إذ بلغ عدد ما أسره المسلمون من أبناء جنوة 9000 أسير⁽³⁾، ومن حسن حظ سكان مدينته جنوة والممن

⁽¹⁾ Gustirani, G: Annali, p122-123..

⁽²⁾ يبدو أن حملة الأسطول الفاطمي على جنوة، كانت عفيفة ومدمرة بذيل أنها استوقفت التجهيز الإسلامي والمسيحية على حد سواء، وكتبوا يشيرون إليها كواحدة من الغارات الكبيرة التي استهدفت مدينة جنوة وضواحيها، لمزيد راجع:

-أذهبي: كتاب دول الإسلام، ج1، ص198 / -أبو الفداء: المختصر، ج2، ص121.

-ابن خلدون، ج4، ص84 / -فروحات الشراوي: الخلافة الفاطمية في المغرب، ص242.

-Amari, M: storia di Musulmani, T2, p211-13.

-Lopez, R: storia della colonie genovesi, p18 / -Jehel, G: les Génois, p10.

⁽³⁾ Amari, M: storia, T2, p211.

الإيطالية الساحلية الأخرى، أن مشاريع حكام إفريقية وصقلية (الفواطم) بمواصلة الفتح باتجاه البر الأوروبي قد توقفت، بعد أن حولوا اهتماماتهم التوسعية، لأغراض سياسية ودينية، نحو بلاد الأندلس والمشرق بهدف إدخالها تحت نفوذهم.

ومعلومات عن تنظيم البحرية الجنوبية، وبداية انطلاق الأسطول الجنوبي في حملات مضادة لوقف حركة الانتشار الإسلامي في الحوض الغربي للمتوسط، تعود إلى منتصف العشرية الثانية من القرن الحادي عشر الميلادي. ففي سنة 1016م، حسب ما تذكره المصادر اللاتينية، وفق الباب بندكتوس الثامن **Benedictus VIII** في إيراد معاهدة تحالف بين مديني جنوة وبيزرة، توقفت بموجبهما أعداؤه القديمة بينهما إلى حين، ونفاهم بمباركة البابوية على التعاون لمحاربة الأمير مجاهد العامري، وطرده من جزيرة سردينيا المجاورة لهما.⁽¹⁾

وكان الأمير مجاهد العامري، الذي يسميه إخباريو الغرب اللاتيني **Mugetto**⁽²⁾، قد نصب نفسه حاكم على إمارة دائية بالجزر الشرقية (التبشير)، عقب انهيار الخلافة الأموية

⁽¹⁾ Maslatterie : relations, p15. - Sismondi : op.cit, p205.

⁽²⁾ يعتقد أن مجاهد الذي يسميه المصادر الأوروبية **Mugetto** و **Muget** و **Mosanto** من أصل سبي، كان حاكمًا موالي بني عامر، لذلك لقب بالعامري. تربى وشب تحت رعاية المنصور ابن أبي عامر، وشاكره في حروبه وانتصراته حتى برز بين أئمة كساده، بصل، وفدا، وعبد، فبعد وفاته في إحدى معاركه، خلفه ابنه وما ترتب عليه من تقسيم بلاد الأندلس إلى إمارات وولايات، استقرت مجاهد العامري بجزيرة دائية وما حولها من حرر في شرق الأندلس (الحرر الشرقية)، وبني فيها بعمرة مع من حارر يعرف في سنة 1014م، وبصر بالسر الفوضي وانعدام الأمن في هذه الفترة، والتبدد اعتداءات القراصنة، فقد عمل مجاهد على بناء أسطول بحري قوي لتدوير عن مملكته الغربية، ورصد راسين على حصي هذه المنصور العامري في الجبل، ونجح، بذلك جعل بحر المتوسط بحيرة إسلامية، فبازر بالهجوم على سردينية في مرحلة أولى لجعل منها مركزا يثب منها إلى الأماكن الأبعد.

-سنة 1014م - بمرسى - نيه. _____، ثم عزى إلى سردينية.

-للمزيد في الفهم عن مجاهد وأعماله، راجع كتاب:

-أ. سارنيلي تشركو: مجاهد العامري، مرجع سبق

-انظر كذلك المصادر التالية:

-ابن بشار: التحديره في محسن تحريرده، القسم الثاني، ج2، ص715.

-Amari.M: storia,T3, p5-8.

-Dove: de sardinia insula. (Berlin 1866), p50-63.

في قرطبة (1009-1045م)، وبعد أن استتبعت له الأوضاع في دانية، جهز حملة ضخمة في ربيع من سنة 1015م سيرها على جزيرة سردينيا الواقعة قبالة الساحل الشمالي للبحر التيراني واحتلها بعد معارك عنيفة خاضها ضد أهالي الجزيرة⁽¹⁾. ومن سردينيا توجه مجاهد إلى غزو سبينة نوبي Luni الواقعة على الشاطئ الإيطالي للبحر التيراني عند خليج سبيزيا في إقليم لوروريا التي كانت تشكل، في تلك الفترة، مركزا تجاريا هاما لموقعها في الطريق التجاري الذي يربط إيطاليا بمنطقة البروفانس جنوب غالة. وعلى ما يبدو، فإن مجاهد جعل من هذا الثغر المنقذ مركزا للهجوم على المدن الإيطالية المجاورة جنوة وبيزا⁽²⁾.

وما إن انتشر خبر سقوط جزيرة سردينيا الحصينة في أيدي مجاهد، حتى هبت البابوية لاستنفار الغرب المسيحي، وحشد قواه لمجابهة أساطيل صاحب دانية والبليار⁽³⁾. ومن دون تمأطر لبي مواطنو المدن البحرية الإيطالية نداء البابوية، وفي مقدمتهم أبناء مدينتي بيزا وجنوة، الذين وصعوا خلافاتهم وصغلتهم انديمه جانب، وخرجو مجتمعين متحالفين في حشود بحرية تحت راية البابوية⁽⁴⁾. فكان يوما عصيبا على مجاهد وجماعته بالجزيرة، الذين أحاصت بهم المصائب من كل جانب. ففي الوقت الذي كان مجاهد يتأهب

⁽¹⁾ على عكس المصادر العربية التي لم تعط اهتماما كبيرا لهذه الغزوة، فإن المصادر الإيطالية الحديثة عني بالتفصيل، للمزيد راجع:

- كينليا سارنيلي تشركو : مدخل لعالمه، ص 197.

- De mas latre : traites, p14. Jehel, G: op. cit., p40.

- حسين مؤنس: المسلمون في البحر الأبيض، مرجع سابق، ص 116.

- كينليا سارنيلي تشركو : المرجع السابق، ص 199.

⁽³⁾ أصدر البابا بوخا الثامن عشر منشورا بابويا يعلن فيه أنه يمنح جزيرة سردينيا لمن يستخلصها من يدي مجاهد.

-De mas latre, traites : p14.

-Y.Renouard: les villes d'Italie.T1, p230.

-I M.poisson: Tentative manquée p-23-24

⁽⁴⁾ إماري.م: المكتبة العربية المصقلية، ص 436.

-عبد الله عتار: دول الطوائف، ص 192.

لمواجهة جحافل الصليبيين القادمين من البحر، انفجرت ثورة شعبية عارمة داخل الجزيرة قام بها السردينيون⁽¹⁾، ومن المحتمل أن تكون بايعاز وتخطيط من البابوية لإضعاف جهود مجاهد النعمري في المجابهة، ثم زاد من صعوبة الموقف، وقوع تمرد بين صفوف جنده ثم يجد أنه تفسير⁽²⁾، ربما بسبب ما عاناه الجنود من قسوة التعيش واهوال الحرب، التي ضل أمدها، فمضوا أن اندفعوا في المغامرة الحربية، إلى جانب القائد مجاهد لـم يدوقوا طعم الراحة والاستقرار، وكانت أيامهم كلها من سنة 1008 إلى 1016م حرب وجهاد واهوال، وكان رجاءهم، بعد كل نصر، الوصول إلى خاتمة سعيدة، وحياة مستقرة هنيئة وهو الأمر الذي لم يحدث⁽³⁾، ولم تكن انقضاء مجاهد من صعوبة الموقف فرر مغدرة الجزيرة، لكن محاولة خروجه منها وسط هذه الظروف غير المواتية كلفته خسائر باهضة في الأرواح والعنادر⁽⁴⁾.

ولقد سجل الإخباريون والشعراء اللاتينيون، بكثير من المبالغة، أحداث تلك الهزيمة التي تعرض لها جيش مجاهد النعمري أمام الجنود المسيحية المتحذلقه عند مضيق

⁽¹⁾ إ. مارتنش، شركو: ترمج السابق، ص 203.

⁽²⁾ نفسه، 203-204.

⁽³⁾ بدأ مجاهد نعره المعصرة الحربية للبحث عن مخرج له، وأستدعى من شباب الفقة تكبير: بلاد الإسلام 1008م، للمزيد راجع:

- عند الله علان: حول التطورات بالأساس، ص 188-184.

- عصام سالم: جزر الأنتس المنسية، ص 140-155.

⁽⁴⁾ عزوي النعمري إلى أن مجاهد عندما أخذ يستعد للخروج بأسطوله لتفادي لمواجهة مع الجانب الصليبي، هذا راجح قوية تسببت في قيام أمواج عاتية ففقت بعيداً السفن إلى الشاطئ فغرق بعضها، فيما أنهل الصليبيون على الفارين من جنوده، وهكذا دعوت الطبيعة القاسية، والقوات المسيحية المتحالفة على تدمير أسطول مجاهد وتسل رأسر منفسد بحارته. ومن جملة الأسرى الذين وقعوا في أيدي النصارى أسرة مجاهد من بينهم ابنه علي الذي سوف يقتنيه سنة 204هـ، للمزيد راجع.

- ابن الأثير، معج 9 ص 290/ ابن الخطيب: تاريخ اسبانيا الإسلامية، ص 219.

- كتيلاً، م، شركو: مجاهد النعمري، ص 206.

بونيفاشيو Bonifacio الفاصل بين جزيرتي سردينيا وكورسيكا، واعتبروها نصرا مبيّنا للصليب على الهلاك. (1)

وبانتقال السيادة على جزيرة سردينيا إلى أيدي المسيحية، تبدأ مرحلة جديدة من التواجهة بين العرب اللاتيني والمسلمين في الحدود العربي للمنوسط، حيث أصبح الجزيرة، منذ هذا التاريخ، إحدى أهم قواعد القرصنة اللاتينية، تنطلق منها أساطيل كل من جنوة وبيزة للإغارة على سواحل المغرب والأندلس، الأمر الذي يقدره نسيلا واضحا على بدا مرحلة الانقلاب في ميزان التفوق البحري بمياه المتوسط لصالح قوى الغرب الأوروبي، بما يعني تحول أوروبا الغربية في صراعها مع المسلمين من الدفاع إلى الهجوم. (2)

ويبدو أن الحلف الذي ربط مدينتي جنوة وبيزة بإيعاز من البابوية لمحاربة مجاهد المسلم، عدو المسيحيين، كما اجتهدت المؤسسة الدينية الكاثوليكية في تصويره وقتذاك، لم يعمر ضويلا، بسبب التنافس الشديد بينهما حول السيطرة على تجارة البحر الأبيض. إذ تذكر الروايات التاريخية أنه بمجرد خروج مجاهد من الجزيرة، حتى سالت الخلافات من جديد بين أبناء جنوة ومواطني بيزة، والسبب واضح هذه المرة، يدور حول من من المدينتين تكون لها الأولوية في السيادة على الجزيرة القريبة منهما، خصوصا بعدم اكتشاف الطرفين مدى الفوائد التجارية التي تتركز بها هذه الجزيرة الواقعة على الطريق التجاري الذي يربط أسواق الإسلاميه بدول المغرب والشرق، وهو النزاع الذي عجل بعودة أطماع المسلمين على جزيرة سردينيا من جديد.

¹⁾ H.Pirenne: Histoire du Moyen age .TVIII. la civilisation occidentale du XI au milieu du XVS. p30.

²⁾ E.perroy: les croisades et l'orient latin (1095-1204)-p20-21.

-Jehel,G & ph.Racinet: les relations des pays Islam avec monde latin du XS au milieu du XHIS. p55-6.

-.Fossier.R: le moyen age. vol 2. p256.

ففي عام 1050م أغار جيش إسلامي قدم من البليار على جزيرة سردينية واحتلها، وأنشأ فيها عددا من الحصون والقلاع⁽¹⁾، غير أن هذا النجاح، الذي لم يكن منتظرا، لم يعمر طويلا، حيث هبت البابوية، كعادتها، تستنفر أتباعها، ووفق البابا ليو التاسع إلى تكوين حلف بحري مسيحي بزعمه بيزة، التي منحها شرف حمل راية البابوية التي تحمل اسم القديس بطرس St Pierre، ونجح الحلف في طرد المسلمين من الجزيرة التي رجعت السيادة عليها، منذ تلك الفترة، إلى حكومة بيزة بمباركة البابوية.

وهكذا ففي ظرف بضع سنين من انتصار قوات المدن البحرية جنوة وبيزة على معاق المسلمين بجزيره سردينيا، حتى جرت هاتين المدينتين أسطولا صحما، وريسا أنصمت إليه سفنا تابعة لأمرأى مقاطعة البروفانس، وقصد الأسطول الصليبي مدينة بوننة Bona على الساحل الشرقي للمغرب الأوسط، واستولى عليها سنة 1034م⁽²⁾، وعند عودتهم، هاجموا ميناء بالرمو بصقلية ودمروه⁽³⁾.

⁽¹⁾ - سجلت بعض الروايات اللاتينية المعاصرة أمر هذه الغزوة الحثيئة على سردينيا إلى الأمير محاهد، بينما المصاحف الإسلامية تكاد تجمع على أنه توفي سنة 1045م، أي بحمس سنوات قبل خروج الحملة، ومن ثمة يحتمل، إذا ما تأكدت حقيقة وقوع هذه الحملة في هذا التاريخ، أن يكون الأغلب مولى محاهد العامري وصاحب منوارة هو الذي خرج على رأس هذه الغزوة (سنة 1050م) حيث ذكره ابن خلدون - كما قال صاحب عز و جهاد في البحر - تلميذ راجع: - ابن خلدون، مج 4، ص 354-5.

- De mas latrie: Relations, p. 15.

- كينيا تتركو: المرجع السابق، ص 206، 7.

⁽²⁾ - احتلت المراجع الأوروبية التي أشارت إلى هذه الحملة في الجهات التي شاركت فيها، في حين تكاد تعصيها أن الحملة انضمت بها مدينة بيزة وحدها، ذهب أخرى إلى أن الحملة شاركت فيها عناصر من جنوة وأخرى من بروفانس، لتزيد راجع:

-Bragadin: M.A. Histoire des Républiques, p34.

-Y. Renouard: les hommes d'affaires, p42.

-De mas latrie: Relations, p15.

-Jorgo.N: Brève histoire des croisades, p24.

-Amari.M: storia, 13,p16-17.

⁽³⁾ H.Pirenne: Histoire du M.age, TVIII, p.30.

-مصطفى التكاوي: التعاقب بين جنود والفواطم، ص 82.

-حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر، ص 91.

كانت هذه الانتصارات المتتالية التي ظفر بها أبناء مدينة جنوة على حساب المسلمين في البحر والبر قد عادت عليهم بالنفع وكسبوا من ورائها مغائد وافرّة، مما جعلهم متحمسين لمزيد من أعمال القرصنة، فاندفعوا في حملات بحرية عبر المتوسط لنهب الشواطئ الإسلامية، واعتراض طرق القوافل التجارية العابرة، مستغلين في ذات الوقت، حالة الضعف والانهيار الذي أُمست فيها البحرية الإسلامية في المنطقة.⁽¹⁾ وبذلك تعددت الفرص أمام الجنوبيين، وغيرهم، لامتھان نشاط القرصنة والنصوصية La course et la piraterie على نطاق واسع في مياه غرب المتوسط.⁽²⁾

وإلى هذه الفترة، يبدأ ملاحو جنوة ومواظوه، الذين كسبوا خبرة عالية واحترافية مميزة في ميدان الحروب البحرية، يعرضون خدماتهم البحرية على أمراء وحكام الإمارات المسيحية، في كل من إسبانيا وجنوب إيطاليا، لأجل الفوز بالغنائم والحصول على الامتيازات بموانئ تلك الإمارات. وعلى هذا الأساس، انضم الأسطول الجنوبي إلى الحلف الصليبي الذي تآلف سنة 1063م-1064م، من أمراء الإقصية الإسبانية والفرنسية، وهو الحلف الذي دعا له واشرف عليه الحبر الأعظم الروماني ألكسندر الثاني Alexandre II وكان أول مرة تمنح فيها البابوية الغفران الكنسي Indulgence للمشاركين في هذه الحرب⁽³⁾، التي وجهت لحصار مدينة بريسترو Bareastro شمال غرب إسبانيا والاستيلاء عليها.⁽⁴⁾ ليعطي بذلك هذا الجيش الصليبي المتحالف الإشارة القوية لانطلاق مشروع حركة الاسترداد Reconquista وتخليص شبه الجزيرة

⁽¹⁾ راجع ما سبق...

⁽²⁾ ph.Jansen, & A.Nef & Ch.picard; op.cit. p70-71.

⁽³⁾ H.Bresc: la course occidentale au miroir sicilien. in , politique et société en Sicile XII-XV S, Variorum (Hémisphère 1999), p92-3.

⁽⁴⁾ F.Cardini: Europe et islam. histoire d'un malentendu -p64-5.

⁽⁵⁾ جونثان راسل سميث: تاريخ الحروب الصليبية، مترجم، 1991، دار المعارف ص76-7.

⁽⁶⁾ Jehel,G & ph.Racinet: les relations des pays d'islam avec le monde latin du X au XIII S. P68.

⁽⁷⁾ نور الدين حاضوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ص825.

الأيبييرية من الوجود الإسلامي نهائياً. بحيث لم يمض وقت طويل على تشكيل هذا الحلف الأوروبي، حتى أصدر رؤساء الإمارات المسيحية الصغيرة بشمال الجزيرة (كاتالونيا، أراغونة وقشتالة) الأوامر ببدء العمليات الحربية ضد مسلمي الأندلس.⁽¹⁾

وإلى هنا، انقضى عهد، كذلك، عندما شرع روبرت جوسيكور النورماندي يتعقب المسلمين في جزيرة صقلية لاستخلاصها منهم بمباركة البابوية، سارعت جنوة وبيزة، كالعادة، إلى تقديم الدعم والإنسان للجيش النورماندي المتقدمة براً، وأخذت تركز عملياتها الحربية من جهة البحر بهدف إرباك صفوف المقاومة داخل الجزيرة، وقطع الطريق أمام مسلمي المغرب لتجده إخوانهم في صقلية⁽²⁾. ثم في سنة 1063م وجهت اثنتين بالتتسيق مع بعضهما حملة بحرية كبيرة على ميناء بالرمو، وتمكنت قواتهما من الدخول إليه بعد تكسير السلاسل المانعة، واستولوا على ما فيه من سلع وبضائع.⁽³⁾

ومنذ هذه الفترة أخذ نفوذ الجنوية والبيزانية يتفاقم بالمنطقة، إلى درجة أن عرج مدن إقليم كمبانيا *campagna* بجنوب إيطاليا (أما نفي وسانرنيو) التي تعودت أن تعيش من مكاسب التجارة البحرية مع العالم الإسلامي، وشعرت هذه المدن بالخوف من أن يؤدي هذا النشاط القرصني الذي أصبحت تمارسه مدينتي جنوة وبيزة بالقرب من مياهها الإقليمية، إلى تعطيل الحركة التجارية القائمة بين المسلمين ومدن جنوب إيطاليا، مما دفع بجيزولف أمير سانرنيو (1052-1107م) إلى اعتراض سفن اثنتين عن مروره بمحاذاة السواحل التابعة له وقاد بحجزها.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ P.Guichard & ph. Senac: les relations des pays d'islam avec le monde latin du X au XIII^e s. 1972-83.

⁽²⁾ لم تتأخر إمارة بنو زيري في إفريقيا، برغم مشاكلها الداخلية مع العرب الهلالية، من تقديم النجدة لأهالي صقلية أكثر من مرة، للمزيد راجع:

-أمازي.م: المكتبة العربية النصفية، ص276-278.

-إحسان عباس: العرب في صقلية، دراسة في التاريخ والأدب، دار المعارف 1956، ص236.

⁽³⁾ Maslatrie, op.cit. p52/- Heyd, W: op.cit.T1, p122.

⁽⁴⁾ أرشبالد: المرجع السابق، ص371.

أما حكام صقلية النجد (النورماند)، فلم ينسوا صنيع أولئك الذين وقفوا إلى جانبهم وازروهم وقت الشدة، فكافؤهم بما يليق، بأن منحهم حقوقا وامتيازات سمحت لهم بالإقامة والنشاط في موانئ الجزيرة ومراكزها التجارية. وقد استفاد رجال أعمال هاتين المدينتين من مغامرات التجارة في هذه المراكز التي صارت توفر لهم فرصا كبيرة للربح منذ أن هاجر التجار المسلمون تلك المراكز، ونقلوا أعمالهم إلى مصر وبلاد المغرب، ومنذ ذلك الوقت، أصبحت جزيرة صقلية ومضائقها تشكل ملاذا آمنا لسفن القراصنة الجنوبيين الذين صاروا يقدمون، من دون تردد، على مهاجمة قوافل السفن التجارية المتنقلة في رحلتها ذهابا وإيابا بين المشرق والمغرب ومصادرة أموالها.⁽¹⁾

(3) - الحملة الصليبية على المهديّة 480هـ=1087م.

منذ اللحظة التي وطأت فيها أقدام النورمانديين أرض جزيرة صقلية وبدأت السيادة عليها تنتقل إلى أيدي المسيحية، أصبحت سواحل بلاد المغرب العربي عرضة لعدوان قراصنة وأسطول البحر الأوروبي السطحية، الذين بعد أن ضيقوا الخناق على المسلمين بمياه الضفة الشمالية للمتوسط، فكروا في نقل الحرب إلى سواحل الضفة الجنوبية منه. مندفعين في مساعيهم هذا، بتحريض ومباركة من البابوية الكاثوليكية في روما التي كانت تخطط لمشروع حرب مقدسة ضد المسلمين في المشرق والمغرب على السواء. وعلى هذا الأساس سرعت البابوية في تنفيذ خططها التي نقصى بتوجيه العثمانيين العسكرية وتنسيقها، في مرحلة أولى، ضد المواقع الإسلامية بالحوض الغربي للمتوسط في إسبانيا صقلية وبلاد المغرب، في انتظار المرحلة الثانية، التي سوف تعلن فيها جهارا الهجوم المسيحي الكبير على مواقع الإسلام في الضفة الشرقية.⁽²⁾

⁽¹⁾ H.Bresc: op.cit, p92-3.

⁽²⁾ الحملة الصليبية الأولى.

وما يؤكد هذه الحقيقة، ما كشفت عنه كرونولوجية أحداث التحرك العدواني المسيحي خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، حيث تعرضت كل الأقاليم الخاضعة للسيادة الإسلامية المظلة على البحر المتوسط لغارات الجيوش والأساطيل المسيحية.

إذ في الوقت الذي كانت قوات الملك النقيشاتي أنغونسوا السادس (الأدفونش)، مدعاه بفرق من المرتزقة الأفرنجية وجماعة من المغامرين من أهل الشمال، تبأشر ضغوطها على الإمارات الإسلامية الضعيفة في بلاد الأندلس، وهي الحرب التي أفضت في النهاية إلى سقوط مدينة طليطلة (6 ماي 1085=478هـ). كان الأميران روبرت جسكار وأخوه روجر الأول، قد انطلق في عمليات عسكرية في جزيرة صقلية منذ 1060م لذلك فلاح المسلمون بها، وفي بضع سنين من بداية تلك العمليات الجريئة سقطت عاصمة جزيرة صقلية الإسلامية بالرمو سنة 1071م، بأيدي القائد روجار، ليكتمل الانقضاض النورماندي على الجزيرة بأسرها في أقل من عشرين سنة، بعد ذلك.

أما انهجمة الصليبية تكبيره أنني حصص نها الصليبية، في تلك الفترة، ضمن مشروع الحركة الصليبية التي بدأت تشرف على تنفيذ مراحلها وأوارها الواحدة بعد الأخرى، فكانت موجهة إلى شمال إفريقيا، وبصورة خاصة، لضرب المهدية عاصمة أكبر دولة ببلاد المغرب، في تلك الفترة، دولة بني زيري الصنهاجية.

ونكي تصمن المؤسسه البابوية فرص نجاح هذه العمليه الصليبية، فقد عهد نلبيب فيكتور الثالث (1086-1087م)، خليفة البابا جريجوار السابع، بمهمه التحضير والإشراف عليها⁽¹⁾. فكان أول عمل قام به أنه دعا إلى تأسيس حلف صليبي بين حكومتي جنوة وبيزّة، اللتين أصبحتا قوتين بحريتين مهابتين في هذه الآونة⁽²⁾، وذلك على شاكلة الحلف

⁽¹⁾ Jehel.G: les Génois, p83.

⁽²⁾ Kruger.H.c: " the italian cities and the Arabs before 1095" in, History of the crusade,voll,the first hundred years.Ed by K.M.Setton. university of Wisconsin press,1969, p43-46.

الذي جمع المدينتين البحريتين قبل هذا التاريخ بستين سنة (1016م)، برعاية البابا فيكتور يوس الثامن للتصدي، وقتها، للأمير مجاهد العاسري، وإخراجه من جزيرة سردينيا. وهذا ما يؤكد بقوة أن هذه الحملة الموجهة على بلاد المغرب تدخل في إطار المخطط التصليبي الكبير الذي اعتمدته المؤسسة البابوية، والقاضي كمد التمدد من قبل إلى إعلان حرب صليبية مقدسة على كل الديار الإسلامية في الشرق والغرب على السواء. ومما يدل على صليبية الحملة الموجهة على المهدية (La Bysacene) كما تسميها المصادر اللاتينية، ما يلي:

أولاً: صدامتها من حيث العدم والتعد، فقد اجتمع إلى هذه الحملة، إلى جانب قسوات جنوة وبيزة، الذين يشكلان القسم الأكبر في جيوش الحملة⁽¹⁾، عساكر من مختلف المدن الإيطالية، وكذلك جنود من إسبانيا وفرنسا⁽²⁾، كنهم لبوا نداء البابا الذي وعدهم بالغفران⁽³⁾.

⁽¹⁾ راجع ما سبق فصل الثاني

Jehel,G: L'Italie et le maghreb-p41-42.

⁽²⁾ عساكر من المدن الساحلية لإيطاليا الجنوبية، مثل: Gaete وكذلك فيلق من أملاك التي أغاب، على بعد مائة ميل من اتحاد المسلمين، للمزيد راجع:

-P. Guichard: les musulmans de Valence et la reconquête. (Damas1990), I, p292.

-Jehel,G: L'Italie et le Maghreb, p42.

⁽³⁾ من جهة أخرى أشار المؤرخ العربي ابن الأثير، إلى أن هذه الحملة استغرق الإعداد لها أربع سنوات، ويصعب تخيل من ذلك، شأنه أن هذه الحملة لم تكن فيها العناصر الأوروبية، لاس قريب وتأس من هذا -الكمال-، ج9، ص166.

أشار عدد من العلماء عرصب على روجر الأول، فاجر المسلمين في صقلية، للمشاركة في الحملة، ولكنهم رفضوا العرض بحجة أنه الذي تربطه مع صاحب إفريقية، وربما كان يخطط لغزو إفريقية منفرد وضمها لأملكه، بعدم يسهي من أمر صقلية، يشير أنه بعد انقضاء حوالي ربع قرن من حملة الصليبية على المهدية، حتى جهر (صدده) حملات بحرية بقيادة الأميران جورج الأنطاكي، وتمكن من احتلالها وضم عدد من المدن الساحلية الأخرى إلى سيطرته، للمزيد حول ظروف تشكل الحلف الصليبي وعلاقته مع نورماند راجع:

-Heyd,W: Histoire de commerce, T1, p121-22.

-D. Abulafia: The Two Italies, p52.

-**ثانياً:** بعد أن بارك البابا جيوش الحلفاء ومنحهم راية الحرب المقدسة (راية البابوية L'entendard pentifical)، عقد القيادة لأحد رجال الدين المتعصبين، الأسقف بندكتوس Preasul Benedictus، أسقف مدينة مودينا الإيطالية⁽¹⁾، بما معناه أنهم يجاهدون من أجل نصرة المسيحية على الإسلام. يضاف إلى ذلك، ما أشاعته البابوية من أن جلود الحملة، وهم في طريقهم إلى المهديّة، شاهدوا هالة في السماء تمثل القديس بطرس St Pierre يقودهم إلى القصر⁽²⁾.

-**ثالثاً:** كان المهاجمون مشحونين بالتعصب الديني ضد من كانوا يعتنقونهم بالكفره Pagani، أي المسمنون، مما يعطي الانطباع بأن المهاجمين كانوا مهيبين تعمل من أجل محاربة الإسلام ونصرة المسيحية، وأن حملتهم كانت صورة مصغرة للحملة الصليبية الأولى⁽³⁾.

-**رابعاً:** أما ما يؤكد بقوة صليبية هذه الحملة التي استهدفت عاصمة أكبر دولة في شمال إفريقيا، كونها برمجت في إصر مشروع صيحه حصصت له والرفقت عليه مؤسسة الفاتيكان بنفسها، في شكل حركة جهاد مضاد ad offensionem inimicorum sancte Ecclesie يقوم بها أنصار العقيدة المسيحية في زمن واحد ضد السنيين، في كل من شبه الجزيرة الإيبيرية، وجزيرة صقلية، وشمال إفريقيا، وإلا كيف نفسر هذا التوافق الترمي بين سقوط صليطنة في أيدي النصريّين سنة 478هـ-1085م، وسقوط سرقسطة المدينة الإسلامية العريقة في يد النورمان في نفس ذلك العام، وقبلها مدينة

⁽¹⁾ H.Pirenne: L'occident médiéval, historie économique, p183.
⁽²⁾ R. Idris: op.cit. p287.

تر.ع: عاشور: بعض الأضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية، ص20-21.

⁽³⁾ H. Pirenne: op.cit. p183

⁽⁴⁾ Lopez, S. R. : Révolution Commerciale au moyen âge. p65.

بألرمو عاصمة الإسلام في جزيرة صقلية، والهجوم على المهدية عاصمة أمارة بنسي
زيري وحصل الإسلام في بلاد المغرب سنة 480هـ/1087م.⁽¹⁾

ومهما يكن من أمر، فإنه بعد الانتهاء من ترتيب شؤون الجيش، انطلقت القوات
التصليبية المتحده في سيرد صحمة باتجاه إفريقية، قربت المصائد العربية بعدائه
بحوالي ثلاثين ألف رجل، يركبون ظهر أربع مائة (400) قطعة حربية (سفينة)⁽²⁾، أكثر بينهم
من قوات جنوة وبيزا⁽³⁾، وبعد استراحة ضرورية عند جزيرة قوصرة Pantellarie
(بالإيطالية)، انقاعة قبالة الشاطئ الإفريقي، لاستكمال الترتيبات الأخيرة، وضبط الخطه
المرسومة⁽⁴⁾، اقبع السفن في اليوم السادس من شهر اوت 1087م، الذي يوافق الاحتفال
بعد القديس سيكت St. Sixte، شيع وحامي مدينة بيزا وأهلها⁽⁵⁾، صوب المصائد
التونسي وقصنت حي زويلة، وهو ضاحية تجارية على مشارف مدينة المهدية، بعد عنها
بمسافة رمية سهم، واستولت عليها دون مقاومة، ثم هاجمت القوات الصليبية بعد ذلك
مدينة المهدية، واقتحموا ميناءها من دون مقاومة ايضاً، والسبب حسب ما أشارت إليه
المصادر العربية، يعود إلى غياب عساكر الأمير الزيري نعيم بن المعمر وقد التقطوا
خرجوا قبل وصول الحملة الغازية لمجابهة بعض المتمردين الخارجين عن طاعة
الأمير⁽⁶⁾، يضاف إلى ذلك سوء تدبير بعض المسؤولين في تنظيم المقاومة، من بينهم
الله بن منكوت، متولي امور النونة، الذي منع مقدم قائد الاسطول الزيري على عثمان بن

Jehel,G: la méditerranée medievale, p62-63.

⁽¹⁾ ابن الأثير : مع 10، ص 166.

- ما التيجاني في الرحلة، ص 331، وابن خلدون: العبر، مع 4، ص 328 فقد حدا عدد السفن بـ 300 قطعة
- نفس العدد ذكره كذلك، المؤرخ ذو ماسلاتري.

- De mas lairie : Relations, p22.

- فيما أرجعت بعض المصادر الأجنبية قوام الحملة على المهدية إلى 1000 قطعة حربية عليها ثلاثون ألف مقاتل.

- Amari, M: Storia, III, p171 - R Idris: la Berberie, p288

Jehel,G: L'Italie et le Maghreb, p41-42.

⁽⁴⁾ ابن الأثير : مع 10، ص 166.

⁽⁵⁾ De mas lairie : Relations, p55.

⁽⁶⁾ ابن الأثير مع 10، ص 166 / ابن عداري: ج 1، ص 301

سعيد، المعروف (بالمهز)، من الخروج بالأسطول للقاء الأعداء في البحر، ومنعهم من النزول إلى البر⁽¹⁾. كل ذلك أدى إلى نجاح الغزاة في التغلب على المهدية وزويلة ونهبهما واستباحتهما. ولقد أتى النهب والتخريب على كل شيء في المدينة، ولم ينجو من السلب والعدوان سوى القلعة الكبيرة (قصر المهدي) التي اعتصم بها الأمير تميم ولم يستطع الغزاة اقتحامها لمناعتها⁽²⁾.

ومن مخبأ في هذا القصر، اضطر الأمير الزيري طلب الهدنة من المنتصرين. والقبول بمفاوضتهم على ما يقنعهم بالانسحاب. كما كان هؤلاء أكثر رغبة من الأمير في التفاوض من أجل انقائهم. بعد أن قرروا استحالة بقائهم في المدينة لشدة الحر وخوفهم من استفحال أمر المقاومة المحلية، وما كانوا يترفعون من وصول التجنات إلى المدينة من طريق البر. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فقد كانوا، هم كذلك، في حاجة إلى مزيد من القوات اللازمة لمساعدتهم في تدعيم العمليات العسكرية، وتقوية صفوف الجنود في تمكين قواعد الحصار، خاصة وقد حاولوا التنسيق مع روجر النورماندي، صاحب صقلية، لمساعدتهم بالتعاون العسكري المتبادل، حتى أنهم، حسب ما ذكرت إليه بعض المنتصرين، عرضوا عليه أن تكون له السيادة على المدينة، ولكنه رفض لأنه كان مشغولاً بمواصلة الحرب في جزيرة صقلية، وأنه كان، على ما يبدو، في فترة سلم مع حاكم المهدية⁽³⁾. وفي الأخير وافق الغزاة على الهدنة التي عرضها عليهم تميم، لكن بالشروط التي فرضوها عليه، وأصر حاكم المهدية قبول تلك الشروط المهيمنة، من غير أن تكون له الخيرة في أن يعذل، أو يخفف من بنودها، التي من أهمها:

R-Idris: op.cit, T1, p288.....

التيجاني، ترجمة، ص332.

الوزير السراج: التحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحسين الهبيبة، المجلد 1، دار الغرب

الإسلامي، 1984، ص449.

¹ De mas latrie : Relations, p55.

-**أولاً:** دفع مبالغ مالية كبيرة، قدرتها بعض المصادر بمائة ألف دينار (100.000) .
وقيل ثلاثون ألف 30.000 دينار، ثمتا لأسحاب هذه القوات من المهدية وزويلة، مع
الاحتفاظ بما في أيديهم من الأسرى والغنائم⁽¹⁾. يقول لسان الدين ابن الخطيب في هذا
النص: "... إلى أن وقع الصلح بين تميم وبينهم على مائة ألف دينار تدفع لهم ويقبضون
بما حصل في أيديهم من المسلمين، فدفعوا لهم وأقلعوا بأموال المسلمين ونسائهم
وأبنائهم".⁽²⁾

-**ثانياً:** تعينت الحكومة الزيرية بعدم التعرض لسفن الجنوية والبيزيرية في الميناء
الإفريقي.

-**ثالثاً:** منح تجار المدن الإيطالية تراخيص تسمح لهم بالتجارة في الموانئ الإفريقية.
من دون إلزامهم بدفع الضرائب عن ذلك.

-**إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين برض الإمارة.**
وبعد هذا انصر اتنين الذي حقق على أيدي فرسان التنصاري اثنين بركنهم نابوية.
أقلعت السفن عائدة إلى قواعدها بما حملت من غنائم كبيرة حيث قاموا بتوزيع قسط منها.
حسب ما ذكرته المصادر اللاتينية، على الكنائس الأوروبية. وكان نصيب بيزة من هذه
الغنائم قد وظفتها في توسيع كاتدرائية القديس St Sixte.⁽³⁾
والمؤرخ أبو الحسن يخصص لنا أحداث هذه الواقعة من بدايتها إلى نهايتها. فسار:
وكسفت الشمس في هذا العام برج الأسد-وهو طالع تخطيط المهدية- كسوفاً كلياً فجرى
بها هذا الواقع بأثر ذلك، قال: "وكان من أعظم الأسباب فيه قضاء الله الذي لا يرد

⁽¹⁾ عن اختلاف المصادر في تحديد قيمة المبلغ الذي منح لتصنيبين مقابل خروجهم من المهدية. راجع:

- بين حنور، ص 4، 328-7- بين الأثير، ص 9، 166-7.

- النويري: نهاية الأرب، ص 24، 230 (ذكر 80 ألف دينار).

⁽²⁾ المصدر السابق، ص 78.

⁽³⁾ Jorga N : Brève histoire des croisades, p24.

- De mas latrie : Relations, p60

ومشيئته التي لا تدفع غيبة عسكر السلطان عن المهدية ومفاجأة الرود دون استعدادهم لهم وأخذ أهبة للقائهم وخلوا كافة الناس من الأسلحة والعدد. وقصر الأسوار وتهدمها وتكذيب تميم مع ذلك بما يرد عليه من أخبار النصارى وسوء رأي فلان متولي تدبير البلد إذ ذاك في المنع من الخروج إليهم ونقائهم في الماء فتركوا إلى أن نزلوا في البر فكان من تغلبهم على المهديتين وعيَّتهم فيها ما هو مشهور معلوم. قال: ولجأ تميم إلى القصر المعروف بقصر المهدي وهو قصر حصين فأقام به إلى أن وقع الصلح بينه وبينهم على مائة ألف دينار تدفع لهم ويقطعون بما حصل في أيديهم من المسلمين. فدفعتم لهم واقتلعوا بأموال المسلمين وسلبهم وأبنايتهم.⁽¹⁾

4 - تصاعد أعمال القرصنة والعدوان البحري الجنوبي في غرب المتوسط على عهد

المرابطين والموحدين.

- تعد الانتصارات التي حققها أساطيل المدن الإيطالية على القوى الإسلامية المشتتة بالتحوض الغربي لمتوسط على امتداد القرن الخامس الهجري (11م)⁽²⁾، العمل الأكثر أهمية من حيث التبدل في ميزان القوى بهذه المنطقة. إذ منذ أن خسر المسلمون مواقعهم على جزر البحر المتوسط، أخذ النصارى يوسعون سيطرتهم تدريجياً على هذا البحر، وصاروا يسيرون الغارات البرية والحملات البحرية على البلاد والشعور التي أخذت منهم

⁽¹⁾ استقينا هذا الكلام من كتاب المؤرخ الوزير السراج: الحلل المنسية في الأخبار التونسية، ص 468.

⁽²⁾ سجل هذه الانتصارات - تنشر في:

- انتصار جنوة وبيزة على مجاهد العامري في جزيرة سردينية سنتي 1016-1050 م وأخرجوه منها:

- انتصار البندقية على المسلمين المتواجدين بجنوب شرق إيطاليا في ناري سنة 1004م.

- انتصار البيازنة على مسلمي جنوب غرب إيطاليا في منطقة كالابريا Calabria ورجيو Reggio سنة 1005م.

- انتصار انورمات على مسلمي صقلية ما بين 1060-1090م.

- العدوان الصليبي الناجح على سواحل المغرب على بونة 1034م، على المهدية 1087م.

فيما مضى. ومنذ ذلك الوقت، دخلت مدن إيطاليا البحرية كطرف فعال في حركة الاسترداد والحروب الصليبية التي خططت لها البابوية الكاثوليكية، واضطلع بعبء تنفيذها امراء وملوك أوروبا.

وهكذا فمن الناحية التي بهضت فيها اتممات المسيحية التي شكلت في شمال إسبانيا- في كل من جاليسيا، قشتالة، ليون، نافار، أرجون وكتلونيا⁽¹⁾ - وأخذت تضغط على الثغور⁽²⁾ الشمالية للإمارات الإسلامية في بلاد الأندلس. لكسب المزيد من المجال البري، مستغلين الظروف المواتية التي صارت توفرها الأوضاع بالمنطقة، منذ تفككت الدولة الأموية إلى صوائف صغيرة، واتساع رقعة الفتن والحروب بين تلك الصوائف، سارعت كل من جنوة وبيزة، اللتين أصبحتا قوتان بحريتان ضاربتين على الساحل التيراني، إلى تلبية دعوة البابوية، مرة أخرى، لنقل عملياتهم العسكرية إلى شبه الجزيرة الإيبيرية للمساهمة في حركة الاسترداد (الروكنستا) التي أعلنت عنها ودفعست بها البابوية.⁽³⁾ ومن دون تردد قبلت حكومتا المدينتين عروض حكام الإمارات الإسبانية لتقديم الدعم والمساعدة لهم في حروبهم ضد الإمارات الإسلامية، كدفعهم رغبة فويه في الاستئادة من فوائد التجارة بالموانئ الأندلسية المزدهرة، ووضع أيديهم على طرق ومراكز التجارة بسواحل الأندلس، بعد أن تمكنوا من فرض سيادتهم على تجارة صقلية وبلاد المغرب في فترات سابقة.

وعلى هذا الأساس سارعت المدينتان، بيزة وجنوة سنة 1090م، إلى عقد اتفاقية مع كونت برشلونة، الذي كان يفتقد وقتها لأسطول كافٍ لحماية سواحله، معرضين عليه

⁽¹⁾ عن تاريخ وظروف تشكل الإمارات المسيحية في شمال إسبانيا راجع بهذا الخصوص:

-ثان الدين بن الخطيب: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 321-338.

-M.c.Gerbert: l'Espagne au M.Âge V-XVS. Ed Armond colin (paris 2000).

p105-6.

⁽²⁾ مصطلح الثغور Thughur بالتعبير العربي كان يستعمل للدلالة على جبهة أرضية أو ساحل بحري.

⁽³⁾ G.Jehel & ph.Racine, op cit , p75.

خدماتهم البحرية اللازمة وقت الحاجة⁽¹⁾. سنتين بعد ذلك (1092م)، انضمت جنوة إلى الحلف الذي تشكل بين ملك قشتالة ألفونسو السادس Alphonso VI وحاكم قطلونيا لمحاربة Rodrigo Diaz de Bivar المشهور بلقب السيد Le Cid الذي كان قد تحالف مع أمراء من المسلمين بشرق الأندلس⁽²⁾. وقد توجهت قوات التحالف لمحاصرة مدينة طرطوشة الواقعة بين برشلونة وفالنسيا من غير أن تؤدي إلى نتيجة.⁽³⁾

عاد أبناء مدينتي جنوة وبيزا أعمالها العدوانية على الموانئ الإسلامية الهامة بشرق الأندلس. منذ مطلع العشرية الثانية من القرن الثاني عشر الميلادي، من خلال التحالف مع الإمارات الصليبية، لكن من غير أن يكون بينهما، هذه المرة، تنسيق في الأعمال العسكرية بسبب تفاقم حدة الخلافات السياسية بين حكومة المدينتين على خلفية التنافس من أجل كسب المزيد من الامتيازات والمستعمرات التجارية في محيط البحر الأبيض المتوسط، الذي أضحي مجالا مفتوحا للقوى البحرية والتجارية الأوروبية. منذ نجاح الحملة الصليبية الأولى، التي استهدفت ديار الإسلام بالشرق (فلسطين وبلاد الشام). وكانت المدينتان (بيزا، جنوة) قد ساركت فيهما بفوات بحرية، وتحصنت على مواقع إرسينها وامتيازات تجارية ببعض الموانئ الشرقية.⁽⁴⁾

ومرة أخرى تظهر مواقف التباين بين جنوة وبيزا حيال الصراع الدائر على جزيرة الأندلس بين الممالك الإسبانية في الشمال والإمارات الإسلامية في الجنوب، فيما أقدمت عليه المدينتان خلال نفس التوقيت تقريبا، أي ما بين 1113-1114م. من عمليات حربية منفردة. ففي الوقت الذي تهيأت مدينة بيزا لخوض حملة عسكرية كبيرة ضد جزر البليار

⁽¹⁾ J.B.Fredman & K.M.figg: trade, travels and exploration in the M.âge Encyclopedia. (N.york. 2000), p210.

⁽²⁾ Lopez, R. Storia della colonia, p35.

⁽³⁾ ph.Jansen.A.nef. ch.picard: op.cit.p64-5

⁽⁴⁾ Ibid.p68.

التي كانت تحت حكم الأمير مبشر. أحد أحفاد عائلة مجاهد العامري، وهي الحملة التي دعا إليها البابا باسكال الثاني (1099-1128م)⁽¹⁾، ولقيت هذه الحملة استجابة فورية واسعة من مختلف المدن والجهات بتسكانيها، ولمبارديا، وإقطاعيات جنوب فرنسا، فضلا عن مملكة فضاءلونيا التي كانت تسعى. على ما يبدو، لضم هذه الجزر القريبة من حدودها إلى نفوذها. ولقد تحملت قومية بيزة وحدها العبء الأكبر في تجهيزها وتسليحها، حيث ساهمت هذه القومية بمجموع 300 سفينة حربية⁽²⁾. ولأول مرة، ترفض حكومة جنوة الاستجابة لدعوة زعيم الكنيسة المسيحية في أوروبا، التي وجهها لها للمشاركة في الحملة الصليبية على جزر البليار. نظرا للمنافسة المتجددة، والعداء المتسافر بينهم وبين حكومة بيزة⁽³⁾، ومهما يكن، فإن حملة بيزة وحلفائها على جزر البليار قد كللت بالنجاح، حيث تمكنت قوات الحملة في أول الأمر من اقتحام جزيرة يابسة Ibiza في شهر أغسطس 509هـ=1115م، واستولت عليها دون عناء.⁽⁴⁾ لتتوجه القوات المؤلفة، بعدها، صوب جزيرة ميورقة عاصمة كبرى جزر البليار. وبعد حصار طويل لها سقطت

⁽¹⁾ وأوضح أن البابا اسكال الثاني، وهو الذي خلف البابا أرنولد الثاني، مشروع الحملة الصليبية الأولى على جزر البليار. قد حاول تحت نسوة الانتصار الذي حققته الحملة الصليبية الأولى أن ينادي هو الآخر بالدعوة لحملة صليبية مماثلة، حسبما على بلاد الأندلس. نظرا لاستحالة تسير حملة في هذه الظروف على الشدة.

⁽²⁾ ابن الكريستوبوس: قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ج2، ص122.
S. direction, G. Martinez-Gros: pays d'islam et monde latin, 950-1250, p88.
-picard.ch: l'océan Atlantique., p163.

⁽³⁾ رغم وجود دلائل قوية على عدم مشاركة جنوة إلى جانب بيزة في الحملة التي استهدفت جزر البليار (1113-1115م)، إلا أنه مع ذلك، حدد بعض المؤرخين التماس يصفون عدم الانحياز على الترسكين في الحملة، كد وقع بعض المصادر الإسلامية، هي الأخرى، في هذا الخطأ عندما أشارت إلى مشاركة جنوة في هذه الحملة، مثل ما جاء في كتاب ابن الكريستوبوس الذي يذكر في أحد فصوله عام 308هـ=1114-1115م مايلي:

": اجتمع أهل بيشة (بيزة) وجنوة وعمروا ثلاثمائة مركب، وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل ميورقة... راجع: -فصحة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص122.

وكذلك ابن خلدون الذي كتب روايتين أشار في الأولى، إلى اشتراك الجنوبيين في هذه الحملة، وذكر في الثانية " بأن صاعية برشلونة هو الذي جمع الجميع ودارل ميورقة. مج6، ص387.

⁽⁴⁾ Franco, cardini: Europe et Islam, p79-80.
-G. Jehel & ph Racinet: op cit, p119. Bragadin, M. A: op cit, p57-58.
-Bragadin, M. A: Histoire des républiques.... P57-8.

تحصينات مدينة ميورقة الأمامية في أيدي الغزاة، الذين سوف يستولون عليها في فبراير 509هـ-1116م. ويوقعون مذبحه رهيبة بسكانها⁽¹⁾، وكوفى أبناء بيزة على الدور الكبير الذي اضطلعوا به في هذه الحملة بأن منحهم البابا هذه الجزر كإقطاعيات Fief.⁽²⁾

غير أن فرجه أبدء فومونة بيزة لم تكتمل، إذ بينما كانوا يتأهبون لأخذ مواقعهم على جميع هذه الجزر، تواترت الأنباء عن وصول عمارة حربية مرابطية أرسلها أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين، وكان قد ربط أمر قيادتها لعائلة ابن ميمون التي اشتهرت بخبرتها ودرايتها في ميدان النشاط البحري⁽³⁾، تمكنت من استخلاص جزر البليار من الوجود الصليبي في يسر وأعدتها من جديد إلى كنف التبعية الإسلامية. كان ذلك في 13 أبريل 509هـ=1116م.⁽⁴⁾

لم يقف الجنويون مكتوف الأيدي حيال الأنشطة البحرية التي كان يبشّرها أعداءهم البيزيون في غرب المتوسط، ولتثبت وجودهم كقوة بحرية ضارية بالمنطقة، قاموا بتسيير حملة بحرية مكونة من اثني عشر سفينة حربية على مدينة بجاية Bougia سنة 1136م، عاصمة دولة بني حماد، استولوا أثناءها، حسب رواية كافارو Caffaro، على سفينة إسلامية بالميناء البجاوي محملة بأمتعة وبلغ ثمنها، وعادوا بها وبمن كان فيها من سلع وركاب، باعوه في أسواق جنوة محققين من وراء هذه العملية البحرية أرباحا كثيرة⁽⁵⁾.

كما يذكر كافارو، في سياق حديثه عن الحملة، أن قادتيا أرغمو حاكم المدينة على إبرام معاهدة تجارية تمنح مواضي القومونة امتيازات خاصة⁽⁶⁾، وإذا صحت هذه الرواية،

(1) الحميري: الترويض السعطار، ص567.

- ابن القطان المراكشي: نظم الجمان، ص74.

(2) - يوسف الشماخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين، المجلد 1، ص142.

(3) ch.Picard: les Musulmans et la mer,p62.

(4) - P.Guichard & Seanc: Les relations des pays d'islam, p258-9.

(5) Caffaro. Annali, vol.I, p28.-Canale.M. Nouova istoria.T2. p132.

-A.Guistiniani: Annali della repubblica di genova, p172-4.

(6) Caffaro: Annali.vol.I, p28.

التي انفرد كفارو بسردها وحده، فإن هذه المعاهدة، تكون أول اتفاقية تجارية بين حكومة مدينة جنوة وحكاه بلدان المغرب الإسلامي. (1)

وبعد هذا النجاح الباهر الذي حققه أبناء قومونة جنوة، في حملاتهم المظفرة في المشرق والمغرب، وأصنوا توسيع ميدان أعمالهم البحريه باتجاه الغرب إلى شبه الجزيرة الإيبيرية للظفر بمواقع جديدة على السواحل الأندلسية، ولمنافسة أبناء بيزة، الذين سبقوهم إلى هذه الجهات بفترة ليست قصيرة. واختار الجنوبيون مدينة ألمرية Almeria ومينائها التجاري الهام الذي يربط بين الأندلس بالعدوة المغربية هدفا لهجماتهم المتكررة. ففي سنة 1515م، بعد مرور سنة واحدة، على حملتها الناجحة على ميناء بجاية، سيرت القومونة حملتها الثانية بالتحالف مع بعض العناصر الصليبية على ميناء ألمرية (2).

ولم يكن يخفى على أحد أن أبعاد هذه الحملة المباحثة على المرية، في هذا الضرف بالذات، تدخل ضمن سياسة استراتيجية وضعتها القومونة منذ نجاح الحملة الصليبية الأولى، تهدف إلى توجيه الحملات، وتكثيف الضغط على الموانئ التجارية الكبرى بالسواحل الإسلامية، سواء كان ذلك في المشرق أم في المغرب، للاستفادة من النشاط التجاري بها. فبعد أن حصلت جنوة على مواقع لها بالموانئ الشرقية الكبرى مثل أنطاكية، عكا، طرابلس، بيروت، ووجهت ضغوطها، في إطار سياسة الاحتكار التجاري، وننوفوف كذلك في وجه منافستها بيزة، نحو موانئ انحوض الغربي للمتوسط، حيث مكنت موانئ كل من ميسينا Messina في جزيرة صقلية، والمهدية وبجاية ببلاد المغرب، والبليار والمرية ببلاد الأندلس، ثم أخيرا موانئ مرسيليا Marseille ومونبلييه

(1) Lopez.R: Storia della colonia,p110.

-G.Airaldi: Gli annali di caflaro (1099-1163). acura di G.Airaldi.

(Genova2002), p86.

(2) Canale. M.G: op.cit.T2, p133-4./ Bragadin.M.A : op cit., p59

Montpellier بجنوب فرنسا، أهدافا رئيسية لسياسة التوسع التجاري الجنوبي خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي⁽¹⁾.

لذلك كان هذا الإصرار الكبير من حكومة جنوة على مواصلة أعمالها العدوانية على الموانئ الإسلامية حتى تحقق غرضها المنشود. بدليل، أنه مباشرة، بعد فشل حملتها الأولى على المزية سنة 1371م، أخذت تتجهز وتستعد لحملة ثانية على نفس المدينة، مستغلة الأوضاع الصعبة التي تردت فيها بلاد الأندلس عقب انهيار الحكم المرابطي بها، وعودة الانقسامات والصراعات، من جديد، بين أهالي الأندلس، فيما صار يعرف بمرحلة الطوائف الثانية second Taifas⁽²⁾. يقول صاحب كتاب المعجب في إخبار المغرب⁽³⁾، عن ضعف المرابطين وخروج أمراء المقاطعات عليهم: "ولما رأى أعيان تلك الجزيرة من ضعف أحوال المرابطين، أخرجوا ما كان عندهم من الولاة، واستبد كل منهم بضبط بلده، وكانت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية".

ففي خضم هذه الاضطرابات التي عصفت باستقرار الأوضاع بالأندلس، سارعت جنوة بالتصدي إلى الحلف الصليبي الكبير، الذي بدأ يستل في الأقاليم الشمالية لغرب الجزيرة الإيبيرية، وضد كل من ألفونسو السابع Alphonso VII ملك قشتالة وليون وريموند برنجر الأول Raymond Berenger I ملك برشلونة، إلى جانب قوات بحرية مساندة من مدينة مونبيلييه الفرنسية⁽⁴⁾. ولما تبين للجنوبيين أن أصراف هذا التحالف من الإيبيريين كانوا يعلقون أسلا كبيرة على الأسطول الجنوبي لإنجاح حملتهم على المزية، كذلك رآوا أنه من الضرورة بمكان المطالبة بضمانات وعهود للحصول على مغنم مالية، وامتيازات

⁽¹⁾ - Devisse : Routes de commerce, (R.H.E), op cit, p41

⁽²⁾ - Ph.Jansen - A.Nef - Ch.Picard : op cit, p126

- محمود مكي: تاريخ الأندلس السني (92هـ-897هـ = 711-1492م) ج 2 ص 120.
⁽³⁾ - ص 177

⁽⁴⁾ - De mas latrie: Relations, p67.

-S/D. Martinez-Gros: pays d'islam et monde latin, p89.

تجارية كشرط مبدئي للانضمام إلى هذا الحلف. وعلى إثر ذلك أبرمت اتفاقية بين الجنوبية وملك قشتالة سنة 1146م، نصت: "على أن تساهم القومونة بقوات بحرية وأتوات الحصار Militis Machinis في مقابل أن يتعهد ملك قشتالة بأن يدفع لهدم 10.000 مرابضي pro-sumptus machinarum dabo missa vestro decem milia marabotinorum".⁽¹⁾

كما جاء في الاتفاقية أيضاً، أنه يمنح للجنوية، في حال نجاح الحملة، فندقاً ومخبزاً وحماماً وحديقة وكنيسة في كامل المدن التي يستولون عليها، مع الاستفادة من هبة بمقدار ثلث ($\frac{1}{3}$) في كل مدينة.⁽²⁾

وبعد أشهر كافرو اندي كان يشغل منصب الفصل في قومونة جنوة، وكان شاهد عين -على ما يبدو - على هذه الحملة، حيث يروي تفاصيلها بدقة منذ انطلاقها إلى أن انتهت بالظفر بالمدينة واحتلالها سنة 1147م = 542هـ⁽³⁾ ثم في سنة 1148م = 543هـ أبرمت القومونة اتفاقية مشابهة مع حاكم قطالونيا وأرغونة لغزو مدينة طرطوشة. وحصلت جنوة بموجبها على نفس الامتيازات التي استغاثت منها في الأمرية من قبل. بم فيها حصة الثلث $\frac{1}{3}$ من مدينة طرطوشة⁽⁴⁾. غير أن سلطات مدينة جنوة التي كانت تفقد للإمكانيات المادية والبشرية اللازمة لتسيير أملاكها في الأندلس، وجدت نفسها، في النهاية، مضطرة لببيع حصتها من الامتيازات في مدينة طرطوشة لكونت برشلونة سنة 1153م، مقابل 16.640 مرابضي Moravidis⁽⁵⁾. أما أملاكها بمدينة المريجة، فقد

⁽¹⁾ Lopez.R: storia della colonia, p94.-Jehel.G: les Genoïs-p35.

⁽²⁾ A.Guistiniani, op.cit, p179-180. Canale.M.A: TL, p.323-332.
-Bragadin.M.A: op.cit,p59.

⁽³⁾ Caffaro: De captione Almeria et Tortuose. Ed. A.Ubieta Arteta.
(Valence1973), pp30-35.

⁽⁴⁾ A.Guistiniani, op.cit. p188-190.-Bragadin,M.A. op.cit..p59.
-Picard.ch: l'océan Atlantique....p168..

⁽⁵⁾ -Caffaro: De captione Almeria et Tortuose, p30-35.

P.Guichard: l'Espagne et la Sicile,p65-66./-Picard.ch.:l'océan Atlantique...p16.

خسرتها سنة 157م، بعدما نجحت جيوش الخليفة الموحيدي عبد المؤمن في استرجاع المرية، وبسط السيادة الإسلامية عليها من جديد.⁽¹⁾

وإلى جانب الأخبار التي ذكرها المؤرخ الجنوي كفارو عن الحملات والانتصارات التي طفر بها مواضوه في بلاد الأندلس، وكان هو معاصرا لها، ومشاركا في بعض وقائعها، فلقد استوفقت، كذلك، هذه الحملات الصليبية العديد من مؤرخي العالم الإسلامي، وفي مقدمتهم عبد الله ابن أبي بكر الزهري الأندلسي. صاحب كتاب الجغرافية⁽²⁾، الذي أثار انتباهه تحامل أبناء جنوة، وتغلبهم على ديار الإسلام، وكان معاصرا للهجمات التي شنها على المدن الأندلسية، حائل البصف الأول من القرن 12م فكتب بصور طبيعته العدوانية وعصبية تصويرها يثير العجب قائلا: "وأهل هذه المدينة (جنوة) هم قرش الروم، يقال عنهم أن أصلهم من العرب المنتصرة من أولاد جبلة بن الأيهم الغساني الذي تنصر في الشام، وهم قوم لا يشبهون الروم في خلقهم، لأن الروم الغالب عليهم الشقرة وهؤلاء قوم سمر دمع... شم العرائين، فذلك قيل أنهم من العرب. وهم قوم تحار في البحر من بلاد الشام إلى بلاد الأندلس، ولهم شدة في البحر.

أما بخصوص جيرانهم من أهل بيجة (بيزة) فكتب بشأنهم: "... وأهلها أشد الناس بأسا في الحرب، وأكثرهم هندسة وحيلة في البحر. وهم أقدر الناس على المنجنيقات والأبراج

⁽¹⁾ لم يلق، في الواقع، عبد المؤمن بن علي أية صعوبة في ضم الأجزاء الغربية والوسطى من الأندلس، لأن أسراء هذه الجهات سارعوا بإعلان ولائهم له وانضمامهم للدولة الموحدية، لمزيد: -السلامي: "المستقصاء"، ج 5، ص 104.

-أشباح، ي: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ج 1، ص 224.
-pistarino, G: "Genoa e l'islam" (Annuario di studios medievalis) TX.1980, p19-34..

Jehel, G: les génois, p35.

-Picard. Ch: les musulmans. p64-65.

⁽²⁾ حققه محمد حناج صائق، المركز الإسلامي للطباعة، القاهرة

و النواميس، و قتال المراكب و الرمي بالنفط... و عندهم الخشب العظيم وكذلك يعملون من الحديد كل آلة حسنة مثل الدروع و البيضات و الرماح...⁽¹⁾

و اصل عبد المؤمن، الذي تلقب بامير المؤمنين، حروبه ضد النصارى، خلال السنوات التالية، في كل من بلاد المغرب و الأندلس، بدأها بتسيير حملة بحرية كبيرة على إفريقية لتخليصها من يد النورماند. و بعد أن تمكن من الاستيلاء على المهدية سنة 557هـ=1160م، و طرد النورمانديين من المدن التي كانوا قد احتلوا في شمال إفريقية من سنة 543هـ=1148م⁽²⁾، إلى أن تم له بذلك ملك بلاد المغرب كلها من طرابلس إلى المحيط. و لما فرغ من أمر المغرب عمد بعد ذلك إلى إعلان حرب الاستقلال على نصارى الأندلس و من و الأهم من أمراء المسلمين، فانقض على بلنسية و المرية، و أرغم و لايتها على الإذعان و إعلان الطاعة له، ثم عرج، بعد ذلك، إلى غرناطة و أفتكها بالقوة من ابن همشك، متوجا عهده بتأسيس دعائم إمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من حدود مصر إلى ضفاف نهر إبرة Ebre و نهر تاج Tage بشمال الأندلس... و تم لعبد المؤمن، ملك إفريقية كلها منتظما إلى مملكة الغرب، فملك في حياته طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة، و أكثر جزيرة الأندلس، و هذه المملكة لم أعلمها انتظمت لاحد قبله منذ أن اختلت دولة بني أمية⁽³⁾. كما أشار إلى ذلك، صاحب كتاب الاستبصار بقوله: ... و كنمة الهداية من طرابلس إلى منية ناجة⁽⁴⁾.

و من المعلوم أن هذه الانتصارات الكبيرة و التفوق الحربي الذي أظهره الجيش الموحي في البر و البحر بغرب المتوسط، على عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، قد

⁽¹⁾ الزهري: المصدر السابق، ص 78./ راجع كذلك الفلقشندي: المصدر السابق، ج 5، ص 405

⁽²⁾ عن عنوان النورماندي على السواحل الإفريقية، راجع بالتفصيل:

Belkhodja.K: " les normandes de Sicile en ifriqia" (cahiers de Tunisie)

No 47- 8. Tunis 1964

R.Fossier: le M. age, 12, p256 ./-R.Idris: la Berberie, T1, p. 334-341.

⁽³⁾ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 193-194.

⁽⁴⁾ مجهول المؤلف، مصدر سابق، ص 111.

تزامنت مع الانتصارات الباهرة التي حققها السلطان الأيوبي صلاح الدين على معاصر الصليبيين في شرق المتوسط، الذي استرجع مدينة القدس وأخذ يتعقب فلول الصليبيين على طول الساحل الشامي إلى أن انتزع منهم أغلب المدن والقلاع⁽¹⁾.

ومنذ ذلك انوفت أيقنت المدن البحرية الإيطالية، التي تعودت العيش من فوائد التجارة مع المسلمين، بعد أن خسرت مواقعها، على التوالي، في كل من بلاد الشام والمغرب والأندلس، جراء حروبها ضد المسلمين بأن لا جدوى. نهائيا، من الإصرار في هذا المسعى العدائي. ورات أنه من مصلحتها الجنوح إلى السلم وتفضيل الخيار الدبلوماسي على العمل العسكري. وقد تجلى موقف جمهورية جنوة، في إطار هذه السياسة الجديدة في العدد الكبير من معاهدات السلم والتجارة Traites de paix et de commerce التي أبرمتها مع بعض الحكومات الإسلامية بالمغرب والأندلس، على امتداد النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. قارب عددها العشر معاهدات⁽²⁾ كلها تشمل على بنود خاصة تشدد على حرية نقل الأفراد والتسنع، وبيد القرصنة والتصوصية (Course et piraterie)⁽³⁾.

ولعل أكبر دليل على اهتمام حكومة جنوة، خلال هذه الفترة، بتطوير علاقاتها السلمية الدبلوماسية مع مسلمي المغرب والأندلس، تلك الحركة التجارية النشطة التي عرفت فيها مدينة جنوة، وما جنبته من رخاء وازدهار لمواطنيها، بما لم تعهده القومونة منذ نشأتها. حيث عرفت هذه الفترة إقبال عدد كبير من سكان المدينة على ممارسة مختلف الأنشطة التي لها علاقة بالأعمال التجارية، تشهد على ذلك عدد الشركات الاستثمارية، ومجمل

⁽¹⁾ للمزيد راجع، أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص87-98

⁽²⁾ عقدت القومونة على عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي عدة اتفاقيات: سنة 1157-1160-1164 مع طرابلس، 1156-1157-1158-1160-1162-1163-1164 مع تونس، 1160 مع سبتة، 1162-1163 مع سالة، كما حصل الحنويون كذلك على امتيازات ومصالح، طبقا للمعاهدات التي عقدها مع المدن الإسبانية فالتسبا ومرسية خلال سنتي 1149-1161، للمزيد:

-De mas latrie. : Relations et comerce-p90.

-G.Airaldi : Gli Annali. op.cit. p124.

⁽³⁾ De mas latrie: relations et commerce, p 88-9

الصفقات التجارية، و عقود كراء السفن لنقل البضائع، التي تم تدوينها في عقود السجلات العدلية Contrats Notariès، كلها موجهة لبيع وشراء السلع من الموانئ الإسلامية. إذ غالباً ما كانت هذه العقود تظهر الأطراف المؤسسة للشركة التجارية من تجار وأصحاب رؤوس الأموال وملاك السفن وحتى، في بعض الأحيان، مواضع بسطاء، كانوا ينفقون فيها بينهم على تأسيس شركة للتجارة برأسمال محدد، توجه للاستثمار في صفقات تجارية باتجاه موانئ معينة (غالباً ما كانت الموانئ المقصودة، سبتة، ساله، المرية، بونة، تونس وطرابلس)، وعند عودة السفينة من رحلتها بسلاسل يتم تقسيم الفوائد حسب حصة كل من ساهم فيها بماله أو جهده. ⁽¹⁾

ولم يزل تجار جنوة والمدن الإيطالية الأخرى، ينعمون بمزايا هذه الصلات الودية مع مسلمي المغرب والأندلس، إلى أن وقعت الحرب بين الموحدين وتحالف ممالك الأسبان والبرتغال ⁽²⁾ في موقعة لاس نافاس دي تولوزة Las navas de Tolosa - تسميتها المصنّعة تعريبية (العقاب) - سنة 1147م، التي ألحقت الهزيمة بالفاتح الموحدي، وأنعمت على النصارى بتفوق مرموق. "... فكانت على المسلمين الهزيمة الكبرى المنسوبة إلى العقاب، ولم تستقل الأندلس بعدها العثرة، وكانت يوم الاثنين الثامن لـصفر من سنة 609هـ). " ⁽³⁾

كانت تلك لاس نافاس ضربه فاسيه، أوجبت انحلال دولة الموحدين. عندما قام عدد

⁽¹⁾ -Lopez,R: storia della colonia,p110-11.

⁽²⁾ شارك من المسيحيين في هذه الموقعة (العقاب) كل من الفونسو 8 ملك قشتالة، وشانجا أملك القوي Sanho el fuerto ملك نبرة، وملك ارغونة بترو الثاني، إلى جانب حاكم نافار وعناصر برتغالية. picard.ch: le monde musulman du XI au XVS. Paris, Sedes 2000, p87-88.

⁽³⁾ لسان الدين بن الخطيب: تاريخ اسبانيا الإسلامية، ص269.
- ويقول ابن الأبار، كذلك، بشأن هذه الموقعة: "... وهي التي أفضت إلى خراب الأندلس وكانت السبب الأقوى في تحريف الروم بلادها حتى استولت عليها."
- التكملة لكتاب الصلة، ص 262

من الزعماء المحليين في الأندلس، عقب هذه الهزيمة، بالاستيلاء على ما بأيديهم من مدن وأقاليم، منذرين بزوال سلطان الموحدين كله عن اسبانيا سنة 1232م⁽¹⁾. ثم أفضت الأمور، في النهاية، نتيجة تسارع الأحداث إلى وقوع التمزق داخل الجبهة المغربية، بخروج زعماء محليين، أعلنوا الانفصال عن الإدارة المركزية. ولأن استغرقت هذه العملية سنوات طويلة، فإنها أدت، في النهاية، إلى سقوط الدولة الموحدية سنة 668هـ-1269م، وقامت على أنقاضها دول ثلاث هي: بنو حفص في المغرب الأدنى- بنو زيان في المغرب الأوسط، وبنو مرين في المغرب الأقصى.⁽²⁾

ذلك هو الحال الذي وصلت إليه الأوضاع في كل من المغرب والأندلس. خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، مما انجر عنها عودة الاضطرابات الأمنية إلى الطرق والموانئ بغرب المتوسط. وطال التدهور الأمني مواقع جنوة التجارية ببعض الموانئ الأندلسية والمغربية. فخلال هذه الفترة المضطربة أجبر الجنويون على مغادرة مواقعهم بجزر البليار، وإمارات شرق الأندلس، في كل من ظروفه. فالنسي ومرسيه، التي تعرضت لعدوان الممالك الأسبانية قشتالة، وأرغونة. إلى أن تم انتزاعها نهائياً من أيدي المسلمين⁽³⁾. كما تعرضت مصالح جنوة الاقتصادية في ميناء سبتة بالعدوة المغربية.

⁽¹⁾ D.Abulafia: the western Mediterranean Kingdom (1200-1500) the struggle for domination Ed, Longman,(London & N.york1997). P39-40.

-Picard, ch. L'océan..., p79-123-25.

⁽²⁾ سينيوي، ل. أ: المرجع السابق، ص302

⁽³⁾ جزر البليار استولى عليها جياك الأول البرشلوني الملقب بالفاتح Jane I El Conquistador سنة 627هـ=1230م ثم أخذ بعدها مملكة قشتالة سنة 636هـ=1238م، وهما هو الذي تحكم في منح الامتيازات للتجار الإيطالية بهذه المواقع الهامة.

ضياح أملاكهم بإمرة مرسية، سبب الحروب الدائرة بين مملكة قشتالة وأرغونة لأجل السيطرة عليها.
للمزيد راجع:

-تحميري. التروص المعطار، ص568.

-يوسف اشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج1، ص419.

-Jehel,G: les Génois,p57.

للتدهور جراء هذا التبدل في الأوضاع السياسية التي عرفتھا المنطقة⁽¹⁾، مما حمل مسؤولوا القومونة إلى العودة من جديد إلى سياسة المناورات العسكرية لحماية مصالحهم التجارية بهذه الموانئ، وشهدت الفترة الممتدة من 1231-1235م، توجه الأسطول الجنوبي إلى القيام بحملات عسكرية، وأعمال قرصنية استهدفت بعض الموانئ المغربية.

(5) - العدوان الجنوبي على مدينة سبتة (629-633هـ 1231-1235م)

تعد مدينة سبتة Septem⁽²⁾ بموقعها الممتاز عند بوابة مضيق جبل طارق، الذي يربط مياه البحر المتوسط مع مياه المحيط الأطلنطي، من أهم المدن والموانئ الإسلامية على الساحل الجنوبي الغربي للبحر المتوسط، لعبت، منذ القديم دورا هاما في المجالين العسكري والتجاري باعتبارها محطة للتواصل بين سكان القارة الإفريقية وسكان القارة الأوروبية. فمن هذه المحطة المتقدمة تمكنت جيوش الإسلام الفاتحة من العبور لأول مرة، إلى البر الأوروبي سنة 92هـ=711م والاستقرار في شبه الجزيرة الإيبيرية التي

-B.Rosenberger: "le contrôle du détroit du Gibraltar au XII et XIII" in l'occident musulman et l'occident chrétiens) p15-16.

⁽¹⁾ H.Bautier: les grands problèmes de la méditerranée (Revue historique), p16.

⁽²⁾ القائلون عند المورخين العرب أن اسم سبتة فيه يعود إلى أحد أحفاد النبي نوح (عليه السلام) لكن عند المورخين الغربيين فالاحتمال قائم على أن اسم "سبتة" هو تعريب للاسم اللاتيني Septem أو Septem fratess الذي يشير إلى التلال السبعة المحاذرة. وبهذا يكر فإن مدينة سبتة بموقعها الاستراتيجي، كانت منذ القديم محطة لخدمة الشعوب التي عرت واستوطنت شمال إفريقيا، بدءا بالفينيقيين الذين كانوا أول من أنشأ بها محطة تجارية le comptoir D'abyla . سرورا بالرومان الذين أعطوها اسم Septem ، ثم البيزنطيين الذين خلفوا الرومان على مستعمراتهم في شمال إفريقيا وجعلوها قلعة قوية للصدوم في وجه الغزو القوطي، والفندالي. للمزيد بخصوص تاريخ سبتة في العهود القديمة راجع.

Encyclopedie de l'islam, nouvelle édition, TVIII, (Leiden 1995), p709-10.

-أما بخصوص الأحداث التي مرت بها خلال العصور الوسطى راجع، ابن خلدون، ص6، ص282-295/96.

-أما أهم مرجع حديث تناول تاريخ سبتة فهو:

-H.Ferhat: Ceuta des origines au XIVS. Rabat. 1993.

صارت، منذ ذلك الوقت، حصن المسلمين المنيع في وجه هجمات القوى المسيحية المتتالية من جهة الشمال.

ثم ازدادت أهمية سبنة خلال فترة العصور الوسطى، وصارت محل نزاع بين مختلف الدول والإمارات الإسلامية المستقلة، التي تأسست، سواء بأرض المغرب أم بالعدوة الأندلسية، كل يحاول السيطرة عليها نظرا لأهميتها الإستراتيجية. فهي كما يصفها الجغرافي البكري: "مفتاح باب المشرقين ومجمع البحرين".⁽¹⁾

وهكذا فعندما تأسست الخلافة الأموية بالأندلس سارع حكامها إلى توسيع ملكهم ليشمل العدوة المغربية، كما أولوا عناية خاصة بالاستيلاء على مختلف الثغور المطلية على الساحل المتوسطي والأطلسي، ويأتي في مقدمة الثغور التي حرصوا على ضمها لنفوذهم، ثغر سبنة الساحلي، على مقربة من الساحل الأندلسي، ليقطعوا بذلك الطريق أمام أية محاولة يقوم بها العباسيون، أو من والاهم من القبائل الإفريقية، لعبور البحر إلى بر الأندلس. تم عندما ملك الفاطميون الشيعة إفريقية (307هـ = 921م) انصب همهم، كذلك، على توسيع نفوذهم غربا بهدف إخراج أعدائهم الأمويين السنة من المغرب، وقطع عليهم الطريق التجاري الواردة عبر الصحراء، وترتب عن ذلك، أن نشب صراع مريع بين الفاطميين، ومعهم أولياءهم من كتامة وصنهاجة، وبين الأمويين وأولياءهم من زناتة، امتدت لسنوات ضوينة، لم تتوقف إلا بعد أن قرر الفواطم مغادرة بلاد المغرب باتجاه مصر.

وحينما غلب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب، وأخذ يتطلع إلى توسيع فتوحاته إلى الأندلس، الذي مزقته الفتن والحروب الأهلية. كان أول خطوة يتخذها لإنجاح مشروعه الطموح ذلك، هو إخضاع مدينة سبنة سنة 477هـ = 1084م لنفوذه، وجعلها القاعدة البحرية الرئيسية التي سوف ينطلق منها جيش المرابطين لاجتياز مضيق

(1) البكري: المصدر السابق، ص 65.

جبل طارق، باعتبارها المرسى والمجاز إلى بلاد الأندلس⁽¹⁾. ثم، بعد ذلك، عندما دخلت بلاد المغرب والأندلس في طاعة الموحدين، أولى أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، وهو ابن البحر، ولد بمدينة حنين Honein الساحلية⁽²⁾ - اهتماما خاصا بمدينة سبتة بأن أشرف بنفسه على إعادة تهيئة مينائها وتوسيع دار صناعتها (ترسانتها)، كما عين أحد أبنائه ليتولى إدارتها⁽³⁾. وكان عبد المؤمن صائبا في خطه، إذ بعد أن انتهى من ترتيب الاستحكامات اللازمة لميناء سبتة، أعطى الأوامر بالشروع في بناء أسطول ضخم استعمله، بعد ذلك، في محاربة القوى المسيحية، وإخراجها من المواقع التي كانت قد احتلتها من قبل، في كل من بلاد المغرب والأندلس⁽⁴⁾.

ولقد حافظت مدينة سبتة بمينائها الضخم على الاستقرار السياسي والازدهار التجاري طيلة العهدين المرابطي والموحدي، يقصدها التجار والركاب من مختلف الأقاليم المطلة على مياه البحر المتوسط، حتى لقبت بملكة مضيق جبل طارق La reine du Detroit⁽⁵⁾. ففي هذا العصر نفسه، بدأ ميناء مدينة سبتة يفتح أبوابه لاستقبال التجار الأوروبيين. وبخصه تجار المدن البحرية الإيطالية التي أخذت تتسابق لعقد الاتفاقيات التجارية مع حكام المرابطين والموحدين، وتوسيع الاستثمار في مدينة سبتة منتهى طريق الذهب الصحراوي⁽⁶⁾. و قد صف ابن سعيد المغربي سبتة على هذا العهد قائلا: "هذه

(1) اسحاق بن الحسن التريث: ذكر الأقاليم، تحقيق Francisco castelo .

برشلونة، 1989، ص 185 .

(2) العبادي: عند العزيز سالم: تاريخ الحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض

المتوسط، ج 2، ص 251، هامش.

(3) ابن خلدون، مج 6، ص 311

(4) يقصد به، احتلال نورماند قلية للساحل الإفريقي من بجاية على طرابلس، وكذلك احتلال الممالك الإسبانية، ومعهما

الجمهورية الإيطالية لسواحل شرق الأندلس وجزر الكناري: للتزيد راجع:

-Bragadin. M: Histoire de cité république ... p60.

(5) Picard. ch: Les musulmans et la mer, p85.

- الدمسقي: نخبة الأدهر في عجائب النهر والبحر، ص 214

(6) De mas latrice: traites de paix, T1, p. 72-73.

المدينة بين بحرين وهي ركاب البرين، شبه الإسكندرية في كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة...".⁽¹⁾

غير أنه وبعد قرن ونصف من الزمن، نعمت حلاتها مدينة سبنة بالأمن والأردهار، تبدلت الأوضاع بها إلى حال من الفوضى وعدم الاستقرار. وكان منطلق هذا التبدل يعود إلى مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، عندما انكسر جيش الموحدين أمام تحالف قوات الصليبيين في موقعة العقاب، من أعمال طولوزا سنة 1212م.⁽²⁾

لقد غيرت انتصارات المسيحيين الأسباب طبيعه العلاقات التي ربطت دوما بين صفتي المضيق، فبعد أن كانت تلك العلاقات قائمة على أساس التكامل السياسي والاقتصادي بين بلاد المغرب والأندلس، باتت، منذ تغلبت حمية النصارى، مثار نزاع مستمر، واضطر المسلمون، من وقتها، إلى التزام خطة الدفاع بعد أن كانوا يهاجمون، ثم هوت الجبهة الإسلامية كنها تقرب في الأندلس أمام ضربات النصارى المتناسقة⁽³⁾. ولم يكتف هؤلاء المنتصرون بما كسبوه في أرض الأندلس حيث استردوا أغلب الحواضر الإسلامية الكبرى بها،⁽⁴⁾ بل ذهب بهم الغرور إلى التفكير في توسيع حركة الاسترداد لتطال بلاد المغرب بأسرها. فمن بلاد المغرب جاءهم الخطر في أول الأمر، وإليه يريدون أن تنقل الحرب لاستئصال هذا الخطر.⁽⁵⁾

(1) كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ص 139.

(2) كان ابن عذارى محقا عندما اعتبر هزيمة العقاب 1212م "... السبب في هلاك الأندلس حتى الآن". البيان ج 4.

(3) (قدم المحدث)، الدار البيضاء، 1985، ص 344.

(4) P.Buresi: "le partage entre la castille et le leon des terres musulmanes avant leur conquête (1158) in (pays d'islam et monde latin X-XIIIS texte et documents, presse universitaire de Lyon, 2000, p126-8.

(5) F.cardini: op.cit, p110-11
- De mas latrerie: traite p73

-كونستيل: أ: التجارة والتجار في الأندلس، ص 312.

(5) M.cherif: ceuta aux époques Al mohade et mérinide, Ed, l'Harmattan 1996, p32.

ومنذ هذه الفترة، سوف تتعرض مدينة سبتة، المحطة البحرية الرئيسية على الطريق الرابط بين الأندلس والمغرب، لعدوان القوى الصليبية الأوروبية المختلفة⁽¹⁾، ووصل التطاول الصليبي على مدينة سبتة ذروته عندما أقدمت جيوش صليبية ضمت بين صفوفها عناصر متعددة مجهولة الهوية تسمى (الكلكريبي Calcurni)، على عرو المدينة عام 1234م⁽²⁾، ثم تبعتها، في نفس الفترة مباشرة، (1234-1235م) حملة كبيرة أعدتها جمهورية جنوة الإيطالية.

ويعود اهتمام قومية جنوة الإيطالية، بموانئ المغرب الأقصى، حسب ما كشفت عنه الحوليات الجنوبية، إلى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي أول معاهدة وقعها الجنوبيون مع بربر المصامدة Mussemutorum كانت سنة 1154م⁽³⁾. ثم تسعت هذه العلاقات بشكل وثيق إبان حكم الخليفة عبد المؤمن بن علي، الذي أسس إمبراطورية شاسعة شملت كافة بلاد المغرب والأندلس. يظهر ذلك جليا في حجم الاستثمارات التي وجهها رجال الأعمال الجنوبيون إلى موانئ بلاد المغرب، والتي وصل حجمها ما بين (1160-1164م) (40%⁽⁴⁾). وقد استفاد مواطنو جمهورية جنوة من فيه التجارة، ورجال الأعمال، من

-Anna, Unali : "pénétration religieuse et territoriale des chrétiens au Maghreb au XIII^e", in- le Maghreb et la mer (Mesogeios 7), 2000, p143-4.

⁽¹⁾ أول من اعتدى من القوى المسيحية على سبتة، النورماند الذين حاولوا الاستيلاء عليها خلال القرن 11م، وسيروا ضدها عدة حملات، ثم ابترعايون خلال القرن 12م، الذين اعتدوا على سواحل سبتة وميه مريش، وأخيرًا الإسبانيون الذين كانوا يرون ضرورة تواصل حركة الاسترداد ونقل أعمالها الحربية إلى بلاد المغرب، للمزيد:

⁽²⁾ - Duforecq, Ch., E. "la question de Ceuta au XIII^e, in variorum, 1990, p67- 86..

- Jehel, G: Les Génois, p68-70./

⁽³⁾ M. cherit: Ceuta aux époques Almohade et merinide, p27-140

⁽⁴⁾ H. Bautier: " les relations économiques », p263-31.

Bah, E: la cité de Gênes au XIII^e p51.

-Abulafia, D: the two italies, p99.

-St. A. Epstein: Genoa and the Genevese, p18-19.

امتيازات واسعة في ميناء سبتة، رفعتهم إلى مصاف الجاليات الأكثر امتيازاً وانتشاراً في ميناء سبتة.⁽¹⁾

وظل أبناء جنوة ينعمون بمكانة مميزة، في مختلف المراكز التجارية التابعة للسيادة الموحدية إلى أن بدأ نفوذ الموحدين ينهار تماماً عقب هزيمة لاس نافاس، وأخذت على إثرها المدن الإسلامية تتساقط تباعاً في يد المسيحيين، في حين شجعت هذه الحال المتردية قيام بعض الولاة في المغرب والأندلس على إعلان الانفصال عن السلطة المركزية⁽²⁾، ثم زاد من تفاقم الاخطار، انقسام البيت الموحي على نفسه بخروج الإخوة عن طاعة الخليفة.⁽³⁾

لم تسلم مدينة سبتة من محنة هذه الفوضى السياسية التي عمت أرجاء بلاد المغرب والأندلس، خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، بل ربما كانت سبباً مباشراً في تسارع وتيرة الأحداث وتأزمها بشكل خطير. ذلك أنه عندما اضطر الخليفة انشروي المأمون مغادرة الأندلس إلى المغرب لمحاربة أخيه يحيى، اندى فاند حركته تمرد بمراكش ونواحيها، واستقل بها، وأعلن نفسه خليفة. عمد إلى استخلاف أخيه "أبو عمران موسى ليتولى الإشراف على مضيق جبل طارق وموانئه، بما فيها مدينة سبتة، حتى يمنع تقدم الضامعين من أمراء الأندلس إلى العدو المغربية"⁽⁴⁾. لكن أبو موسى، استغل انشغال الخليفة بحروبه ضد المنفصلين وملاحقتهم في أعماق أقاليم وسط المغرب،

⁽¹⁾ Dufourcq: la question...., p82-83./ -Jehel, G: L'Italie et le Maghreb, p61

⁽²⁾ راجع ما سبق.

⁽³⁾ انقسم البيت الموحي على نفسه، عندما أعلن المأمون نفسه خليفة في إشبانيا، أخوه يحيى استقل بمراكش، وأبو عمران موسى المؤيد، استقل بمدينة سبتة، للمزيد راجع:

-ابن خلدون: مج6، ص341-42.

Terrasse.H: Histoire du Maroc.T2,p5 8.

-De mas latrie: relations .., p134-6.

⁽⁴⁾ Dufourcq, Ch. E : la question de Ceuta...., p85./-M.Charif: op.cit, p33.

وأعلن الغدر والخيانة، واستقل بمدينة سبته، بعد أن تواطأ مع ابن هود، الذي استولى، من جهته، على الجزيرة وجبل طارق.⁽¹⁾

ولما علم الخليفة المأمون بالمؤامرة طفق راجعا لأنه لا يريد أن يفرض في سبته، مفتاح الدخول إلى المغرب من الشمال، و عندما بلغ مشارف المدينة نصب عليها حصارا من جهة البر، مستعينا بمليشيات من المرتزقة المسيحيين⁽²⁾، ولكن الحصار فشل، لأن سبته-المدينة الميناء- لا يمكن أخذها إلا من جهة البحر، والخليفة لم يكن يتوفر على أسطول يستعين به في مثل هذه الميham.

أما حاكم سبته الثائر (المؤيد) فلم يجد من وسيلة لمقاومة الحصار المضروب عليه من طرف أخيه سوري الاتصال، مرة أخرى، بحاكم الأندلس الجديد ابن هود، صاحب مرسية ودانية لنجدته. ونبي الأخير دعوة المؤيد من دون تردد، لأنه كان يتطلع لأخذ مدينة سبته والتوسع إلى المغرب.⁽³⁾ وعلى الفور أخذ يتجهز لتسيير حملة بحرية على المدينة. واستغل في ذلك علاقته الطيبة مع الجنوبيين. وطلب تسخير أسطولهم لئلا يمتدح. ريم، لأنه لم يكن يملك الوسائل الكافية لتفديد بهذه المهمة بمفرده، ومن دون مساعدة يصد. وافقت جنوة، التي كانت تراقب عن كثب تطور الأحداث بمنطقة المضيق على العرض الذي جاءها من ابن هود لما لها من مصالح تجارية كبيرة في سبته. فأرسلت أسطولاً من ستة عشر (16) سفينة ضخمة Galères وخمسة سفن حربية متوسطة Navires. واشترطت الحصول مقابل ذلك على ثمانين ألف بزنس 80.000 besants. تمت صحت

(1) ابن عشاري: ج 4، ص 276 وما بعدها.

-ابن خلدون: مج 6، ص 340.

(2) Dufoucq ch: La question, op cit , p85.

(3) Jehel, G: les Genoïs, p8.

(4) -G.Pistarino: " Genoa E l'islam nel mediterraneo occidentale secoli XII-XIII... p202.

*بزنس Besants مصطلح اعتاد سكان الغرب استعماله للإشارة إلى العملة الذهبية البيزنطية (النوميسما (Nomisma)، للمزيد:

الأسطول الحربي بعثة دبلوماسية مشكلة من سفيرين هما carbone Malocello و Nicolo Spinola⁽¹⁾.

ولأن سكنت الحوليات الجنوبية، وهي الجهة الوحيدة التي أوردت خبر تنقل الأسطول الجنوبي إلى مياه مضيق جبل طارق، بتاريخ الثاني من أغسطس سنة 1231م، عن الإشارة إلى ما انتهت إليه هذه الحملة، وهل شارك الأسطول الجنوبي في عمل عسكري ضد مدينة سبتة أم لا؟⁽²⁾ والظاهر أن الأسطول الجنوبي أبحر إلى سبتة، وشارك في حصارها، جنبا إلى جنب مع جيش ابن هود، الذي كان يقوده الغشتي Agostino El fascini. كما تسميه الحوليات الجنوبية، بدليل أن سفارة القومونة التي خرجت مع الأسطول، التقت الحاكم ابن هود في سبتة، وحصلت منه على مبلغ ثمانين ألف بيزنس Besants، التي اشترطته القومونة من قبل لتغطية مصاريف تنقل الأسطول. كما منح ابن هود-زيادة على المبلغ- هدية ثمينة للقومونة تمثلت في حصان مزين بلباس من ذهب، وركاب من فضة⁽³⁾. ويحتمل كذلك أن يكون سفير القومونة قد توصل إلى إبرام اتفاقية تفاهم مع ابن هود، تحافظ بموجبها جاليات القومونة على امتيازاتها القديمة بمدينة سبتة، في مقابل تقديم الدعم والمساعدة له.

ومهما يكن من أمر مشاركة الأسطول الجنوبي في حصار سبتة، فالأكيد أن حملة ابن هود البحرية على سبتة لم تلق صعوبات في التحول إلى المدينة والأسنيلاء عليها، والسبب أنه في الوقت الذي كانت الاستعدادات البحرية جارية، وقبل أن تباشر عملية

-R.Fossier: les relations des pays d'islam avec le monde latin du milieu du X au milieu XIII. Ed. Jacques Marseille, 2000, p199.

⁽¹⁾ Annali Genovesi, TIV, p95-96.

⁽²⁾ روبرتو لوبيز خبير التاريخ الجنوبي أشار إلى أن الأسطول الجنوبي لم يشارك في أي عدوان عسكري على مدينة سبتة.

-Lopez. R. Studi sull economica genovesi. (Torino 1936). p12.

⁽³⁾ Un cheval drapé d'or et ferré d'argent.

-Jehel, G: les Génois, p68.

الهجوم على الميناء، اضطر الخليفة الموحي المأمون إلى رفع الحصار عن المدينة، الذي دام ثلاثة أشهر⁽¹⁾. لأنه كان عليه أن يوجه جيوشه، مرة أخرى، إلى مراكش العاصمة، بعدما علم بعودة الثائر ابن يحيى إليها ثانية.. فخرج على جناح السرعة لملاقاته، فتخلصت مدينة سبتة، عندئذ، من شره. ثم ما لبث الخليفة المأمون أن توفي وهو في الطريق إلى مراكش في أكتوبر 630هـ=1232م⁽²⁾. فخلا بذلك الجو لابن هود في الاستحواذ على مدينة سبتة. فدخلها منتصرا، وعمد إلى تنحية أميرها القديم ابن موسى عن سدة الحكم، ونصب بدله قائد أسطوله وأقرب المخلصين له، الغشتي Al gasati⁽³⁾.

لم يرض أهالي سبتة، بهذا الأمر الذي فرض عليهم عنوة، واعتبروه اغتصابا للشرعية. لذلك، فبعث مزور خمسة عشر شيئا، انتفضوا على الحاكم الجديد الغشتي وطردوه، وانتخبوا بدله واحدا منهم، ينتمي إلى أعيان المدينة، هو التجار أبو العباس اليانشتي El Yanasti سنة 630هـ=1233م، الذي تلقب بالموفق بالله فور اعتقاله سدة الحكم، واستقل بالمدينة ورفض البيعة للموحدين نزولا عند رغبة أهالي سبتة، وتمكن من حكم المدينة بقدرة فائقة على مدى أربع سنوات إلى غاية 1236م⁽⁴⁾.

والظاهر أن هذا الاستقلال الذي نعمت به مدينة سبتة لفترة، لوملائما لمدينة تجارية وغنية لا تملك الإمكانيات الكافية لحماية نفسها وضمان أمنها البحري. فالأخطار مازالت محدقة بها من كل جهة؛ فمن جهة إسبانيا، لم تكن أطماع ابن هود في العودة إلى سبتة ثانية تخفى على أحد، وما شغله عن ذلك، إلا الحرب التي أرغم على خوضها في الأندلس

(1) - ابن خلدون، مج6، ص341.

(2) - نفسه، ص342.

(3) لم يعزله نهائيا، إنما أعفاه من حكم مدينة سبتة لاعتبارات سياسية، ومنحه بدلها حكم ألمرية. ما نفهم من هذا التصرف اللطيف أنه أبعد عن بلاد المغرب حتى لا يلجأ إلى الثورة من جديد.

-Dufourcq: la question, p86./ -M.cherif; Ceuta-p34.

(4) Dufourcq : La question, p87.

ضد إمارتي قشتالة وأرغونة اللتان راحتا تكتفان، طيلة هذه الفترة، من هجماتها على ما تبقى من الثغور والإمارات الإسلامية المستقلة بديار الأندلس⁽¹⁾.

أما من جهة المغرب، فإن الخليفة الموحي الجديد (الرشيد 1232-1242م)، بعد أن تمكن من فرض الطاعة والولاء على الولايات الداخلية، مستعينا بالميليشيات المسيحية⁽²⁾. أخذ يستعد لتوسيع شرعيته إلى ولايات وسط وشمال المغرب الأقصى بهدف استعادة ملك آبائه وأجداده على بلاد المغرب⁽³⁾.

ومن الواضح أن حكام سبتة الجدد كانوا على علم بهذه الأخطار الخارجية التي بدأت تترصد بمدينةتهم، مما دفعهم إلى البحث عن حليف خارجي يقف إلى جانبهم وقت الشدة، وقد بدت لهم جمهورية جنوة الإيطالية، في هذه الفترة، الطرف الأكثر ملائمة للعب هذا الدور، نظرا لما لها من مصالح تجارية هامة بالمدينة، الشيء الذي حفز اليناشتي لاستعجال إيفاد بعثة لمقابلة حكومة سلطات جنوة واستجداء مساعداتها لمواجهة الأخطار المحدقة بمدينةتهم⁽⁴⁾.

نفس الدرجة من الخوف والقلق كانت تراود حكومة جنوة حيال مصالحها وجالياتها الموجودة بمدينة سبتة، التي من الممكن أن تصبح عرضة للتجاوزات وسط هذه الظروف

⁽¹⁾ فقيما ركز القشتاليون هجومهم على الإمارات الداخلية من بلاد الأندلس، نجد الأراغونيون يوجهون حملاتهم على النواحي الشرقية من بلاد الأندلس، جزر البليار.

-ابن خلدون: مج 6، ص 22.

Jehel, G: les relations des pays d'Islam, p120.

⁽²⁾ الخليفة المأمون هو أول من استعمل ميليشيا مسيحية أمده بها فرناند الثالث سنة 1228م، عندما قرر الخروج من الأندلس والدخول إلى المغرب لمحاربة المتمردين. يقول ابن خلدون في هذا الشأن: "وكان المأمون من الطامعين فرناند الثالث عسكرا فأمدّه على شروط قبلها المأمون".

ابن خلدون -مج 6، ص 311.

-فيما حذرت المصادر الأوروبية عند هذه العساكر الميليشيات بـ 500 عنصر، راجع:

-B. Augustin: le Maroc, 7ed, 1931, p279

-Jehel, G: les Génois, p68.

⁽³⁾ H.Terrasse: . op.cit, T1, p356.

⁽⁴⁾ Picard, ch: les musulmans, p86.

المشحونة، لذلك سارعت، هي الأخرى، إلى إرسال وفد دبلوماسي يقوده السفير Jacopo di Marino سنة 1223م لمقابلة اليانشتي.⁽¹⁾ ويحتمل أن تكون هذه المقابلة قد أفضت إلى إبرام اتفاق Accord بينهما نص على ضرورة التحالف لمواجهة الاعتداءات الخارجية.⁽²⁾

وبالفعل فقد كان تخوف أهل سبتة على مدينتهم، وكذلك مسؤولو جنوة على مصالحهم، من العدوان الخارجي في محله. فبعد مرور بضعة أشهر على اتفاقية التحالف مع جنوة، باغتت حملة صليبية مجهولة الهوية مدينة سبتة في صيف سنة 1234م، واعتدت على ميناء المدينة، وأحرقت ونهبت السفن التراسية فيه، بما فيها سفن الجنوييه. هذه الحملة قادتها جماعة مسيحية عرفت باسم الكلكرني Calcurini.⁽³⁾

ما زال اللبس يلف هذه المحطة من تاريخ سبتة، وبخاصة فما يتعلق بجنسية عساكر الكلكرني الصليبية، التي كانت وراء العدوان على ميناء المدينة سنة 1234م. ففي حين لم تشر المصادر الإسلامية المعاصرة البتة إلى هذا الاسم. اختلف الإخباريون اللاتيين، بنورهم، في تحديد بقعة الجهة التي تتبعها هذه الجماعات، والهدف من غزوتها.

فأما مؤلفو الحوليات الجنوبية، وهي المصدر الوحيد الذي سرد أخبار هذا الهجوم، فقد اعتبرتهم ميليشيات مسيحية كانت تتشبط في خدمة الدولة الموحدية " Calcurini Mercenari cristiani al soldo del sultano del Marocco".⁽⁴⁾

⁽¹⁾-Annali Genovesi, TIV, P114.

H.Breac et autres: la méditerranée entre pays d'islam et monde latin (Milieu du X- Milieu XIII) . Ed. (sedes).2001, p114-115.

⁽²⁾ Jehel,G: les Génois,p68.

⁽³⁾ لم تشر المصادر الإسلامية البتة لهذه الحملة، ولا لاسم جماعة الكلكرني (الغريب)، وعلى العكس، تناولت الحوليات الجنوبية هذه الحادثة بإسهاب، للمزيد :

-Annali Genovesi, TIV, p120.

-Di Tucci,R: Documenti inediti sulla sepedizione e sulla mohona dei Genovesi a Ceuta, (Gène1935),p279-338.

⁽⁴⁾ Annali, TIV, p12.

غير أن هذه الفرضية استبعدتها المؤرخ المختص ديفورك Ch,E, Dufourcq على اعتبار أن الخليفة الموحي الرشيد كان، وقت وقوع هذا الهجوم، مازال بجيشه وسط المغرب، ولم يصل بقواته بعد إلى الشمال، زيادة على أن الموحدين لم يكن لديهم أسطول بحري في هذه الفترة⁽¹⁾. أما المؤرخ جستنياني Aguostino Justiniani، أحد مؤلفي الحوليات الجنوبية، فلم يعثر عن مصدر موثوق بشأن تحديد هوية الفرقة الصليبية التي قادت الهجوم المباغت على ميناء سبتة، وكتب يفترض: "... في هذه السنة (234م) وقعت حادثة لها علاقة بعناصر الكلكرني، ربما هم غالليون Gaulois أو باسكيون Basques أو نافاريون Navares. غير أن هذا الأمر يبقى محل شك لأنني لم أعتز على دليل يحدد هوية هذه العناصر"⁽²⁾.

وعلى العكس فقد رجح المؤرخ الفرنسي القدير ماس لاتري Maslatier أن تكون جماعة الكلكرني لها علاقة مع الجمعيات الدينية المسيحية ordres religieux المنتشرة بشكل كبير في إسبانيا، في هذه الفترة، فترة الركوكستا. فهو يحتمل أن فرقة الكلكرني هي واحدة من الفرق الصليبية التي شكلتها تلك الجمعيات الدينية، وزجت بها في ساحة الحرب ضد المسلمين في الأندلس والمغرب⁽³⁾.

لكن من الذي حرص هذه الفرقة على أن تتجهز ضد مدينة سبتة، يتساءل بدوره المؤرخ G. Jehel ويحجب: أنه ربما جاء ذلك، انتقاما لمقتل سبعة من أتباع دير الفرنسيسكان ordre Franciscan بالمغرب سنة 227م⁽⁴⁾. غير أن هذه الفرضية يستبعدتها، أيضا، الخبير ديفورك Dufourcq، الذي لم يعثر على أبسط إشارة في

-G. Pitarino: Genoa E l'islam nel...p 203.

⁽¹⁾ Dufourcq: la question de Ceuta, p 85 et 89.

⁽²⁾ A guistiniani: Annali della Repubblica di Genova- vol1,p73

نفس الشكوك أثارها المؤرخ canale، وهو أحد المختصين في تاريخ جنوة في القرن التاسع عشر.

- Nuava istoria della Republica..... vol 1, p 62.

⁽³⁾ De mas latric: relations p i50.

⁽⁴⁾ Jehel, G: les Génois p 69.

الأرشفيف الإسباني، وهو خبير في هذا الميدان، تدل على وجود فرق عسكرية استخدمتها الجمعيات الدينية في إسبانيا على هذا العهد.⁽¹⁾

ومهما يكن من أمر هذه الجماعات التي قادت الحملة الصليبية المفاجأة على ميناء سبتة في صيف 1234م، فالمؤكد أن عدوانها لم يستهدف المسلمون وحدهم في مدينة سبتة، بل تعدى الهجوم ليشمل كذلك الجاليات والسفن الجنوبية الموجودة بالميناء. مما يدل على أن عساكر الكلكريني، رغم إثبات حملهم شاربات الصليب la croix على سفنهم وألبستهم، إلا أنهم لم يكتفوا للاعتبارات الدينية⁽²⁾. بدليل أن أول جهة استهدفها عدوانهم، حتى قبل أن يصلوا إلى مقصدهم الرئيس سبتة، كانت سفنا تجارية تابعة للجنوية راسية بميناء فاندس Cadix على الساحل الأندلسي، فأسروا من كان على متنها من تجار ونهبوا ما فيها من سلع⁽³⁾. ثم عندما وصل أسطولهم، بعد ذلك، إلى سبتة انقضوا على سفن أخرى، ملك للجنوية رغم علمهم بها، واستولوا على بعض منها، وأضرموا النار في بعضها. مما تسبب هذا الحادث في زرع الخوف وانهنغ بين أوساط الجالية الجنوبية، فالتفت بالفرار على متن ما تبقى بين أيديهم من مراكب في اتجاهات مختلفة. منهم من فر إلى تونس، وبعضهم اتجه إلى مالاقا Malaga فيما قصد الآخرون ديارهم عائدين إلى جنوة.⁽⁴⁾

وبمجرد أن علمت سلطات القومونة في المتروبول نبأ حادثة الكلكريني في سبتة، وما تعرضت له جالياتها على أيديهم⁽⁵⁾، حتى شرعت في التحضير لتجهيز أسطول لانتقام من المعتدين فأرسلت على وجه السرعة الأوامر إلى جالياتها المتحصنة بميناء مالاقا تحثها

(1) للمزيد من الفهم حول هذه المسألة راجع.

- Dufourey, ch. E: la question de Ceuta, p 95-7.

(2) Picard, ch: l'océan atlantique musulman, P95-7.

(3) Annali. Genovesi, T4, P 120-3.

(4) Ibid.

(5) يبدو أن صاحب سبتة عبد الرحمان اليانشتي قد راسل القومونة مباشرة عقب عدوان الكلكريني على مدينته وطلب

من حاكم جنوة البودستا Romedio Rusca المساعدة. راجع للمزيد:

- Jehel G. L'Italie et le Maghreb- p 62-63.

- Picard. ch: les Musulman- p 89.

على الاستعداد للخروج إلى سبتة في انتظار وصول الإمدادات التي هي في الطريق إليها. وعلى إثر ذلك خرجت سفينتان جنوبيتان من ميناء مالاقا مدعمة بحشد من المقاتلين جمع في صفوفه، إلى جانب أبناء القومونة، عناصر من الأندلسيين المتطوعين المناصرين لنعرش الموحدي. وصل عددهم 600 مقاتل.⁽¹⁾

لم تقصد السفينتان اللتان خرجتا من مالاقا ميناء سبتة مباشرة، إنما انحرفت باتجاه ساحل تطوان المجاور، ومن هناك انتقل المقاتلون برا إلى سبتة⁽²⁾، حيث تدعمت صفوفهم ببعض العناصر من المغاربة المتحمسين، وما إن وصل هذا الجيش إلى مشارف سبتة، وأخذ يطوق مداخل المدينة من جهة البر، حتى وردت الأخبار بوصول الأسطول الحربي الذي بعثت به القومونة، وهو عبارة عن أرماده حقيقية، تضم ثمانية عشر (18) سفينة حربية ضخمة galères، وأربعة (4) مراكب أخرى مجهزة بالمؤن والعتاد، ولما كانت مهمة هذا الأسطول صعبة ودقيقة، فقد جعل على قيادته أربع قادة برتبة أميرال.⁽³⁾

كان منتظرا أن يلحق هذا الأسطول الجنوبي الضخم الهزيمة بجماعه الكلكرين، إن لحق بها في ميناء سبتة، لذلك رأت هذه الجماعة الصغيرة ضرورة الانسحاب من المواجهة قبل وصول الأسطول، وسارعوا في الإقلاع والفرار في عمق مياه المضيق من دون أن يعرف لهم اتجاه.⁽⁴⁾ وباختفاء فرقة الكلكرين عن الأنظار زال الخطر الذي كان

⁽¹⁾ - Dufoureq, Ch.E: La question de Ceuta, p98-99

⁽²⁾ ربما لتفادي الاصطدام مع أسطول الكلكرين، أو ربما كانت خطة نصحت بها القومونة أن تتوجه هذه الفرقة للحصار البري في انتظار وصول الأسطول البحري القوي الذي بعثت به القومونة على إثر ذلك.

⁽³⁾ قسم الأسطول إلى أربع وحدات، كل وحدة يقودها قائد برتبة أميرال، وهم:

أ- Ottobono di Camilla ويشرف على وحدة مكونة من عشر سفن.

ب- Lantranco spinola يشرف على وحدة من أربعة سفن.

ج- Ugne di Bonifacio della Volta ويشرف على وحدة أخرى بأربعة سفن.

د- فيما تولى الأميرال الرابع الإشراف على سفن التموين الأربعة. للمزيد راجع.

- Annali.TIV.P124.

⁽⁴⁾ Dufoureq: La question de Ceuta, P 99.

يهدد مدينة سبتة وأهلها، كما لم يعد حاكمها اليانشتي في حاجة إلى خدمات الجنوبيين الذين وصلوا للتو بأسطولهم الضخم إلى مشارف الميناء لتحرير مدينته من العدو الخارجي. ولقد كلفت عملية تجهيز وتموين الأسطول الذي أرسلته قومونة جنوة للانتقام لرعاياها الذين تعرضوا للعدوان والإهانة في ميناء سبتة خزينه الجمهورية مبالغ ضخمة، إلى درجة دفعت بالمسؤولين إلى طلب قروض من جهات خاصة لتموين العملية العسكرية بمبلغ ثمانية عشرة ألف ليرة (18.000 ليرة)⁽¹⁾. وكانت القومونة، على ما يبدو، تعلق آمالا كبيرة في أن يضمن لها هذا التدخل المحافظة على مصالحها الاقتصادية بمنطقة المصيف. لكن شيئا من ذلك لم يتحقق على أرض الواقع، والسبب نأرم العلاقات مع أحكام سبتة. ذلك أنه عندما وصل الأسطول الجنوبي الضخم، وهو حقيقة بمثابة أرماده حربية، إلى ميناء سبتة، ووجد أن جماعة الكلكرني (المرعومة) قد انسحبت واختفت عن الأنظار، حدث ما لم يكن في الحسبان، لأن سلطات مدينة سبتة قد رفضت السماح للأسطول بالرسو في الميناء.

والواقع أن حاكم سبتة اليانشتي راوده الشك في أن يتحول الجنوبيون، خصوصا بما هم عليه من قوة، إلى عدو خارجي جديد قد يسطون على المدينة ويأخذونها لأنفسهم، لذلك نهض على الفور، بعد أن اتصل على الملأ من العهد الذي قطعه من قبل مع الجنوبية، يحث المواطنين على المقاومة، ويستنهض فبائل البربر (Cabille) في الأرياف المجاورة، لحملها على تقديم يد المساعدة لإخوانهم في الدين، موعزا أليهم بأن الجنوبيين غزاة

(1) اقترضت حكومة جنوة مبلغ: 18.000 ليرة، ولجأت إلى فرض ضريبة بد 12 Denier على حمل الملح Mine

لمدة عشر سنوات، علما أن حمل الملح يساوي ما بين 120 و 130 كلف. للمزيد راجع.

- St.A.Epstein: Genoa and Genoese, p 122.

- Jehel, G: les Genoïs, p 69.

صليبين جاؤوا لأخذ مدينة سبّنة بالقوة.⁽¹⁾ وصدقت القبائل البربرية هذه الدعاية المغرضة، فقدمت في جحافل من كل حذب وصوب، ودخلوا المدينة، وانتشروا بأزقتها، وراحوا يعتدون على أحياء التجار المسيحيين فعاثوا فيها فسادا وتخريبا، وطال التخريب فندق الجنوبيين بالمدينة⁽²⁾. ووقعت على إثر ذلك مشادات عنيفة مع الجاليات الجنوبية المقيمة بتلك الأحياء، فقتل منهم خلق كثير، أما الناجون منهم فقد ألقوا بأنفسهم في البحر مروباً من جحيم القتل. فكان ذلك يوماً مشهوداً على الجاليات الجنوبية بمدينة سبّنة.

* رد فعل الجنوبية 1235م-633هـ

شعر الجنوبيون بالإهانة جراء هذا التصرف العدواني غير المبرر ضد جالياتهم. فبدل أن يجدوا الشكر والتكريم من مواطني سبّنة وحكامها في مقابل تلبية دعوتهم لتقديم المساعدات لفك الحصار الذي كان مضروباً على مدينتهم من طرف جماعة الكلكرني، إذ يسكن سبّنة وحكامها يكرّون التجميز. ويديرون ضهرهم للجنوبية فيصرون، في مرحلة أولى، على عدم السماح للأسطول بالاقتراب والرسو بالميناء. ثم ينقلبون، بعد ذلك، على الجاليات الجنوبية المقيمة بالمدينة، ويعرضونها لأبشع أنواع الظلم والعدوان.⁽³⁾

وأمّام إصرار سيد سبّنة بعدم التفاوض مع الأسطول الجنوبي، أو السماح له بالاقتراب من الميناء، اضطرّ قاداته بعد التشاور إلى الانسحاب باتجاه اشبيلية، والانتظار

⁽¹⁾ لا تدرى حقيقة الدافع الذي جعل الليانثيني يتصل من العهد الذي كان قد قطعه مع مسؤولي مدينة جنوة، هل هو الخوف منهم، بعد أن وصلوا إلى مشارف سبّنة على متن أسطول حربي ضخم، أم أنهم ألحوا عليه بالمطالبة مستغلين قوّة أمدّ ضعفه.

Lopez, R: Storia Della Colonie Genovesie nel Mediterraneo, 2^{ed} 1996, p 141-2.

⁽²⁾ Dufourcq: La question, p 99.- Jehel-G: Les Génois. p. 69.

علما أن صاحب كتاب روض الفوطاس، ص 231. أشار إلى أنه في سنة (632هـ = 1234م-1235م) حاصر

الجنوبية سبّنة بعديد السفن ورفعوا صدها الألات، لكنهم لم يتمكنوا من أخذها.

⁽³⁾ Annali Genovesi, T IV, p 124.- Di Tucci: op, cit, p 333.

هناك إلى حين يصلهم الرد من حكومتهم بشأن الموقف الذي يتوجب عليهم إتباعه للتعامل مع هذا الحدث الطارئ. ومن المحتمل أنهم راسلوا الميترربول يستعجلون المزيد من الدعم البحري يمكنهم من الاستيلاء على مدينة سبتة، خصوصا بعدما لاحظوا ضعف اليانشتي في ردهم عنها.

لم يغامر مسؤولو القومونة، في البداية، باللجوء إلى الحل العسكري رغم يقينهم بنجاعة هذا الحل في حسم الأمر لصالحهم، وفضلوا استباق الوسائل الدبلوماسية السلمية للوصول إلى مبتغاهم⁽¹⁾. ربما كان ذلك، خوفا من اتساع دائرة الحرب بالمنطقة، ودخول أطراف أخرى في هذا الصراع، مثل الموحدون والأندلسيين. لما لديهم هم كذلك، منذ زمن، من أطماع مبيتة للاستحواذ على سبتة الميناء التجاري الحيوي، لأنهم كانوا يفضلون بقاء مدينة سبتة دويلة صغيرة مستقلة، يرتبطون معها بعلاقات مميزة، على أن تدخل هذه المدينة تحت وصاية دولة كبرى.

تلك بادر مسؤولو القومونة، أول الأمر، بإرسال سفارة برئاسة Carbone Molecello مع مطلع عام 1235م للتفاوض مع سيد سبتة اليانشتي، بهدف إعادة العلاقات بينهما إلى سابق عهدها، وكذلك الاتفاق بشأن التحويزات التي يجب أن يخصصها للجالية الجنوبية كتعويض لما لحقها من أضرار على أرضه⁽²⁾. لكن اليانشتي، الذي ظل ينوجس حيفة من جوده وأطماعها في مدينته، رفض تعرض الذي تقدم به سفيرها، وهدد بقطع كل صلاته معهم، الشيء الذي جعل الجنوبيين يقتنعون بأن لا سبيل لأخذ حقوقهم من حاكم سبتة سوى اللجوء إلى القوة العسكرية. ولقد لمح السفير المفاوض

(1) Ph. Janson, & A. Neff & ch. Peard: La Méditerranée entre pays d'islam et Monde latin, p151.

(2) راجع ما سبق،

Carbone إلى هذا الإجراء أثناء مغادرته ميناء سبتة بمعية من تبقى من التجار الجنوبيين قائلا: «سوف نسترجع حقوقنا كاملة»⁽¹⁾.

وفيما بدأت أجواء الحرب تخيم على العلاقات بين جنوة وسبتة، أرسلت القومونة دعما حربيًا آخر مكونا من أربعة شواني حربية in Soccorso⁽²⁾ لتلتحق بالأسطول الأول الرابض في ميناء اشبيلية. وعندما اكتملت الاستعدادات خرج الأسطول الجنوبي من اشبيلية مع نهاية شهر مارس 1235م متوجها إلى سبتة، كأنه أرمادا حربية حقيقية إذ فاقت عدد قطعه المائة وحدة. كلها مزودة بالآلات الحصار،⁽³⁾ عقدت قيادته للأميرال Ugone Lurcario⁽⁴⁾. كما حرصت حكومة جنوة، من جهة أخرى، إلى تفويض سفير خرج مع الحملة ليتولى مباشرة الاتصالات مع السلطات المحلية.⁽⁵⁾ ويفهم من هذا التصرف أن القومونة لم يكن همها الأول أخذ المدينة بالقوة والحرب، إنما مسعاها الأساسي هو الحفاظ على مصالحها التجارية الحيوية بالمدينة، وهذا ما يوضح بالمقابل مدى أهمية مدينة سبتة في تجارة جنوة مع بلاد المغرب خلال هذه الفترة.

لم يبين الحوليات الجنوبية، الذي تناولت هذه المحطة إلى ما انتهت إليه المفاوضات بين سفير القومونة وحاكم سبتة، لكن ما نستنتجه، من خلال تطور الأحداث، أن عملية المفاوضات، وإن جرت بالفعل، فمن المؤكد أنها لم تصل إلى نتيجة ما، لأن أمر الحسم

⁽¹⁾ Annali Genovesi, T IV, p 124/-

Di Tucci, op. cit. p 333

⁽²⁾ G Pistorino, Genova & l'islam p 204.

⁽³⁾ تشتم وحدات الأسطول عدد 70 سفينة بنسبة N.A.V.I 31 سفينة متوسطة و 20 Galère (شيني) إلى جانب عدد من المراكب الصغيرة Legni وآلات الحصار.

حتى لقد علق المؤرخ لوپيز Lopez أن هذا الأسطول هو أضخم أسطول جهزته القومونة منذ تأسيسها.

- Lopez, R: Storia della colonie Genovesi- p 142

⁽⁴⁾ Ann. Genov. T IV, P 125-6.

- Lopez, R: Studi Sull economica Genovese nel medio evo, nel Genovesi p15.

⁽⁵⁾ يتعلق الأمر بالسفير Suizio Peveri المعروف بخبرته في الشؤون الإفريقية.

- Lopez, R: Studi della sull economia- p 15-16

في الخلاف القائم بين جنوة وسبته عاد في النهاية إلى الأسطول الحربي، الذي تدخل بقوة وضرب حصارا محكما على مدينة سبته⁽¹⁾. ولما عجز اليانشتي عن تنظيم المقاومة الداخلية، جنح إلى الاستسلام، ورضخ لمطالب المحاصرين. عندها أملى السفير Pevere شروطه القاسية على اليانشتي، فقبلها هذا الأخير على مضض. ومن حسن حظ هذا الحاكم المهزوم، أن شروط الجنوية اقتصررت على الجانب المالي فقط. ومما جاء فيها: «...على مدينة سبته وسلطاتها وجميع قاطنيها Universitas أن يدفعوا 400.000 دينار لحكومة جنوة لتتولى توزيعها على مواطنيها ممن لحقتهم الأضرار والخسارة في السنة الفارضة»⁽²⁾. وعقب استلام الجنوية المبلغ المشروط أقنعوا عائدين إلى بلادهم الذي دخلوه منتصرين في 13 ديسمبر 1235م.⁽³⁾

والتفسير الوحيد لفهم هذا التصرف من قبل الجنوية في تعاملهم مع أزمة سبته، أنه يعزز الفرضية التي تؤكد بأن حكومة جنوة لم يكن لديها نية للاستيلاء على مدينة سبته واستعمارها، ولا حتى غزوها وانتهابها، كما كان يعتقد اليانشتي ومواطنيه في بداية الأمر. إنما يؤكد هذا التصرف حرص السلطات الجنوية على حماية مصالحهم الاقتصادية بالموانئ المغربية، خصوصا في هذه الفترة التي شهدت بداية فقدان مواقعهم وضياع مصالحهم بالموانئ الأندلسية، على إثر المزاحمة الشرسة التي لحقتهم من طرف الإمارات المسيحية الإسبانية الناشئة، إمارة قشتالة وأرغونة⁽⁴⁾.

(1) كتب ابن عذارى من غير أن يميز بين الكلكرني والجنوية "... وذلك لما أنهم وصلوا إلى سبته في مراكزهم برغم محاولات تجارهم. فاجتمع منهم في نيوانها وربضها عند كثير فراموا التعلب عليها بتحيلاتهم وإرائهم فحبيب اسه سعيهم فيما راموه". البيان، ج4، ص 350.

(2) Annali Genovesi, T VI, P 125-6.

- أشار صاحب القرطاس (ص276) كذلك إلى المبلغ 400 ألف دينار.

(3) Annali Genovesi, T IV, p 126.

(4) Dufoucq; ch, E; l'Espagne catalane et le Maghrib- aux XIII et XIV s- pain 1966- p 161-62.

وليس أدل على تمسك الجنوبية بمصالحهم في بلاد المغرب، السفارة التي أرسلتها القومونة في السنة الموالية أي (سنة 1236م) برئاسة السفير Pevere، خير الشؤون الإفريقية إلى مدينة سبتة، لتلطيف الأجواء، حيث شوهد عقب وصول هذه السفارة مباشرة عوده قنصل consul الجالية الجنوبية إلى عمله بفندق سبتة، كما سجل كذلك عودة نشاط حركة السفن والتجار بكثافة إلى ميناء المدينة.⁽¹⁾

ومع عودة العلاقات الودية بين جنوة ومدينة سبتة، بدأ الحديث بين أوساط التجار عن تأسيس مؤسسة مالية مشتركة تتولى جمع الأموال للتعويض عن الخسائر التي لحقت القومونة جراء أحداث سبتة (1234-1235م) عرفت باسم (Maone de Ceuta)⁽²⁾. علما أن القومونة لجأت وقتها إلى اقتراض ما قيمته 18.000 ليرة، لتجهيز الأسطول الذي بعثت به لإنقاذ تجارها في سبتة.

ويبدو واضحا ومن خلال اسم هذه المؤسسة المالية (Maone) أنه مشتق من الأصل العربي (معونة). ذلك أنه بعد انتهاء الخلاف بين الجنوبية وحاكم مدينة سبتة، وشرع الطرفان في المفاوضات بخصوص جمع الأموال للتعويض عن الخسائر التي لحقت القومونة ومواطنيها⁽³⁾. وافق حاكم سبتة أليانسنسي، على ما يبدو، بأن يقدم "معونة"

⁽¹⁾ Dufoucq: la question de Ceuta, P 102.

⁽²⁾ ورد اسم هذه المؤسسة في المصادر اللاتينية بأشكال مختلفة مثل: Maone، Mahone و Madona. للمزيد.

Lopez, R: Storia della Colonia Genovesi- p 142.

- Jehel, G: La Méditerranée Médiévale, p 149.

- تكايت كل من قشتالة وأراغونه على أراضي المسلمين بالأندلس، فاستولى ملك قشتالة ونيون فرنانسو الثالث (1217-1252م) الملقب بالقدس El-SANTO على نهر الوادي الكبير بما عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة سنة 633 هـ = 1236م، واشبيلية، وقادس Cadix سنة 646 هـ = 1248م، ومن ثمة صار له منفذ على مضيق جبل طارق. أما ملك أراغونه، جيمس I James I الملقب بالفتاح El Conquistador [1213-1247م] فقد أغار بأساطيله وجيوشه على شرق الأندلس، وحاصر مدينة بلنسية برا وبحرا، ولقد كتب ابن خلدون بخصوص استيلاء ملك قشتالة "

مالية كمساهمة من قبله لتغطية جزء من نفقات تلك الخسائر، على اعتبار أن له مسؤولية مباشرة في حدوثها⁽¹⁾. وربما يكون مبلغ 400.000 دينار الذي أرغم على دفعه أثناء حصار سنة 1235م يمثل نصيبا مسبقا من قيمة هذه المعونة.

وفي الوقت الذي كان الجميع ينتظر عودة الأمن والاستقرار إلى مدينة سبتة، جراء هذا التحسن في العلاقات بين جنوة وحكومة سبتة، تسارعت الأحداث في منطقة المضيق بسبب الاضطرابات التي عصفت بالأوضاع الأمنية داخل الإمارات الإسلامية في شبه جزيرة الأندلس، على إثر الهزائم المتتالية التي ألحقها مملكتا قشتالة وأراغون بتلك الإمارات الإسلامية وأخذت منها أغلب الديار، مما دفع بالسكان المسلمين داخل هذه الإمارات، وهم يراقبون بحسرة ما آلت إليه أوضاعهم بالأندلس تحت حكم أمراء النوائف، إلى إعلان الانشقاق على رؤسائهم، وأعلنوا ولاءهم من جديد للخليفة الموحي بالمغرب⁽²⁾.

الطاعية علم قرطبة قائلا: «... خرج العدو من كل جهة، ونزلوا إلى سبتة، ثم حاصر الطاعية مدينة قرطبة، وغلب عليها سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. مج 4، ص 218

راجع أيضا بهذا الشأن:

- Dufoureq, Ch.E : l'Espagne catalane et le Maghreb, p

- A. Louis, & L. J. Ruyss : European naval and maritime history 300-1500, P40et 55

(1) - تتمثل مسؤوليته، خصوصا في أنه هو الذي طلب من قومية جنوة إيفاد المساعدات له لمواجهة حملة الكركري، بقيادة أبي أنه مسؤول مباشر في ما وقع من تجاوزات على إجنائية اجنوية سنة 1235م للمزيد راجع ما سبق

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 4، ص 258/- ابن خلدون: مج 4، ص 218.

لما دخلت مدينة سبتة تحت نفوذ الموحدين، عمد الخليفة الرشيد إلى تعيين حاكم موال عليها اسمه ابن كلالس. لكن سرعان ما أعلن هذا الأخير العصيان على السلطة المركزية بعد موت الرشيد ليعلم ولاءه بعد ذلك للسيادة الحفصية سنة 1246. للمزيد راجع: - ابن خلدون: مج 6، ص 344-346

- كما حدث مع أهالي إمارة اشبيلية، الذين ثاروا ضد حاكمهم ابن هود واعتالوه سنة 1238م، وأعلنوا طاعتهم للخليفة الموحي بعد أن شملوا بالخوف من تكالب المسيحيين ضدهم. في نفس الوقت قام سوابلو سبتة، الذين بدأ يساورهم القلق كذلك، على مصير مدينتهم، فانتفضوا على اليانشتي وعزلوه سنة 1236م، ثم بعثوا بسفارة إلى الخليفة الرشيد يعلنون مبايعتهم له، ويعرضون الانضمام إلى كنف الدولة الموحدية.

غير أن هذا الولاء للموحدين قد جاء متأخراً، فالدولة القوية التي أسسها القائد العظيم عبد المؤمن بن علي قد بدأ نجمها في الأفول في هذه المرحلة، ولم يعد لديها من القوة والحيوية للتطلع إلى توسيع نفوذها وسلطانها إلى خارج مراكش، ففي سنة 630 هـ - 1249م توفي الخليفة الرشيد، وبوفاته تقطعت حبال وحدة الدولة، حيث رفض أمراء الولايات تجديد عهد الولاء لخليفته. فاستقل والي إفريقية من البيت الحفصي بمنطقته سنة 1249م - 647هـ، ثم لحقهم بنو زيان الذين أقاموا سلطانهم على تلمسان ونواحيها. وأخيراً رفع بنو مرين راية العصيان في جهات المغرب الأقصى.⁽¹⁾

وفي وسط هذه التحولات المتسارعة التي شهدتها ساحة بلاد المغرب، راحت المدن الصغيرة في المغرب والأندلس تبحث عن الحماية لدى هذه الدويلات الجديدة التي برزت للوجود على أنقاض الإمبراطورية الموحدية المنهارة. فدخلت مدينة سبتة تحت النفوذ الحفصي سنة 1246م - 644هـ، وبقيت خاضعة لها مدة من الزمن، لكن النفوذ الحفصي سرعان ما كشف عن محدوديته، ولم يستطع مواجهه التوسع الإسباني الكاسح في بلاد الأندلس. وعندما أيقن أهل سبتة من عجز الحفصيين عن ضمان الحماية لهم، انفصلوا عنهم، وعادت المدينة إلى استقلالها مرة ثانية يحكمها واحد من قضاة المدينة المجلين أبو القاسم الأزفي AZAFI منذ عام 1249م - 647هـ.⁽²⁾ وبقي الوضع على هذا الحال إلى سنة 1258م - 656هـ حيث خضعت المدينة للسيطرة المرينية.

أما جنوة التي بقيت تراقب تطور الأحداث في بلاد المغرب، فعندما شعرت بأن مصالحها قد صارت مهددة في منطقة المضيق سبتة والأندلس، في ظل اتساع رقعة

⁽¹⁾ ابن خلدون: مج 6، ص 348.

- برونشفيك: المرجع السابق، ج 1، ص 63.

⁽²⁾ Terrasse, H: op. cit. T2, p9 10.

الفوضى وعدم الاستقرار، أخذت تعمل على نقل مصالحها إلى موانئ المغرب الشرقية بجاية، وتونس، وكذلك الإسكندرية في مصر. وهكذا ما إن حل منتصف القرن الثالث عشر (1250م)، حتى توقفت سفن جنوة، تقريباً، عن التوجه إلى موانئ المغرب الأقصى سبباً وسالاً.⁽¹⁾

كانت خسارة جنوة كبيرة بخروجها من مواقعها بالموانئ الغربية للمتوسط (المغرب الأقصى والأندلس)، ولا شيء يعوضها عن هذه الخسارة سوى البحث عن مواقع جديدة بالموانئ الوسطى والشرقية، حتى وإن تطلب الأمر، هذه المرة، اللجوء إلى وسيلة الحرب في سبيل تحقيق هذا الهدف، وهو السلوك الذي أقدمت عليه جنوة بالفعل، عندما شاركت بقوة في الحملة الصليبية على مصر سنة 1248م، والحملة الصليبية على تونس سنة 1270م.

6 - مساهمة الجنوبية في الحملة الثامنة على تونس 1270 م - 669هـ.

إذا كانت حملة ملك فرنسا لويس التاسع على تونس سنة 1270 د، وهي الحملة التي اعتاد مؤرخو الغرب نعتها بالثامنة والأخيرة، تتدرج - مثل سابقتها - في إطار الحركة الصليبية التي دعت إليها البابوية الرومانية مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، واتخذت شكل عدوان حربي استعصائي على ديار الإسلام، فتجدير بالتذكير أن هذه الحملة لم تكن أولى الهجمات من لدن أمم أوروبا المسيحية، في إطار تلك الحركة، التي استهدفت بصورة مباشرة ديار المغرب الإسلامي. لقد سبقتها محاولات جريئة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، قامت بها أطرافاً أوروبية متعددة.⁽²⁾ مما يعزز مصداقية الرأي الإسلامي القائل بأن الحركة الصليبية لم تكن مجرد حرب موجهة

⁽¹⁾ G.Pistarino: Genova E l'islam p 204.

- Jehel. G: l'Italie et le Maghreb, p 64

-M . Cherif: op cit, p 139. /.

⁽²⁾ راجع ما سبق ، الفصل الثاني.

لاسترداد بعض الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، كما اعتاد بعض المؤرخين الأوروبيين الترويج لذلك، بل هي في الواقع تعبير واضح عن شعور الغرب المسيحي بالحق والكرهية تجاه الإسلام والمسلمين، والسعي لملاحقتهم في كل بلد أو مكان يتواجدون به، وإلا كيف نفسر العدوان الصليبي الذي استهدف المسلمين في كل من إسبانيا وصقلية وبلاد المغرب ومصر على حد سواء.

والمتتبع لأطوار الحركة الصليبية ببلاد المغرب الإسلامي يلاحظ أن جل الهجمات الصليبية التي استهدفت هذه المنطقة تركزت بشكل أساسي على إقليم المغرب الأدنى (تونس)، أو إفريقية، كما نسميها الكثير من المصادر، وليس في الأمر شك، أن مرد ذلك يرجع، بالدرجة الأولى، إلى أهمية موقع إفريقية (تونس) الاستراتيجي، عند نقطة مختارة في منتصف الطريق البحري التجاري الهام الذي يربط أقاليم الحوض الشرقي للبحر المتوسط بأجزائه الغربية.

فعند افتتاح العهد الحفصي بمنطقه المغرب الأدنى مع منتصف القرن الثالث عشر الميلادي⁽¹⁾. كان العالم الإسلامي يمر بأحلك الظروف في تاريخه السياسي، تتقاذفه المحن من كل جانب، فخلال هذا الوقت اندفع الفرنجة بقيادة ملكهم لويس التاسع Louis IX على رأس جيشي أوربي صليبي كبير باتجاه الساحل الشرقي لمصر محرزا، في البداية، تقدما ملحوظا حيث استولى على مدينتي دمياط والمنصورة، وملكهما من غير تعب

(1) لما تفكك البيت الموحدى على نفسه، منذ سنة 626 هـ = 1229م، وبدأ الأخوة الأمراء يتصارعون على القيادة والحكم، في كل من المغرب والاندلس، حلق أبو زكريا ضاعته عن الحليفة الموحدية المأمون، وسمى نفسه، وهو النقب الذي سبق أن حملة في إفريقيا الأغالية ثم بنو زيري، ومنذ ذلك الوقت شهد ميلاد الدولة الحفصية التي سيكتب لها انقراض مدة ثلاثة قرون ونصف القرن. للمزيد:

- ابن الشماخ: الأئمة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم د/ الطاهر بن محمد المعموري. الدار العربية للكتاب، 1984، ص: 54-59.
- عمر بن الوردي: تاريخ ابن الوردي، II2، المطبعة الحيدرية 1969، ص 272.
- روبرت بروشفيك: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج 1، ص 50-51.

(1250م-648هـ)⁽¹⁾، قبل أن تتقلب عليه الدائرة فتتمكن فرسان المماليك من إنزال

الهزيمة به، ويضطر الملك الفرنسي إلى الاستسلام وطلب الأمان.⁽²⁾

وعلى الرغم من الهزيمة الكبرى التي لحقت بالملك الفرنسي وعساكره في المنصورة على يد المماليك، إلا أن حدث اختراق الإفرنج أرض النيل كان كافياً لأن يندثر البيت الأيوبي في مصر والشام، وانتقلت مقاليد السلطة فيهما إلى أيدي جماعة المماليك⁽³⁾، الذين هم في الأصل عبيد أتراك اشتراهم الأيوبيون وهم أطفال صغار من نخاسي البحر الأسود، ودربوهم على الحرب ليصبحوا جنوداً أقوياء⁽⁴⁾.

وعلى صعيد آخر، فلقد توافق ارتقاء المماليك إلى سدة الحكم والشروع في فرض سلطاتهم القوي على مصر وبلاد الشام، مع ظهور جحافل المغول البرابرة في آسيا الوسطى، وبداية امتداد غزواتهم المدمرة على إيران ونواحي العراق⁽⁵⁾، وما هي إلا بضع أسابيع حتى وصل هؤلاء الغزاة البرابرة إلى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية (1258م)، وعاثوا فيها فساداً وتدميراً، ولقي أمير المؤمنين الخليفة المستعصم حتفه فيها. وبموته انقضت الخلافة الإسلامية في بيت بني العباس، وتضعفت معها سائر ممالك

(1) غريغوريوس الملقبي: تاريخ مختصر الدول، ص 285.

(2) فرض على الملك لويس التاسع مقابل إطلاق سراحه دفع ثمة مقدارها 800.000 بيزنس Besants، راجع بهذا الشأن: ميشال سالار: الحملة الصليبية والشرق اللاتيني من القرن 11 إلى القرن 14، ص 238.

— أما المصادر العربية فتتحدث عن مائتي ألف دينار. راجع:

— ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ط II، ج I، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

1982، ص 281.

(3) عبيد عاشر: العصر المملوكي في مصر والشام، القاهرة، 1965، ص 7-8.

(4) Godefroy & Demombyne: La Syrie à l'époque de Mamlouks, (Paris 1923), P 31-32

(5) ابن أبيك الصغدي: تحفة نوي الأبواب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، منشورات وزارة الثقافة،

دمشق، 1992، ج II، ص 583.

العرب،⁽¹⁾ كما عجزت الجهات الواقعة إلى ناحية الشام عن الصمود والمقاومة في وجه هذا الغزو المغولي الكاسح، فتعرضت مدن حلب ودمشق وفلسطين للنهب والتخريب على أيدي عساكر هولاكو، التي تقدمت حتى وصلت إلى أطراف سيناء ومن ثمة باتت الحرب مع المصريين وشبكة الحوث، ولقي المغول هزيمة نكراء في معركة عين جالوت الحاسمة 1260م⁽²⁾، فتقهقروا على إثرها هاربين باتجاه وسط آسيا.

لقد ترتب عن زوال الخلافة الشرعية في بغداد أن أضحت الساحة الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء، لأول مرة، منذ عهد الخلافة الراشدة، خلوا من أية حكومة مركزية قوية تستحق أن تتولى حمل شارة الخلافة واستمالة ضمائر الناس إليها، كما جرت به الأيام في الماضي. لذلك كان من الطبيعي والأوضاع بالمشرق على هذا الحال، أن يحول أبناء الأمة الإسلامية التواقون لعودة الخلافة الإسلامية، رمز التماسك والوحدة، بنظرهم إلى جهة المغرب حيث تنتصب الدولة الحفصية الناشئة التي فرضت نفسها كوريث وحيد للإمبراطورية الموحدية المنهارة هي الأخرى.

ففي سنة 658 هـ = 1259م وصلت إلى تونس بيعة أهل مكة والحجاز، بعث بها شريف مكة إلى أبي عبد الله الملقب بالمستنصر بالله، كدليل على اعتراف أهل الحجاز به خليفة للمسلمين⁽³⁾. ثم بعد ذلك بحوالي سنة، أي في عام 659 هـ = 1260م، وصلت رسالة رسمية من حاكم القاهرة الجديد السلطان قطر يخبره فيها بالانتصار العظيم الذي

(1) - تألم كثيرا المؤرخ ابن الأثير لما ألم بالخلافة على يد قبائل البدو المغول. وكتب يقول: "... فيأبى أمير ثم تلذم، وبأبى يمتي مت قبل هذا (...) فلو قال قائل أن العالم قد خلق الله (...) آدم (...) لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا..." ج9، ص329. راجع كذلك:

- غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان، تعريب الأب إسحاق أرمله، دار المشرق، 1986، ص 308.

(2) - ابن أبيك الصفي، المصدر السابق، ص 584.

(3) قبلها، أي حوالي 640 هـ = 1241م بايع أهل بلنسية ومرسية وأهل شرق الأندلس السلطان أبي زكريا الحفصي، وكذلك فعل أهل سبينة وطنجة وجزلماسة بالمغرب الأقصى، للتزيد راجع:

- ابن خلدون، مح 6، ص 385-6، 394-95، 407-408-418.

أحرزه المماليك على المغول في عين جالوت (سبتمبر 1260م)، ويبيدي له آيات الطاعة والإجلال، ويلقبه أمير المؤمنين⁽¹⁾. فكانت المحصلة أن اكتسب الحفصيون شرعية الخلافة وأصبحوا في أعين الناس من عامة المسلمين، حماة الديار الإسلامية ومقدساتها⁽²⁾. وبذلك قدمت الإمارة الحفصية الدريعة القوية للأمم المسيحية في أوربا المعادية للإسلام، بأن تكون الهدف الأساسي في مشاريعهم، من منطلق القناعة المستخلصة لديهم أنه إذا تم الاستيلاء على إفريقيا، فسيسهل، بعد ذلك، الاستيلاء على مصر، ومن ثم الوصول إلى جميع المناطق في فلسطين وبلاد الشام.

ومع إدراك القوى الصليبية في غرب أوربا للدور الذي أضحت تضطلع به اندونه الحفصية على ساحة العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، أخذت تحضر للنيل منها حتى لا يتعاضد نفوذها، وتصبح تشكل خطرا جاثما يهدد مصالحها الاقتصادية بالحوض الغربي للمتوسط. مثل ما حدث، من قبل، في المشرق مع الدولة الأيوبية، التي كانت سببا في انحصار النفوذ الصليبي بالحوض الشرقي للمتوسط⁽³⁾. وتجنبا لاهتمام المغرب الأوربي بضرورة التصدي للنفوذ الحفصي المتعاظم في بلاد المغرب، في الحملة الصليبية الثامنة

(1) راجع رسالة قطر الم. السلطان المستنصر في كتاب ابن قنفذ القسطنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية الدار التونسية للنشر، 1968، ص 125.

(2) استمر الحاكم الحفصي الثاني المستنصر بنق نفسه أمير المؤمنين إلى أن عمده السلطان الموحدين إلى خضاء الخلافة العباسية في القاهرة عندما أحضر أحد الأمراء من بقايا العباسيين، وكان يسمى "الحاكم بأمر الله" ونقسه بالخليفة العباسي، وقاد يدعو له على منابر مصر، الأمر الذي ترتب عليه أن سحب لقب الخليفة أو أمير المؤمنين من المستنصر. راجع:

- الحنري: عنوان التريفة في من عرف من العناء في العائلة السابعة بنحاية. منشورات دار الإفلاق الجديدة ببيروت، ط2، 1979، ص 120.

- ابن أبي تينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. تحقيق سمير شام. تونس 1967، ص 127.

- الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس 1966، ص 15.

(3) انتصارات صلاح الدين الأيوبي، على اتقوى الصليبية في حطين وما تبعه من تحرير معظم المدن والحبوب الساحلية من الاستعمار الصليبي، ولم يبق في حوزتهم سوى ميناء عكا، الذي سوف يسترجعه الظاهر بيبرس سنة 1291م.

التي استهدفت تونس عاصمة الإمارة الحفصية سنة 668-669هـ = 1270 م، وهي الحملة التي أشرف عليها، وقادها بنفسه الملك الفرنسي لويس التاسع.⁽¹⁾

وإن لم يكن من الغرابة في شيء أن يقرر هذا الملك حمل الصليب للمرة الثانية، والاندفاع في حملة صليبية ضد المسلمين في بلاد المغرب، بالنظر إلى الظروف التي أحاطت بتربيته وتكوينه النفسي، منذ كان طفلا صغيرا. فقد عاش هذا الملك جل حياته محاطا بمجموعة من رجال الدين المتطرفين المنتمين إلى الأديرة، وبخاصة ديرة الدومينيكان والفرنسيسكان، الذين مارسوا تأثيرا قويا على عقله وأفكاره، إلى أن جعلوا منه رجلا متدينا متزمتا مخلصا للكنيسة، حافدا على الإسلام والمسلمين⁽²⁾. فمن الاندهاش يكمن في الدافع الذي حمل حكومة الجنوية، دون غيرها من حكومات المدن الإيطالية البحرية الأخرى، على إظهار حماسة منقطعة⁽³⁾ النظر للمشاركة في هذه الحرب الصليبية على تونس، والحرص على تقديم كل متطلبات الدعم والمساندة لجيوش الحملة آنفروسيّة.

والجدير بالإشارة أن الملك لويس التاسع عندما عقد العزم على تسيير حملته الصليبية الثانية ضد المسلمين في بلاد المغرب. كان أول ما فكر فيه لإنجاح مشروعه، هو طلب العون من جمهورية فينيسيا (البندقية)، وليس من حكومة جنوة. وما زال أرشيف

(1) هو لويس التاسع [1214-1270] ابن الملك لويس الثامن، توفي والده وهو ما زال صغيرا (عمره 12 سنة) تولى أمه Blanche de Castille رعايته، وكانت تدير شؤون الحكم بدله إلى أن يكر. أصيب بمرض عضال ونثر بآل نفوذ بحملة صليبية أن شفي من مرضه. أوفى بالنشر وقاد حملته الصليبية الأولى على مصر سنة 1248 م. فشلت حملته على مصر ووقع في الأسر. عاد إلى فرنسا بعد أن أطلق سراحه، ولأنه كان متدينا مخلصا للكنيسة، تجهز مرة ثانية للقيام بحملة صليبية سنة 1270 م وجهها ضد تونس عاصمة الدولة الحفصية، وفيما بقي حثفه... للتمزيق.

- Dictionnaire Encyclopédique d'histoire, Ed Albin, Michel, (Paris 2000) P 946.

- Joinville, S. Ch: vie de saint Louis. Ed, Paléo. 2002- P 145-153.

2]- Dictionnaire de l'histoire du Christianisme, Ed Albin, Michel, (Paris2000) P 946.

(3) تنقو جميع المؤرخين أن هدف حملة لويس التاسع هذه لم يكن محمدا منذ البداية باتجاه تونس.

البندقية يحتفظ بالوثيقة التي عرض فيها دوج فيبيسيا شروطه على سفراء ملك فرنسا، عندما جاءوا يطلبون الدعم منه لإنجاح مشروع ملكهم.⁽¹⁾

غير أن البنادقة الذين صقلتهم التجربة الطويلة في التعامل مع أطراف الصراع في حوض المنوسط حتى قبل قيام الحركة الصليبية، سرعان ما تراجعوا عن مباركة مشروع الملك الفرنسي⁽²⁾. والظاهر أنهم وازنوا بين فائدة الحفاظ على علاقاتهم الودية مع الحكام المسلمين، وبين الاندفاع وراء مغامرة صليبية غير مضمونة العواقب، ففضلوا كعادتهم الاحتفاظ بما بين أيديهم من مصالح وامتيازات، على ما قد يحتمل أن يأتي به المستقبل. مستدين في ذلك إلى قناعتهم التقليدية في التعامل مع مثل هذه الأحداث التي تقوم على شعار: "نحن أولاً بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيين". Si ame Veneziani poi chrestiani.⁽³⁾

والتأيت أن المفاوضات مع سفراء لويس التاسع لم تقض إلى نتيجة عملية، مما حدا بالملك الفرنسي، الذي كان قد صمم على المضي في مسعاه لتحقيق ما نذره على نفسه، إلى توجيه سفارة أخرى إلى مدينة جنوة، لإعلام مسئوليتها بالمشروع الذي هو بصدد التحضير له، والتفاوض معهم بشأن المساعدات التي هو في حاجة ماسة لها. نوضع مشروعه موضع التنفيذ. ومن غير أن يحرجه بشروط تعجيزية، وافق مسؤولو جنوة

-
- (1) اشترط دوق البندقية على السفارة الفرنسية مقابل مساعدته للحملة حملة من الشروط والامتيازات منها:
- الحصول على مستعمرة تجارية بالند الذي يكون هدفا للحملة، تشمل على أحياء ومنازل للحالية البندقية إضافة إلى كنيسة وحمام وفرس. مع الاعفاء التام من الضرائب التجارية، وحق التحار البنادقة في استغلال الموانئ والمكايل الخاصة بهم، وكذلك العملة البندقية النوقة Ducat، إلى جانب الحماية التامة على أرواحهم وممتلكاتهم في تلك الأحياء. للمزيد راجع:
 - هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج2، ص 60-61.
- (2) نفسه.

(3) - A.S Atiya: Crusade in the later Middle Ages, (London 1983), 114

- جوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى. الإسكندرية، 1980. ص80

على عرض الملك، ووعدوه بتسخير أسطولهم البحري لنقل جيوش الحملة إلى هدفها. (1)
وزادوا على ذلك بأن تعهدوا بإمداده بوحدة عسكرية مقاتلة تزيد عن عشرة آلاف
(10.000) رجل (2)، وأسطول بحري يضم 55 سفينة حربية، وسفن أخرى تجارية غير
معلومة العدد Ligna Navigabilia (3). هذا بالإضافة إلى قبول الحكومة الجنوبية بأن
يتولى خبراء ترساناتها بناء وتجهيز ما عدده سبعة (07) سفن حربية ضخمة أخرى
لحساب الأسطول الفرنسي. (4)

لم يفهم المتابعون للأحداث، وقتذاك، الدوافع الحقيقية وراء إصرار الجنوبية على
مآزره مشروع لويس التاسع على تونس، وهو بلد إسلامي يقع إلى القرب منها. لهم معه
مصالح اقتصادية كبيرة، كما أنه قليل المناهضة للنصارى (5). حتى لقد أشيع عن حاكمها

(1) - Ann Genov : T IV, P 130-1. - Canale, M : F3, P 191---5

(2) - Lopez, R: Storia Della Colonie Genovesi, P 176-80.

(3) Ann Genov : T IV, P 130-131.

A- Giustiniani, Annali, 13, P 442-43

(4) لم يستطع الجنوبيون الوفاء بالتزاماتهم فبعد مرور عام على العقد الذي أبرموه مع لويس التاسع لم ينجزوا سوى
خمس سفن من أصل سبعة (7) للمزيد راجع:

M. Mollat: " Le passage de ST Louis à Tunis sa place dans l'histoire de
croisades" extrait de la (Revue d'histoire économique et
sociale), T.L, N 03: Paris 1972, P 294

(5) ز. بروتشفيك، المرجع السابق، ج1، ص 87.

في ذلك الوقت، المستنصر (1249-1277م)، بأنه يوالي المسيحيين ويتودد إلى صداقتهم، إلى درجة أن السلطان الظاهر بيبرس خليفة السلطان قطز شكك في نوايا المستنصر، فأسقط البيعة له، وأجهر له صراحة في رسالة بعث بها إليه "... أنه لا يحق لك أن تتولى أمور المسلمين".⁽¹⁾ وفوق هذا كله، كانت الجاليات الجنوبية شأنها شأن جاليات المدن الإيطالية الأخرى، تتعم بامتيازات تجارية واسعة في موانئ السلطة الحفصية حيث كان لهم في تونس - حسب المصادر اللاتينية- حتى من قبل أن ينفصل البيت الحفصي عن الخلافة الموحدية، فندقاً وحماماً وفرناً.⁽²⁾

والمقاربه الوحيدة التي أخذ بها المؤرخين المعاصرين لفهم تصرف جنوة على هذا المنوال، تستبعد أن يكون ذلك مرتبطاً بدافع الغرور والتهور، إنما يرجع إلى اختيارات إستراتيجية واقعية تخدم، بالدرجة الأولى، توجهاتها السياسية الدائمة. فالجنويون منذ انطلاق الحركة الصليبية، مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، كانوا دائماً في النصف الأول إلى جانب النصارى في حروبهم ضد المسلمين، شاركوا في جميع انحرافات الصليبية، التي استهدفت ديار المسلمين، سواء في الأندلس، أو المشرق، أو المغرب. ولم يتخلّفوا سوى عن الحملة الصليبية الرابعة، التي لم تكن موجهة أصلاً ضد البلاد الإسلامية، إنما وجهت ضد الإمبراطورية البيزنطية⁽³⁾. كما أنه غالباً ما كانت الدعوة إلى

¹ M. Talbi : Saint Louis à Tunis. In, Les Croisades, présenté par Robert Delort.
Ed. seuil 1988. p76.

2)- Jehel.G : l'Italie et le Maghreb....p. 60

⁽³⁾ عن التحضير للحملة الصليبية الرابعة، وتوزيع أدوار المشاركين فيها، راجع مصدر منهم:
روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين. ترجمة حسن حبشي. 1964، ص 35 50.

تلك الحملات الصليبية تتم علانية في حفل بهيج يقام في كنيسة سان سيرو San Siro داخل مدينة جنوة.⁽¹⁾

والقصة الكاملة وراء ابتهاج الجنوبية لمشروع الملك لويس التاسع بغزو تونس، حسب ما أظهرته القراءات الحديثة للأرشيف الجبوي، نبين أنه في حضم الصراع الميرير الذي كان قائما بين جمهورية فينيسيا وجمهورية جنوة في حوض البحر المتوسط بدافع تنامي شعور الحقد والغيرة الذي ظل يتمالك أبناء الجمهوريتين البحريتين، ويدفع بهما إلى التسابق من أجل فرض السيطرة على تجارة البحر المتوسط⁽²⁾، وقعت تحولات خطيرة في نظور سير هذا الصراع منذ نجاح الحملة التصليبية الرابعة 1204م.

فكما هو معروف، فإن جمهورية القديس مرقس (فينيسيا) استغلت الظروف التي صاحبت الإعداد لهذه الحملة، وتدخلت بكل ثقلها لتحويل مسلكها باتجاه القسطنطينية، لتجعل منها حملة ضد الإمبراطورية البيزنطية وحاكمها الإمبراطور الكسيوس الثالث III Alexis، الذي انهمه البندقية بالنضييق على تجارها وجاليها بموانئ الإمبراطورية أثناء تضيق، على حين أغدق الامتيازات على منافسيهم من الجنوبيين⁽³⁾. ومن حسن حظ البندقية أن خطتها وافقها النجاح، حيث سقطت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في أيدي جيوش الحملة الصليبية الرابعة، وتأسست على أنقاض الأسرة الكومنينية البيزنطية المخلوعة دولة لاتينية صليبية، وربحت البندقية، صاحبة الفكرة في تحويل الحملة الصليبية الرابعة إلى بيزنطة، أعظم الأرباح.⁽⁴⁾ حيث أقام البندقية، على إثر ذلك، مستعمرات تجارية في بحر إيجة وشواطئ البوسفور. أما الخاسر الأكبر في اقتسام

⁽¹⁾ Ann Genov.- Vol I, P 79-99.

⁽²⁾ راجع ما سبق الفصل الثاني

⁽³⁾ روبرت كلاري: المرجع السابق، ص 41-50.

⁽⁴⁾ - F.C. Lane: Venise une république Maritime, P 77.

- Ch. Diehl: Byzance, grandeur et de cadence, P 227.

التركة البيزنطية Partitio Romanie فكانت جمهورية القديس جورج (جنوة) التي تم تجريد جالياتها من جميع مواقعهم القديمة في أراضي الإمبراطورية البيزنطية المنهارة. ⁽¹⁾ ومنذ ذلك الوقت، صار لزاما على أبناء قومونة جنوة الدخول في مناورات وحروب طويلة لاستعادة حقوقهم المعنوية، وراحوا يحنون ألفرص للتحالف مع الساعي للمطابقة بعودة حكم الأسرة البيزنطية الشرعية إلى عاصمة البسفور. فعقدوا لأجل ذلك، حلفا مع الإمبراطور ميخائيل باليولوجوس Michael Paléologus سيد عرش مملكة نيفية في مارس 1261 م، الذي وعدهم بامتيازات تجارية واسعة لقاء وقوفهم إلى جانبه ضد البنادقة وجماعاتهم من اللاتين ⁽²⁾. ولم يلبث أن تحققت هذه الخطوة في 25 يوليو 1261 م حيث استرد ميخائيل باليولوجوس القسطنطينية من اللاتين. وجنى أبناء جنوة ثمار إخلاصهم للبيزنطيين، امتيازات تجارية واسعة في أهم المواقع الاستراتيجية بداخل الإمبراطورية. ⁽³⁾ واشترطوا أخذا للثأر، أن يطرد البنادقة من كافة المركز التي يتواجدون بها في ربوع الإمبراطورية البيزنطية. ⁽⁴⁾

ولكن المصالح التي حققتها جمهورية القديس جورج (جنوة) بأراضي الإمبراطورية البيزنطية ما كان أن يقدر لها الاستمرار أن تقاومت حكومة الجمهورية عن حمايتها والذود عنها بكل ما تملك من قوة ووسائل، فخطر الأعداء ما زال محدقا بمصالحها في بيزنصه بسبب استمرار الخصومة بين الغرب والبيزنطيين. وانخطر التكبيرة. هذه المرة، على مصالح الجنوبية في بيزنطة جاء من شارل دي أنجو Charle d'Anjou شقيق الملك

⁽¹⁾ L. Brehier: Vie et mort de Byzance, P 367-90. / F.C.Lane : Venise....p77

- م. بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص 217-8.

⁽²⁾ Brehier: Vie et mort de Byzance, p 390-91

⁽³⁾ Jenifer, laviter: Encyclopedia of the Byzantine Empire. (USA 2004), P 209

⁽⁴⁾ L. Brehier: op. cit, P 395-96.

الفرنسي لويس التاسع⁽¹⁾. والسبب مرتبط بالحرب الدائرة بين البابوية وأسرة الهوهنشتاوفن Hauhanstaufen الحاكمة في صقلية وجنوب إيطاليا. ففي خضم هذا الصراع الذي طال أمده⁽²⁾، وبعد وفاة الإمبراطور فريدرich الثاني القوي سنة 1250م، عرض البابا أربان الرابع (1261-1264م) عرش صقلية على الأمير شارل الأنجوي كونت بروفانس، ومنحه الشرعية البابوية Crusades Status للقيام بغزو جنوب إيطاليا وصقلية وانتزاعهما من البيت الألماني، في مقابل أن يخصص شارل دي أنجو للبابا إتاوة مالية بما قيمته خمسون ألف (50.000) مارك Marc⁽³⁾. فجاء شارل المدعم بالتأييد البابوي بجيش كبير، فتغلب على حاكم صقلية ووريث عرش الإمبراطور فريدرich الثاني سنة 1266 م. ومن وقتها نصب نفسه ملكاً على صقلية وجنوب إيطاليا.

لم يكن في، حقيقة الأمر، تاج مملكة صقلية في ذاته هو الذي حمل ذلك الأمير الفرنسي الطموح على قبول العرض البابوي، بل كان سر تحمسه لهذا المشروع إنما يكمن في مطامعه الكبرى المرتبطة بتوسيع نفوذه إلى ما وراء الضفة الشرقية للبحر الأديرياتيكي. وانضموح في الاستيلاء على أملاك الإمبراطورية البيزنطية وإعادة بعث الدولة اللاتينية في القسطنطينية من جديد.⁽⁴⁾

(1) عن الحرب بين البابوية والإمبراطورية، راجع ما سبق، الفصل الثامن.

(2) Corlissk, slack; historical dictionary of the crusades, (oxford, 2000), p 62.

(3) لأجل ذلك عمد شارل دي أنجو إلى تشكيل حلف ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن، ضد الذي حانته كل من البابوية وبلودوين الثاني Baldwin، II الإمبراطور اللاتيني السابق، والأمير وليام فيلهارنوس ودوق النينقية. للمزيد راجع: - ح. د. هسي: العالم البيزنطي، ص 184

- Camb Med Hist. TVII; P 735.

(4) Eduard. Jordan; histoire du Moyen-Âge, T4 1^{er} partie, Ed, puf. 1939, p 354.

فكان أن أصيب الجنوبية وحليفهم الإمبراطور البيزنطي بالفزع الشديد وأخذوا يستعدون لمواجهة هذا الموقف وإجهاضه قبل فوات الأوان⁽¹⁾. وكرست جنوة كل جهودها الدبلوماسية والمادية لإفشال هذا المشروع أو تحويله إلى وجهة أخرى. فكانت الخطوة الأولى التي سلكتها الحكومة الجنوبية لوأد فكره شارل التوسعية، إن أرسلت سفارة إلى الفاتيكان قابلت البابا أربان الرابع Urbain IV وعقدت معه اتفاقية أقنعت بموجبها بعدم توجيه الحملة ضد بيزنطة، في مقابل أن تقوم هي بإقناع الإمبراطور ميخائيل للاعتراف بالزعامة الروحية لبابا روما على الكنائس الأرثوذكسية.⁽²⁾

ولكي تتجح هذه الخطة، ولو إلى حين، أرسلت الحكومة الجنوبية، في نفس الوقت، سفارة أخرى إلى بلاط الإمبراطور البيزنطي لحمله على التظاهر بقبول العرض البابوي إلى حين تتلاشى غيوم هذا التوتر، وتستقر الأوضاع الداخلية تماماً بالإمبراطورية، وبالفعل نجحت الخطة الجنوبية المأكرة، وعدل شارل، تحت ضغوط البابوية، عن مواصلة مشروعه التوسعي ذلك.⁽³⁾

وكان من حسن طالع الجنوبيون أن هذه الأحداث جاءت في الوقت الذي كان فيه الملك الفرنسي يعد العدة للخروج في حملة صليبية إلى المشرق للنثار من المماليك، تلك

(1) من بين الخطط التي استعملها الإمبراطور البيزنطي والجنوية، تقديم العون المادي والمعنوي لأهالي صقلية وتحريرهم على القيام بالثورة على شارل الأنجوي. ونجحت الخطة في إثارة أبناء صقلية الذين يصمرون العداء لهذا الحاكم، واشتعلت حرباً ضروساً في الجزيرة، عرفت بحرب Vêpres siciliennes، منح الثقل، من قبل ساح المملكة إلى بطرس صاحب أرغونة الذي أمكن لميخائيل الثامن أن يصل إلى عقد اتفاقية معه، للمزيد، راجع: ج. هسي: العالم البيزنطي، ص 154.

(2) Camb Medieval hist, Vol VI, p 192-3.

(3) كاد هذا التصرف الاعتراف بالبحر الروماني رعيماً روحياً على الأرثوذكس أن يكثف الإمبراطور النيقوجوس متاعب كبيرة، حيث تنمر سكان الإمبراطورية الأرثوذكسية من هذا الإجراء، وأظهروا معارضة شديدة له، إلى درجة أن سرحت أخت الإمبراطور وقتها بعبارة كلها معاني: "خير لإمبراطورية أنني أن تسخر على أن تبت العقيدة الأرثوذكسية". راجع: م. هسي: المرجع السابق، ص 185.

القوة الإسلامية الآخذة في النمو، والتي باتت تهدد بقايا الوجود الصليبي المتداعي في بلاد الشام⁽¹⁾، وتجردهم مما تبقى لهم من قلاع وحصون على الشريط الساحلي الشامي. غير أن الملك الفرنسي الذي انتقاد وراء تقواه وحماسه الدينية المفرطة، وكان قد بلغ من التكبر عنياً⁽²⁾، لم يقدر الأمور -على ما يبدو- حسن قدرها عندما صمم على حمل الصليب للمرة الثانية (1267م). ربما للتعويض عن فشل حملته الأولى الذي يعتبر نفسه مسئولاً عنها مسؤولية كاملة⁽³⁾. فلقد بينت استعداداته المستعجلة للحملة الثانية مدى حاجته الكبيرة للعتاد والرجال والسفن، فطفق يبحث عنها لدى المدن البحرية الإيطالية. ولئن اعتذرت البندقية بلبافة -وفتها- عن تلبية طلب الملك لويس، حافذاً على مصاتها مع المسلمين⁽⁴⁾، فإن حكومة جنوة، على العكس من ذلك، لم تتأخر عن مساندة الملك وتبني مشروعه الصليبي، وتحملت لوحدها على عاتقها النصيب الأكبر في هذه الحملة⁽⁵⁾، بأن زودته بعدد من السفن الحربية وصل عددها عشرون (20) سفينة مجهزة بالعتاد والمؤن⁽⁶⁾، إضافة إلى جيش من المقاتلين بلغ عدد عساكره عشرة آلاف 10.000 مقاتل⁽⁷⁾. وكان جيش الجنوية بهذه الضخامة إلى درجة أنه تطلب تعيين مثل من التفاصيل

(1) لدرجة أن السلطان الظاهر بيبرس بعث برسالة إلى لويس يستغفره ويستهيئ بقايا الصليبيين في بلاد الشام جاء فيها: "إننا ملكنا أنطاكية بالسيوف والجنود ولو حضرت وشاهدت قبور موتاك قد بعثرت وقصورك وحصونك قد أحرقت، حولت إلى رماد نصنعت من هول ما رأيت". راجع:

د/ سامية عامر: الصليبيون في شمال إفريقيا، حملة لويس التاسع على تونس، ط القاهرة 2002، ص 77.

(2) بلغ من العمر سبعة وخمسون سنة، وتمكن منه المرض فكانت صحته متدهورة، للمزيد:

-أنثوني يردج: الحروب الصليبية، ص 273.

(3) D.O conell: Les paroles de Saint Louis. Ed. Gallimard, (Paris 1974), P 51.

(4) هايد: المرجع السابق، ج II، ص 61.

(5) H. Ico: histoire d'Italie, T1, p 736.

(6) Ann Genov. T IV, P 130-31.

(7) ibid.

ليتولون قيادته، وهما أنسلدو دوريا Enseldo doria وفيليبو كافارونكا Phileppo cavarunca (1).

ومهما يكن من أمر الظروف التي أحاطت بعملية الإعداد لهذه الحملة، التي استغرقت ثلاث سنوات، فإنه بعد أن تمت الاستعدادات، وحصل المتطوعون فيها على مباركة البابا كلمنت الرابع Clément IV (1265-1268م)، غادر جيش الحملة الصليبية ميناء ايج مورتيس Aigue Mortes بجنوب فرنسا في الفاتح من جويلية 1270م. (2) وبعد مسير ستة أيام توقفت السفن في ميناء كاغلياري Cagliari بجزيرة سردينية التابعة لجمهورية بيره، لأخذ قسط من الراحة والنزول بالمون وتزريب عملية انضمام جموع أخرى من الفرق العسكرية كانت قد أبحرت من ميناء مرسيليا أو من غيرها من الموانئ. (3) وفي هذه المحطة عقد بتاريخ 12 و 13 جويلية مجلسا عسكريا لتوزيع المسؤوليات على القادة، وإعلامهم بالوجهة التي سوف تقصدها الحملة حيث وقع الاختيار على تونس عاصمة اندونه الحفصية في إفريقيا. فكان أول من وافق على هذا الاقتراح الكاردينال ممثل البابا، ثم تبعه بقية الحاضرين. (4)

¹¹ - عن المساعدات التي قدمتها جنوة لحملة لويس التاسع، راجع كذلك:

-Bragadin, M: histoire des républiques Italiennes, p 89.

- R. Bastrad de père: "Navires Méditerranéens aux temps de St Louis" (RHES), 1972, p 10.

2)- Muset: Les invasions second Assault contre l'Europe chrétienne (VII- XIX), Paris. 1971.p10

3)-Mollat, M: "Le passage de St Louis", op. cit., p 291

- ر. برونشفيك: ح 1، ص 87.

(4) M.Talbi: "Documents divers relatifs à la croisade de saint louis contre Tunis 1270". (Cahiers de Tunisie.) TXXV, No 99-100, 1977, p 249

-Bragadin, M: histoire des républiques Italiennes, p 89.

ويتفق جميع المؤرخين، أنه لا توجد إشارات بينة في المصادر المعاصرة، قبل هذا التاريخ، تحدد وجهة الحملة على تونس⁽¹⁾، بل على النقيض من ذلك، كانت كل المؤشرات والاحتمالات ترجح أن لويس التاسع عندما عزم على القيام بحملته الصليبية الثانية ضد المسلمين كان في ذهنه أن يوجهها إلى المشرق، لعدة أسباب منها:

أولاً: للانتقام من المصريين الذين هزموه في حملته الأولى، وللمحي، بالتالي، العار الذي لحقه جراء تلك النكسة، ويسترجع كبرياءه وكرامته بين أترابه من ملوك وأمراء أوروبا المسيحية، خاصة، وهو كما صورته المصادر العربية "... من أجل ملوك الفرنج وأعضهم قدرا وأكثرهم عساکر وأوسعهم بلادا وأكثرهم أموالا".⁽²⁾

ثانياً: حماية الصليبيين في بلاد الشام الذين كثرت استغاثاتهم في هذه الآونة، بسبب تعاظم قوة المماليك في مصر وتحركهم السريع للتوسع إلى بلاد الشام، منذ أن ألحقوا الهزيمة بجيش المغول الكبير في موقعة عين جالوت 1260 م. إذ بمطاردة المغول المنهزمين صار السنطان المصري بيبرس سيداً على سوريا، وأخذ يهاجم بغايا مملكة الصليبيين من كل اتجاه، فاستولى على قيصرية وأرسوف، وتم عزل مدن الساحل الصليبية عن بعضها البعض بواسطة الأرض التي يسيطر عليها المسلمون⁽³⁾. وبدأ للوهلة

(1) كما في ذلك البابا كلمنت الرابع شخصياً الذي بارك الحملة، يستدل على ذلك أن البابا عندما راسل خان المغول راعب Abaglia، سنة 1267 م كتب يقول له: "إن ملك فرنسا ونافار يستعدان لمهاجمة عتو الصليب، وإنني لا أستطيع أن أعنيك بالطريق التي سوف تسلكها الحملة. وسوف أطلع سيادتكم بها، في رسالة أخرى، حال تتسوفر لدينا كل المعصيت على ذلك شمرير راجع.

- Grousset, R: Histoire des croisades, TIII, p 649.

-Mollat, M: Op cit, P 295.

-كما أن السير جوناڤيل، وهو أحد المقربين من الملك لويس التاسع، ومؤرخ سيرته، لم يذكر في كتابه بأن لويس كان منذ البداية يقصد توجيه حملته إلى تونس.

- De Joinville: Vie de Saint Louis, p (299-318).

(2) - أبو الفداء: المختصر في أخبار النبشیر، ج 11، ص 216.

(3) عبد الباسط الماطي: نزعة الأساطين فيمن ولی مصر من السلاطين، تحقيق محمد کمال الدین،

ط 1، 1987، ص 75.

الأولى وسط ارتفاع نداءات الاستغاثة التي تعالت في جميع أنحاء العالم المسيحي أن حملة صليبية جديدة على وشك الخروج لحماية الصليبيين في بلاد الشام من الكارثة التي تلاحقهم، وبالفعل في وسط هذه الأجواء بدأ الملك لويس التاسع يتجهز لحملته الصليبية الثانية.

تقريبا نفس الشكوك التي أثارها المتتبعون عن سير حملة لويس التاسع والوجهة التي كان يتعين عليها أن تقصدها، كذلك أثّرت شكوكا مماثلة، وتضاربت الآراء حول الأسباب الخفية التي جعلت لويس التاسع يقتنع أخيرا ويحسم قراره باختيار تونس كوجهة أكيدة ووحيدة للحملة: فمنهم من ربط هذا الأمر بشارل دي أنجو الأخ الأصغر للملك لويس التاسع، الذي يكون قد مارس ضغوطات كبيرة على الملك، واشترط مساعدته له بأن يحول وجهة الحملة إلى تونس كمرحلة أولى⁽¹⁾. وكان غرض شارل من ذلك للانتقام من الملك الحفصي المستنصر الذي أبدى انحيازا واضحا إلى بيت الهوهنشتافن أثناء الحرب التي كانت دائرة في جزيرة صقلية بينه وبين أبناء الإمبراطور فريدرىك الثاني. وفتح أبواب مملكته لاستقبال وإيواء الفارين منهم.⁽²⁾ كما لم يغفر له رفضه دفع الإتاوات التي كانت تونس تدفعها لفريدرىك وخلفائه من قبل.⁽³⁾

أما بعض المؤرخين فقد اعتبروا بأن الملك لويس التاسع هو وحده صاحب فكرة تحويل الحملة باتجاه تونس وذلك لاعتقاده، حسب ما أوعز إليه بعض المقربين منه من

⁽¹⁾ M.Talbi, documents divers..., op cit, p 247.

⁽²⁾ Ibid.

⁽³⁾ Maslatrie: Traites, T1, p 52.

جماعة رجال الدين، من أن سلطان تونس (المستنصر) قد أبدى استعداداً للتحويل إلى المسيحية⁽¹⁾، أو ربما يكون الملك قد خطط لغزو مصر عن طريق تونس من جهة البر.

ويميل أحد الإخباريين المسلمين إلى هذا الرأي، وهو رأي من وجهة نظرنا منطقي ومقبول. يقول صاحب كتاب المؤنس في هذا الصدد: "... وهو (أي الملك لويس التاسع) قد نلت نفسه على العودة إلى مصر وأراد أن يأخذ ثأره من تونس فدمره الله تعالى"⁽²⁾.

أما فريق ثالث، فيرجع أمر تحويل مسار الحملة إلى تونس بأنه كان من تدبير الجنوبية، الذين لم ينسوا صنيع المستنصر معهم عندما فضل البنادقة والبيزانة عليهم في الامتيازات⁽³⁾، وكان مساعدهم كذلك لكي يتخلصوا من المنافسة الشرسة التي أصبح يشكلها الوجود الإسباني ضدهم على أسواق وموانئ تونس والمغرب.⁽⁴⁾

وانفرد المؤرخ ابن خلدون وحده بأن ربط هذه الحملة على تونس، بالسبب واقعي ملموس. يتعلق بالمضايقات التي يكون قد تعرضت لها الجالية التجارية الفرنسية على أرض تونس. أو كما جاء في كلام ابن خلدون: "... واعتزم (أي ملك الإفرنج لويس التاسع) على الحركة إلى تونس متجنباً عليهم فيما زعموا إعمال أديعاء تجر أرضهم، وأنهم أقرضوا اللباني، فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو ثلاثمائة دينار بغير

(1) من المعلوم أن جماعة من المنشرين المحترفين من جماعة الفرنسيكان والروميكان كانوا يعملون بحماس في المملكة الحفصية. وهم الذين أوعروا تملك بحقيقة استعداد السلطان المستنصر للارتداد عن الإسلام وعبق المسيحية، راجع بهذا الشأن:

- رينست باكر: الحروب الصليبية، ص 129/1 - برونشفيك، ج 1، ص 89.
- ش. أ. جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج II، تعريف محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1978، ص 180.

- M. Mollat : Le passage de St Louis à Tunis....p292

(2) ابن أبي نينار: المؤنس، ص 122.

(3) مصطفى الكفاني: حملة لويس التاسع الصليبية على تونس 668-669/1270 هـ. الإسكندرية، 1985، ص 149.

(4) Dufourcq, ch.E: L'Espagne catalane et le Maghreb au XIII et XIV, (Paris 1965) p.
T.B Freed man, Ik. M. Figg: Trade, travels and exploration in the Mayes in
Encyclopedia,op- cit, p. 209-10.

موجب يستندون إليه. فغضبوا لذلك واشتكوا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس لما كان منها من المجاعة والموتان" (1)

ومهما يكن من تعدد الأطروحات حول الأسباب التي جعلت قادة الحملة يقتنعون باحنيار تونس كهدف مباشر للعدوان، فالأكيد أن لويس التاسع قد أخطأ الاحتيار، لأن تونس على هذا العهد كانت في سلام مع الأمم المسيحية قاطبة، زيادة على أنها كانت تشكل سوقا رائجة يقصدها تجار أوروبا للتزود بالسلع الإفريقية والآسيوية النادرة عندهم، بعد أن سدّت عليهم أسواق المشرق الإسلامي بسبب تفوق المماليك وحروبهم في الشام ضد بقايا الصليبيين. (2)

ولكن هل أخطأت جنوة هي الأخرى، عندما وافقت على الانضمام إلى هذه الحملة؟ يبدو واضحا من خلال تصرف الجيش الجنوي الذي شارك في الحملة، وكان يشكل جزءا كبيرا من قوات الحملة، أنها لم تكن وفيّة مخلصّة في موقفها إلى جانب الجيش الفرنسي، فمن المحتمل أن تكون حكومة القومونه قد أعطت الأوامر لقادة أسطولها بعد الانسحاب إلى القتال حال وصول جيش الحملة إلى هدفه (تونس). وبالفعل لم تبادر العناصر الجنوبية بالنزول إلى اليابسة، كما فعلت جيوش الملك (3)، وبقيت متمترسة على متن سفنها بالبحر تراقب عن كثب ما ستسفر عنه نتيجة المعركة لتناصر، بعد ذلك، الجهة المنتصرة. وبهذه التحينة، يكون جنود قد حافظت على أمنيّاتها في البلاد أنوسية إن حُسر أنصليبيون المعركة، كما ستكون الرابع الأكبر إن نجح الصليبيون في مهمتهم، فستستفيد وحدها، عندئذ، من تجارة تونس.

(1) مح 6، ص 426، راجع كذلك:

- ابن اشماع، الانلة البينة النورانية، ص 69-70.

(2) Grousset, R: Histoire des croisade, T3, P 651.

- ر. بروشفيك: ح، ص 87.

(3) A. Gustiniani: Annali della Republica, I, p 422.

وفي السادس والعشرين من ذي الحجة، الموافق 18 جويلية 1270 م-669هـ— وصل أسطول الحملة الفرنسية إلى ميناء قرطاج⁽¹⁾، وكان تعدادها زهاء ستة آلاف فارس، وثلاثين ألف من الرجالة، حسب ما أكده ابن خلدون⁽²⁾ الذي أخذ هذه المعلومات من أبيه عن جده. "لما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس، وثلاثين ألف من الخيالة فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما الله، وكانت أساطيلهم ثلاثمائة بين كبار وصغار". ومن دون أن تحدث اشتباكات بين الجيشين الصليبي وقوات السلطنة الحفصية، انتهى أمر حملة الملك الفرنسي (سنلويس ابن لويس⁽³⁾)، كما يسميه ابن خلدون، بالفشل الذريع. بسبب تفشي مرض الوباء في معسكر الصليبيين وتفاقمه مثل النار في الهشيم جراء الحرارة المرتفعة. فوق العديدين من الأمراء والعساكر الصليبيين فريسة هذا الوباء، وأصيب الملك نفسه به ومات⁽⁴⁾، وصدقته فيه نبوءة الشاعر التونسي أحمد بن إسماعيل الزيات الذي نصح الملك بعدم التفكير في غزو تونس لأنها ستكون فيها نهايته.

(1) ر. برونشفيك: المرجع السابق، ص 90.

(2) مح. 6 ص 128.

أما صاحب الترويض الزاهر في سير الملك الظاهر، فقرر عند قوات الحملة أقل مما ذهب إليه ابن خلدون. "...وكانت عدة خيالة الفرنج مقدار خمسة آلاف فارس تركيلة وجرحيه، مثل ذلك، خارجا عن الشواحي، وكانوا في انتظار منبأ الانكسار" راجع.

عند الظاهر: ترويض الظاهر في سير الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الحويصل، الرياض، 1970، ص 373. (3) كان محققا في هذا الأمر، فقد كان منتظرا فعلا وصول ملك إنكلترا للمشاركة في الحملة، ووصل الأسطول الإنجليزي متأخرا إلى تونس في 10 أكتوبر، أي بعد موت الملك الفرنسي بجواني شهرين، يفوده أمير هنري الثالث ولي العهد. وعندما وجد الفرنسيين قد عدلوا عن الحرب أكمل مسيرته إلى بلاد الشام. للمزيد، راجع:

- ر. برونشفيك، ج1، ص 91.

(3) سنلويس ابن لويس وهي تسمية صحيحة لأن الفرنسيين يلقبونه القديس لويس Saint Louis كما أن أبوه هو لويس الثامن.

(4) مات يوم 25 أوت 1270 م، طلعت روحه وهو يريد اسم: القدس القدس. Ô Jerusalem Ô Jerusalem للمزيد راجع:

- R. Fossier : Le moyen-âge, vol2, p258

R.Pernoud : Les Hommes de la croisade (les soldats de Dieu). Ed Marabout.1989

فتأهب لما إليه تصير

يا فرنسيين هذه أخت مصر

وطواشيك منكر ونكير⁽¹⁾

لك فيها دار ابن لقمان قبر

وأمام هذه المصائب الكبيرة أضطر شارل دي أنجو (شقيق الملك المتوفى)، الذي تأخر عن المجيء إلى تونس بجيشه، ولم يصل إليها إلا بعد وفاة أخيه الملك بيوم⁽²⁾، إلى الجنوح للتفاوض مع التونسيين لإنقاذ ما تبقى من شرف الملكية الفرنسية⁽³⁾. يقول صاحب الروض الزاهر في هذا المقام: "... ولما وهن الفرنج بموت ملوكهم تحدثوا في الصلح على أن صاحب تونس يقدم ما غرموه، ويمدهم بنجدة، ورحلوا عن تونس في خامس صفر⁽⁴⁾".

ولقد أسفر الاتفاق الذي تم إبرامه بتاريخ 30 أكتوبر⁽⁵⁾، على أن يدفع المستنصر غرامة لمجموع المشاركين، كتعويض لما لحقهم من الخسارة، قدرها مائتان وعشر آلاف أوقية ذهباً. (6) "... وبعث (يقصد المستنصر) مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة فتولى عقده واختص جرويه (يقصد شارل دي أنجو) صاحب صقلية بسلم عقده على جزيئته، وأقطع النصارى بأساطيلهم وأصابعهم مدد من

- Dictionnaire de l'histoire du Christianisme, p 946

- Sismondi, M.S: Histoire des republiques Italienne, 12, P 228.

(1) المقرئ: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، منشورات دار الثقافة، دمشق، 1987، ص 300.

نورير اسراج: البحر استسبه في الأخبار استسبه، ص 151.

(2) اختلفت المصادر في تحديد [وصول الأمير شارل، منهم من يقول بعد يومين من وفاة الملك لويس 9، منهم من

يقول بعد يوم. منهم من يقول بعد ساعات، ثمريد، راجع:

- D.O connell; op. cit, p 50.

- ر. برونشفيك، المرجع السابق، ج1، ص 91.

(3) ابن خلدون أرجع قرار الجنوح إلى التفاوض إلى زوجة الملك، (الريفة) يعني La Reine يقول بهذا الصدد:

...وكان أمرهم راجعاً إلى العجبة فראسلت المستنصر أن يسأل لها ما خسروه في مونة حركتهم وترجع حيوئها فأسقطها السلطان لما كان العرب اعترموا على الانصراف إلى مشائهم. مج 6، ص 428-29.

(4) بن عبد الظاهر: المنصر السابق، ص 374.

(5) ر. برونشفيك: المرجع السابق، ج1، ص 93.

(6) برونشفيك، ج1، ص 91.

الريح أشرفوا على العطب، وهلك الكثير منهم، وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من مال فأعطوه طواعية، يقال أنه عشرة أحمال من المال...⁽¹⁾ فيما يذكر ابن القنفذ قيمة ما غرمه السلطان المستنصر للصليبيين ألف قنطار من الفضة. "...ودفع لهم من المال في الصلح ألف قنطار من الفضة."⁽²⁾ فضلا عن السماح للرهبان والقساوسة المسيحيين بالإقامة في المملكة الحفصية، ولهم اتخاذ الكنائس والأديرة، وأن تعطى لهم الأرض الكافية لذلك⁽³⁾.

أما جنوة فقد كسبت الزهانة وفازت على صعيدين: بقاء مواقعها سالمة بشواطئ البسفور والبحر الأسود. من جهة، وحفاظها على علاقاتها الودية مع تونس التي تدعمت بمزيد من الحقوق والامتيازات التي تضمن لرعاياها حرية التنقل والتجارة في الموانئ الحفصية طبقا لما جاء في البند السادس من الاتفاقية.⁽⁴⁾

وهكذا فالحاكم الحفصي (المستنصر) بدلا من أن يغتنم بمهارة فرصة إمراض الفرنج والأهم نحت أسوار قرطاج فيبيدهم عن أحرهم. والمستنصر بدلا من أن يمسر بالتهاجم على جيش الفرنج الذي ذب اليأس فيه بسبب موت الملك النصراني، أمضى معهم معاهدة ضارة عاهد فيها، بلا مقابل، على تقبل السلع الإيطالية والفرنسية غير خاضعة للمكوس. وعلى أن يدع المبشرين المسيحيين ينشطون بكل حرية في بلاده.

وفي الأخير غادر النصراني أرض إفريقية، لم يأخذوا معهم سوى ما خف حمله، وتركوا تسعين (90) منجنيقا⁽⁵⁾ عائدين إلى بلادهم في موكب أشبه ما يكون بجنائزة.

(1) ابن خلدون، مع 6 ص 429.

(2) ابن القنفذ: الفارسية، ص 132.

(2) راجع بنوا المعاهدة باللغة العربية، في الملحق، رقم 5

(4) H.Leo: op-cit, p 736.

(5) ابن خلدون، مع 6، ص 429.

فالأسطول العائد كان يحمل رفات القديس لويس وعددا آخر من أفراد الأسرة المالكة الذين قضوا في تونس خلال هذه الحملة.⁽¹⁾

7- أعمال القرصنة والعدوان البحري الجنوبي على سواحل المغرب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

لم تتوقف مشاريع العدوان الصليبي على ديار الإسلام في بلاد المغرب والمشرق بفشل آخر حملة صليبية منظمة أشرفت عليها المؤسسة الدينية الكاثوليكية في روما (الحملة الصليبية الثامنة) التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع عشر على تونس سنة 1270م، ولا بسقوط آخر معقل للصليبيين في بلاد المشرق، إماره عكا الصليبية سنة 1291م، على يد سلاطين المماليك. بل استمرت مشاريع الصليبيين في استهداف المدن والسواحل الإسلامية، خلال القرنين الأخيرين من العصور الوسطى. غير أن أهداف العدوان الصليبي، خلال هذه المرحلة، تركزت على منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط، وذلك لما كان يدور في حلد منطري الحروب الصليبية من أن التسيطره على منطقة بلاد المغرب الإسلامي وإخضاعها لنفوذ المسيحية، سوف يذل كثيرا من العقبات للوصول بسهولة إلى مصر وبلاد الشام، فمنطقة بلاد المغرب شكلت دائما، الدرع الواقى

(1) من جملة من قضى في العائلة المالكة بسبب هذا الوباء إلى جانب الملك، توفي أخ لويس جان كريستيان كونست نوفير، وابن الملك الصغير جان الحزين Jean-Tristane، وكذلك ممثل البابا، للمزيد:

- ر. برونشيفك، المرجع السابق، ج. 1، ص 90.

- M. Taïbi : Saint Louis à Tunis, op cit, p 74

لم تدفن جثة الملك الفرنسي في تونس، إنما تم نقل هيكله العظمي إلى فرنسا، بعد أن تم نزع اللحم عن العظم، بواسطة خليط ساخن من الماء والخمر على الطريقة المعتادة عندهم، للمزيد:

D.O, connell: op-cit, p 51

للمشرق واليد المساعدة المنجدة لمسلمي الأندلس، ومن ثمة بات يقينا لدى الغرب المسيحي أن الاستيلاء عليها أو تحييدها سوف يفتح الطريق للوصول إلى المشرق.

والجدير بالملاحظة أن الحملات البحرية التي استهدفت بلاد المغرب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي، قد أخذت شكلا مغايرا عن الحملات الصليبية التي سبقتها، من حيث أنه غلب على معظمها طابع القرصنة والعدوان البحري (الصوصية)، كرد فعل عن التذمر والإحباط الذي أصاب مسيحي أوروبا الغربية بسبب فشل الحركة الصليبية التي دعت لها البابوية وساندتها على مدى قرنين من الزمن.⁽¹⁾

ومن الأهمية بمكان التطرق في هذا الصدد، إلى ظاهرتي القرصنة والصوصية *course et piraterie* وتبيان تطورهما كشكل من أشكال العدوان أو الغزو البحري، خلال مرحلة الصراع الذي كان قائما بين العالمين المسيحي والإسلامي. خلال مرحلة العصور الوسطى، وكان دافعها الأول العداء والكراهية بين أبناء العقيدتين المختلفتين.⁽²⁾

(1) هذه قاعدة عامة، فكلما فشلت الحروب الرسمية في تحقيق أهدافها، تنقم دائما عناصر متمردة ترفض الأمر الواقع، وتستغل فترات السلم للانقضاض على مصالح الطرف الآخر للانتقام. للمزيد راجع:

- Marcais, G: "Les villes de la cote Algérienne et la piraterie au moyen age". (AIEQ), 1955. p120-121.
- Loup Durant: Piraterie et barbaresque en méditerranée. Ed. Historia (Paris 1975). p44.

²- Dufourcq, ch: " Chrétiens et Musulmans durant les derniers siècles du Moyen age (Anuario di estudios Medievales)N°10.1980.p120-21
- Salvatore .B : les corsaires en méditerranée. Ed. la porte, (Paris 2000), p 14-15.

ولئن يصعب في الواقع التمييز بين القرصنة واللصوصية⁽¹⁾، من خلال الدوافع والوسائل والأهداف، فكلتا الظاهرتين لها دوافع عدوانية موجهة بالدرجة الأولى ضد عدو معروف، وتستعمل في ذلك وسائل حربية بحرية (سفن حربية) تهدف للاستيلاء على أغراض وممتلكات الغير بهدف الإضرار به. أما أماكن نشاط الممتهنين لهذه الحرفة (الغير شرعية) فهي غالباً ما تكون عند بعض الجزر القريبة من طرق القوافل التجارية، أو ببعض السواحل والخلجان الصخرية. وقد اشتهرت بعض المواقع في حوض المتوسط، كأكبر عشش للقرصنة ولصوص البحر (nids de pirate) على امتداد فترة العصور انوسطى، أشهرها: جزر البليز - جزيرة كورسيكا - صقلية - مالطة - مضيق مسينا - ومضيق جبل طارق⁽²⁾، إضافة إلى بعض المدن والشعور الساحلية لبلاد المغرب، بونة - بجاية - المهدية - وغيرها.⁽³⁾

والملاحظ أن أعمال القرصنة واللصوصية قد أخذت منحى خطيراً من جانب الدول المسيحية الواقعة على الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، وبخاصة

(1) القرصنة La Course نوع من أنواع العدوان البحري، ينشط القائمين بها على علم ومباركة وتأييد الدولة، وينتفون مساعداتها أحياناً، ولا يسمح للقرصنة من الاستفادة من الغنائم المحبوبة إلا بعد عرصه على التهيأت المسنولة في الدولة التي يقعونها وأخذ موافقة منها على ذلك. وهذا التصرف يمكن أن تسميه مجازاً التنازل عن الختمه لعدم نصالح فئة أو عناصر معينة.

- أما اللصوصية (Brigandage, piraterie) فهو عدوان بحري تقوم به عناصر (بحارة) مغامرون يعملون لحسابهم الخاص من دون أن يكون لهم تصريح خاص أو تأييد من جهة ما. وهم ينشرون في كل الأوقات، حتى وإن صادف ذلك فترة سلم، أو أوقات هدنة، أو حتى ضد مصالح دولة لم تكن في خصومة مع أية جهة. راجع للمزيد بهذا الشأن:

- M. Mollat: " Essai d'orientation pour l'étude de la guerre de course et piraterie.
- (XII- XVS). in (Anuario di Estudios Medievales) No 10. 1980 pp (743-750).
- Dictionnaire encyclopédique d'histoire, nouvelle édition, Bordas. 1986, Article: course, - corsaires- piraterie.

(2) M. Mollat: op cit, p744

(3) Ahabab, J : La piraterie en ifriqiya aux trois dernier siècles (XIII-XVs)
mémoire de Maîtrise (centre de recherche d'histoire et civilisation byzantine)
U. Sorbonne I.1997-8, p12

منهم الجنوبيون الذين اكتسبوا تجربة كبيرة وشهرة واسعة في هذا المجال، فلا ننسى أنهم هم أول من بدأ هذا النوع من العدوان ضد المواقع الإسلامية في بعض الجزر والثغور القريبة من البحر التيراني منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي. وحملاتهم المظفرة بعد ذلك، على كل من المهديّة والمريّة وطرطوشة وسبّنة إلا دليل على ما وصلت إليه عزيمة الجنوبيين في ميدان القرصنة والغزو البحري، إلى درجة أن أهالي جنوة اعتادوا استثمار أموالهم في شركات موجهة خصيصاً للقرصنة والغزو البحري. *In cursu super inimicos sancte ecclesie*.⁽¹⁾ وكان بعض المغامرين الجنوبيين المشهورين في هذا الميدان، يحملون لقب القرصني *Corsarius*، و يقومون بأعمالهم على علم وحمائية من السلطات الرسمية في الدولة *acursum facere* أو *piraticam exercere contra sarracenos*. أما الانخراط في هذه المؤسسة الحربية، فكان مفتوحاً لجميع المغامرين من كل الجنسيات،⁽²⁾ الذين اتخذوا من عمليات الاعتداء والسطو على أملاك الغير، من غير تمييز، مهنة نلاستزراق. خاصه منذ أن صارت هذه العمليات العدوانية نصال الجميع، الأعداء والأصدقاء على حد سواء.

⁽¹⁾ Jéhel, G: Les genois, p273.

- كانت هذه الشركات الاستثمارية الموجهة لأعمال القرصنة تحقق لأصحابها فوائد ضخمة تصل نسبتها أحيانا 100% تقسم بين محمّدي السفن *Les armateurs* ، و البحّارة السفينة، و المستثمرين، و غالبا ما تدفع الأرباح المحققة من رانما عينا.

4- S. Bono: op cit, p16.

⁽²⁾ يبدو أن أعمال القرصنة واللصوصية في مقبرة العصور الوسطى، كانت تدر أرباحاً معتبرة على القائمين بها، إلى درجة جلبت اهتمام أصحاب رؤوس الأموال والساعين وراء تحقيق الأرباح. فكان الخواص يساهمون بأموالهم في تمويل عمليات القرصنة، وفق تقليد ظل معمولاً به طيلة فترة العصور الوسطى، فيما كان يعرف *Mius piratarum* أو *usus piratarum* ، حيث كان أصحاب المال يقرضون القراصنة لتغطية مصاريف التجهيز والتسليح، وعند نجاح العملية يقبضون أرباحهم من الغنائم المتحصل عليها ليقوموا بعد ذلك ببيع تلك الغنائم بأرباح مضاعفة .
للمزيد أكثر راجع:

H.Bresc: " La course méditerranéenne au miroir sicilien XII-XVS." in politique et société en sicile. Ed. Variorum. 1991, p99.

وأمام تزايد شكاوى الدول والمواطنين المسيحيين من ظلم هذه العناصر تدخلت البابوية للضغط على قومونة جنوة وحملها على توجيه أعمال هذه العناصر ضد المسلمين فقط، وتجنب النصارى لها. ⁽¹⁾ وقد ذهب إصرار البابوية على هذا الأمر إلى أن هدئت بتطبيق قانون الحرمان على كل من يوجه عدوانا قرصنيا ضد كل من يعتنق الدين المسيحي، ويشمل العقاب كذلك، الجهات التي تقدم الدعم أو الحماية لأولئك المعتدين. ⁽²⁾ وعلى إثر ذلك، لجأت حكومة جنوة، إلى إنشاء مؤسسة مالية قضائية لمعاقبة القراصنة الجنوبيين الذين يثبت تورطهم في أعمال قرصنة ضد المسيحيين، وتتكفل بالتعويض للأشخاص الذين يلحقهم الضرر جراء ذلك العدوان. أخذت هذه المؤسسة إسم *L'officium robarie*. ⁽³⁾ ومنذ ذلك الوقت، صارت هذه المؤسسة تشكل إحدى المرجعيات في مجال التشريع للملاحة البحرية. ⁽⁴⁾

والملاحظ أن شمال إفريقيا بات يعاني من أخطار هذا العدوان القرصني، الذي كان يزداد ويشتد كلما وافق ذلك ضعفا وتدهورا في الأوضاع السياسية ببلاد المغرب. ونشأت القوات الدفاعية النظامية لهذه البلدان جراء الانقسامات والمنازعات. مثل ما حدث خلال القرن الحادي عشر الميلادي، عندما انقسمت بلاد المغرب إلى كيانات صغيرة متخاصمة، عقب خروج الخلافة الفاطمية من بلاد المغرب. وانتقالها إلى مصر. ثم جاء الخطر الأكبر الذي سيضعف قوى المغرب البحرية المتمثل في الغزوة الهلالية الكبرى التي شنت نشاط

(1) شجعت البابوية على التواء الحرب وجميع أنواع العدوان الحربي بما فيه القرصنة واللصوصية ضد المسلمين، واعتبرتها عملا شرعيا لمحاربة ما كانت تسميه الكفرة الفجرة *pagani*. لمزيد:

- Jamer, M. Pawell: the Muslim under Latin rule (1100-1300). Princeton university press 1990 p199.

- أليكسي جورافسكي : الإسلام والمسيحية، مترجم (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 1996، ص74.

(2) Jehel, G. la méditerranée médiévale, p125.

(3) راجع الملحق، رقم 11

(4) Jehel, G : l'Italie et le Maghreb, p77.

المغرب كله، وأشاعت في أنحاءه الفوضى والخراب. (1) ففي أثناء هذه الظروف تكالبت قوى الغرب المسيحي على سواحل بلاد المغرب بالغارات تارة، والعدوان وأعمال القرصنة تارة أخرى. ولما لم تجد دويلات المغرب الضعيفة من وسيلة لرد العدوان لجأت إلى وسيلة القرصنة والغزو البحري الخاطف للأخذ بالثأر. ولقد أشار الجغرافي البكري، الذي كان شاهداً عياناً على هذه المرحلة، إلى عدوان القراصنة الغربيين على إحدى الموانئ الساحلية المغاربية (مرسى الخزر) وكيف كان أهالي هذا الشغل ينهضون لرد العدوان: "... وفي هذه المنيعة (مرسى الخزر) تتشأ السفن والمراكب الحربية التي تغزو بها بلاد الروم، وإلى هذه المدينة يقصد الغزاة من كل أفق لأن مقصعها يقترب من جزيرة سردينيا". (2)

ثم تكررت الأوضاع نفسها في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الميلادي. لما تعرضت هذه البلاد ثانية إلى الانهيار والضعف والتشتت عقب سقوط الخلافة الموحدية، حيث وجدت الدويلات التي قامت على أنقاض الدولة الموحدية نفسها، مرة أخرى، عاجزة على التمسك بحملات انصليبية وعسكرية القراصنة التي تستهدف أكثر من مرة، سواحل المغرب. فما كان من سكان بعض المدن الساحلية إلى أن نهضوا مرة أخرى، يشكلون الجمعيات المكلفة بتجهيز السفن الخفيفة للإغارة على الأساطيل التجارية الإيطالية أثناء سفراتها بين شرق المتوسط وغربه، ونهب ما تحمله من بضائع وأموال. كما كانت تقوم، أحياناً، بغارات خاضعة على بعض الموانئ والسواحل الإفريقية التي تتعدى بها الحاميات، فكانت تنهب وتسبي وتعود.

(1) حسين مؤنس: أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مرجع سابق.

ص 118-119.

(2) كتاب المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ص 55.

ولقد اشتهرت مدينة بجاية بالخصوص كأكبر مركز لغزاة البحر المغاربة هؤلاء. وابن خلدون الذي عاصر هذه الأحداث يقدم صورة شاملة عن طبيعة نشاطهم: "...ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بإفرنسة، وافتزقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والنبادقة، وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولاً متعددة. فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم. وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجمع النفرء والطائفة من غزاة البحر ويصنعون الأسطول، ويتخيرون له الأبطال الرجال ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجرائريهم على حين غفلة فينخطفون منهم ما فدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيضفرون بها غالباً، ويعودون بغير غنى والسبي والأسرى حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم.. تضح طررق البلد بصخب السلاسل والاضلال عثما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه أو يكاد. فشق ذلك على أمم الفرنجة وملا قلوبهم ذلاً وحسرة وعجزوا عن التنازله، وصرخوا عن اتبعه ياشكوى إلى السيفر بإفرنجة قصص عن سماعه ونظيره دون يستلهم وتكلمهم فيما بينهم وتذاعوا لنزال المسلمين والأخذ بالثأر منهم (1)

والئن سجل المسلمون المغاربة حضورهم البارز حسب هذه الشهادات، فهي مجسلة أعمال القرصنة واللصوصية التي كانت مبه وسواحل غرب الأطلس الأبييض المتوسطية مسرحاً لها، إبان المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى، فليس معنى هذا أنهم كانوا هم أكثر من مارس هذا السلوك، بل على العكس من ذلك، فإن أعمال القرصنة التي نسبت للجهات المسيحية، خلال هذه الفترة، تفوق بكثير أعمال المسلمين، ويكفي أن نتصفح بعض المصادر اللاتينية التي تؤرخ لهذه الفترة لتتأكد من مدى انخراط المسيحيين بجميع

(1) العبر مج 6، ص 578- راجع كذلك، ما كتبه مؤرخ آخر عاصر هذه الأحداث قبل ابن خلدون وهو صاحب كتاب: عنوانه الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية يقول: "...وذلك ان بجاية كانت بلدة عزاء، وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسبون السبي الكثير منها....".
- أنغريني: تحقيق عادل بويهضي، بيروت، ط2، 1979، ص 45.

فإناتهم في هذا المسعى، وما دفع بهم إلى المزيد من الإصرار والتحريض، فتاوى البابوية التي كانت تمجد مثل هذه الأعمال الحربية الموجهة ضد المسلمين، وتمنح الساعين فيها الصفح والغفران.⁽¹⁾

ولقد تطرق المؤرخ الفرنسي دي ماس لاتري De mas latrie المتحضر في تاريخ العلاقات بين المغاربة ومسيحي أوروبا الغربية، وهو واحد من أشهر الباحثين الأوروبيين الذين يشهد لهم بالإتصاف والموضوعية، إلى ظاهرة أعمال القرصنة والعدوان البحري التي كان يمارسها المسلمون والمسيحيون، على حد سواء، بالبحر المتوسط الشرقي للمتوسط خلال مرحلته العصور الوسطى المتأخرة، (من ق 11 إلى ق 15)، قائلا: "...إنه إذا ما حاولنا البحث عن مارس القرصنة أكثر من الآخر، الجانب الإسلامي أم الجانب المسيحي فإنه يتبين لنا عند إحصاء العمليات التي كان البحر الأبيض المتوسط مسرحاً لها ما بين القرنين 11 و16، أن مسؤولية الجانب المسيحي في هذا المضمحل أكبر بكثير من مسؤوليته أنصرف الإسلامي. وبرغم ذلك، فقد شعرت أقد هذه المسؤولية كاملة ودون تمحيص على المسلمين".⁽²⁾

ولقد استمرت غارات القراصنة المسيحيين على المشرق والشعوب المغربية بلا انقطاع حتى في فترات سريان معاهدة السلم المبرمة مع حكومات دول المغرب.⁽³⁾ ولكن عتيا ما وجدت المقاومة الإسلامية نفسها عجرة تماماً عن صد هذه الهجمات التي كانت وراءها جهات مسيحية متعددة (قطلونيون أرغونيون جنويون صقليون بيزنطيون فرنسيون) وغيرهم.⁽⁴⁾ واضطرت سلطات الدويلات المغربية، في بعض الأحيان، إلى تبني سياسة

(1) Norman Daniel: the Arabs and medieval Europe, p148.

(2) De mas latrie : Relations et commerce, p408-411.

(3) Alauddin samarraï: "medieval commerce and diplomacy. Islam and Europe. 850-1300". In (Canadian Journal of history) vol XV, 1980, P16

(4) Dufourcq, ch. E: L'Espagne catalane et le Maghreb, p385.

المهادنة، مثل ما جرت به الأحداث في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، عندما هاجم مواطنون بيزيون ميناء حلق الواد التونسية واعتدوا على السفن الراسية فيه، فنهبوا وأسروا بعض من فيها، ومع ذلك، لم يتحرك حاكم تونس للأخذ بالثأر، أو المطالبة بالتعويض من جاليات البيازنة التي كانت موجودة بالديار التونسية زمن الحادثة. بل أظهر عفوا وتسامحا تجاه هذه الجاليات، وطمأنهم في خطاب وجهه إليهم بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أو كما جاء في نص الخطاب: "...إن السلطان يتأسف لما لحق بالبلد من وراء عدوان البيازنة، وهو لا يحملكم بجزيرة ما اقترفه القراصنة، ونطمئنكم أنه متى فضتم ديارنا للتجارة فسوف تجدون كل انصافه والأمان".⁽¹⁾

إضافة إلى هذا، فإن السواحل المغربية كثيرا ما كانت مسرحا للصراعات بين فراسنة المدن البحرية الإيطالية المتاخمة، وبخاصة الجنوبية والبيازنة. مثل ما حدث سنة 1285 م عندما اعتدى ربان السفن الجنوبية على سفن بيزية كانت راسية في ميناء تونس، واستولوا على ثلاثة منها، وقاموا بصراخ النار في السفينة الرابعة.⁽²⁾ ثم تكررت العملية في السنة الموالية، عندما قام البحارة الذين يعملون لحساب رجبيل الاعمال الجنوبي (أشوا زكريا Benoit Zaccaria) بمطاردة فراسنة بيزيون في ميناء الحوض الغربي المتوسط، وأمكنهم الحال من الاستيلاء على سفن بيزية لاذت بالفرار إلى إحدى السواحل التونسية من دون مراعاة لحرمه الديار الإسلامية.⁽³⁾

كما شهدت هذه الفترة كذلك، نشاط القرصنة الصقلية التي اتخذت من محاز Messina الحيوي وكرا لانطلاق عملياتها العدوانية، وبخاصة على السفن والموانئ الحفصية، لقرب هذه الموانئ من جزيرية صقلية، وكانت الخلافات السياسية الحادة بين حكام صقلية وولادة بني حفص وراء دفع القراصنة ونشجيعهم بالتمضي في أعمالهم

⁽¹⁾ S.Bono: op cit. p16.

⁽²⁾ Annali Genovesi,TV p62-66.

⁽³⁾ Annali Genovesi,TV,p72-73.

العدوانية ضد مصالح الدولة الحفصية، إلى أن تطورت وأخذت بعدا حرييا بدعم ومباركة المؤسسة البابوية.⁽¹⁾

وإلى هذا العهد، ترجع مبادرة الأميرال روجي دي لوريا Rogeo di loria السذي قاد أسطولا بحريا سنة 1284م استولى به على جزيرة جربة التونسية وما جاورها من ثغور⁽²⁾، ثم من مواقع المحصنة في جربة، راج دي لوريا يشن الغارات الخاطفة على سواحل إفريقية المجاورة، على المهدية و سوسة و مرسى الخزر وغيرها، بحرق ويهزم ويسبي، وتضرر أهالي البلاد الساحلية كثيرا من أعمال هؤلاء القراصنة . وفي سنة 1295م تدخلت المؤسسة البابوية لتتصفي الشرعية على أعمال دي لوريا، عندما اصبر البابا بونيفاس الثامن Benoit VIII مرسوما بابويا منح بموجبيه هذا الأمير حق التصرف في جزيرة جربة التونسية ومعها جزر إفريقية المجاورة كإقطاع خسانين له وبصورة وراثية، مقابل دفع إتاوة سنوية للبابا قدرها خمسون أوقية من الذهب.⁽³⁾ ونجح روجي دي لوريا في إخضاع الجزيرة استبداده وبقي فيها حصن كبيرا (حصن القشتالي) ليسوا في جيبها⁽⁴⁾، وبقيت بحوزته مدة طويلة، إلى أن تم تحريرها عقب ثورة شعبية استعادت في

(1) منشأ الخلاف بين حكم صقلية وإسبانيا الحفصيين خلال هذه الفترة، يعود إلى التمرية التي كتبها على حكم تونس أن يدعوها سنويا لحكم صقلية، وقد فر صاب على حكم إفريقية منذ عهد ملك الأمير الموريسكو راجي الثاني Roger II، سنة 1154م. حكم إفريقية نفسه بعد دفع هذه التمرية لفترة سبب الخلاف بين كلب مناجته في صقلية بين البيت الأنجوي الفرنسي، والعرش الأراغوني الإسباني، للمزيد، راجع:

- برونشفيك، ج. 1، ص 154، - ش. جوليل: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 11، ص 170.

(2) عندما استولى ملك أراغونة بيدرو الثالث Pedrol III على جزيرة صقلية وانتزعها من أيدي شارل دي أنجو عقب ثورة عيد الفصح vèpres siciliennes (1282-1284م) أراد أن يحلق السطيل الحفصي الذي رفض مبايعته أثناء الحرب ضد الفرنسيين، فأمر قائد بحريته روجي دي لوريا بأن يجهز أسطولا للاستيلاء على جربة، نحت ذريعة أن هذه الجزيرة كانت توالي عرش النورنشتاون، وهم أحوال الملك بيدرو، قيل أن يقضي على عرشه شارل دي أنجو. للمزيد، راجع: Amari. M: Storia, T3, p. 638-646

(3) Amari. M. Storia, di musulmani T3, p644. & - De mas latrie. traités, 157.

(4) Mas Latrie: Relations, 157.

- تحدث العبدري عن حصن القشتال أثناء رحلته. راجع: العبدري: الرحلة المغربية، مصدر سابق، ص. 37-38.

الجزيرة بتحريض من السلطان الحفصي أبي بكر الثاني (1309-1312م)، بعدما عجز ورثة دي لوريا من إحكام قبضتهم عليها. ⁽¹⁾

(8) - مشاريع الصليبيين لغزو بلاد المغرب ودور الجنوبية فيها.

كان لنجاح الحملة الصليبية التي قادها المغامر روجي دي لوريا على جزيرة جربة سنة 1284م، دافعا قويا لجماعة دعاة الحرب من أهل الغرب لتشديد الخناق على مسلمي بلاد المغرب والأندلس، وملاحقتهم في كامل النصف الغربي، ككتوبيض الفشل الذي أحبط بالتمسرع الصليبي في المشرق. ⁽²⁾ وقد ترعّم هذه الحركة الدعاوية مجموعة من أقطاب الشريعة المسيحية، يأتي في مقدمتهم الداعية الإسباني الفرنسيكاني المتعصب ريموند أول Raymond de lull (1232-1316م) الذي تجرأ على السفر إلى بعض القواعد الإسلامية لنشر الدعاية التنصيرية بين المسلمين، كما نعد الإساءة إلى النبي محمد (ص) في أكثر من مرة. ⁽³⁾ وقد دفع به استعصاب تعقيباته المسيحية بأن قدم مسترود صليبي إلى مجمع فيينا المنعقد (1311-1312م) دعى فيه إلى توجيه حملة صليبية يستارك فيها جميع الهيئات والمنظمات النصرانية: داوية، واسبنارية، وتوتون، وكل فرسان دول اللينصرانية المتطوعين تحت قيادة ملك أوربي، تقوم كلها بالهجوم على ديار الإسلام بدءا من بلاد الأندلس، حيث مازالت فيه بعض أنجيوب خاضعة للمسلمين، ليضطروهم منها ثم يعرجون، بعد ذلك، على مضق جبل طارق إلى بلاد شمال إفريقيا لمحاربة البربر المسلمين

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد6، عدد9، ص326. مادة جربة

- برونشفيك، المرجع السابق، ج1، ص189.

(2) A.Dumurget. Croisades et croisés au moyen âge. Ed. Flammarion. p289-290.

(3) ميغال دي أيلالزا: بين التعصب والإسلامية، أو الإسلام من خلال بعض الشخصيات في العالم الإسلامي. (الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، بجاية)، ج III، مطبعة البعث، قسنطينة، 1976، ص 1046-1047.

- أليسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، مترجم، ص 87-88.

- Norman Daniel: op cit, p 225-226.

وإذعانهم لقبول المسيحية كديانة واحدة لهم، ومن بلاد المغرب تسير، بعد ذلك، جيوش الصليبيين باتجاه مصر لتطويقها هي الأخرى، وعندما يتحقق هذا الأمر، فسوف يسهل، بعد ذلك، استرجاع بيت المقدس وكل الأراضي المقدسة في فلسطين De recuperatione terrarum sanctae⁽¹⁾.

ثم برز في نفس الفترة، داعية ثان اسمه بوكهارد Burchard. كان عاش لفترة طويلة في الشرق الأدنى بيشتر بالمسيحية، والمم وفتذاك، أن يرى فتور حماس المسيحيين لدعم ومساندة الحروب الصليبية، واعتبر ذلك راجعا إلى ضعف الإيمان، وتراجع الدعاية للحرب الصليبية، فصلا عن عدم أكثرات البابوية وحكام الممالك الأوروبية لهذا الأمر، ومنذ ذلك الوقت، اخذ على عاتقه الدعوة إلى إحياء الدعاية لمعاداة المسلمين، والتخصيص لمحاربتهم فقدم تقريرا Directorium بهذا الغرض أملك فرنسا فاوب أن يادس دي فستافا Philippe VI de valois ضمنه مشروع حملة صليبية ضد المسلمين، تكبر وجهته إلى عن طريق سمات إفريقية، أو طريق القسطنطينية⁽²⁾.

أما ثالث الدعاة المسيحيين المنظرين للحرب الصليبية ضد المسلمين خلال هذه الفترة (نهاية القرن 14م - مطلع القرن 15م) فهو الفرنسي فيليب دي ميزيرس phillipe de mezieres (1326-1405م) الذي أعد هو الآخر مشروع صليبي لغزو السلا، الإسلامي، فم فيه النصح للصليبيين بأن يأخذوا صرق مختلفة لتسب كل أمم، على أن تكون البداية من الأندلس لغزو إمارة غرناطة، وتطهير الديار الإسبانية من الوجود الإسلامي نهائيا، ثم ينتقل بعدها الصليبيون إلى بلاد المغرب⁽³⁾ وقد لقيت هذه المشاريع صدى إيجابي واستجابة فورية من قبل بعض المتحمسين وفي مقدمتهم أهالي مدينة جنوة

⁽¹⁾ Encyclopedia universalis. (Article. Croisade) p 278.

- Atya. AS. the crusade in the latter middle ages, p 74-75.

⁽²⁾ Atya. AS: op cit, p97.

⁽³⁾ عاشور، م: المرجع السابق، ج 2، ص 981.

الإيطالية الذين شنوا، مع نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، عدة حملات صليبية استهدفت عديد المدن الإفريقية، كما لى البرتغاليون دعاوي أصحاب المشروع الصليبي ونهضوا بشنون الغارات على السواحل المغربية التي كللت بالاستيلاء على مدينتي سبتة 1415م ، ثم طنجة 1463م وتمكنت من وقفها من بسط نفوذها الكامل على مصيف جبل طارق⁽¹⁾

(9) - حملة جنوة على طرابلس الغرب سنة 1354م - 755. 756هـ

أثرت مشاريع الدعاية لنش حرب صليبية ضد مسلمي الأندلس وشمالي إفريقيا التي أطلقتها جهات نافذة في أوروبا المسيحية، خلال القرون الأخيرة من العصور الوسطى، على قيام عدة محاولات جريئة كان وراءها الجنويون، تأتي في مقدمتها حملتهم المضفرة على طرابلس الغرب سنة 1354- 755هـ.

وتعود أسباب التوقيت لهذه الحملة الميمنة التي ظروف الفوضى والفتن والاضطرابات التي عصفت بوحدة السلطنة الحفصية وما اجر عليها من فتور وانقسام في علاقاتها التبعية، والتواء بين بعض الثمنين الكبار وبين السلطة المركزية في تونس،⁽²⁾ كما تساهم به الأحداث خلال هذه الفترة، مع مئنة صرابلس الغرب، عاصمة السلطنة الحفصية، بما ثبت، على ما يبدو، ظروف انهزام الحفصيين أمام جيوش السلطان المريني أبي الحسن (1352-1357م)، فأخذته العزة بالنفس عندما رأى ضعف الحفصيين وعدم قدرتهم على فرض الولاء والطاعة على المدن والمقاطعات، فقام يتصرف كأنه الحاكم الأوحد لمدينتيه صرابلس، ويتطلع لأن يبنى لنفسه مجدا وسلطانا بعيدا عن أية تبعية،⁽³⁾ لكن من دون أن

(1) السلاوي: الاستقصاء، ج2، ص159.

(2) لورد ابن الوردي صورة سيئة عن الأوضاع الداخلية للدولة الحفصية جراء ما كانت تتعرض له من حروب وقلق. "... حتى ضعف حالها وانقطع الأمن بها، خصوصا في سنوات 717هـ - 721هـ = (1319م - 1321م) .. ولعمري لقد صارت مملكة إفريقية مملكة يهرب منها لضعفها باستيلاء العرب". تاريخ ابن الوردي ج2، ص 275
(3) أو كما قال ابن خلدون: "...منقطعا عن الحضرة مقيما رسم الدعوة". - مع6، ص536.

- Mercier, E: Histoire de l'établissement des Arabes, p282.

يقرأ حسابا لما ستأتي به الأيام المقبلة. وكان حري بهذا الحاكم المغرور أن يدعم طموحاته الكبيرة بشيء من القوة ورباط الخيل ليرهب بهما الأعداء المتربصين. فهو لم ينتبه إلى أن مدينته (طرابلس) كبيرة وغنية، وبها نشاط تجاري رائج لموقعها على الطريق التجاري الهام الذي يربط بين بلدان المغرب ومصر.⁽¹⁾ وهي، إلى جانب ذلك، قريبة جدا من جزيرتي مالطة وصقلية، وهما قاعدتين مشهورتين للقرصنة، مما يجعلها في دائرة الخطر، خصوصا وأنه في هذه الفترة انتشرت أعمال القرصنة، واللموصية في عرض مياه البحر الأبيض المتوسط بشكل كبير. وكان أن تعرضت مدينة طرابلس في 15 قبل انغزو النورماندي من صقلية، بسبب تلك الميزات التي تفردها بها، ولما سارع في أن تتكرر التجربة نفسها مع غزاة جدد، يطعمون في خيراتها. فلقد كان النصراني كثيرا ما يحدوهم أنفسهم بمكافئها،⁽²⁾ وهذا ما حصل بالفعل سنة 1354م-755هـ عندما انقضت عليهم معاصر جنوي بسطوا له الحربي.

كان هذا المعاصر الجنوي قرصانا مشهورا اسمه فيليب دوريا (Philippe doria) أسندوا له حربيًا متكونا من خمسة عشر سفينة حربية⁽³⁾، يجوب به مياه المتوسط، ويمسكوا أعمال القرصنة واللموصية لحساب مدينته.⁽⁴⁾ ويبدو أنه كان مارا بالجوار عندما انقضت

(1) لقد أثبت، منذ القرن الحادي عشر الميلادي، العالم الجغرافي الإفرنجي تاهيس مدينة طرابلس التجارية.

طرابلس سفينة الأسواق... يجهز بها إلى كثير من الجهات.

- المغرب العربي في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر محمد صالح صادق، ص 182.

(2) ابن خلدون: ج 4، ص 535.

(3) بروثيفيك: ج 1، ص 203.

- المؤرخ De Mas latrie قال أن أسطول دوريا كان يتكون من سبعة (07) سفن فقط. راجع:

De Mas latrie : relations, p 385.

4 فيليب دوريا الذي يحمل لقب أميرال كان، على ما يبدو، أحد أبناء إحدى العائلات الأرستقراطية الحاكمة في مدينة

جنوة، ولقد تم إبعاده عن نوايب السلطة بسبب الخلافات بين تلك العائلات، فاختار منذ سنة 1323 الانصراف، بم

معه من حاشية وأتباع (مرتقة) إلى امتهان القرصنة كوسيلة للاسترزاق، فوجه عدة غارات على جزيرة قبرص. ثم

لما علم بتعمد حاكم طرابلس الضعيف على السلطة المركزية في تونس وإعلان انفصاله عنها، تجهز لأخذ مدينته

طرابلس لعلمه بقلّة إمكانياتها، للمزيد راجع:

- Sismondi : op. cit., T3, p 322-323. /- H Leo: op cit, p 748-751

إلى مسامحة أخبار ما جرى في مدينة طرابلس، ولأنه يعلم بضعف ولائها لسابق عهده بالتعامل معهم في ميدان التجارة، لذلك فإنه لما أيقن من انقطاع ولائها مع الدولة الحفصية الأم، وضعف حاكمها ثابت بن محمد وعدم وجود قوة مهابة تواليه وتجنده وقت الشدة، فقد عزم على أخذها، وانفض عليها يوم 10 ربيع الثاني 756 هـ - 21 أبريل 1355م. وسرعان ما تمكن من الاستيلاء عليها باستعمال أساليب الحيلة والغدر، بعد ما أوهم أهلها بأنه إنما جاء للتجارة. يروي الوزير السراج عن الكيفية التي دخل بها إلى المدينة: "... وكان دخلها على أسلوب المنحصر، وفي الليل وضجوا السيلان واستعدوا إليها...⁽¹⁾ وأخضعوها لعملية نهب منظمه ومتمرة. كما يؤكد من جهته ابن خلدون السدي توقف مطولا عند هذه الغزوة: "... وكان تجار جنوة يترددون إليها فاطلعوا على عوراتهم وانتمروا في عزوها وتحذروا لمرسأها فوافوه سبعة خمسين وخمسين (و سبعة مائة) وانتمشروا بلبك في حاجتهم، ثم بيتوها ثلث ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها على حين غرة... واستباحوها انصمري، واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الفرس والتمشوخ والتغافل والأسرى والضعف بها...⁽²⁾ وقد بلغ قيمة ما أخذه الجنوبية من غنائم من مدينة طرابلس، حسب الحساب المصنف اللاتينية، 180,000 فلوري، إلى جانب سبعة آلاف أسير.⁽³⁾

لم يرض مواطنو جنوة في المتروبول، على ما يبدو، بهذا العمل العدواني الذي قام به قراصنة فيليبو دوريا، وبخاصة التجسس واصحاب السفن والتمشكات التجريبية،

(1) الوزير السراج: الحل السندسية في الأخبار التونسية، ج 11، ص 177.

- نفس الأسلوب الذي استعمله الجنوبية في الاستيلاء على مدينة طرابلس، كان استعمله من قبل النورماند لما ملكوها سنة 541 هـ. "... سئل على الفرنج امتلاكها، فأبى أهل طرابلس كأنه اقل، صول الفرنج بأدم سفرة قد اختفوا (...). فانتبه الفرنج القرصة، ونصبوا السلام وصعدوا على السور، وملكوا المدينة، فسفكوا نساء أهلها وسبوا نسائهم ونهبوا أموالهم." راجع:

- النويري: نهاية العرب في فنون الألب، ج 24، ص 246.

(2) ص 6، ص 536.

(3) Sismondi, op. cit., T3, p 324.

- Jehel, G: l'Italie, p82.

واعتبروه تصرفاً مشيناً يضر بمصالحهم الاقتصادية وعلاقاتهم الودية مع بلدان المغرب. ومن ثمة راحوا يضغطون على حكومتهم لكي تتبرأ من الأميرال دوريسا وجماعته. وبالفعل عابت عليه القومونة كونه تصرف، هذه المرة، بمحض إرادته دون الرجوع لأخذ الأمر من سلطات القومونة، وأم يوافقوا على عمله، مما أوقعه في حرج كبير أمام أتباعه، الذين ارتبكوا بعد أن تخلت عنهم دولتهم. ⁽¹⁾ وخافوا من أن يقوم المسلمون بعمليات انتقامية ضدهم في الموانئ المغربية الأخرى، لذلك رأى الأميرال دوريسا Doria كضلع الخروج من هذه الورطة التي وضع نفسه فيها، أنه من الحكمة الإسراع بالانسحاب من المدينة، وتسليمها بمقابل لمن يريد اقتادها من بين الولاة والأمراء الطامعين. وفي الأخير سلمها إلى أبي العباس بن مكي، صاحب قابس، مقابل خمسين ألفاً من الذهب العسقي. ⁽²⁾ وقد تحمل السلطان المريني أبي عنان قسماً من أموال هذه المدينة، فيما شدد القسطنطين الآخر أهالي الجنوب التونسي. ⁽³⁾

واقف كلف هذا التصرف الطائش، بالفعل، تجار جنوة ضمانة كبيرة فسي يسواقهم والتصميم بمدينة طرابلس، على إثر ذلك. ⁽⁴⁾ حيث تمسك عليهم أهالي طرابلس، ولم يرد يثقون بهم على الإطلاق. أما الرابح الأكبر، من وراء هذه العملية العدوانية، فكان البنداقية الذين فتحت أمامهم كل السبل للعمل والإقامة في مدينة طرابلس، وعقدت معهم الصفقات المربحة. ولا أدل على تمييز الجالية البندقية في طرابلس الغرب، خلال هذه الفترة، إن

⁽¹⁾ ابن خلدون: مج 6، ص 536.

⁽²⁾ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج 2، ص 64.

- Sismondi, op cit., p324.

- De mas latrie: Traites T1, p224-5

⁽³⁾ بروتشيك، ج 1، ص 204.

⁽⁴⁾ أشارت بعض المصادر الإيطالية أن حكومة جنوة أصدرت حكماً غايياً بالسجن المؤبد Bannissement

perpetuel على الأمير دوريسا Doria بسبب ما أقدم عليه من دون مشورتها، لكن عندما خرج من المدينة وسماها لأمير جربة ألغت القومونة حكم السجن المؤبد واستبدلته بعقوبة مخففة تجبر فيليب دوريسا على أن يقوم بالحرب مجاناً ضد ملك أرغوة لمدة ثلاثة شهور. للمزيد:

- Sismondi, op cit, T3, p 324.

سلطات المدينة منحهم سنة 1356م امتيازاً خاصاً يوفر لهم استغلال محاجر الملح مقابل رسوم مخففة. مع الموافقة بإقامة تمثيلية قنصلية وفندق لإيواء جالياتها، كما منحوا البنادقة، فوق ذلك كله، حق سك العملة الذهبية والفضية بالمدينة.⁽¹⁾ أما جمهورية جنوة فقد خسرت، تقريبا، جل أمنيائها بالتمدية.

(10) -- جنوة والعملة الصليبية على جزيرة جربة (1388-1389م/791-792م)

كما أشرنا سابقا، فإنه إما تفككت أو أصغر الوحدة بين أقاليم المغرب الإسلامي، ووقع الجفاء والاختلاف بين حكامها، واقتسمت أقطارها الطوائف، تألب أهل الغرب عاليا، من الأسبان والإيطاليين والصقليين والفرنجة، فقاموا بناصرها العداء، بالغزو تسارة، والاحتلال تارة أخرى.⁽²⁾ وقد اضطرر سكان بعض الشواطئ الساحلية السكونية من كبريت هجمات القراصنة المسيحيين، ولم يجدوا من وسيلة لاجتناب أذاهم، لجؤوا إلى السرد بالمثل، بأن أخذوا يحجرون السفن النخفية ويغرون بها على حين غفلة مسواحل الفرنجة وجزرهم، واشتهرت مدينة بجاية، بالخصوص، كوكز لغزاة البحر هؤلاء.⁽³⁾

(1) ذكر ماس لاتري Maslatrie أن مواطنين أصلهم من مدينة Mamsi مامسي كل من قصر الزمير، م الذي توسط بين سفراء البندقية وأمير طرابلس. وقد أفضى اللقاء إلى عقد اتفاقية هامة بين الطرفين بتاريخ 9 جوان 1356، تحسنت البندقية ساجدا على امتيازات كبرى. راجع.

- De Mas latrie: traites, p26

راجع أيضا:

- Jehel, G: L'Italie, p83.

(2) Archibald, L et T.J. Runyau: European naval and maritime history 300-1500, p78.

(3) وقد بقي أهل بجاية محافظين على تقاليد العرو البحري والقرصنة حتى القرن السادس عشر الميلادي، بحسب شهادة أحد المعاصرين، الحسن الوزان (أو ليون الإفريقي)، الذي عاش وكتب خلال القرن السادس عشر، كتب يصف بجاية وأهلها... وكان أهل بجاية على قدر عظيم من الغنى، يسلحون العديد من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا، ومن ثم كان سقوط المدينة وإرسال الكونت بيير نافارو لاحتلالها. من كتاب وصف إفريقية، ج II، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص50.

- Marengo, E: Genoa e Tunisi, 1388-1515, p 24

واقد خلفت تلك العمليات الثأرية التي كان يقوم بها المغاربة، بين الحسين والأخير، على الثغور المسيحية القريبة، تآمرا شديدا بين سكان الجزر والمدن الساحلية الأوربية، غير أن خلافاتهم السياسية حالت دون توحيد صفوفهم للقيام بعمل عسكري مشترك كما جرت به العادة من قبل. ولكن أمالي الجنوبية الذين اعتادوا ممارسته أعمال الفرسنة البحرية من دون وازع ولا رادع، منذ زمن بعيد، تكفلوا وحدهم بهذه المهمة الانتقامية، وتمرعوا في الذهنية القيام بحملة على السواحل الإفريقية. وزادهم تحملا وإصرارا رئيس السلطان الحفصي أبي العباس استغياي السعوي Federico Leccavelo الذي أرسلته القوسية للتفاوض بشأن إطلاق سراح الأسرى التندويين المحتجزين لدى بعض المواطنين المغاربة. (1)

وهكذا بدأت قومونه جنوة تنهيا لإرسال حملة صليبية ضد الدولة الحفصية، وسعت في سبيل أن تضمن لها حضور النجاح، إلى تكثيف الاتصال بعدة جهات لحثها على الانضمام إلى استمر وح. وجاءت الموافقة، على الفور، من مدينة المرسى والإمارات الإيطالية. مستندة جمهورية البندقية التي انماضت قبل خروج الحملة بوضع راس، بعد أن كانت وعدت من قبل بأن تساهم في الحملة بعدد خمس سفن كبيرة. (2) cinq galères. وسبب تراجع حكومة البندقية، في آخر لحظة عن وعداها، يعود إلى رفض مواطنيها العمل جنباً إلى جنب مع من يعتبرونهم أعداءهم الألداء، الجنوبيون. واستيقنت لأجل تأكيد موقفها الرافض في المشاركة في الحملة المبيتة إلى إيفاد، على أفراد، سفارة إلى تونس للتشاور مع السلطات الحفصية حول كيفية افتداء رعاياها بالطرق الودية. (3) ومن المحتمل، أنها أطلعت سلطات تونس على المؤامرة التي كانت تعد لها جنوة مع حلفائها.

(1) B. Doumerg: Venise et l'Emirat hafsides de Tunis, ed. l'harmattan, 1999.p28.

(2) De Mas latrie: traites, p 129.

(3) نونشفاك، ج، ص 229.

Marengo.E: op. cit., p24

أما جمهورية بيزة التي لم تكن وقتها على قدر كبير من القوة والثقل⁽¹⁾، فقد قبلت بالمشاركة في الحملة وساهمت بخمس سفن حربية، أوكلت قيادتها إلى أحد نبلاء المدينة فرانسوا أورلاندي Francoiois orlandi.⁽²⁾ كما لبّت مملكة صقلية، التي كانت تحتل عرشها، وقتذاك، الملكة الشابة مارية Maria حفيدة ملك أرغونة بيدرو الرابع Pedro IV طلب جنوة بالانضمام إلى الحلف الصليبي، ووعدت بتقديم مساعدات الحملة.⁽³⁾ هذا فيما أبدى أحد أمراء عرش مملكة صقلية استعداده للمشاركة في الحملة وهو الأمير مانفريدو دي كلارمون Manfredo di chiara mente الذي تطوع بتجهيز ثلاثة سفن حربية على نفقته الخاصة،⁽⁴⁾ ليصل بذلك إجمالي عدد وحدات الأسطول المجهز لهذه الحملة عشرين سفينة حربية، اختيرت بقيادته الأمير الارجنتوني رافاييلو أدرنو Raphaele Aderno، شقيق النوح شخصياً.⁽⁵⁾

وعندما اكتملت جميع الاستعدادات، خرج أسطول الحلفاء من ميناء طراباني Tarapani في صقلية في شهر جويلية 1388م / 791هـ، متجهاً صوب جزيرة جربة الواقعة عند خليج قيس، ويمكن من الاستيلاء عليها من دون صعوبة، ليشرع بعد ذلك المنتصرون في نهبها وتخريبها.⁽⁶⁾

- Jehel, G: l'Italie, p90

(2) برونشفيك، ج.أ، ص229.

(3) لم تكتف المصادر اللاتينية عن نوع المساعدات التي وعدهت مملكة صقلية بتقديمها، ويعتبر النص بها التمتع بالدرجة الأولى على المون وبعض الرجال المقاتلين.

(4) De mas latine: relations, p417.

(5) Marengo, E: op cit, p24

(6) Arya, S: The crusade, p 398/-

- Jehel, G: l'Italie, p90.

- عاشور، س: الحركة الصليبية، ج II، 982.

وأما كان من الصعوبة بمكان، على الأطراف المشاركة في الحملة البقاء بالجزيرة الصغيرة واقتسام أجزائها فيما بينهم، من دون أن يؤدي ذلك إلى التصادم ضد بعضهم البعض، فقد اختار الجنوبية والبيازنة التنازل عن الجزيرة لعرش مملكة صقلية،⁽¹⁾ جاء ذلك بعد أن تعهدت الملكة مارييا بنوع مبلغ ستة وثلاثين ألف (36.000)، فلوري ذهبي⁽²⁾ كتعويض لهم. وأقوى هذا الإجراء تأييدا ومباركة من البابا أربان السادس Urbain VI (1378-1389)، الذي قاد مانفريد دي كلارمون ولاية الجزيرة ومنحه لقب دوق جريسة Dux Gerbarum، مصحوبا بحق توريت هذا اللقب لآل بيته من بعده.⁽³⁾ وهي الطريقة نفسها التي تم بهوجنها تقليد روجي دي لوريا، حاكما على هذه الجزيرة، قبل هذا التاريخ بحوالي قرن من الزمن.⁽⁴⁾

غير أن سيادة آل كلارمون على جزيرة جربة، لم تكن طويلا بسبب التحولات التي عرفتها الأوضاع السياسية في إسبانيا، عندما انتقل عرش مملكة أراغونة إلى عائلته (مارتن Les martins)، الذين جاءوا لترتيب شؤون جزيرة صقلية ومساكنة بها من أسلافهم، مما يكفل لهم فرض الولاء على جميع الأقاليم التي تحتلها، فتمسك آل كلابرمت أسرة كلارمون عن جزيرة جربة سنة 1392م.⁽⁵⁾

⁽¹⁾ Jehel, Cf: "La mer dans les relations entre Gènes et le Maghreb", (*Mesogios*), 7, 2000, p195
2)- Guistuniani : op. cit, Vol 2, p152.
-De Mas latrie : Traites, Fl, p239-240.

- برونشفيك، ج، 1، ص 230، -/عاشور، س: ج 2، ص 982.

⁽²⁾ Jehel, Cf: l'Italie, p91.

⁽⁴⁾ برونشفيك، ج، 1، ص 230.

⁽⁵⁾ خلفاء هذه التحولات، تعود إلى ما حدث في أراغونة، عقب وفاة الملك بيدرو الرابع حيث جاء إلى الحكم بعده ابنه مارتن المعجوز. وكان ابنه مارتن الصغير Martin le Jeune قد تزوج من قبل، مع سيدة عرش صقلية ماري. قال الحكم، عندئذ، في أراغونة وفي صقلية إلى عائلة Les martins. للسرد راجع: - J.P. Delumeau et I.H.Donat: l'Italie du moyen. Âge, p208-9.

وفي هذه الأثناء حاول الحفصيون اغتنام ظروف الفوضى التي سادت ربوع الجزيرة، عقب خروج قوات كلارمون منها، وحاولوا بسط سيطرتهم من جديد عليها، كما أخذوا يرسلون الغارات البحرية على السواحل الصقلية لمنع الحكومة الجديدة فيها من أن تسيّر قوات أخرى إلى جربة، فأغاريت السفن الحفصية على مدينه سراكوزة سنة 1393م وأسروا عددا كبيرا من مواطنيها، بما فيهم أسقف المدينة شخصيا.⁽¹⁾ مما أدى إلى تأزم العلاقات بين أراغونة وسلطنة الحفصيين، وأخذ الطرفان يستعدان لشن حرب ضد بعضهما. وفي الأخير فاجأ سكان جربة الحفصيين بأن ثاروا عليهم. ورفضوا أن يكونوا تابعين لهم، وأعلنوا جهارا أفضليتهم الولاء لملكة صقلية. وظل ولاء الجريبيين لحكام مملكة صقلية، التي هي تتبع في الأصل عرش مملكة أراغونة الإسبانية قائما إلى غاية مجيء الأكثر ذلك مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.⁽²⁾

(11) -- الحملة الجنوبية الفرنسية ضد المهدية 1390م-793هـ

يبدو أن الجنوبية، الذين حققوا مغنم كبيرة خلال الحملة السابقة على جزيرة جربة، قد أغرتهم تلك المغنم، وطمعوا في المزيد، خصوصا بعدما أصبح الأمر غير مكلف بالنسبة لهم، لا في الرجال ولا في العتاد. فالدول المغاربية أضحت، خلال هذه الفترة، عاجزة تماما عن التصدي للغزاة، حتى وإن تعلق الأمر بحفنه من الفراضية. لهذا اختار الجنوبية السير في طريق الغزو والعدوان لتحقيق مكاسب أكثر. مستغلين ظروف الوهن والانقسام الذي أمت في الإمارة الحفصية مع نهاية القرن الرابع عشر الميلادي. لذلك سارعت حكومة جنوة، بمجرد عودة جنودها من الحملة المظفرة التي استهدفت جزيرة جربة إلى ديارهم سالمين غانمين، إلى إعلان قرار الاستعداد لحملة جديدة ضد الإمارة الحفصية، تكون أكثر قوة وحشدا من سابقتها، يحدهم الأمل هذه المرة في السيطرة على

(1) Jehel, G: l'Italie. p92.

(2) Jehel.G : op cit. p92-3.

مدينة المهدية، بوصفها أقوى القلاع التونسية، وأكبر معقل للمجاهد البحري بشمال إفريقيا، فضلا عن أهميتها التجارية كثاني أهم مركز للنشاط التجاري في المملكة الحفصية بعد تونس العاصمة. (1)

ولأجل ذلك، رأى حاكم جنوة الجديد، الدوق انطونيو أدريانو Antonio Adorno، أنه من الضرورة بمكان مكاشفة الدولة الفرنسية بشأن هذا المشروع، باعتبارها حليفهم التقليدي في حروبهم ضد المسلمين. منذ انطلاق مشروع الحركة الصليبية، مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، فكم من مرة، اتفقت مصالح الجنوبيين والفرنسيين على ضم جهودهما لتسيير حملات صليبية على الدول الإسلامية سواء في المشرق أو في المغرب. (2) وهاهي الفرصة تتجدد اليوم أمام الطرفين لتكرار ما سبق، خصوصا وأن الدولة الفرنسية، في هذه المرحلة، كانت أوضاعها على أحسن ما يرام، بعدما توفقت المرحلة الأولى من حرب المائة عام التي كانت قائمة بينها وبين إنجلترا. (3) لذلك استعجل اعيان مدينة جنوة ببعث بعثة بتاريخ 29 نوفمبر 1389م، إلى مدينة تونس لتستعجل Toulouse لمقابلة ملك فرنسا شارل السادس Charles VI، وتحدث للبعثة عن حاله في استمالة ملك فرنسا، والحصول على رضاه، بعد أن مدحوه كثيرا وأظهروه في صورة حامي المسيحيين والمدافع عن كياناتهم ضد المسلمين (الكفرة الفجرة) حسب زعمهم. (4)

(1) Ph. Gourdin: Les relations politiques économiques entre l'Italie Tyrrhénienne et le Maghreb au 15 s.(these doctorat) U. Sorbonne. Microfich. N° 5508.U Sorbonne. p65.

(2) وبخاصة أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر، والحملة الصليبية الثامنة على تونس.

(3) المرحله الأولى من حرب المائة عام (1337-1396م)

عن حرب المائة عام ومراحلها، راجع.

Histoire générale du IVS à nos jours. T3 formation des grandes Etats 1270

1492, Ed.Armand colin (Paris 1893) . p64-210

(4) De mas latrie: relations, p416.

ووافق ملك فرنسا على المشاركة في هذه الحملة، وأصدر للتو مرسومًا ملكيًا بسان يتولى أحد أقربائه (خاله) الدوق لويس البريوني Louis II de Bourbon قيادة الجيش النصراني في الحملة،⁽¹⁾ بعدما قدر الملك أن الظروف لا تسمح له بأن يتولى قيادة هذه الحملة بنفسه، على اعتبار أن الهدنة التي أقدم على إبرامها مع الإنجليز لتوقيف الحرب بينهما لا تتعدى مدتها ثلاث سنين.⁽²⁾ وهي فترة قصيرة يتوجب على الحاكم الأول قسري المملكة المزيد من اليقظة والترقب، وبذل المزيد من الاستعدادات تحسبًا لما سيأتي من الأخطار بعد انقضاء مدة الهدنة، فمن المحتمل أن تنشب الحرب من جديد مع الإنجليز حال انقضاء الهدنة.

ومنذ ذلك الوقت، بدأت الاستعدادات لتجهيز الحملة تتسارع بصورة حثيثة طموح أن يربح سنة 1390 م. حيث شرع، من وقتها، في الاتصال بالبارونات والفرسان الذين يزعمون بالمشاركة في هذه الحملة. وعندما اكتملت الاستعدادات، انحصرت اتقته ان نصليبه الفرنسيه التي يقودها الدوق دي بوربون في القضاء من شهور جنوبية من مرسية مارسيليا صحتية عند كبير من الأمراء والفرسان وصل تعدادهم 1500 فارس.⁽³⁾ كما أنهم يحدوهم الأمل في إعادة بعث عهد القديس لويس التاسع،⁽⁴⁾ فتوجهوا إلى ميناء جنوة أين كان ينتظرهم أسطول الجنوب القوي. علما أن الجنوبية هم أصحاب فكرة هذا المسطروح وأكثر المتحمسين له، وبالتالي فمن المؤكد أن مدينة جنوة ساهمت بالنصيب الأكبر قسري عند قوات هذه الحملة، حيث سجلت مشاركتها بأسطول حربي ضخم، بلغت من الشنن وعشرين (22) سفينة حربية، وثمانين عشر (18) سفينة شراعية، بالإضافة إلى

⁽¹⁾ Encyclopedia universalis, p279.

⁽²⁾ De nous Latier op.cit, p417

⁽³⁾ Camb Médiéval history, volVII, p 370.

(*) نذكر من أبرز أولئك النبلاء فيليب دي باز وهاكور وسانسار وأستروفا وكنت توفان توفان (Auvergne).

والسير دي كوسي والأميرال جان دي فيان وسونيك دي لاترو والأخوين دي لاتريموال، وغيرهم. للمزيد:

ر. برونشفيك، ج.، ص 231.

⁽⁴⁾ Ph. Gourdin: op. cit, p62.

مجموعة كبيرة من الزوارق الخفيفة، ركب على متنها أربعة آلاف (4000) بحاراً، وثلاثة آلاف (3000) من المقاتلين المشاة، وآخرين من الخبراء في سلاح الرمي والقذائف (1).

أما اللافت للانتباه، فيما يخص هذه الحملة، فإنها حظيت بتأييد ومباركة كل من البابويين المتنافسين على كرسي البابوية آنذاك. بابا روما Rome وبابا أفينيون Avignon (2).

وعندما التأمّت الجيوش الفرنسية والجنوية، واكتملت كل التحضيرات الضرورية، انطلق أسطول الحملة، الذي كان يقوده قريب نوق جمهوريته جنوة الأميران (جسان سانتوريون أولترا مارينو Jean centurione oltra marino ، باتجاه هدفه المختار: مدينة المنيّة (3) التي كان يطلق عليها الصليبيون اسم Africa (4). وفي ذلك يقول ابن خلدون: "... واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة، ومن وراءهم، أو ما جورهم من أساطيل البحر التي. وأقنعوا من جنوة فحصدوا بمرسسى المنيّة مئتين ألفاً من المسلمين وجمعاً من وبعثاً" (5).

ولما وصلت طلائع الجيش عند مشارف السواحل الإفريقية (التونسية) توقفوا عند جزيرة كونغليرا، الواقعة قبالة شاطئ المنستير لمدة أسبوع، ريثما لأجل الاستراحة

(1) بر ونشيف، ج1، ص 231.

(2) الإشارة إلى بابوين. خلال هذه الفترة، لأن هذه الحملة تزامنت مع حادثة الإشفاق الأعظم Le grand shisme de la Papauté (1370-1417م)، الذي فرق وحدة المؤسسة البابوية لمدة أربعين (40) سنة. سبب الصراع بين الفرنسيين والإيطاليين حول كرسي البابا. للمزيد من الفهم، راجع:

- H. Pirenne: Histoire de l'Europe des invasions au XIVS. 2 Ed, Paris 1936, p291-324.

(3) H. Leo. op cit., I, p763.

(4) De Mas latrie: Relations, p417.

Arya A S: The Crusade p411

(5) مج 6 ص 579.

وانتظار تجميع سفن الحملة، وإعداد مخطط الهجوم، وتوزيع المهام على الفرق التي تتولى اقتحام المدينة.⁽¹⁾

ويبدو أن توافق رؤى الصليبيين جميعهم على توجيه الحملة على المهدية، وليس على تونس عاصمة السلطنة الحفصية، لتساوهم من تونس باعتبارها المدينة التي أنهرم فيها جيش الصليبيين العظيم زمن الحملة الصليبية الثامنة سنة 1270م، ولقي ملك فرنسا لويس التاسع حتفه فيها.⁽²⁾ وإنما فضلوا توجيه حملتهم على المدينة لتساؤلهم بتحقيق النصر الأكيد، على اعتبار أن جل الحملات الصليبية التي استهدفت هذه المدينة قد كُلت كُلتها بالفشل. فلقد سبق للصليبيين ثلاثين عامًا على المهدية مرتين: مرة أولى سنة 480هـ = 1087م عندما استولت عليها قوة مشتركة من الجنوبية، والبيزنطية ونورمان صقلية.⁽³⁾ ومرة ثانية سنة 543هـ = 1148م عندما احتلها ملك صقلية روجار الثاني Roger II، وبقيت مستعمرة خاضعة له لمدة اثنتي عشر سنة قبل أن يستردها الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي سنة 557هـ = 1160م.⁽⁴⁾

سهما يكن أمر الاستعدادات التي أحاطت بهذه الحملة الثالثة، التي قادتها قومونة جنوة وحلفاؤها على مدينة المهدية، فإن أخبارها قد وصلت إلى الديار التونسية، حتى قبل وصول الجيوش الصليبية قبالة السواحل التونسية، علما أن جيوش الحملة توقفت لمدة صويته بجزيرة كونغيرا القريبة من تونس. وعنى هذا الأساس توافر لدى المستنصر الحفصية الوقت الكافي للتحضير والاستعداد لمجابهتها، فأرسل السلطان أبو العباس أحمد

⁽¹⁾ بوشفيك، ج. 1، ص 232.

- Atya, A.S: op cit , p409-410.

⁽²⁾ راجع ما سبق. حملة لويس التاسع على تونس.

⁽³⁾ راجع ما سبق.

⁽⁴⁾ ابن الأثير، مج 11، ص 243.

الثاني المستنصر ابنه الأمير أبا فارس يستنفر أهل النواحي، ويقوم بمهمة تعبئة الجيش وتشديد مراكز المراقبة على الشواطئ لترصد نزول جيوش الأعداء ومعرفة وجهتهم.

لكن وبرغم التدابير الوقائية التي اتخذها الحفصيون تحسبا لمواجهة الغزاة فقد تمكن جيش الصليبيين من النزول بمرسى المهدي بتاريخ 20 جويلية 792 هـ - 1390 م، بدون عناء أو مشقة، وانتصروا على المضيق الذي يربط المدينة باليابسة وشرعوا في حصارها. (1)

أما جيش المسلمين الذي أمكنه الوقت الكافي من تحصين مواقعه على اليابسة، فقد اختار كالعادة استراتيجية الترفق والتريث وعدم المبادرة بالهجوم معوذا، كالعادة، على عامل الوقت، وصعوبة الطقس (حرارة الصيف) لإنهائك الخصم وإرغامه على التراجع عندما تنقصه المون وتفاقم به الأمراض والأوبئة، أو ربما قد ينشعب الخلاف بين قادة العسكر فيتقاعدون عن الإقدام و الهجوم، فبظالم نحدث هذه الحطة من قبل، كما حدث مع حملة الملك الفرنسي لويس التاسع على تونس 1270 م، حيث انهزم الجيش الفرنسي بفضل عامل الطقس والمرضى، وراجع ما تبقى من جيش الحملة خائبا منهورا. (2)

ومرة أخرى، يحالف الحظ المسلمين في خططهم، إذ بعد مرور شهرين على هذه الحال (3)، أقر الغزاة من تناوّل فرصهم في النجاح حصودها بعدما هل فصل الحريف الذي حمل معه نهم هاجس الخوف من تغلب البحر، كما أعوزتهم المونة، فاضطروا - تبعاً لذلك - إلى الجوع للتفاوض مع الحفصيين مقابل الانسحاب. وكان الخويعون أول

(1) ابن الشماخ: المصدر السابق ص 111.

- الوزير السراج: الحل السندسية، مج 2، ص 183.

- De mas latrie: relations, p 417-418.

- Atya, A.S: the cursade, p414-415.

(2) راجع ما سبق.

(3) جاء في كتاب: الأدلة النبيلة النورانية في معاصر الدولة الحفصية، ص 11 ما يلي: "... أقام بها نصارى شهرين وعشرة أيام، وارتحلوا عنها خائبين".

من جنح إلى هذا الخيار، للحفاظ على مصالحهم التجارية في أسواق السلطنة الحفصية. (1)

فلقد ألححت كثير من المصادر إلى انقلاب الجنوبية على حلفائهم بأن بادروا بالدخول في مفاوضات سرية مع ممثلي الحكومة الحفصية بواسطة جالياتهم المقيمة داخل المهديّة، كما استعانوا أيضاً، بخدمات المواطن القطالوني (انساليم ترمودا Anseleme Turmeda) الذي اعتنق الإسلام، وكان، وقتذاك، يشغل منصب ترجمان السلطان الحفصي. (2)

ولقد تمثلت صيغة الاتفاق التي رضى بها الطرفان في الأخير على عقد هدنة لمدة عشر سنوات، تعهد بموجبها أمير تونس بألا يتعرض طوال مدة الهدنة - للمسيحيين القاصدين بلاده بأي أذى مهما كان، كما اتفق الطرفان، على أن يدفع الحفصيون للمسيحيين مبلغ خمسة عشر ألف دينار (25,000) في مدة أقصاها سنة، كتعويض لهم عما خسروه من أموال في هذه الحملة. (3) وفي 20 سبتمبر من السنة نفسها انسحب أسطول الانصاري راجعاً أترارجه بعد أن خيب الله سعيهم. (4)

(1) جمع المصنف العربي على أن الحادثة عرفت - عند أهل المسيحيين - فترسوا بتمهّد صلات مع السلطنة الحفصية من غير أن يوافق دي بوريون قائد الحملة، ذكر صاحب كتاب الحلق الاستيعابية في الإخبار التونسية، ثم إن التماسه في القسم انصرفت أحد المماليك كان - في وقت - آخر حادثة فاسية وألا أنقل حادثة الفرس بالفرنسيين، ص 11، ص 184.

(2) أما التركي، صاحب كتاب تاريخ الدولة العثمانية والحفصية، فكان يوافق القول بأن الملك رأى حلفاء فيما بينهم، وأراد الجنوبي الفرس بالفرنسي.

(3) حديق محمد باقر، ط 1، تونس، 1966.

(4) استاذ نورميدا، مشر فرنسيسكاني إسباني الجنسية من مدينة مايوركا، ذهب إلى تونس سنة 1390هـ، واعتنق الدين الإسلامي، وتسمى باسم عبد الله، شغل منصب ترجمان السلطان، ألف عدة كتب بالألمانية والعربية أشهرها: كتاب (تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب)، ثمزيد، راجع.

مغل - بي انبتراف بين التعصب والإسلامي، المرجع السابق، ص 1048.

(3) Atya, S: op cit, p 427-728.

- عاشور، س: المرجع السابق، ج 2، ص 985.

(4) ابن القنفذ: الفارسية، مصدر سابق، ص 188.

- ابن خلدون، ج 6، ص 570.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية على المهدية، من دون أن تحقق هدفها الأساسي السذي
خرجت من أجله، وهو معاقبة قراصنة إفريقية ووضع حد لأعمالهم، بل على العكس من
ذلك، فقد اشتد بأس غزاة البحر المغاربة، واتسعت دائرة أعمالهم في مياه المتوسط، منذ
ذلك الوقت، واستمر نشاطهم البحري على هذا المنوال، إلى عهد مجيء الأتراك إلى
شمال إفريقيا.

- ابن الشماخ: المصدر السابق ص 111.
- الزركشي: المصدر السابق ص 112-113

جدول يبين أعمال القرصنة واللصوصية Course et piraterie خلال الفترة
(1230-1509م)⁽¹⁾

الفترة الزمنية	عدد
العمليات	
1249-1230	2
1262-1250	2
1289-1270	
1309-1290	5
1329-1310	9
1349-1330	4
1369-1350	4
1389-1370	4
1409-1390	48
1429-1410	8
1440-1430	7
1469-1450	1
1489-1470	2
1509-1490	1

⁽¹⁾ Ahabab, Jamel: La Piraterie en Afrika aux trois derniers siècles (XIII- XVS), Mémoires de maîtrise (centre de recherche d'histoire et civilisation Byzantine 1997-98, p. 31.

الفصل الرابع

- نشاط جنوة التجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر

(1) - بداية الصلات التجارية للمدن الإيطالية مع بلدان العالم الإسلامي بالاضفة الجنوبية للمتوسط.

(2) - نشاط جنوة التجاري في بلاد المغرب على عهد المرابطين.

(3) - صلات جنوة التجارية مع إمارة بنى حماد في بجاية.

(4) - ازدهار النشاط التجاري الجنوبي في بلاد المغرب خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

(5) - نشاط جنوة التجاري مع بلاد المغرب خلال القرن 13م.

(6) - حادثة 1223م وأثرها في تعثر نشاط جنوة التجاري مع الإمارة الحفصية

(7) - معاهدة 1236م والامتيازات التي استفاد منها التجار الجنوبيون.

(8) - معاهدي 1250م - 1272م

(9) --- تدهور العلاقات التجارية بين الجنوبية وبلدان المغرب خلال القرن الرابع عشر الميلادي.

(10) - محاولات جنوة لاستعادة مكانتها التجارية في بلاد المغرب خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

أ- تذبذب وعدم الاستقرار خلال النصف الأول من القرن 15م.

ب- ازدهار العلاقات واستقرارها بين الجنوبية والإمارة الحفصية في

النصف الثاني من القرن 15م.

(11) - انهيار نشاط جنوة التجاري مع نهاية القرن 15م.

(1) - بداية الصلات التجارية للمدن الإيطالية مع بلدان العالم الإسلامي بالصفحة

الجنوبية المتوسط.

أبدى الخبير كلود كاهن، المختص في التاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، ملاحظة مثيرة أثناء انعقاد مؤتمر حول الإستشراق في لندن سنة 1955 م⁽¹⁾. مفادها أن الدراسات الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا عصور وسطى قد كتبت من خلال الوثائق الرسمية المتوفرة بمختلف دول الأرشفة الأوروبية، غير أنه يجب يتعلق بالعالم الإسلامي، خلال الفترة الوسيطة، فإنه يصعب على المؤرخ الباحث الاطمئنان في الوصول إلى حقائق دامغة في هذا الجانب، نظرا لغياب الوثائق ذات الصلة بموضوعات الاقتصادية والاجتماعية في كامل أنحاء بلاد العالم الإسلامي باستثناء مصر التي لا شيء يدرس غياب أرشيف بجمع وثائق إدارية رسمية في سائر أنحاء العالم الإسلامي خلال تلك الفترة من العصور الوسطى، حسب اعتقاده، إلا نسبيين:

لما أن المسلمين كانوا يجهاون ثقافة حفظ وصيانة الوثائق الإدارية بنفس الكيفية التي عرفت في أوروبا، وجهات أخرى من العالم؛ أو لاحتمال تعرض هذه الوثائق في السجلات الإسلامية للتلف أو التضياع بسبب الأوضاع الغير مستقرة التي مرت بها المجتمعات الإسلامية خلال فترة العصور الوسطى، وكذا أحداث العنف والحروب التي ميرت ظروف انتقال السلطة في بلدان العالم الإسلامي بين الأسر الحاكمة.⁽²⁾

1- Cahen, C: "L'histoire économique et sociale de l'orient Musulman Médiéval" in Studia Islamica, fasc. 3, 1955, p. 93-115. Reed.

- Les peuples Musulmans dans l'histoire médiévale, institut fransiscan de Damas), 1977.

(2) استثنيت مصر دون غيرها من أقطار العالم الإسلامي بسبب اكتشاف ذخيرة معتبرة من الوثائق الأصلية التي تعود إلى العهدين الفاطمي والأيوبي (وثائق جنيزة القاهرة)، التي وفرت للباحثين مادة كافية لفهم واقع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية خلال تلك الفترة. للمزيد، راجع:

Sh. Goitein: " The Cairo Geniza as a source for the history of Musulman civilization" (studia Islamica), III, 1955, p. 71-92.

(3) Cahen, cl: "L'histoire économique et Sociale, op.cit, p. 214.

ومن خلال المعطيات المتوفرة أحد الآن، فإن صاحب هذا الحكم قد أصاب بجانباً من الحقيقة، لكون معظم الأرشيفات العربية خالية تماماً من الوثائق ذات الصلة بالجانب الاقتصادي، وأن ما تم العثور عليه من وثائق قليلة تخص مجموعة من بلدان العالم الإسلامي. في هذا الجانب، قد وجدت أصلاً في خزائن الأرشيف لبعض الدول الأوروبية التي كانت لها علاقات تجارية مع العالم الإسلامي إبان مرحلة العصور الوسطى.⁽¹⁾

أما عن بداية الصلات الاقتصادية مع أوروبا الغربية مع أقاليم المنطقة الجنوبية
لحوض البحر الأبيض المتوسط في المشرق والمغرب على السواء، فقد تضمنت قائمة
متواصلة منذ العهود القديمة (العهد الروماني و البيزنطي)، ولم تنقطع حتى نسي أحسنك

١١ - أحمد مراد: الوثائق العبرية المحفوظة في دور الأرشيف الأثري بدمشق (مصر: المؤسسة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٩)، ص ١١٧-١٤٣.

- A. Santan a G. de linaires: Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la carona de aragone, Madrid, Grenade 1940.

فترات الحرب والصراع التي صاحبت حركة الفتوحات الإسلامية خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين⁽¹⁾.

فلقد بينت الدراسات الحديثة المعمقة أن التوسع الإسلامي في حوض المتوسط لم يحدث أي تغيير أو انقلاب في الأوضاع الاقتصادية والصلات التجارية نابلسان المتوسطية على البحر المتوسط، عكس ما ذهب إليه، في ثلاثينات القرن الماضي، المؤرخ البلجيكي هنري بيرين H.Pirenne في كتابه الذي نال شهرة واسعة بسبب عنوانه المثير للجدل "محمد وشارلمان Mohamed et Charlemagne"⁽²⁾.

أقد حاول مؤلف هذا الكتاب إثبات نظرية مفادها أن الفتح الإسلامي للأقاليم المحيطة بحوض البحر الأبيض المتوسط -سوريا- مصر- شمال إفريقيا- الأندلس- قد نتج عنها توقف للصلات التجارية التي كانت تربط بين ضفتي المتوسط منذ العهد الروماني، وأنجز عن ذلك أن توقفت أوروبا المسيحية عن استيراد السلع الشرقية التي تعولت على استهلاكها (كالبزدي، التوابل، والأقمشة الشرقية والعصنة الذهبية)، وتخلت سكان أوروبا المسيحية عن استعمالها، على وجه التقريب، في عهد الأسرة الكارولنجية.⁽³⁾

الواقع أن نظرية هنري بيرين قد استوقفت عددا كبيرا من المؤرخين المحدثين في مجال العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الذين انكبوا على البحث عن المؤشرات المادية التي تؤكد صحة النظرية انبيريانية أو تنفي عدم مصداقيتها، وظهرت

⁽¹⁾ بينت العديد من النصوص اللاتينية أن تحارب البيزنطية قد بدعوا يؤمنون موطن شمال إفريقيا من القرن الثامن للميلاد، كما أن بعض التجار المسلمون اعتادوا الذهاب إلى صقلية لقضاء حوائجهم، قبل أن يفتحوها للمسلمين.

- A. Soyouz: Le commerce des Européens à Tunis. P.23-4.

G. Pistorino: Medioevo sul mare, in L'Italia ed i paesi Mediterranei (Atti del convegno internazionale di studi), Pisa. 1987-88. p15

- Jehel. G: L'Italie et le Maghreb. p 105-6.

⁽²⁾ Nouvelle Société d'édition. Bruxelles 1936. .

⁽³⁾ أعاد H. Pirenne طرح نظريته هذه في كتاب آخر.

تبعاً لذلك عدة دراسات حول هذا الموضوع أجمعت كلها على رفض استنتاجات المؤرخ بيرين Pirenne لأنه استقى معلوماته انطلاقاً من عيّنات محدودة في الزمان والمكان.⁽¹⁾ ومن ثمة نخلص إلى القول بأن تمرّكز الإسلام في حوض المتوسط لم يكن سبباً، على الإطلاق، في تعطيل مسار العلاقات التجارية مع دول أوروبا الغربية، بل على العكس من ذلك، فقد حافظ العرب في كافة البلاد التي فتحوها على الأوضاع القائمة من دون أن يحاولوا إدخال تغييرات عليها،⁽²⁾ كما فسحوا المجال أمام العناصر غير الإسلامية وبخاصة المسيحيين واليهود لإدارة شؤون المال والإدارة ودواوين الحكومة.⁽³⁾ ولم يسجل أبداً أن حاول المسلمون التوقف في وجه التجارة مع العسائلم التجاري، حتى أنهم عندما تعذّر عليهم الإشراف بأنفسهم على هذه المهنة الطاهرة، بسبب انشغالهم

Histoire de l'Europe des invasions au XIV^e s. p 59-60.

سبب انشغالهم أن ظاهرة نقص سدة البردي وبعض الوثائق نفرد محدودة، لا يمكن اعتبارها معرّضة لمفاسد المؤرّخين الاقتصادية لبلد البحر الأبيض المتوسط أثناء الفتح العربي. كما لاحظ الباحث أن ورق شرقي قد استخدمت لصنع العملات، خلال هذه الفترة، حتى في رنوع العالم الإسلامي، سبب اعتماد المسلمين على الفرس في سائر أعمالهم. بعد تسليّ توقف ضرب العملة الذهبية في أوروبا، خلال النصف الثاني من القرن السابع، فقد لم يجد الباحث أن تلك العملات، بعد الفتح الإسلامي، لم يزلت تستخدم المسيحي من برسلونة إلى شهر بلنسية كانت تصق فيه وجمهورية جنيف. وفي وصول ضلّال الفاتحين العرب إليها، بسبب التحولات في الأوضاع الاقتصادية التي طبعّت نظام المجتمع الفرساني في ظلّ النظام الفصاعي، قد برهنت أساليب على تواصل سبق وارتأت أوروبا من الوثائق الفرسية والروس، وسماء تأوّف خلال تلك الحقبة، للمزيد في العهد حول هذا الموضوع راجع.

- P. S. Lopez: "Mohamed et Charlemagne. A révision (Spéculum) 1913, XVII.
- A. Saporiti: "il commercio internazionale nel Medioevo". (Archivio di studi corporativi) III, 1938, p 4-8.
- E. Perroy: "Encore Mohamed et Charlemagne" (Revue Historique), 1934.
- C. Cipolla: "sans Mohamed Charlemagne et inconceivable" (Ann ESC) XVII, 1962, p 130-38.

E. Sabbe: "L'importation de l'issus Orientaux en Europe occidentale au haut moyen age". (Revue Belge de philologie et d'histoire) XIV, 1935 (p 811- 848 & 1261-88).

⁽²⁾ ما زادنا أنه لم يلاحظوا على استمرار تطوّر الأنظمة الإدارية والمالية البيزنطية والسريانية مثل نظائرها في بلاد العرب، والعملة وكل ما يتصل بأنظمة المهن الصناعية. راجع.

- A. Mazahiri: La vie quotidienne des Musulmans au moyen age. Paris Hachette. 1959. p. 126.
- Mann, T: The Jews in Egypt and Palestine under the fatimides calefes, T1, p. 270.

⁽³⁾ Ph. Senac & N. Prouteau: Chrétiens et Musulmans en Méditerranée Médiévale VIII-XIII S.échanges et contacts. Université Poitiers. P. 82-4.

بأمور الجهاد والفتح، وهي عندهم أعلى درجات الإيمان، فقد فسحوا المجال للعناصر الغير مسلمة، وبخاصة المسيحيون واليهود، الذين اختاروا بمحض إرادتهم العيش في كنف الدولة الإسلامية، لأن يشتغلوا بهذه المهنة (التجارة)، ووفروا لهم كل سبل الراحة والأمان للسفر بين أقطار المعمورة⁽¹⁾.

وحتى عندما استولى العرب على أقاليم عديدة في آسيا وإفريقيا وأوروبا، وتهيأت الظروف أمامهم لتشييد إمبراطورية شاسعة تمتد من خليج بلاد الأندلس إلى دلتا الهندوس، وتوقفت حركة الفتوحات، عملت الدول الإسلامية على تشجيع النشاط التجاري وحمايته من خلال بناء المشرق، وتأمين رحلات القوافل، وتنظيم الأسواق، وتشجيع الفنادق لاستقبال التجار في المدن والموانئ⁽²⁾.

وكان اهتمام الحكام المسلمين بتشجيع الأعمال التجارية كبير، إلى درجة أن الخليفة هارون الرشيد فكر في حفر برزخ السويس ليربط مياه البحر المتوسط بالبحر الأحمر، لولا أن بعض الساسة افنعوه بتعويل عن هذا المشروع باعتبار أن استراتيجيته، خوف مسلم أن يستفيد الأعداء من هذا الممر، في وقت ما، ويمنعون اللجوء إلى البحر الأحمر، ويمنعون ثمة الوصول إلى الأراضي المقدسة مكة والمدينة والاعتداء عليهما⁽³⁾.

وتتوفر كتب التاريخ، أي دلائل كثيرة تظهر استمرار صلات سكان أوروبا الغربية مع المشرق، وبأن المسلمين فتحوا موانئهم ومدنهم لاستقبال التجار والحجاج المسيحيين⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ أبو الأعلى المودودي: حقوق الذمة في الدولة الإسلامية، نشر دار الفكر، ص. 25.
- Andre Fatih: Le Statut légal de Non Musulman en pays d'Islam, Beyrouth 1958, p 144-60.

⁽²⁾ روبرت، س، لوبيز: "التأثيرات الشرقية والنهضة الأوربية في الغرب" مترجم، ضمن كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي، إشراف توفيق اسكندر، القاهرة، 1961، ص. 142-46.

- B. Lewis: "The Fatimide and the route to India" (Revue de la faculté des sciences Economique de l'histoire d'Istanbul) Vol, XI, 1949, p.50.

⁽³⁾ هايدف: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج.1، ص. 58.

⁽⁴⁾ R. Fossier: Le moyen age, T1. op.cit, p. 279.

وتوجد وثيقة تعود إلى حوالي 670 م = 50 هـ، أي بعد مرور ثلاثون سنة على سقوط مدينة الإسكندرية في أيدي الفاتحين العرب، تتحدث عن وصول مواطن إفرنجي إليها في طريقه إلى بيت المقدس اسمه أركولف Arculf، وقد هاله ما شهده من نشاط تجاري كبير بها، و العديد التجار من مختلف البلدان يبيعون ويشترون في أسواقها⁽¹⁾.

ولم يحصل أبدا أن تعرض المسلمون بسلاذى أو المضايقة للتجار و الرحالة المسيحيون وغيرهم من الذين كانوا يقصدون ديار الإسلام. حتى عندما صار المسلمون سادة البحر الرومي (المتوسط)، لا ينافسهم عليه أحد، بل كثيرا ما تجندوا ليعضنوا بحراسة فوافر انتجار في شواطئها و عودتها⁽²⁾. نستبين على ذلك بشهادات من تلك الفترة عندما كان بعض التجار ورجال الدين المسيحيين يجدون الظروف ميسرة لهم في التنقل إلى مقاصدهم بمختلف الجهات. فعلى متن سفينة عربية تنقر، خلال القرن التاسع الميلادي، راهب مسيحي اسمه برنارد الحكيم Bernard le sage إلى مصر مزود بجهد از سفر passe port محبة له حاكم إمارة باري Bari المسلمة⁽³⁾. كما أن الرحلة بين مدينتي الذي كتب في القرن العاشر، يؤكد بأنه وجد، عندما كان بجوب بلاد المغرب، صاعدة إلى التجار الأوروبيين بمدينة طرابلس الغرب يمارسون الأعمال التجارية⁽⁴⁾.

- M. Tangheroni: "Christian and Moslem trade and sea-Faring in the Mediterranean" In: "Islam and Europe thirteen century of common history " Florence, 1997, pp. 81-98

⁽¹⁾ - Histoire du développement de l'humanité, op.cit, vol III, p 159.

⁽²⁾ - E. Rivesor: Amalfi et la Tunisie au Moyen age" in (cahiers de Tunisie, N° 178, 1997, p 15-16.

- Cahen, C: "commercial relations between the near east and western europe from the VII th to the XI the Century" in (Islam and the west aspects of intercultural relations) .

Edited, by Khalil. I. Sernean. N. York 1980. P5-6.

⁽³⁾ Histoire de l'humanité, vol III, op.cit, , p 160.

⁽⁴⁾ ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص. 71-72.

وليس أدل على اتساع نشاط العناصر غير المسلمة في ميدان الأعمال التجارية إبان فترة الفتوحات الإسلامية، اشتهاة جماعة يهود الراذانية Rahdanites⁽¹⁾ التي أشار إليها الجغرافي ابن خردادبه خلال القرن التاسع الميلادي الثالث للهجرة، حيث قال عنهم بأنهم أكبر موردي المنتجات الشرق إلى فارة أورب⁽²⁾. كما أوضح بأنهم كانوا يتكثمون لغات عديدة (Polyglottes)، ويتنقلون بحرية تامة من أوربا الغربية إلى أقصى الشرق (الهند والصين)، مروراً بمختلف الأسواق والموانئ الإسلامية -لأندلس- بلاد المغرب مصر والشام- العراق وبلاد فارس⁽³⁾.

وليس هناك بند في أورب استورد منتجات الشرق بكميات ضخمة إبان مرحلة العصور الوسطى مثل ما فعلت مدن إيطالية البحرية. وهناك أسباباً وجيهة هيأت هذا البلد (شبه الجزيرة الإيطالية) أن يتفوق على غيره من البلدان الأوروبية في ارتباطه بخلافات مميزة مع المسلمين.

⁽¹⁾ اختلف المؤرخون في أصل تسمية راذانية Rahdanites. بعضهم أرجعها إلى كلمة راذان Rahdan، في حين أن مقاطعة تقع إلى شرق نهر دجلة. فيما أرجع آخرون أصل التسمية إلى رذار Rah-dar وهي كلمة فارسية تعني التعريف بالشرق. ذهب البعض الآخر إلى أنها كلمة رذاد Rhodanus أي نهر الرون Rhône. للمزيد راجع.

R. Fossier : Le moyen age, op.cit, T1, p 279.

⁽²⁾ "الذين يتكثمون العربية والفارسية والرومانية والإفريقية والأندلسية والصقلية، وأهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجنبون من المعرب الخند والحواري والغلمان والنجار وحشم الخند والفراء والسمور والسيوف. ويركبون من فريجة في البحر الغربي فيخرجون بالغارما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار ثم يمضون إلى السند والهند والصين... للمزيد راجع كتاب:- وصف المغرب وأوربا في القرن الثالث للهجرة "منتخبات من كتاب المسالك والممالك" لابن خردادبه جمعها وترجمها للفرنسية. الحاج محمد صده. 1949. Alger. ص 20.

⁽³⁾ ما يؤكد كلام ابن خردادبه في أن هؤلاء اليهود يتنقلون بين الشرق وأوربا ولهم حظوة في بلاط ملك الفرنجة. أن ملك فرنسا لويس الثاني Louis le pieux منح امتيازات تجارية لتجار يهود حوالي 825م، للمزيد - Histoire du développement culturel, T3, p 281.

-- أولا: موقعه المنفرد في وسط البحر الأبيض المتوسط على مقربة من السواحل الإسلامية في المشرق والمغرب.

ثانيا: ارتباط مدن الجنوب الإيطالي أمالفي Amalfi، جايتا Gaeta، البندقية Venise و نابولي Napoli منذ زمن بعيد، بالإمبراطورية البيزنطية، مما جعلها تتمتع بقدر كبير من الاستقلال والحرية، ومنح لحكامها، نتيجة هذا التواصل، الفرصة للارتباط بعلاقات ودية مع المدن والموانئ الإسلامية ومكتنهم، بالتالي، من استجلاب السلع الشرقية وتصديرها بكل سهولة إلى أسواق وسط وشمال أوروبا، ثم يعودون من هذه الأسواق محملين بما يسهوونه أهالي المشرق من سلع نادرة، يأتي في مقدمتها الأحاسيب والتعبيد والسلاح⁽¹⁾، إلى درجة دفعت البابوية إلى التدخل مرارا للضغط على تجار هذه المدن الإيطالية، وإجبارهم عن العدول لبيع مثل هذه السلع التي صنعها ضمن قنصته السلع الإستراتيجية، التي لا يسمح ببيعها للمسلمين، لأنهم غالبا ما يستعملونها في حروبهم ضد المسيحيين⁽²⁾.

واعتبارا للفائدة الكبيرة التي أمتها حكام العائد الإسلامي من وراء التجارة مع الإيطاليين في هذه السلع النادرة، فقد وفروا لهم كل السبل الملائمة التي تشجعهم على النشاط والإقامة في مدنها، وسمحوا لهم بإقامة الأديرة لاستقبال الحجاج وغابري أنسبين من المرصى والمحاجر⁽³⁾. فنقد وصل عدد تجار أمالتفي Amalfitains في مدينة

⁽¹⁾ Marie- Martin: "Les pays d'Islam et L'Italie Méridionale (950-1250)" in (Islam et Mride latin milieu X^e - milieu XIII^e: espace et enjeux. ed. (ADHE), 2000, p 129-30 & 135-6.

⁽²⁾ هايد.و: المرجع السابق، ج 1، ص. 111.

⁽³⁾ من ذلك مثلا: ان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله منح النجالية الإيطالية قطعة ارض لإقامة دير سانتا ماريا دي لا تينا Santa Maria di Latina، الذي صار يستقبل الحجاج الغربيين والفقراء والمرضى المسيحيين. راجع: Heers. J: précis d'histoire du Moyen age, op.cit. p 121.

القاهرة وحدها K خلال السنوات الأخيرة من القرن العاشر الميلادي سانتان (200) تاجر، أظهرت الروايات أنهم كانوا يقطنون بفندق اسمه "دار المناخ Dar Al Manak".⁽¹⁾ وإلى هذه الفترة من تواجد التجار الإيطاليين في بعض الحواضر الإسلامية، سجلت كتب الإخباريين وقائع لأحداث منافيه للأعراف، كان إيطاليها هؤلاء التجار الإيطاليين. أعطت للباحثين شواهد ودلائل لفهم طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين المسيحيين والمسلمين خلال هذه الفترة (القرنين التاسع والعاشر الميلاديين). نسوق منها واقعتين على سبيل المثال.

ففي سنة 828 م = 213 هـ تمكن تجار البندقيين المقيمين بمدينة الإسكندرية المصرية من استغلال أهالي هذه المدينة، وعمدوا إلى سرقة رفاه القديس مرقس Saint Marc، وهو أحد حواربي المسيح عيسى عليه السلام، وأخذ كتبة الإنجيل، وقاموا بنقلها سرا إلى مدينتهم (فينيسيا) التي أصبحت منذ ذلك الوقت، تتخذ من هذا القديس شفيعا ونصيرا لها. وتعتبر بتسميته نفسها باسمه: جمهورية القديس مرقس La Republique de saint Marc.⁽²⁾

وفي سنة 966 م = 386 هـ تحدثت مصادر عربية ولاتينية عن واقعة خطف جلاء تعرض التجار الإيطاليين - أكثرتهم من مدينة أمالفي Amalfi المقيمين بمدينة القاهرة - لاعتداء بالقتل والنهب على أيدي المسلمين، بعدما اتهمتهم جهات معينة

⁽¹⁾ Sh.D. Goitein: Le commerce méditerranéen avant les croisades, quelques faits et Problèmes. In des relations des pays d'Islam avec le Monde latin) p 200.

كاهن، ك: "تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين، مختصر، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج 11، من 72-871

صحي نيب: الفندق، ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية من كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط، إعداد وتقديم: د/ رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط1، 1986، ص. 288.

⁽²⁾ هاندي، و: المرجع السابق، ج 1، ص. 125

- Cahen, op: "Commercial opcit, p7

بضلوهم في عملية إضرام النار في وحدات الأسطول الحربي الفاطمي، الذي كانت الحكومة الفاطمية بصدد تجهيزه عند نهر النيل استعدادا لمواجهة الأسطول البيزنطي⁽¹⁾. ومع ذلك لم تدم القطيعة طويلا بين الفواطم وتجار المدن الإيطالية، إذ سرعان ما استرد حكام القاهرة السيطرة على الأوضاع، فبرؤوا التجار الأجانب من تبعات ما حصل، وسمحوا لهم بالعودة إلى مواقعهم ومواصلة أنشطتهم المعتادة، لأن ذلك يصب في مصلحة الدولة الفاطمية، التي كانت في حاجة ماسة إلى السلع التي يأتي بها التجار الإيطاليين وبخاصة الأخشاب و السلاح والعبيد لاستعمالها في مواجهة أطماع جيرانها البيزنطيون و انغيسيون⁽²⁾.

وفي غضون مطلع القرن الحادي عشر للميلاد شرع أهالي مدينتي جنوة وبيزة، الواقعين على الساحل الشمالي من البحر التيراني، في الالتحاق بقافلة تجار المسلمين الإيطالية الذين سبقوهم إلى أسواق العالم الإسلامي في شمال إفريقيا ومصر. وجاء اتحاق أبناء هذين المدينتين بركب التجارة انغمس في حوض المتوسط بعدما سكنتهم اضطراب من فك الحصار البحري الإسلامي الذي أوصد في وجوههما كل أفق للاتصال مع العالم الخارجي منذ أن وطدت أقدام المسلمين سواحل شرق الأندلس، وبسطوا سيطرتهم على الجزر المنتشرة قبالة البحر التيراني ككورسيكا وسردينيا.⁽³⁾

ولما خفت حركته انحصار البحري الإسلامي على تلك الجهات، بسبب الأحداث الخطيرة التي عصفت بوحدة المسلمين في الأندلس، نهض أبناء المدينتين -جنوة وبيزة- بإيعاز وتحريض من البابوية لتخليص مياه الحوض الغربي للمتوسط من الوجود الإسلامي، وفي ظرف زمن وجيز أمكنهم الحال من استرجاع معظم الجزر الهامة

(1) يحي الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي. تحقيق عد السلام التتمري و جروس برس، طرابلس.

لبنان 1990 ص 233-34.

(2) Balard, M: Notes sur le commerce entre l'Italie et l'Egypte sous les Fatimides, op-cit, p. 335 - E. Rivero: op-cit, p. 22.

(3) E. Perroy, les croisades et l'orient latin (1095-1204) op-cit, p 20-1.

بالمنطقة (سردينيا- كورسيكا- البليار - وكريت)، وتيسر لهم إعادة إدماجها داخل المجال المسيحي اللاتيني⁽¹⁾. وإذ قويت شوكتهم بهذا النجاح، الذي لم يكن في الحسبان، أخذت المدينتان تستعدان للدخول معترك المنافسة التجارية على السلع الشرقية بالموانئ الإسلامية بكل عزيمة وإصرار.

ومنذ هذا العهد الذي شهد نفوق بحرية جنوة وبيزة، بدأت المصادر التاريخية تشير إلى وجود نشاط تجاري بدأ يضطلع به تجار هاتين المدينتين في كل من مصر وإفريقيا. ففي سنة 1060م كشفت إحدى وثائق جنيزة القاهرة، هي عبارة عن رسالة بعث بها تاجر يهودي مقيم في الإسكندرية إلى شريكه الذي يقطن بالقاهرة يعلمه بوصول عدد كبير من السفن المحملة بالسلع قادمة من بلاد الروم، من ضمنها سفنا تابعة للجنوية⁽²⁾.

ولقد حافظ تجار جنوة، على ما يبدو، على صلاتهم التجارية مع الفاطميين في مصر. حتى أثناء الحملة الصليبية الأولى، وما بعدها، بنيل ورود إشارات عديدة في وثائق أخرى، تعود إلى الفترة الممتدة ما بين (1101م - 1164م)⁽³⁾، عن وصول عدد معتبر من التجار الجنوية إلى مدينة الإسكندرية محملين بمادة الخشب، أما كانت حكومتها

⁽¹⁾ J. la court Gayet: Histoire du commerce T2, P 225.

⁽²⁾ S.D. Goiten: Lettres of Medieval Jewish traders, Princeton, 1973, p 39-45.

⁽³⁾ أظهرت الوثائق الخاصة بالعقود التجارية التي أشرف عليها الموثق جيوفاني سكريبا Giovanni Scriba الفترة (1155- 1164م) أن رجال الأعمال الجنوية أرسلوا خلال هذه الفترة (المسماة بالمحاصر) ما عتده عشرة سفن بحرية إلى ميناء الإسكندرية أي بمعدل سفينتين تجاريتين، تقريبا، كل سنة. كما أظهرت هذه العقود أن مدينة الإسكندرية مثلت الهدف الأول للمستثمرين الجنويين خلال هذه الفترة.

- J. lacourt Gayet: Histoire du commerce, op-cit, T2- p225.

- Kruieger, H.c: Navi e proprietà Navale a Genova. Seconda metà del sec. XII. (Atti della società ligure di storia patria). Vol XXV/1 Gênes 1985. P11-23.

- Kruieger, H.c: Genoese Merchants, their partner ships and investments 1155 to 1164. in onore to Armando Saporì, Milano. P 263-66.

- S.M. Stern: "an original document from the fatimide chancery" concerning italian Merlanti (Studi orientalistici in onore di giorgio levi della vida, T2, Rome- 1956. p 532 533.

-Keddar, B, 2: Mercanti genovesi in Alessandria degitto negli annisessanta nel secolo XIII, in (Miscellanea di studi storici, II, Genes 1983. p 19-30.

الفاطميون تكثروا من الطلب على هذه السلعة الحيوية، خلال تلك الفترة، لاستعمالها في بناء أسطول بحري يمكنها من مواجهة حملات القوات الصليبية الغازية عند الحاجة⁽¹⁾.

(2) - نشاط جنوة التجاري في بلاد المغرب على عهد المرابطين.

أظهرت عديد الشواهد التي وردت متفرقة في بعض المصادر الأوربية أن بداية نفوذ جنوة إلى الأسواق المغربية لم يأت عن قناعة أو اختيار إرادي جنح إليه الطرفان، إنما فرضته ظروف التحولات السياسية والعسكرية التي عرفتها منطقة غرب المتوسط، منذ تراجع قوة الطرف الإسلامي الهجومي أمام صيريات قوى الغرب المسيحي المتتالية⁽²⁾.

لقد أفضت الغزوة الشرسية التي قادتها جنوة بالتحالف مع جهات مسيحية أخرى على مدينة المهدية عاصمة إمارة بني زيري في إفريقية سنة 1087م-480هـ، بقيادة علي الاستخواني على قدر كبير من الثغائن والأسلاب⁽³⁾، بين فتح المجمل واستعلاء مسد مواطني القومونة المسلمة بكل قوة وضممت في إمارة إفريقية، وقد ظهر ذلك جليا في العهد الذي قطعه الحاكم الصنهاجي تميم بن المعز مع الجنوية، القاضي بفتح موانئ دولته لاستقبال التجار الإيطاليين، وتوفير شروط الأمن والحماية لهم⁽⁴⁾. ومنذ ذلك الوقت أخذت سفن جنوة تضطلع، إلى جانب مهامها البحرية التي تعودت القيام بها، كلما سمحت الفرص

⁽¹⁾ Kaddar, B.Z: op-cit, p. 19-30.

⁽²⁾ هذا دليل على أن الجنوية كانوا ينجبون على الحنينين يشاركون، من جهة في الحملات الصليبية الموجهة ضد بلاد الشام، ومن جهة أخرى، كانوا يحرصون على محاربة الفاطميين في مصر لأجل الفوز بقسط من التجارة المصرية. - M. Lombard. "Arsenaux et bois de marine dans la méditerranée musulmane du XI au XI S" in (actes des 2^e colloque d'histoire maritime) Paris, 1958, p 58-75.

- هايد. و: تاريخ التجارة، 2، ص. 137.

⁽³⁾ غزوة 1034 على بونة، غزوة 1087م على المهدية، غزوة 1136م على بجاية.

⁽⁴⁾ راجع ما سبق، الفصل الثالث

بذلك، بمهام الأعمال التجارية من خلال زيارة الموانئ الإفريقية، بين الحين والآخر، لجلب ما تحتاجه من السلع والبضائع.

ثم عندما سقطت جزيرة صقلية سنة 1090م في أيدي النورماند نهائيا، جنا الجنوبية الذين أسهموا بنصيب كبير في هذه الحرب، من خلال الإمدادات الحربية التي قدموها للقادة النورماند، ثمار ذلك النصر، امتيازات تجارية واسعة في موانئ صقلية⁽¹⁾. سمحت لهم، مع مرور الوقت، من دخول معترك المنافسة البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط بجميع فئاتهم، حتى صاروا مضرب الأمثال، وقيل في شأنهم: "Genuensis, ergo mercator"⁽²⁾ "أنت جنوي إذا فانت تاجر".

أما بخصوص الفترة التي شرع أمالي مدينة جنوة في إقامة علاقات ودية وتجارية مع بلاد المغرب الإسلامي، فليس لدينا معطيات محددة بفترة تاريخية معينة. فالمصادر العربية المعاصرة، لتلك الفترة، بالرغم من أنها دونت كل ما يتعلق بحديثات العماليات العسكرية التي سبقتها فومونة جنوة بالتحالف مع بعض المدن الإيطالية الأخرى ضد مواقع المسلمين في الحوض العربي المتوسط (جزر سردينيا والباليار- صقلية- وسائر المغرب- الأندلس) منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، إلا أن تلك المصادر، مع الأسف، لم تشر، لا من بعيد ولا من قريب، إلى محاولة الجنوبية العمل على توظيف انتصاراتهم العسكرية التي حققوها على حساب المسلمين في خدمة مصالحهم الاقتصادية⁽³⁾. وما هو متوفر بين أيدينا حتى الوقت الحاضر، من إشارات عن بدايه قيام

⁽¹⁾ H. Bresc: La Sicile et les Musulmanes (950-1190) in (Islam et monde latin milieu du X^e milieu XIII S) ed. ADHE, Paris 2000, p.28-3

⁽²⁾ -Encyclopedia Universalis 10

⁽³⁾ ربما يكون نورماند صقلية أول من جنح من الأمم المسيحية إلى بناء علاقات ودية مع مسلمي بلاد المغرب. ظهر ذلك جليا فيما أقدم عليه الأمير روجار الأول Roger I من تطبيق سياسة العفو الشامل تجاه أهالي جزيرة صقلية من المسلمين، بعد أن تمكن من فتحها والسيطرة عليها، كما حافظ على الصلات الودية التي كانت قائمة بين مسلمي الجزيرة وسكان إفريقيا، بنيل رفضه المشاركة مع المدن الإيطالية، بيزة، وجنوة، وغيرها، في الحملة الصليبية التي استهدفت

صلات ودية وتجارية بين قومونة جنوة الإيطالية ودول المغرب الإسلامي، يعود منطلقه إلى عهد دولة المرابطين، وذلك من خلال تلميحات وردت مبعثرة في بعض المصادر الروائية اللاتينية، لكن من غير أن تكون هناك مستندات وثائقية تعزز هذه الفرضية.

ليس مستبعدا على الإطلاق، في أن يكون مواضي جنوة وبيرة، قد نفضوا ألباء الحملات العسكرية المتتالية التي شنوها ضد بعض المدن والموانئ الإسلامية في المغرب والأندلس إلى المنافع الاقتصادية التي يمكن أن يجنوها فيما لو سلكوا الطرق الودية في التعامل مع مسلمي هذه الجهات، على غرار ما كان يقوم به أبناء جمهورية البندقية، منذ زمن بعيد. ومن ثمة حاول بعض من أبناء تلك اتمنيين إظهار التوايا الحسنة في التقرب من الحكام المسلمين بغرض التعامل معهم وديا في ميدان المبادلات التجارية.

غير أن ما يميز هذه العلاقات الودية التجارية المستجدة، التي تعددت عنها بعض المصادر اللاتينية، أنها لم تأخذ، منذ البداية، الصيغة الرسمية العلنية، بسبب ما كان يشعر به انصرفان من الخذر والتخوف تجاه بعضهم، وظلت تلك العلاقات، لفترة طويلة، سلفية وغير موثقة des conventions verbales et non écrites⁽¹⁾. اقتصررت على الأرجح، في اتفاق الطرفين على السماح للتجار بممارسة الأنشطة التجارية، وضمان توفير الأمن والحماية لهم بالموانئ التي يقصدها. وقد ذهب المؤرخ العلامة الإيطالي روبرتو لوبيز S. Roberto Lopez، وهو يعد من أشهر المختصين في تاريخ أوروبا الاقتصادية في العصور الوسطى، إلى الاعتقاد بأن سلطات مدينتي جنوة وبيزا وفقت

مدينة المهدية سنة 1087م. وليس مستبعدا أن يكون هذا التناغم في العلاقات بين صقلية وإفريقيا قد شجع مواظمي الدولتين إلى العودة إلى ممارسة نشاطهم التجاري المعتاد. ويؤكد هذا الرأي أن روجار الثاني Roger II أوفد سنة 1121م سفارة إلى حاكم إفريقيا، الأمر علي بن يحيى حفد تمتد، لتحديد الاتفاقية التي عقدها، والاسما من قبل: للمزيد راجع:

- De Mas latrie: relations, p. 63.

⁽¹⁾ Lopez, R: studi sul economia genovesi nel medioevo, op-cit, p.5.

- De Mas latrie: Relations, p74.

في إبرام اتفاقيات تجارية شفوية مع أمراء دول المغرب، الزبيريين والحماديين في الفترة ما بين 1060 إلى 1080 م.⁽¹⁾

كما أكد من جهته، الخبير في تاريخ العلاقات بين دول أوروبا اللاتينية وبلاد المغرب الإسلامي في العصور الوسطى، المؤرخ دي ماس لاتري De Mas Latrie، أن أول إشارة مؤكدة عن إبرام اتفاقية لإقامة علاقات ودية بين المدن الإيطالية وحكام بلاد المغرب الإسلامي ورد ذكرها في المصادر اللاتينية، تعود إلى سنة 1133م = 527هـ. ففي هذه السنة، حسب ما جاء في كتاب دي ماس لاتري⁽²⁾، وصلت إلى مدينة بيزة سفيران إفريقيان على منبهما رسل ملك المغرب Le Roi du Maroc.... ونم، حسب ما جاء في وثائق قديمة⁽³⁾، إبرام معاهدة، أو مسالمة بتاريخ 26 جوان بين السفراء المغربية وجمهورية بيزة....

وأصبح أن ثبت صحة إبرام هذه المعاهدة في هذا التاريخ، أن ملك المغرب Le Roi du Maroc المفصود في النص، هو من دون شك، الحاكم المرابطي يحيى ابن العزيز الذي كان يحكم في الأقاليم الشمالية لبلاد المغرب الأوسط والأقصى، لأن حركته المتدحلق

⁽¹⁾ R.S. Lopez: storia della colonie Genovesi nel mediterraneo, Gènes 1997.

p. 28.

⁽²⁾ Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétienne au moyen age, p. 68-9.

3)-comme il est dit dans les anciens documents

- واضح لم يحدد أن Mas Latrie لم يحدد لا نوع، ولا اسم هذه الوثائق، التي يزعم أنها سجلت معاهدة 1133م. وما يحذر الإشارة إليه كذلك، أن المؤرخ الإيطالي Lisciandrelli أدرج هذه المعاهدة ضمن كتابه الذي حوى مجموعة المعاهدات.

- Lisciandrelli, P : Trattati e Negoziations politiche della repubblica di Genova (958-1797). Regitri. (ASLSP), Nuova serie, vol 1, (LXXV delle raccolte). Genova. MCMLX.

التي كان يقودها عبد المؤمن بن علي، في هذه الأثناء، ما زالت مستقرة بالأقاليم الداخلية، ولم تتمكن بعد من توسيع سيطرتها إلى الجهات الساحلية.

ثم يضيف المؤرخ دي ماس لاتري في سياق حديثه عن مسار العلاقات الودية التجارية التي شرعت المدن البحرية الإيطالية في إقامتها مع بلدان المغرب والأندلس خلال العشرية الرابعة من القرن الثاني عشر الميلادي، بشيء من التأكيد لكون، دائماً، من غير أن يحدد مصادره: "...وإذا كان البيازنة هم أول من أبرم معاهدات صريحة des Traités formels⁽¹⁾، فالأمر المؤكد، أن قومونة جنوة تحصلت، هي الأخرى، في نفس الفترة تقريباً، أي سنة 1137م، على امتيازات تجارية كبيرة بالسواحل المغربية ما جعلها تحظى باحترام وتبجيل من قبل سلطان المرابطين⁽²⁾، إلى درجة أهلتها هذه المكانة المرموقة لأن تلعب دور الوسيط بينه وبين حكام إمارات وكونتات مدن ساحل البروفانس، حين عملت قومونة جنوة على تأسيس تحالف بينها وبين أمراء تلك الجهات، يقضي بأن تساعد جنوة هؤلاء على انقرب من حاكم المغرب وإبرام اتفاقيات تجارية معه، في مقابل أن يتعينوا بعد التقياد بأسس الفرصنة والمخصوصية صلت مصالح ورشديها أمير المؤمنين⁽³⁾.

(3) - صلات جنوة التجارية مع إمارة بني حماد في بجاية.

لم تخضع إمارة بني حماد في بجاية لنفوذ المرابطين الذين توقف مداهم عند جزائر بني مزغنة، وظلت هذه الإمارة، منذ أن انفصلت عن الإمارة الزيرية في تونس 389-

⁽¹⁾ De Mas Latrie, relations, p69

⁽²⁾ Liber Jurium. Vol.1, col 55.& - Ann.Genovesi. I, p.28

- Lebel, G: Gènes et le Maghreb (studi Maghrebini) vol XXII 1990, (p59-86), p 62

⁽³⁾ " Que les Génois s'engagent à favoriser l'installation des marchands Marseillais en Afrique du nord."

-De Mas latrie: relations, p69-70. & - R. Idris: La Berbérie, T2, p. 68.

399هـ = 1007-1008م، تنعم بالاستقلال والرخاء لمدة نصف قرن تقريباً⁽¹⁾ ولديها علاقات سياسية مع العديد من الدول الإسلامية والمسيحية. مع الأندلس، المشرق، صقلية والبابوية.⁽²⁾ إلى أن تم إخضاعها لسيطرة الدولة الموحدية سنة (1152م = 547هـ) عندما وفق القائد العظيم عبد المؤمن بن علي من توحيد بلاد المغرب قاطبة، ومعها بلاد الأندلس في كنف إمبراطورية موحدة.

واثن وجدت وثائق دينية رسمية تتحدث بوضوح عن وجود صلات ودية وتبادل للسفراء والهدايا بين المؤسسة الدينية الكاثوليكية في روما، وإمارة بني حماد في بجاية. تعود إلى الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، (رسائل البابا جريجوار السابع Gregoire VII إلى الأمير الحمادي الناصر 1076-1077م)⁽³⁾. إلا أنه فيما يتعلق بجانب العلاقات التجارية بين الحماديين والمدن البحرية الأوربية، فالوثائق المتوفرة نحد الآن لا تؤكد وجود صلات من هذا النوع مع الأمم المسيحية، إلا في الفترة التي سبقت سقوط هذه الإمارة ببضع سنين، وبصورة تنقصها المصداقية.

جاء في روايه سونيه الإخباري الجنوبي Cattaro⁽⁴⁾ أنه بتاريخ 1150م - 550هـ، سيرت قومونة جنوة حملة بحرية مكونة من اثنتي عشرة (12) سفينة حربية Galeres على ميناء بجاية، فأصابته عند مدخله سفينة تجارية إسلامية ضخمة محملة بسلع كثيرة، فاستولوا عليها عنوة، ونهبوا حمولتها، واسروا من كان بها من التجار

⁽¹⁾ أشار الشريف الإدريسي إلى حياة الرخاء والازدهار التي نعمت بها مدينة بجاية خلال هذه الفترة ... ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحصنة، والأمتعة السائرا، وحرا محنة، النضائع بها نافعة، أهلها مناسر تحار...

- المغرب العربي من كتاب "تزهة المشتاق" مرجع سابق، ص. 116.

⁽²⁾ R. Bourouiba: Les Hammadites. Ed, Enal, P. 103-5.

⁽³⁾ De Mas Latrie, traites II, p. 7-8.

- Lopez, R: Storia della colonia Genovesi nel Mediterraneo, op-cit, p. 28-9.

⁽⁴⁾ Annali. Genovesi e de suoi continuari. vol 1. p. 28.

المسلمين، وحملوهم إلى مدينة جنوة حيث تم بيعهم. ولقد حقق الجنوية من وراء هذه العملية، حسب ما حرص على تأكيده صاحب الرواية، أرباحا طائلة⁽¹⁾

من المحتمل، حسب ما جرت به العادة، أن يكون الجنوية أثناء حملتهم المضطرة على مدينة بجاية قد أرموا حكام المدينة على منحهم موافقة نجيز لتجار القوموية إرتياد سياء بجاية للتجارة، بدليل أن وجود التجار الجنوية بميناء بجاية قد تأكد بصفة رسمية منذ 152م = 547هـ، تاريخ خضوع هذه المدينة لنفوذ عبد المؤمن بن علي⁽²⁾.

(4) - ازدهار النشاط التجاري الجنوبي في بلاد المغرب خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي

تجمع المصادر التاريخية أن سياسة جنوة الخارجية قد عرفت تحولا جذريا في مسارها منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، أي منذ الفترة التي بدأ مسؤولو القوموية يقتنعون بضرورة العدول عن خيار تفضيل العمل العسكري في تعاملهم مع القوى المسيحية بالخصوص العربي المتوسط، وشروعوا، منذ ذلك الحين، يجتهدون إلى اختيار الدبلوماسية وتشجيع فرص التواصل الودي، وفتح المجال للتفاوض مع جيرانهم في بلاد المغرب والأندلس، للحصول على المكاسب والامتيازات، وعلى نفس الدرجة من التفهم والقناعة أيضا، أيقرن الخليفة الموحيدي عبد المؤمن، الذي صار يحكم، خلال هذه الفترة،

⁽¹⁾ للمزيد من التفهم: راجع أيضا:

- Cannale, M.G: Nuova storia della Repubblica di Genova, Vol1, P 132-4.
- Lopez, R.S: storia della colonia, p 110.
- R. IDRIS: op-cit, 12- p 680.

⁽²⁾ يذكر صاحب الحوليات الجنوبية كافارو Caffaro، أن أبناء مدينته قاموا سنة 1146م، بحملة مشابهة ضمت اثنا عشر (22) سفينة حربية، على جزيرة ميورقة، كان هو مشاركا فيها، وأصابوا فيها غنائم كثيرة، ثم انتهت في السنة الموالية (1147م)، حملة أخرى استهدفت ميناء المرية، وحقت نصرا باهرا عليها، وفي كلتا الحملتين كان الجنوية يرغمون الحكام المسلمين على منحهم مواقع وتسهيلات جمركية لممارسة النشاط التجاري بتلك الجهات. للمزيد راجع: - Ann, Genov, I, p. 28-9. -

إمبراطورية شاسعة تشمل كل ربوع بلاد المغرب وديار الأندلس، بأن ضمان استمرار قوة إمبراطوريته وازدهارها مرتبط، لا محالة، بما يتوجب عليه أخذه من تدابير سياسية لفتح آفاق التعاون مع المحيط الخارجي، وإعادة دفع وتنشيط الوضع الاقتصادي في المغرب والأندلس الذي دمرته سنوات الحرب الأهلية والانقسامات الداخلية، إضافة إلى ما خلفته غزوات الأعراب من خراب مس كل قطاعات العمل والإنتاج في بلاد المغرب. لذلك لم ير عبد المومن مانعا، في أن يعمل على فتح قنوات التواصل في هذا المجال (الاقتصادي) مع الدول المسيحية في أوروبا، خاصة بعدما صار التواصل بين بلاد المغرب و بلاد المشرق صعبا، بسبب النفور السياسي الذي طبع مناخ العلاقات بينهم. منذ إعلان عبد المومن نفسه خليفة (1).

كان من الطبيعي إذا، أن تتوافق طموحات الطرفين الجنوبي والموحدي لأجل إقامة تقارب ودي بينهما يخدم مصالح الدولتين، وخلال هذا الزمن، الذي تميز، لأول مرة، بصفاء في العلاقات، بدأ الطرفان المسيحي والإسلامي يجران محادثات مباشرة، روعى فيها تغليب المنفعة الاقتصادية المتبادلة على الاعتبارات الدينية. كما بدأ العمل، منذ هذا الوقت، بتدوين ما يتم التوصل إليه من خلال المفاوضات المباشرة في اتفاقيات رسمية، غالبا ما تكتب باللغتين العربية واللاتينية، ويتم توقيعها بختم كبار المسؤولين في الدولة كضمان للتأكيد على صحتها الرسمية، وكذا دوام صلاحية بنودها طيلة المدة المتفق عليها. إلى أن يتم تجديد بنود تلك المعاهدات أو تحويلها بحسب ما تقتضيه الظروف والمواقف في فترات لاحقة (2).

(1) - حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر الموحدين والمرابطين. مكتبة الخانجي

القاهرة، ط1، 1980، ص. 55.

(2) كانت أول اتفاقية تجارية ثنائية وصلتنا مدونة باللغتين العربية واللاتينية وتحمل توقيع الطرفين المتفاوضين. هي معاهدة سنة 577هـ = 1181م المبرمة بين سفراء قومونة جنوة وحاكم البليار (ميورقة). للمزيد راجع.

- Amari, M: Nouavi Ricordi Arabia su la storia di Genova 1873, p. 6-10.

ولا شك في أن الدافع الذي حفز القوى الأوروبية التي كانت تتطلع لإقامة علاقات تجارية مع المسلمين على المطالبة بتدوين اتفاقياتها في وثائق رسمية راجع، بالدرجة الأولى، إلى التحول الكبير الذي حصل في بلاد المغرب والأندلس، منذ أن استطاع عبد المؤمن بن علي القضاء بقايا الدويلات الصغيرة، والضوائف المختلفة، التي كانت تقسم أقطار المغرب والأندلس، ووجد هذه الأقطار في إمبراطورية شاسعة قلما عرفتھا المنطقة منذ فجر التاريخ. بحيث لم يعد من الممكن، لأول مرة، على الدول الأجنبية التي تريد إقامة نشاط تجاري مع موانئ تونس - بجاية - سبتة أو المرية، القيام بذلك من خلال الاتصال مباشرة مع حكام هذه المدن، كما كان عليه الحال في السابق. إنما صار يتحتم على كل دولة تسعى للظفر باستقبال مزموق في إحدى هذه الموانئ الاتصال مباشرة بممثل السلطة المركزية الحاكم الأوحّد للبلاد، الخليفة الموحي، الذي يفيد بالخاصة مراکش. لهذا السبب صار لزاماً أن يتم تدوين الاتفاقيات، والمصادقة عليها بختم الحاكم الأول في البلاد، ثم ترسل نسخاً منها، بعد ذلك، إلى تولد المقيمين بالموانئ والاتقاسيد للعمل بها.

وتماشياً مع هذا التطور الحاصل في مسار العلاقات، أقدمت قومية جنوة سنة 1154م على إرسال بعثة لمقابلة الخليفة عبد المؤمن، عندما كان متواجداً بالمغرب الأدنى يقود حصاراً على مدينة تونس، لتفاوض معه بشأن تحديد أضرار التناغم في ميدان العلاقات التجارية بينهما⁽¹⁾. وقد أفضت المبادرة إلى الوصول إلى اتفاق يضمن السلم والأمان لرعايا الدولتين.

ويعتقد أن هذا الاتفاق المتوصل إليه خلال هذه السنة كان شفهيًا Convention orale⁽²⁾، على اعتبار أنه تم في ظرف خاص، أثناء انشغال عبد المؤمن بالحرب لأجل

(1) - Jehel, G. Les Génois, p. 38.

(2) - أما ما يؤكد سريان مفعول هذه الاتفاقية التي يغلب الظن أنها شفوية، بحكم عدم العثور على نسخ لها في دور الأرشيف الإيطالية، فأنّ التحقيقات الجبوية ذكرت حادثة تعود إلى سنة 1154م، تقول: في هذا التاريخ صانفت أحدى

أبحرا في شهر ديسمبر باتجاه تونس على متن سفينتين محملتين ببعض العبيد المغاربة⁽¹⁾. ثم عززت هذه السفارة ببعثة ثانية، في ظرف زمني قصير، يقودها السفير أمبروز سبينولا Ambrozio Spinola، وبصحبه عدد من نبلاء البلاط الميلانوي محملين بالهدايا للملك الحفصي ورجال حاشيته⁽²⁾.

وكان المقصود من هذه العملية واضح هو التحضير لعملية إطلاق سراح الأسرى الجنوبيون، ومبادلتهم بالأسرى المغاربة⁽³⁾. ولقد ترتت عن هذه المهمة الدبلوماسية انفراج طفيف في علاقات الجنوبية مع الحفصيين، من خلال عودة التجار الجنوبية إلى نشاطاتهم في موانئ السلطنة، وتعيين فنصل بالعصمة الحفصية (تونس) سنة 1421م لرعايته مصالحهم⁽⁴⁾. كما تم إطلاق سراح بعض الأسرى الجنوبيين الموقوفين في سجون السلطنة⁽⁵⁾.

كان من مصلحة البلدين أن تتوقف العداوة والشحناء بينهما وتستمر، بدلا من ذلك، علاقات النود والتعاون التي شرع في تهيئة الظروف للدفع بها إلى الأمام. لكن سنين التطيعة الطويلة، وما تخللته من أزمات حادة أضرت بالطرفين. فك ظلت تلقى بثقلها، بين الحين والآخر، لتعرقل مسار التقارب السلمي بين البلدين. مثل ما حدث سنة 1428م، عندما ألقى قراصنة من جنوة القبض على أحد رعايا الملك الحفصي المرموقين المسمى "ابن سكارى" Ben Schari، فأوجبت هذه الحادثة التي لم تكن منتظرة، مرة أخرى،

(1) السفينتين كانتا ملك لمواطنين جنوبيين هما: فيليبو فيفالدي والآخر طماسو سكارا شيافيكو Sqrclafisco.

- Mareng, E: Geova e Tunisi, p. 38.

- G.P.Balbi: il consolato, p. 249.

(2) De Mas Latrie: Relations, p. 458.

- Doumerg, B: Venise, p. 47.

(3) De Mas Latrie: Relations, p. 458.

- Doumerg, B: Venise, p. 47.

(4) اسم القنصل نيكولا براسيلي Nicollo Bracelli.

- Marengo, E: Genova e Tunisi, p. 38-47.

(5) لم يتم إطلاق سراح جميع الأسرى عقب مفاوضات سنة 1425م، لأنه حتى سنة 1426، كان مازال على حكومة جنوة أن تدفع 16000 مليون لشراء حرية مساجين آخرين.

غضب السلطات التونسية، فتمادت في مضايقة التجار الجنوبية إلى درجة أنها فرضت عليهم، دون سواهم، ضريبة إضافية يدفعونها حال وصولهم إلى الميناء على ما يحملونه من سلع قيمتها سبعة آلاف (7000) دينار مضاعف (دبلون ذهبي)⁽¹⁾، واستعملت هذه الضريبة لتغطية الخسائر التي لحقت بالمواطن التونسي السابق الذكر. ولم يستطع التجار الجنوبية المقاومة، ورضخوا للأمر الواقع، وظلوا يدفعون هذه الضريبة إلى غاية سنة 1431م⁽²⁾.

وعبثا حاولت الجمهورية تسوية المشكل بالطرق السلمية، فأوفدت لهذا الغرض سفيراً اسمه كريستوف ماروفو Cristoforo Maruffo لدراسة سبل تجاوز هذه المحنة، وإعادة السلم بين الطرفين، عارضاً على حكومة بني حفص اقتراح تجديد معاهدة 1383م،⁽³⁾ ثم تفاقمت الأمور خلال السنوات الموالية، رغم محاولات التهذنة المتكررة من جانب الجنوبية، خاصة عندما قام الحفصيون بتسيير عدة غارات خاطفة على أهداف جنوبية، كتلك التي استهدفت جزيرة كبري سنة 1428م، حيث تمكن غزاة البحر المغربية من اختطاف عند كبري من سكان هذه الجزيرة، ونقلوهم أسرى إلى تونس⁽⁴⁾. ثم في سنة 1430م اعتدى، مرة أخرى، قراصنة مغاربة على سفن جنوبية بعرض مياه البحر المتوسط، وقاموا بالاستيلاء عليها ونقلها بجميع من فيها من البضائع والركاب إلى ميناء بجاية⁽⁵⁾. ولم تتوقف أعمال القرصنة والعدوان من كلا الجانبين إلا مع حلول سنة 1431م، بمبادرة من الحكومة الجنوبية التي كانت في حاجة كبيرة، أكثر من المغربية، إلى إنهاء هذا

⁽¹⁾ De Mas Latrie: Relations, p. 458.

⁽²⁾ Mareng, E: Genova e Tunisi, p. 39.

- برونشفيك، ر: 1 ص. 265-66.

⁽³⁾ - راجع الوثيقة رقم 6 في الملحق

⁽⁴⁾ - راجع الوثيقة رقم 7 في الملحق

⁽⁵⁾ برونشفيك، ر: 1، ص. 266.

الوضع المكهرب، وإعادة الدفء إلى العلاقات مع بلدان الضفة الجنوبية للمتوسط بأي ثمن.

ولكي تبدي الحكومة الجنوبية حسن نيتها نحو هذا التوجه، فقد أرسلت إلى العاصمة انحفصية، على مرتين، سفيراً برتبة "وكيل" *procuratore*، ممن ينتمون إلى كبار أعيان المدينة، وهو أستاذ في الطب اسمه بطرس دي فرنازو *Pietro di Vernazzo*، كلفته بمباشرة التفاوض لإنهاء مسألة الموظف التونسي (ابن سكارى)، كما حملته تفويضاً خاصاً بدراسة مسألة المبلغ الذي اشترطته الحكومة التونسية من قبل، وقيمته 7000 دبلون ذهبي، على أن يتم دفعه، في حال الوصول إلى اتفاق مع السلطات التونسية، في شكل أداءات جمركية إضافية كتعويض عن الأضرار التي لحقت بابن السكارى⁽¹⁾.

وافقت سلطات تونس على الاقتراح الجنوبي، وعلى إثر ذلك، فوضت الجمهورية قنصلها الجديد أندريا دي ماري *Andrea di Mari*⁽²⁾ لكي يباشر الاتصالات مع الجهات المعنية في تونس بهدف التوصل إلى صلح دائم بين البلدين. وانتهى أمر المفاوضات، في الأخير، إلى عقد اتفاقية بين القنصل دي ماري وممثل من الحكومة الحفصية الشيخ محمد بن عبد العزيز بتاريخ 9 أكتوبر 1433م = 827 هـ. حيث وردت إشارة في مقدمة بنود هذه الاتفاقية إلى القضية العالقة (قضية ابن السكارى)، واعتبرت منتهية وفق الشرط الذي وافق عليه الطرفان، القاضي بدفع التعويضات المحددة⁽³⁾.

⁽¹⁾ Marengo, F: *Genova e Tunisi*, P. 41.

⁽²⁾ القنصل أندريا دي ماري *Andrea di Mari* تولى منصب القنصلية في تونس على مرتين الأولى: من 1432-1434م)، والثانية: (1435-1439م) للمزيد، راجع:

- G. P. Balbi: *Il consolato genovese di Tunisi*, p. 232 et 255.

⁽³⁾ برونشيك: ج، ص. 266.

- راجع بنود المعاهدة 1433. عدد:

- De Mas Latrie: *traites*, II, doc 16, p.134-142.

- Marengo, F: *Genova e Tunisi*, doc N 03. p. 146.

- Jorgo, N: (Rol) vol VI, p. 118 & Notes et extrait, vol I, p. 556.

أما مجمل محتوى البنود الأخرى في المعاهدة، فقد استعادت، مع شيء من التفصيل، أهم الامتيازات الواردة في المعاهدات السابقة، سواء فيما يتعلق بالقناصل، الفندق، الضرائب، وكذلك حرية ممارسة التجار الجنوبية لنشاطهم في جميع الموانئ والأماكن التي كانوا يعملون بها في السابق، وبخاصة تونس، بجاية وبونة. كما منحت المعاهدة رعاية الجنوبية، وكل من يبحر على متن سفنهم، امتيازاً يتعلق بإلغاء الضريبة الجمركية الإضافية *tacala*، التي كانوا يدفعونها عند دخولهم الديوانة، إلى جانب ضريبة الترخيمان.

كما وافقت السلطات التونسية على بند خاص يسمح للجنوية التموين بالحبوب من الأسواق الحفصية في أوقات الأزمات. "... يسمح الجنوبية حق شراء الحبوب إلى حد 15000 *cafis* من القمح كل سنة، معفى من الضريبة *hors tax*، بشرط أن لا يتعدى السعر المحلي للفقير الواحد خمسة بيزنس *Besants*". بمعنى أن يكون الإنتاج وافر في إفريقيّا، وأن تكون الكمية المصدرة موجهة للاستهلاك المحلي في مدينة جنوة فقط⁽¹⁾.

أما فيما يتعلق بمسألة تحرير الأسرى من سجون السلطنة، فقد أقيمت الاتفاقية على شرط الطرف التونسي القاضي بضرورة تقديم فدية مقابل الإفراج عن السجناء. والجانب الوحيد، في هذه المسألة، الذي تساهلت فيه الحكومة الحفصية، نوعاً ما، هو في كيفية الدفع، بحيث سمح للمفتدين أن يدفعوا قيمه الفدية المحددة (16000 دويل). إن شاعوا سلعا، وحددت، تبعا لذلك، نوعية السلع التي تقبل كفدية في فك الأسير.

(1) - راجع هذا البند في المعاهدة المنشورة في كتاب :

وتشتمل عل ما يلي: سبائك الفضة lingot d'argent، قماش بورغونيا Toiles de Bourgone ، ملايا فلورنسا Draps de florence، المسك Musc، الفلفل poivre وغيرها من التوابل Epices، وكذلك السيوف القصيرة (الخناجر)، والسلاسل الذهبية Fils d'or⁽¹⁾.

أما المسألة التي لم تلق توافقا بين الطرفين، هي مسألة القرصنة، حيث رفض السلطان الحفصي تحمل مسؤولية الأضرار التي يمكن أن يلحقها الجنوية بأعدائهم في موانئه، أو يتعرضون هم لها من قبلهم.⁽²⁾ ولا شك أن في ذلك إشارة إلى أحداث الحرب القائمة بين جنوة و البندقية. ففي شهر مايو من سنة 1431م استولى الجنوية على سفينة تابعة للبندقية كانت راسية في ميناء تونس، وكان منتظرا، كما جرت به العادة، أن يتهيا البناقة للرد على العدوان والانتقام من الجنوية.

كان منتظرا من خلال بنود معاهدة 1433م أن يبدأ عهدا جديدا في مسار العلاقات الجنوية مع الحفصيين. نكر ذلك ثم يحدث في حينه. والسبب ما استجد من أحداث سلبية على الساحة الداخلية للإمارة الحفصية. فقد مات السلطان العظيم أبي فارس سنة 1434م، أي سنة بعد إبرام الاتفاقية، ودخلت الإمارة، مرة أخرى، في مرحلة من الفوضى وعدم الاستقرار دامت قرابة عشرون سنة، من (1435-1452م)⁽³⁾ اضطرت أثناءها الدول الأوربية التي لها نشاطات مع بلاد المغرب، إلى التقليل من أعمالها وعدم المغامرة

⁽¹⁾ De Mas Latrie: relations, p. 459.

⁽²⁾ ر. برونشفيك: [، ص. 266.

⁽³⁾ سبب الصراع حول منصب الإمارة، بدأ بعد وفاة أبو فارس سنة 1434م، حيث خلفه حفيده المستنصر لكنه واجه معارضة شديدة من طرف بعض الأمراء، الذين رفضوا مبايعته، وساندوا في تلك بعض الاعراب. مما تطلب محاربتهم. كما ألم به مرض عضال فأهلكه وقضى عليه. للمريد:

- ابن السماع: الأئمة النورانية، ص. 121.

باستثمار مبالغ كبيرة في تجارة المغرب، إلا في حدود ضيقة.⁽¹⁾ أو لدوافع حيوية قاهرة، كاستيراد مادة القمح أوقات الأزمات مثلا⁽²⁾.

ولما استقرت الأوضاع واستتب الأمن من جديد في ربوع إفريقية، بانتصار السلطان أبي عمر عثمان على المتمردين والمشاعيين، وتأكدت سيطرته التامة على شؤون البلاد، عادت الدول اللاتينية إلى سابق عهدهما في النشاط التجاري بموانئ المغرب، وقامت بإيفاد السفارات لتجديد العهد مع السلطان الجديد، وشهد القسم الأول من عصر ولاية السلطان عثمان الطويل الذي دام مدة ثلاث وخمسون (53) سنة، تجديد الكثير من المعاهدات السابقة.

ولقد تزامن اعتلاء السلطان عثمان عرش الإمارة الإفريقية مع وقوع تغيير على مستوى الهرم السياسي في مدينة جنوة، حيث تخلصت المدينة من حكم البودستا الأجنبي. وعادت شؤون السلطة فيها، من جديد، إلى أيدي أبناء المدينة ممثلة في السدوج Doge الذي صار يعين من بين المواطنين الأحرار. وعلى هذا الأساس كانت حماسة السدوج المنتخب رافائلي أنرونو Raffaele Adorno قوية لخدمة اقتصاد بلده، وحماسه تجارده ومساعدتهم في تطوير أشغالهم، فأرسل بتاريخ 23 ماي 1444 م = 848 هـ بعثة محترمة إلى السلطان عثمان ليُعرب له عن استعداد السلطات الجديدة في القومونة لاستئناف العلاقات الجيدة مع الدولة الحفصية مطالباً، في نفس الوقت، بتجديد معاهدة 1441م التي تعطل العمل بها بسبب ما جرى في تونس من خلافات داخلية⁽³⁾.

⁽¹⁾ يبدو أن الجالية الجنوبية تعرضت، مثل باقي النحاليات الأجنبية بالمتن الحفصية للمضايقات أثناء فترة الأزمة.

راجع:

- Jorga, N: Notes et extrait. I, p. 571.

⁽²⁾ في سنة 1436 عندما آلت بجنوة أزمة حادة في التمويل بالحبوب، أرسلت سفينة ضخمة مجهزة لهذا الغرض لشراء ما قيمته 2000 فقيير من القمح. للمزيد:

- Marengo, E: Genova e Tunisi, p. 151-2.

⁽³⁾ Marengo, E: Genova e Tunisi, p. 52-3.

- H. Leo: Histoire d'Italie. I, p. 778-9.

لقيت دعوة دوج جنوة رفاثلي أدرنو الهادفة إلى مواصلة العلاقات الطيبة مع إفريقيا ترحيبا مماثلا من قبل السلطان عثمان، وعلى إثر ذلك، تم عقد اتفاقية بين الطرفين بتاريخ 23 ماي 1444م = 848 هـ، أمضاها من الجانب الجنوبي السفير زكريا سبينولا Zaccaria Spinola، ومن الجانب الحفصي ممثل السلطان عثمان الشيخ أبي هلال، تم بموجبها الاتفاق على تجديد بنود معاهدة 1433م، مع إضافة بعض التوضيحات الهامة، لاسيما فيما يتعلق ببند الأداءات الجمركية، حيث منحت تسهيلات للتجار الجنوبية من خلال الإبقاء على الضريبة المعهودة على السلع الواردة والمقدرة بـ 10%⁽¹⁾ بدون أية زيادة. في حين فرص على نجار البندقية زيادة طفيفة سنوي 1/2 10%، كما أضيفت بنود أخرى تؤكد التزام السلطان بإصلاح الفندق الجنوبي على حسابه الخاص، وتسهيل بعض إجراءات التعامل مع مؤسسة الجمارك، كالسماح بتصدير الحبوب ومثونة السفن⁽²⁾، وحق توريد الخمر اللازم لاستهلاك القنصل وجاليته⁽³⁾.

وفيما يخص مسأله تصدير القمح، وهي مادة استراتيجية ضرورية للمغرب، يستعملونها كورقة للضغط بها على الطرف اللاتيني، فإن تساهل السلطان عثمان مع الجنوبية في اقتناء هذه المادة وتصديرها، لم يكن أمرا اعتباطيا، إنما كان مشروطا بمدى موافقة الجنوبية، من جهتهم، على توريد بعض السلع الهامة التي كان يحتاج إليها المغاربة منها:

⁽¹⁾ De Mas Latrie: relations, p. 460.

بروسيفيت، 1، ص. 284.

⁽²⁾ فيما يخص هذا البند فقد تم تعديله بما صار لا يسمح بتصدير القمح إلا عندما يكون السعر المحلي أقل من 15 بيزنس بن 5 بيزنس، في المعاهدات السابقة، وذلك بسبب مشكلة التضخم l'inflation التي أضحت يعاني منها

Qui a moneta nunc mutata est

الاقتصاد الحفصي..

- Ph. Gourdin: les relations, p. 91.

⁽³⁾ كان مسموحا للقناصل بإدخال كل سنة ما حجه 2 برميل 2 Tonneaux من الخمر معفى من الضرائب لاستهلاكهم الخاص.

- De Mas latrie: relations, p. 460.

الخشب، الحديد، السلاح، وغيرها من السلع الضرورية. وطبعاً فقد جاء التلميح إلى هذا الشرط من غير أن يشار إليه في بنود الاتفاقية كالعادة حتى لا تجلب حرجاً لحكومة جنوة، لكون المؤسسة الدينية الكاثوليكية كانت قد أصدرت مراراً مراسيم تحرم بيع هذه السلع الأسنرائجية للمسلمين عموماً. لهذا السبب، كانت القوموية كثيراً ما تلجأ، كلما نعلق الأمر بتصدير مثل هذه السلع المحرمة، إلى البحث عن وساطة أجنبية حتى لا تثير الشبهة من حولها. وما يؤكد هذا التصرف، أنه في سنة 1444م شحن تجار جنويون سلعا حربية إلى تونس على متن سفينة يملكها مواطن من مدينة مونبلييه الفرنسية اسمه Pierre Colombier، تشتمل على: 42 صندوق d'Arbalète، 45 صندوق de Veriton، قاذفات des Lances، دروع des cuirasses، مراسي des Ancres، سبائك الحديد Lingot de métal حيث بلغ سعر هذه المواد 1000 ليرة⁽¹⁾. كما نقل صاحب السفينة ضمن السلع مائة قنطار من سبائك الرصاص 100 cantar de lingot de plombe بيع تقنطاراً واحداً سبها بسعر 2 دبلون و 6 شمي⁽²⁾.

وتعد هذه الفترة شاهد على تحسين علاقات جنوة مع الدولة الحفصية إلى درجة أضحت جنوة، تقريباً الشريك الأول المفضل في تعاملات الدولة الحفصية، ولا أدل على ذلك، أن السلطان عثمان منح قنصل الجنوبية في تونس كليمنت شيشرو Clemente Cicero امتيازاً حاص يميزه احتكار عملية صيد المرجان في مرسى الخزر Marsa cares (القالة) مقابل دفع مبلغ سنوي قدره 2000 دبلون من الذهب، مع حرية استغلال من يعاونوه في هذه العملية من بلده جنوة، من الحراس والصيادين⁽³⁾.

(1) Doumerg, B: Venise....p. 428.

(2) Ibid.

(3) Heers, T: Gênes au XVS, p. 428.
- Ph. Gourdin: Les relations, p. 113.

ب - ازدهار العلاقات واستقرارها بين الجنوبية والإمارة الحفصية في النصف

الثاني من القرن 15م.

دام حكم السلطان أبو عمر عثمان إلى سنة 1488م، وخلال هذه المدة، لم يسجل أي حدث يستحق الذكر في مسار العلاقات بينه وبين جنوة، اللهم إلا تفشي مرض الطاعون في تونس بين (1443-1452م) الذي أودى بحياة ما يقارب 300.000 نسمة، وانجر عنه، إلى جانب المجاعة، والهجرات السكانية، ظهور بعض السلوكيات العدوانية التي زرعت الخوف والرعب في الطرقات والأسواق لفترة وجيزة⁽¹⁾.

والمواقع أن الطرف الذي حرص أكثر على تلطيف أجواء العلاقات الثنائية، خلال هذه المدة هم الجنوبية، لمصلحتهم القصوى في ذلك، والسبب واضح، فقدان مستعمراتهم الغنية بالشرق. لقد زحزحوا عن مواقعهم في بيزنطة كلها، في القسطنطينية وأضراف البحر الأسود. بعدما تم القضاء على الإمبراطورية البيزنطية على يد الأتراك العثمانيين سنة 1453م⁽²⁾.

كما يتزامن خروجهم من بيزنطة مع تدهور الأوضاع الاقتصادية في شرق المتوسط (مصر وسوريا)، الديار التي تتبع سلطنة المماليك، بسبب التوسع في سياسة الاحتكارات التي كان يمارسها حكام هذه السلطنة⁽³⁾. فلم يبق للجنوبية من مجال لمواصلة أعمالهم

⁽¹⁾ Anselmo, A: itinéraire d'Anselme Adorno en terre sainte 1470-71. Paris 1978, p. 119-135.

⁽²⁾ Depping, G. P: Histoire du commerce entre le levant et l'Europe depuis les croisades Jusqu'à la découverte des Amériques. T2, p. 207-8.

⁽³⁾ Pernoud, R: Les villes Marchandes au XIV et XVS, Paris 1963, p. 52-56

⁽³⁾ Ziada, M: Foreign relations of Egypte in 15 century 1422-1517, phd. Liverpool, 1930, p. 251-2.

التجارية سوى أقاليم الحوض الغربي للمتوسط، وبدرجة أكبر في بلاد المغرب⁽¹⁾. لأن أنشطتهم في بلدان أوروبا الغربية، قد أخذت في التقلص كذلك، منذ النهضة الاقتصادية التي عرفتتها ممالك إسبانيا، فرنسا، إنجلترا، ألمانيا وغيرها من دول أوروبا الغربية⁽²⁾.

وهناك مؤشر على تمركز أعمال الجنوبية في بلاد المغرب بشكل واسع، وحرص الحكومة الجنوبية بعدم التفريط في هذا المجال، مهما كلفها الأمر، أن المنازعات التي كانت تنشب، بين الحين والآخر، بين رعايا القومونة وأهالي إفريقيا، خصوصا تلك المتعلقة بأعمال القرصنة واللصوصية، والمظالم التي كانت فيما مضى تتسبب في ردود أفعال متشنجة، صارت، منذ بداية هذه الحقبة، تحل بالطرق الودية، ويراعى فيها تغليب المنفعة التجارية على منطق الحرب والصدام. من خلال تفضيل نهج المفاوضات والتعبير بتقديم التعويضات⁽³⁾. ولأجل ذلك استحدثت حكومة جنوة ضريبة مالية على التجار تعرف بـ *Drietus*⁽⁴⁾ خصصت مبالغها لشراء الأسرى والتعويض عن الخسائر التي تلحق بالتجار، كل هذا من أجل الحفاظ على مصالحها وعدم إثارة غضب المغاربة.

⁽¹⁾ على سبيل المثال أن رجل الأعمال الجنوبي المشهور Eliano Spinoia الذي اشتهر بطلبه السيف الأول من القرن 15م كأكبر مخترع ومورد لمادة البنية l'Alun من جزيرة Chios بحر إيجه. وجد نفسه مضطرا، حتى النصف الثاني إلى تحويل أعماله إلى بلاد المغرب حيث أخذ يستثمر في صيد المرجان بالمشاركة مع صاحب الشركة الأم Clemente Cicero. للمزيد، راجع:

- Heers, J: Gens au XVI, p. 428.

⁽²⁾ Heers, J: L'occident au XIV et XV, p.

⁽³⁾ أشار كل من Marengo و Jorga إلى عدد الرسائل والشكاوي التي كانت تبعث بها حكومة جنوة إلى تونس.

راجع:

- Marengo, E: Genova e Tunisi, documents, p. 140-286

- Jorga, N: Notes et extrait...vol III,III,IV.

⁽⁴⁾ Drietus impositus in Tunisi.

- Marengo, E: Genova e Tunisi, p. 84.

Ph. Govadin: relations, p. 53.

نفس الشيء قامت به حكومة البندقية عندما أنشأت ضريبة على السلع التي يتم تصديرها إلى بلاد المغرب تقدر بـ 2% خصصتها لتغطية مصاريف التعويضات التي تدفع للسultan الحفصي.

ولتبيان حقيقة انهيار الأعمال الجنوبية في المشرق وتمركزها بشكل كبير في الضفة الغربية للمتوسط خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلاد، نورد إحصائية كشفت عنها بعض السجلات registres الخاصة بالأداءات الجمركية في ميناء جنوة، ويتعلق الأمر بضريبة تأخذ على ملك السفن، وموحيها، عندما تغادر سفنهم الميناء للأعراض التجارية، علما أن هذه الإحصائية نوافق سنة 1482م.

السنة	الاتجاه Destination	عدد السفن	النسبة
	صقلية	29	35%
	بروفانس	8	9%
	إسبانيا قطالونيا - إبيزا	5	5%
1482م	بارباريا أو بلاد المغرب	10	12%
	الإسكندرية والشام	2	2%
	خيوس	6	7%
	سالونيك	1	1%
	إنجلترا الفلاندرز	4	5%

(11)

(11) L. Baletto: Navi e navigazione a Genova nel quattro cento .la cabella Marinariorum (1482-1491), Gènes 1973. (collona storica di Fnti estudi, 15).

ولم تنقطع علاقات جنوة مع الدولة الحفصية حتى في أشد الفترات حرجا، وكانت سلطات المدينة في كل مناسبة تقوم بإيفاد بعثات دبلوماسية للتفاوض بشأن حقوق جاليّتها، أو لتجديد الاتفاقيات التي توشك على الانتهاء، مثل ما حدث بتاريخ 1461م، عندما أرسلت القومونة سفارة إلى السلطان عثمان للمطالبة بإطلاق سراح فنصلها جان باتيست غرمالدي Jean Batiste Gremaldi، وهو من أقرباء الدوج، وقد تم اعتقاله بسبب جرم اقترافه أحد رعايا الجنوبية الذي اعتدى على جماعة من المسلمين⁽¹⁾.

ثم بعد ذلك بسنتين، أوفدت الحكومة الجنوبية سفارة أخرى إلى تونس لتجديد معاهدة 1444م، قبل أن تنقضي مدة صلاحيتها. ولم يجد السفير المكلف بهذه المهمة، أنطونيو دي غريمالدي، أية صعوبة في إقناع السلطان عثمان بالموافقة على تمديد بنود تلك المعاهدة بتاريخ 15 مارس 1465م، بما يضمن تأمين الإقامة والنشاط للجالية الجنوبية بأراضي السلطنة الحفصية لمدة ثلاثين (30) سنة قادمة، كما أضيف للمعاهدة ثلاثة بنود أخرى توفر للجنوبيين مزيدا من الأمن والحماية لأشخاصهم وبضائعهم⁽²⁾.

وإلى هذه الفترة المستقرة في نشاط الجنوبية، أقدم بعض التجار وأصحاب السفن على إنشاء قافلة تجارية تتشكل من سفينتين ضخمتين Nefs⁽³⁾ تقوم بالسفر عبر الخط البحري الذي يربط موانئ شرق المتوسط مع بلدان الغرب الأوروبي إنجلترا وفلاندرز، في رحلة واحدة، دهابا وإيابا، تزور من خلالها موانئ بلاد المغرب من حنين (تلمسان)

⁽¹⁾ Marengo, E: Genova e Tunisi, p. 78-79.

⁽²⁾ - برونشفيك، ج 1، ص. 294.

⁽³⁾ De Mas Latrie: Traits II, Doc 22, p. 151.

-Marengo, E: Genova e Tunisi, p. 80-81 & 166-76.

⁽³⁾ Nef سفينة ضخمة تتميز بسعتها الكبيرة في الحمولة. راجع ما يلي: الفصل الخامس

إلى طرابلس الغرب، تنقل في طريقها السلع والتجار والحجيج المغاربة المتجهين إلى الإسكندرية أو فلسطين، والعائدين منهما ⁽¹⁾

والملفت للانتباه في هذا النوع من الملاحة البحرية الجنوبية أن عددا كبيرا من رحلات هذه القافلة لا يمر عبر ميناء مدينة جبوة، بل تنتقل السفن مباشرة، في رحلة طويلة، من موانئ شرق المتوسط إلى أقصى الغرب الأوروبي، سيرا بمحاذاة الساحل الجنوبي للمتوسط، حيث تتوقف في أغلب الموانئ المغربية والأندلسية - طرابلس - المهدية - تونس - بجاية - بونة - الجزائر - وهران - حنين - ثم إلى إسبانيا والأندلس - سالف - فالنسيا - قادش Cadix ⁽²⁾ . وقد تستغرق سفره القافلة عبر هذه الموانئ والمحطات عدة أسابيع، وأحيانا، تدوم فصلا كاملا من فصول السنة.

وتعتبر هذه القافلة فريدة من نوعها من حيث طول المسافة التي تقطعها، كما أنها بقيت استحضانا كبيرا لدى فئة التجار والمسافرين من المسيحيين والمسلمين. وشاع عن هذه القافلة وفدائك اسم (per costeriam بمعنى السير عبر الساحل). ⁽³⁾ حاولت جمهورية البندقية، هي الأخرى، في إطار سياسة المنافسة مع جنوة، إنشاء، منذ سنة 1459م، قافلة مشابهة تجوب موانئ المغرب تعرف باسم Muda، ظلت تعمل حتى سنة 1508م، تشكلت في البداية من سفينتين، ثم بعد مدة من ثلاث سفن. تتطرق من ميناء البندقية إلى صقلية ثم إلى تونس. وأحيانا تسير مباشرة من صقلية باتجاه صرابلس الغرب، ومنها تتجه سيرا عبر الساحل حتى تصل إلى موانئ الأندلس، ثم تعود أوراها

(1) Heers, J: « Gènes et l'Afrique du nord vers 1450: les voyages «per costeriam» In ('Anuariode estudios médiévalés), n°21, 1991. Barcelona. P234.

(2) هذه القافلة لا تبحر إلى موانئ المغرب الأقصى Garbo، فهي تتجه من ميناء حنين (تلمسان) رأسا إلى الأندلس. Heers, J: Le royaume de Grenade et la politique marchande de Gène en occident, XVS, in le moyen . Âge, 63, 1957, p 105-6.

(3) Heers, J : Gènes et l'Afrique du nord .. p 233-4
Lopez, R. Storia della colonia Genovesi. p55

على نفس المسار. وفي سنة 1456م دشنت حكومة البندقية خطا جديدا يربط بين تونس والإسكندرية يعرف بـ Trafigo، غير أن توقيت سير هذا الخط لم يكن منتظما وعرف فترات من الإنقطاعات.⁽¹⁾

(11) - انهيار نشاط جنوة التجاري مع نهاية القرن الخامس عشر.

في سنة 1488م توفي السلطان عثمان الذي حكم مدة ثلاث وخمسين سنة، والظاهر أن تلك السنوات الطويلة من حكمه لم تغد في إرساء الاستقرار الداخلي. إذ بمجرد إعلان وفاته حتى انفجرت الجبهة الداخلية من جديد، ونهض الطامعون في عرش السلطنة يتنافسون ويناورون بكل ما أتوا من قوة وحيلة، مما زاد من سعيير الفتنة والتمرد، بحيث تناوب على عرش السلطنة، في ظرف عشرية واحدة، أربعة سلاطين.⁽²⁾ ثم زاد من تعقيد الأمور في إفريقية وبلاد المغرب عامة، خلال هذه العشرية الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي، الزكبة التي حلت بمسلمي الأندلس بسقوط غرناطة سنة 1492م، في أيدي ملوك إسباني الكاثوليك فرنند و إزابيلا، وفرار المسلمين بأعداد كبيرة من شبه الجزيرة الأيبيرية.⁽³⁾

ومنذ هذا العهد، سوف تشهد مياه الحوض الغربي للمتوسط فصولا من الحروب والصدامات بين أهالي بلاد المغرب ومعهد المسلمون الأندلسيون القارون. وبين الأسباب المنتصرين، وغلب على هذه الصدامات ضابع القرصنة والنصوصية التي لم تعد تميز بين العدو والصديق، بحيث صارت هذه الأعمال البحرية نضال سفن المدن التي يصطالفة من

⁽¹⁾ Heers J. « Le Sahara et le commerce méditerranéen à la fin du moyen age », in (Ann de L'institut d'études orientales) Alger, 1958, p247.
- Doumerg, B: Venise, p81-82 & 103-107.

⁽²⁾ برونشفيك : المرجع السابق، I، ص 307-8

أوليفياعر، كونسيتل: التجارة والتجار في الأندلس، ص 373.

⁽³⁾ R. le Tourneau: l'occident musulman. op cit. p 174.

الجنوبية و البنادقة و غيرهم. فتأثرت أنشطتهم التجارية بشكل كبير جراء ذلك. ثم جاء القراصنة الأتراك أخيرا، الذين كانوا يعملون تحت راية الإمبراطورية العثمانية، فقصوا قضاء مبرحا على الصلات التجارية القائمة بين أوروبا وبلاد المغرب، بعدما أعلنوا الجهاد البحري ضد المسيحيين. (1).

2)-R.Matran: les descriptions des cotes de l'Algérie dans le Ketab Ibharye de perî reis » Revue de l'occident musulman) année 1972, p166.

الفصل الخامس

التنظيمات التجارية والمعاملات المالية في تجارة جنوة مع بلاد المغرب.

(1) - أنواع الشركات والعقود التجارية.

(2) - أنواع السفن التجارية الجنوبية

(3) - نظام النقل البحري في جنوة.

(4) - طرق القوافل التجارية الجنوبية إلى بلاد المغرب.

(5) - إجراءات الاستقبال في الموانئ المغربية.

(6) - صادرات جنوة إلى بلاد المغرب.

أ- الخشب

ب- الحديد

ت- الخمر

ث- الألبسة والصناعات الصوفية

ج- الأحجار الكريمة والجواهر

ح- التوابل

(7) - مشتروات جنوة من السلع المغربية

أ- الذهب

ب- الأصواف و الجلود

ت- العبيد

ث- المرجان

ج- مواد الصباغة

ح- المواد الغذائية

(8) - الضرائب و الرسوم الجمركية التي يدفعها التجار الجنوبيين بالموانئ المغربية.

(9) - نظام إقامة الجاليات الجنوبية بالديار المغربية.

واجه تجار العصور الوسطى المبكرة Haut Moyen Age مصاعب كثيرة فرضتها ظروف الحياة الصعبة وعوامل الطبيعة المختلفة كاتساع رقعة الحروب والاضطرابات بين الدول والإمارات المجاورة، وكذلك انتشار أعمال القرصنة والتنصوذية عبر انطرافات على نطاق واسع⁽¹⁾. هذا علاوة على ما كان يتعرض له باستمرار التاجر المتجول من مضايقات على يد أصحاب الضياع، وفرسان الأمراء واللوردات، الذين اعتادوا البحث عن موارد مالية سهلة بواسطة السطو والنهب والعدوان. بالإضافة إلى ما كان يفرض على هؤلاء التجار من رسوم وضرائب متعددة في مقابل السماح لهم بالمرور عبر أملاكهم وضياعهم، حيث وصلت محطات تغريم التجار وتمكيسهم على طول نهر الدانوب، مثلا، سبعة وسبعين (77) محطة⁽²⁾.

ولما كانت التجارة مهنة اجتماعية مطلوبة، فلقد وجد التجار أنفسهم، منذ البداية، ملزمين على العمل الجماعي من خلال التقارب فيما بينهم بروابط التعاون والشراكة. فظهرت، تبعا لذلك، الشركات التجارية وتطورت أشكال العقود التي تؤسس لنظام الشراكة والتعاقد بين مختلف فئات التجار. وكان أول نظام شاع استعماله بين أوساط التجار في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط، الشراكة العائلية family partnership التي كانت تقوم على أساس إن يعرض صاحب المال على بعض من أفراد عائلته فرصا للعمل معه، وتكليفهم بمهام محددة مقابل نسبة معلومة من الأرباح⁽³⁾، ومن المرجح أن يكون هذا انشك من التنظيمات التجارية قد استمد أصوله من طبيعة الحياة العائلية ذاتها.

⁽¹⁾ Lopez, R : la Révolution commerciale, p 105-106.

-Goff, J : Marchands et Banquiers du moyen a age , p 11-13.

⁽²⁾ Stephenson, C: Medieval history of Europe from the second to the sixteenth Century. N.York, 1943, p 131.

⁽³⁾ Day, C: history of commerce, part 1, N.York 1907, p 47.

ولما شاع نظام الشراكة العائلية، ولمس التجار والمستثمرون ما أثمره من نتائج طيبة، هدفوا إلى نظام المشاركة على نطاق أوسع، من خلال عرض الخدمات، إما على أفراد من خارج العائلة، أو الاستعانة برؤوس أموال من أفراد غرباء عن الأسرة، واقتضى الأمر من خلال هذا التوسع في ميدان الشراكة الجديدة، أن أخذ نظام جديد ينشأ ويتطور، في عالم التجارة لم يكن معروفا من قبل، هو نظام التعاقد بين أصحاب رؤوس الأموال والتجار المسافرين. كما بدأ يظهر، كذلك، ما يعرف بالوكلاء *commissionnaires* المقيمين بالمدن والأسواق الأجنبية، الذين تحددت مهمتهم في استقبال البضائع أو الأموال التي يرسلها المستثمرون عن طريق وسيط، أو مؤتمن ليقوموا بتصريفها وبيعها في الأسواق والموانئ، التي يوجدون بها،⁽¹⁾ ثم يحولون المال المكتسب من وراء عملية البيع إلى أصحابه، بعد أن يحيطوهم علما بالأسعار المحلية، والشروط المعمول بها، ونوعية السلع المطلوبة في السوق⁽²⁾.

والملاحظ أن هذا النوع من الشركات قد أخذ في الظهور والانتشار، على نطاق واسع خلال القرن الثاني عشر الميلادي، بين رجال أعمال المدن البحرية الإيطالية حيث كان نظام الشراكة في هذا النوع الجديد يقوم على أساس التعاقد بين طرفين أو أكثر ليسوا بالضرورة أفرادا من أسرة واحدة، إنما هم في الغالب مستثمرون مغامرون تجمعهم مصلحة متبادلة لتنفيذ مشروع تجاري محدد، حيث لا تتعدى مدة صلاحية العقد سفيرة واحدة، أو صفقة تجارية واحدة⁽³⁾.

وحددت هذه العقود حصة مساهمة كل طرف في الصفقة، ونسبة الأرباح التي يتوجب أن يتقاضاها كل مساهم فيها، ومسؤولية كل طرف في الشركة. ومن أشهر أنواع

⁽¹⁾ Pirenne, H : histoire de moyen age, T VIII, p 86-87.

المصدر: التاريخ العربي: الحضارة والنظام الأوروبية في العصور الوسطى، القاهرة، 1963، ص 128

⁽²⁾ أليفا، ر. كونستبل : التجارة والتجار، مرجع سابق، ص. 122.

⁽³⁾ H.C.Krueger : Genoese merchants . their partnership and investments 1155 to 11645 in onore armando saporì, p 258-259.

هذه الشركات التجارية: *la commanda* (باللاتينية *accomandatio*) و *societas* ⁽¹⁾ Maris، ويعد النوع الأول من الشركات (*commanda*) من أكثر الأنواع انتشاراً خلال القرن الثاني عشر الميلادي، إلى درجة أضحت الصيغة العامة المتبعة في ميدان الشراكة التجارية لدى نجار جنوة إبان القرن الثالث عشر الميلادي، ⁽²⁾ حيث يتألف أطراف هذه الصيغة من شريكين يجمعهما عقد بسيط. يساهم الطرف الأول، وهو غالباً ما يمثل الشريك المستثمر، *commandator* أو *socius stans*، بكامل رأسمال المشروع التجاري، في حين يقتصر الشريك الثاني *potator* أو *socius tranctans*، أي التاجر المسافر على استثمار جهده، من خلال السفر إلى الأسواق الخارجية لإنجاح الصفقة. وغالباً ما يكون التاجر المسافر شاباً يافعاً يتمتع بروح المغامرة ويفتقر إلى المال الوفير، وعند نجاح العملية يسترجع صاحب المال *commandator* كامل رأسماله، ويحصل زيادة على ذلك على نسبة من الفائدة تصل في غالب الأحيان إلى ثلاثة أرباع ⁽³⁾ أي 75 % من الفائدة، فيما يعود ثلث $1/3$ الفائدة المتبقية (25 %) للتاجر المنجول ⁽⁴⁾ *portator* وشاع عن استعمال هذا النوع من القسمة اسم (القسمة بالربع *ad quartam partem* *lucri*)، أما في حال فشل الصفقة وضياع المال فإن المستثمر يتحمل وحده كل الخسارة في حين لا يخسر الشريك الثاني سوى جهود عمله.

وهناك نوع مشابه من هذه العقود التجارية اعتاد تجار جنوة تفضيله في معاملاتهم. خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، يتمثل في أن يساهم التاجر المقيم

⁽¹⁾ Lopez R.S : " aux origines du capitalisme génois. op.cit, p 448-449.

- E.Bach : la cité de Gênes au XIII^e s. p 15-16.

⁽²⁾ - M.Balard : Gênes et l'outre-mer, T 1, les actes du caffè du notaire lamberto de sanbuceto 1289-1290, paris. Lahaye, 1973, p 36.

⁽³⁾ Pounds, Y: an economies history of Europe . London , 1974, p 420-421.

- Le Goff, L : marchands et banquiers p 20

-Cambridge economic history, vol III, .p 49-50.

-Balard, M : Gênes et l'outre-mer, op.cit, p 39.

socius stans بثلثي 2/3 رأس مال الصفقة، فيما يساهم الشريك المتنقل socius tranctans بحصة الثلث 1/3 زيادة على عمله وجهده، وعند نهاية العملية التجارية بنجاح تقسم الأرباح بالتساوي بين المتعاقدين perfectam medietatem وعند الخسارة فكل واحد منهما يخسر حصته التي ساهم بها في المشروع التجاري ومجهود عمله⁽¹⁾.

ومن الملاحظ أن عقود الشراكة هذه لا تتم بين تجار جنوة خارج الإطار الرسمي فهي تبرم دوماً أمام موثق شرعي، وكان يتطلب لتحرير عقد شراكة من هذا النوع حضور الأطراف المتعاقدة والشهود أمام الموثق، كما يتم التطرق إلى طبيعة الصفقة، والمبالغ المالية التي يساهم بها كل طرف، ونوع البضاعة (موضوع الصفقة) وكذا التوجه التي يتعين على الشريك المتنقل استثمار الصفقة فيها⁽²⁾.

وهذه صيغة عن عقد شراكة بحرية societa maris بمدينة جنوة⁽³⁾.

- جنوة بتاريخ 29 سبتمبر 1163.

الشهود: سيمون بوكاشيو، و أوجيوبلوزو، و ربالودوي سورو، وجوناردي صاسكا.
أُتخذ مصادقي واتسالتو جراطو على عقد شراكة societas. ساهم مصادقي فيها بـ 88 ليرة (جنوية) وانسالدوبـ 44 ليرة، يتولى انسالدو نقل رأسمال الشركة لاستثماره في تونس، أو إلى أي مكان تتوجه إليه السفينة التي يركبها⁽⁴⁾ وهي السفينة التي يملكها كل من بلد يزوني جراسووجيرادو. وعند عودته يمنح الأرباح المستحقة لمصادقي، أو إلى من ينوب عنه بعد طرح رأس المال.

⁽¹⁾ Byrne, E : commercial contracts of the genoise in the Syrian trade of the twelfth centurys (Quarterly journal of economic) vol XXXI, 1961, p 152-153.

⁽²⁾ Sayous, A.E : le commerce des européens à Tunis op.cit (appendice , B) p 140-141.

⁽³⁾ M.Balard : Gènes et l'autre -mer, T 1, p 37.

⁽⁴⁾ Lopez, R & I : Raymond : medieval trade in the Mediterranean world, p 179.

⁽⁴⁾ غالباً ما كان صاحب المال يمنح الحرية التامة لشريكه التاجر المسافر باختيار الجهة التي يريد السفر إليها ببضاعته إلى درجة اعتاد الموثقون استعمال جملة معينة أثناء تحرير العقود للتعبير عن ذلك.

- Quo Deus michi melius administraverti بمعنى la liberté de se rendre ou bon lui semble.

- Byrne, E.H: Genoie trade with Syria. p 191-120.

تم إبرام العقد بتاريخ 29 سبتمبر 1163 م .

ومع مرور الوقت تطورت العقود التجارية في اتجاه أكثر إملائية للتعبير بدقة على مصطلح شركة، بحيث أصبح بالإمكان توسيع دائرة الشراكة الشائنية، وفتح المجال لاستثمارات عدد أكبر من التجار وأصحاب رؤوس الأموال في مشاريع تجارية بهدف إنشاء فرص الربح، وتقليص حجم الخسارة. كما صار بإمكان مجموعة من رجال الأعمال القيام بجمع رأسمالا معتبرا، ثم يعهدون به إلى أطراف أخرى، لتقوم بعملية الاستثمار في شراء وبيع السلع بالأسواق⁽¹⁾، وعائدات الأرباح من وراء هذه العملية يتم توزيعها في النهاية بين جميع الأطراف المساهمة كل حسب نسبة مساهمته بالمال، أو بالجهد، أو حسب ما تنص عليه بنود العقد المبرم بينهم، إنما غالبا ما يؤول ربع الربح للعاملين، وثلاثة أرباع لأصحاب رؤوس الأموال⁽²⁾.

كما عمد أصحاب رؤوس الأموال والمستثمرين، أحيانا، إلى توزيع رؤوس أموالهم على أكثر من شركة تجارية كضمان أكبر للربح، لاعتقادهم أن وضع رأس المال كله في صفقة واحدة، وعلى متن سفينة واحدة، قد يضاعف من احتمال تعرضه للتلف أو الضياع إذا ما أصيبت السفينة بعطب أو تعرضت لاعتداءات القراصنة، أو انهارت أسعار البضاعة في السوق، لذا كان المستثمر التجاري غالبا ما يحرص على توزيع أمواله على عدة شركات وعلى سفن متعددة لضمان عدم ضياعه كله⁽³⁾.

ومن الواضح أن هذه التجارة أورثت أصحابها ثروات كبيرة، وأوجدت لديهم فائضا من المال، وساهمت في نشأة طبقة صغيرة من أمراء التجارة والرأسماليين التي طورت

⁽¹⁾ Lopez, R.S : " the dollar of the middle ages," (journal of economic history) vol X , No 3 .
1951, p 224

-Byrne, E : commercial contracts of the Genoese in the Syrian trade , p 142-143.

-Dufourq , Ch : la vie quotidienne , p 37-38.

⁽²⁾ Miskimin , H .A : the economy of early renaissance of Europe 1300-1460
USA, 1969 , p 117-118.

⁽³⁾ Day, C : op.cit , p 116-117.

-Dufourcq,ch :la vie quotidienne , p 37-38.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في نقل البضائع، وهذا الأمر نادرا ما يحدث، لكون سعر السفن مرتفعا جدا في الغالب، أو أن يلجؤوا إلى عقد الكراء *contrat de nolisement*، وكانت هذه الصيغة هي الأكثر شيوعا بين تجار الجنوية، حيث كانت السفن، في الغالب، ملك لمجموعة من الرأسماليين الذين يجتمعون في شركة بالحصص *partes-luoghi* لإنشاء سفينة، أو اقتنائها، ثم يقومون، بعد ذلك، بتأجيرها لأصحاب البضائع في عملية النقل عبر البحر⁽¹⁾. وعملية كراء السفن تتم، هي الأخرى، بواسطة عقود توثيقية يراعى فيها شروط مالك السفينة (*patroni*)، وكذلك حقوق التاجر صاحب البضاعة (*naulis atores*) مع التوافق على ضمانات كل طرف في عدم الإخلال ببنود العقد⁽²⁾.

وكان من شروط إبرام عقد كراء السفن أنه كان يسمح للتاجر إما أن يوجر السفينة بكاملها لحسابه *Naulum ad scarsum* أو أن يحجز له على متنها حصة مع آخرين حسب حجم بضاعته أو وزنها *Naulum ad contractum*.

أما عن كيفية دفع سعر الكراء فذلك مرتبط بحسب ما تحدده صيغة العقد، وغالبا ما يكون الدفع، إما نقدا، أو سلعة، بما يوافق نوعية البضاعة، وزنها، وحجمها، ومسافة الرحلة التي تقطعها السفينة⁽³⁾.

كما عرف نظام التجارة البحرية في جنوة، خلال هذه الفترة، عقود القرض البحري *contrats de prêt maritime* الذي يتطلب نقل مبالغ مالية، أو سلع معينة، من جهة إلى أخرى، بعدما يعترف المدين *débiteur* بأنه تلقى مبلغا محددا من المال أو بضاعة محددة، في مقابل ذلك يتعهد بإرجاع المبلغ أو السلعة لصاحبها في المكان المتفق عليه.

⁽¹⁾ Sayous, A.E : le commerce des européens à Tunis op.cit (appendice . B) p 170.

-Heers, J : Gènes au XVS activités économiques et problèmes sociaux , Paris, 1961, p 288-291.

⁽²⁾ M.Balard : gènes et l'autre -mer, T 1, p44.

⁽³⁾ Sayous, A.E : op.cit (appendice F) , p 147.

-M Balard : op.cit, I , p 45-47

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جدارتها في ميدان الحروب، خلال فترة العصور الوسطى، وسجلت حضورا قويا في حوض المتوسط، وتقوفا أحيانا مبهرا في مواجهة أساطيل البحرية الأوروبية⁽¹⁾.

وفريق آخر ربط غياب التجار المسلمين عن الأسواق الأوروبية بسبب التشريع الإنشائي الذي، حسب رأيه لم يكن يشجع على السفر، أو الاتصال مع البلاد غير الإسلامية، مدعين رأيهم بمجموعة من الفتاوى التي أصدرها علماء من المغرب والأندلس، كلها تمنع المسلم من السفر أو التجارة مع البلاد غير الإسلامية (دار الحرب)⁽²⁾.

فمنذ القرن التاسع الميلادي = الثالث الهجري، أفتى قاضي المذهب المالكي في بلاد المغرب، الشيخ سحنون بن سعيد بعدم جواز الاتجار مع بلاد الكفر. على أساس أن هذا السلوك يساعد على تقوية الكفار على المسلمين، وعلى نفس المنهج سار، فيما بعد، فقهاء كبار من المغرب والأندلس. مثل ابن حزم المتوفى سنة / 45هـ = 1064 م. وابن رشد المتوفى سنة 520هـ = 1126 م. و المازري، والونشريسي كلهم حكموا بمنع الاتصال والاتجار مع البلدان المسيحية⁽³⁾.

⁽¹⁾ راجع ما سبق، الفصل الثالث.

⁽²⁾ B.Lewis : Que s'est-il passé? L'Islam, l'Occident et la modernité. Ed. le débats, Gallimard, 2002: p52-3

⁽³⁾ لما سئل المازري: هل يجوز السفر إلى صقلية للتجارة فأجاب: بأن السفر إليها لا يجوز حتى ولو كان من أجل شراء الطعام مستدلا بالآية الكريمة: يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا. وإن حققت علة فسوف نغنيك الله من فضله إن شاء الله تعالى 28.

- المازري: فتاوى المازري. تحقيق، د الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر، ص 207-208 و 364-365 وهناك عالم مغربي متأخر، هو ابن جزوي (توفي 1340 هـ) كان صارما في هذه المسألة إذ أفتى بأنه غير مسموح المتاجرة مع دار الحرب راجع: قوانين الأحكام الشرعية، بيروت، 1968، ص 19. ورد في كتاب أركون: التلخار والتجار في بلاد الأندلس، ص 113.

- جاء في كتاب الونشريسي، السعيل، ج2، مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ص 140-141، أن عمر بن عبد العزيز نهى عن الإقامة في ديار المسيحيين بأسبانيا.

وفي رأينا، أن التفسير القابل للتصديق في مسألة عزوف التجار المسلمين عن ارتياد الأسواق المسيحية للتجارة يرجع، بالدرجة الأولى، إلى افتقار الأسواق الأوروبية لوسائل الجذب التجاري. بمعنى أنه لم يكن لديها سوى القليل من السلع التي تهتم بالتاجر المسلم مثل، الخشب والحديد والعبيد، وأن هذه السلع المطلوبة بحق في البلاد الإسلامية. ما كان بإمكان التجار المسلمين استجلابها من أسواق أوروبا على الإطلاق، لأن المؤسسة الدينية الكاثوليكية منعت أصلاً على المسيحيين بيعها للمسلمين، وأصدرت في ذلك عدة مراسيم دينية تحرم التجارة في هذه البضائع الإستراتيجية، وتعاقب كل من يخالف هذه الأوامر من التجار المسيحيين،⁽¹⁾ فكيف يكون عليه الحال إذا تعلق الأمر بالتاجر المسلم . ومهما يكن من أمر الاختلاف حول هذه المسألة، فإن الشيء الذي بات مؤكداً لدى الباحثين في تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، هو، أن كل المؤشرات التي بحوزتهم تظهر أن الحجم الأكبر من النشاط التجاري البحري القائم بين بلاد المغرب وأوروبا، منذ مطلع القرن الثاني عشر الميلادي، كان بأيدي التجار الأوروبيين، وبخاصة تجار المدن الساحلية الإيطالية (جنوة، بيزه، والبندقية). ودام هذا الوضع إلى غاية مجيء الأتراك العثمانيين، مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي إلى درجة اعتاد المغاربة من التجار، والمسافرين انتظار قوافل سفن المدن الإيطالية لتوصيلهم. ونقل بضائعهم، إلى موانئ الأندلس، والشرق. وحتى الحجج من هذه الأقطار، كانوا يعتمدون، بالدرجة الأولى، في أسفارهم إلى المشرق، على خدمات المدن الإيطالية. وما رحلة الفقيه الأندلسي ابن جبير إلى المشرق على متن سفينة جنوبية، مع نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، لزيارة الأماكن المقدسة، وهو الذي لم يكن يرتاح

(1) راجع الملحق رقم 12

للتعامل مع الصليبيين،⁽¹⁾ إلا دليل على احتكار الجانب الأوروبي لقطاع النقل البحري في حوض البحر المتوسط طيلة فترة العصور الوسطى المتأخرة .

ومما لا شك فيه أن جمهورية جنوة كانت تملك ترسانة ضخمة لصناعة السفن، وأن ملوك أوروبا اعتادوا اللجوء إليها لطلب مساعدتها كلما عزموا على القيام بحملات صليبية ضد المسلمين⁽²⁾ . وكانت معظم السفن التجارية في مينة جنوة ملكا للخواص، تأتي ملكيتهم لها، إما عن طريق البيع أو الشراء. إذ عادة ما يشترك مجموعة من المستثمرين في بناء باخرة وعند استلامها، يقومون بتشغيلها لحسابهم كل حسب حصة مساهمته في ميزانية تكاليفها، وإما يعرضونها للبيع . ونادرا ما يستطيع شخص بمفرده شراء سفينة تجارية نظرا لارتفاع سعرها، وصعوبة التكفل بصيانتها لوحده⁽³⁾، إنما غالبا ما يشترك أكثر من رجل أعمال في امتلاكها وفق حصص معينة تصل أحيانا إلى 24 حصة⁽⁴⁾ ثم يقومون بكرائها nolisement للموردين والتجار وأصحاب السلع، على أن يتولى أحد المالكين للسفينة قيادتها طوال الرحلة⁽⁵⁾.

وكانت السفن التجارية الجنوبية، إم شراعية أو مجنافية navires a voiles ou a rames وتعد السفينة ذات الأشرعة الثلاثة أكثر استعمالا لدى الجنوبية لكبر حجمها

⁽¹⁾ ابن خيبر، الرحلة، طبعة الجزائر، 1988.

⁽²⁾ مثلا أن ملك فرنسا لويس التاسع، الذي سير حملتين صليبيتين ضد المسلمين، كان في كل مرة يعتمد على خدمات الأقطاب الصليبيين.

- وما زالت مينة جنوة حتى وقتنا الحاضر تعد أول مركز لصناعة السفن في إيطاليا للمزيد راجع : Jean , Hardonnet : Métropoles économique , librairie , Armand collin, Paris 1959, p 22.

⁽³⁾ يصل متوسط سعر سفينة ضخمة navis التي تصل حمولتها 450 طن إلى 20 كغ ذهب، للمزيد راجع : -Durfour , ch : la vie quotidien dans les portes méditerranéen au moyen -age , p 45-46.

⁽⁴⁾ والمساهم في حصص السفينة له الحرية في أن يبيع حصته أو يوزعها جزءا أو كلية لمن يريد. كما كانت النساء في جنوة لهن الحق في الحصول على حصص Loca في السفينة / للمزيد راجع :

-E.Byrne: Genoese shipping in the twelfth and thirteenth centuries. Cambridge , mass, 1930, p 12-14.

⁽⁵⁾ ibid.

وثباتها على الماء، فضلا عن اعتمادها في المسير على قوة دفع الرياح بدل طاقة الجدف البشرية المكلفة . ومع ذلك فقد استعمل الجنويون سفنا ضخمة تسمى latin navis تتكون من طابقين، وأحيانا من ثلاث طوابق، تعتمد على قوة الدفع الشراعية إضافة إلى قوة الجدف البشرية، بمعنى أنها سفينة شراعية مجدافية في آن واحد⁽¹⁾.

وتقدم الوثائق الجنوبية تعابير بحرية كثيرة، وأسماء متعددة للسفن التي يستخدمها التجار والملاحون في البحر المتوسط، منها galea أو galère وهي سفينة ضخمة شراعية مجدافية متعددة الاستعمالات، تستعمل في نقل البضائع كما يمكن تحويلها إلى سفن حربية لنقل العساكر والعتاد، تليها الباخرة الضخمة المسماة Net من الاسم اللاتيني navis أو naves وهي سفينة دائرية rond طولها يتراوح ما بين 20 و 36 مترا، وعرضها من 9 إلى 13 مترا، فيما تصل سعة حمولتها 200 طن،⁽²⁾ وأحيانا 450 طن.⁽³⁾ ومن مميزاتها كذلك أنها من السفن التي تسير بقوة الدفع الشراعية إلى جانب طاقة الجدف البشرية. كما أنها سفينة عالية ترتفع كثيرا عن سطح الماء كأنها قلعة عائمة chateau flottant⁽⁴⁾.

**** جدول يبين حجم حمولة السفن الجنوبية حسب وثائق تعود إلى الفترة ما بين (1261-1310 م)⁽⁵⁾ .**

⁽¹⁾ Dufourq , ch : la vie quotidien , p 57.

⁽²⁾ Dufourq , ch : l'Espagne catalane , p 36.

⁽³⁾ PH . contaminate : l'économie médiévale , p 237.

⁽⁴⁾ Dufourq , ch : op.cit, p 57.

-PH, contaminate : l'économie médiévale, p 236.

-Jehel, G : les Génois, p 246.

⁽⁵⁾ M .Ballard : la roumaine génoise. vol 2. p 562.

نوع السفينة	حمولتها بالوزن المتري Tonnes métrique
1-بيشوس Bicius	= 24 طن بالوزن المتري. tonnes métriques.
6-طرائد tarides	= 24 طن، 88 طن، 152 طن، 162 طن.
	225 طن، 281 طن .
3-ليجن ligne.	= المتوسط (moyenne) = 161 طن متري metrique
1-صندل Sandal	= 66 طن، 112 طن، 187 طن، متوسط: 25 طن
3-جالير galère.	197 طن متري m.
1-كوك coque.	78 طن، 119 طن، 131 طن.
13 ناف nef	286 طن m
	536 طن، 536 طن، 428 طن، 500 طن، 393 طن، 362 طن، 288 طن، 214 طن،
	138 طن، 105 طن، 95 طن؛ متوسط: 322 طن متري m

وعلى العموم فإن جمهورية جنوة امتلكت، خلال القرون الأخيرة من العصور الوسطى، السفن الأكبر حمولة في تجارة البحر الأبيض المتوسط⁽¹⁾. وتعد السفينة magnus paradisius من أضخم تلك الأنواع، على الإطلاق، وقد استأجرها الملك لفرنسي لويس التاسع من حكومة جنوة لاستعمالها في نقل جنوده وسعائته أثناء حملته الصليبية على مصر 1248 م = 646 هـ⁽²⁾.

⁽¹⁾ PH. Contamine : op.cit. p 237.

⁽²⁾ E.Byrne : Genoese shipping , p 7-9.

- M .Ballard : la roumaine génoise, vol 2, p 565

**** أشهر أنواع السفن الجنويه المستعملة في النقل البحري**

Bucius: سفينة من نوع galère غير أنها أصغر منها حجما، تستعمل في تجارة البحر المتوسط.
- Tarida: سفينة ذات أصول شرقية، وهي أصغر من galère تستعمل في نقل التوابل، وكذلك في نقل الأحصنة والطعام، أثناء الحروب، يصل عدد طاقمها إلى 30 رجل، من بينهم 14 أو 15 بحارا.
- La ligne: من الاسم اللاتيني lignum و lambis و luns، سفينة صغيرة عدد طاقمها لا يتعدى، في الغالب، 14 بحارا.
- La Coque: أو Cog سفينة ضخمة ثقيلة الحركة. ظهرت عند سكان شمال أوروبا. ثم انتقل استعمالها لدى سكان البحر المتوسط مع نهاية العصور الوسطى، تحت اسم Cocca، تستعمل الشراع المربع الوحيد. من ميزاتها أنها باستطاعتها السير عكس اتجاه الرياح.
- Galère: من الاسم اللاتيني Gaica و Gaiedus وهي سفينة قديمة تعود إلى العهد الروماني تعد السفينة الأكثر استعمالا في الملاحة بالبحر المتوسط. يفضلها الجنوبية كثيرا في مجال النقل البحري، يصل سعر الواحدة منها ما بين 100 و 200 ليرة.
- Nef: أو Navis، سفينة تجارية ضخمة مخصصة للسفر إلى الموانئ البعيدة، إلى المشرق، وإلى بحر الشمال (الغرب).

للمزيد راجع:

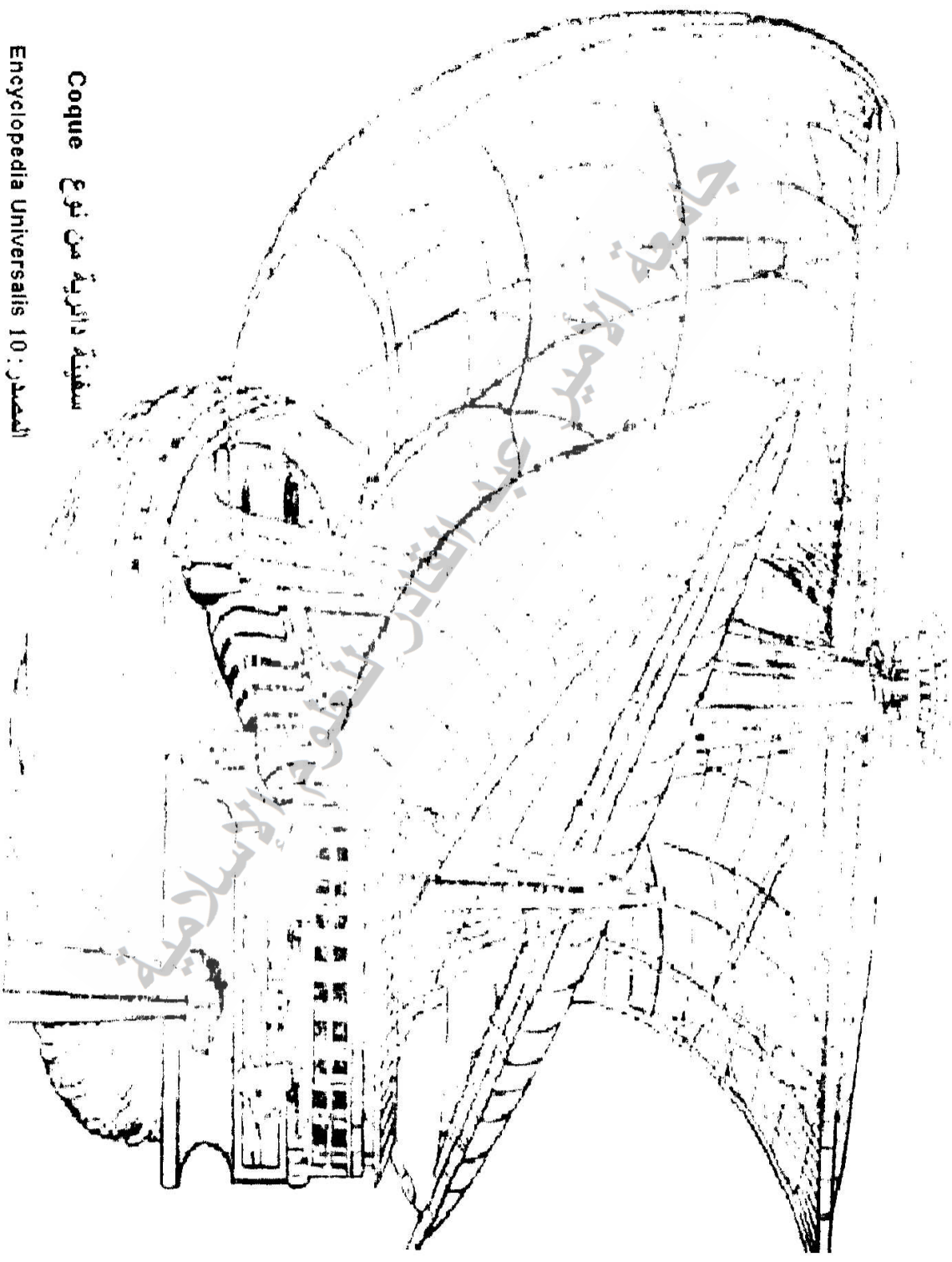
- Heers, J : « Types de navires et spécialisations de trafics en méditerranée à la fin du moyen age ». in Le navire et l'économie maritime du moyen age , actes du 2 colloque international d'histoire maritime, paris,1957. p109-111
- راجع كذلك الفصل الثاني من كتاب
- جيوفانا بالبي
- G.p.Balbi : Una cita e il suo mare genova nel medioevo. (ch.II)
I Nomi delle navi , pp69-83
- Louis, Richan : L'évolution du grand navire à voiles du XIII au XVS, de la nef des croisades au trois-mâts. 106 congre

سفينة من نوع Gelère





سفينة جنوبية من نوع NEF



سفينة دائرية من نوع Coque

المصدر: 10 Encyclopædia Universalis

(3) - نظام النقل البحري في جنوة

أولت سلطات مدينة جنوة أهمية كبيرة لأسطولها البحري بأن أنشأت مؤسسة خاصة la credenza تتولى الإشراف على تنظيم قطاع الملاحة البحرية، وسن القوانين التي تضبط عملية بناء السفن في الترسانة، وتجهيزها بالمعدات، وتعيين طاقمها، وتحديد مهامها وفق نظام دقيق.

ويتم اختيار أفراد طاقم السفينة، في العادة، من بين العائلات المشهورة بدرابيتها في فنون الملاحة البحرية uso de mare. أما عندما يتعلق الأمر بجمع المئات من البحارة matelots، فإن العملية تتم من خلال الإعلان عنها في الشوارع والساحات العامة، وتتم عادة أيام الأحد، عندما يجتمع الناس للصلاة في الكنائس، باستعمال النبراح والضرب على الطبول. ويصاحب هذه العملية نصب طاولات في الساحات العامة لتسجيل الراغبين بالالتحاق في العمل على ظهر السفينة، يراعى في شروط قبولهم، السن المؤهل، والصحة البدنية، والطاعة لأوامر القيادة، كما يبعد عن المشاركة الأفراد ذوي السوابق الإجرامية، والنحوة، والعشائين، والنصوص، وعائبا ما يسنعان بالعبيد في القيام بمهمة أنجذف على ظهر السفينة لأنها عملية شاقة عادة ما ينفر منها الأفراد الأحرار⁽¹⁾، وعندما يتم اختبار الشخص الذي سيصبح ملاحا منتسبا تؤخذ بياناته بالكامل (اسمه، لقبه، عنوانه) كما يصرف له مباشرة مقدم أجرة يصل حوالي 1/3 الراتب كدليل على قبوله، لكي يتدبر به ما يحتاج إليه من مستلزمات قبل السفر. وفي الأخير يطلب منه أداء اليمين بأن يحترم القوانين والشروط المعمول بها⁽²⁾.

⁽¹⁾ Dufourq, ch : la vie quotidienne, p 64-65.

⁽²⁾ أحيانا يشترط عليهم أن يكون لهم ضامن حتى لا يمكنهم الهرب بعد حصولهم على مسبق الراتب.
- Day,J: Les Douanes de Gênes, p3

وبعد الانتهاء من هذه العملية تعلق مناشير في الساحات العامة، وعلى أبواب الكنائس تكتب عليها كل التفاصيل والتدابير التي يتم اتخاذها بشأن الرحلة المبرمجة، حيث يذكر البلد الذي سوف تقصده القافلة، والطريق الذي يجب أن تسلكه، والموانئ وأماكن الاستراحة التي يتوجب على القافلة الوقوف بها، كذلك يتم تحديد أجره كل سلعة تنقل على متن السفينة، وكل ذلك بغرض إشعار التجار ورجال الأعمال بطبيعة الرحلة وخصوصيتها حتى يتسنى للراغبين منهم التقدم لحجز الأماكن وترتيب أمورهم استعدادا للخروج في الرحلة. وتشرف على هذه العملية إدارة الشؤون التجارية في المدينة (1) *l'officium Mercanti*.

وعندما يتبقى ثلاثة أيام من موعد خروج القافلة، تسلم السفن للمستأجرين ويشترع على إثر ذلك أصحاب مكاتب التوثيق في تحرير عقود إيجار السفن، وعقود التأمين على البضائع كما ينشط رجال المال في تقديم القروض للتجار واستثمار أموالهم في الرحلة، من خلال الشراكة مع أطراف آخرين (2). ونظرا لعدم توفر جو النفع في مثل هذه الشركات البحرية فإنه لم تكن مدة المشاركة بين الطرفين تتعدى فترة محددة -هي في الغالب- مدة الرحلة ذهابا وإيابا، حيث يفسخ العقد في حينه بمجرد عودة السفينة من رحلتها (3).

(1) De Roover . F.E : early example of marine insurance . (J.E.H), vol 5, 1945, P179

(2) Heers . J: le prix de l'assurance maritime p 9-10.

(4) - طرق القوافل التجارية الجنوبية إلى المغرب

كانت التجارة في العصور الوسطى الباكرة تقوم على الأسفار الطويلة رغم ما يحيط بها من مخاطر الطريق المعروفة، كأخطار الغرق بسبب تقلبات البحر، أو اعتداءات القراصنة *ad risicum et fortunam dei maris et gentium* ⁽¹⁾.

وتبعاً لذلك فقد ظلت قوافل المدن الإيطالية تتبع نظام الملاحة القديم الذي يمنع الملاحة في فصل الشتاء، إذ كانت السفن تخرج في فصل الصيف ولا تعود إلا مع منتصف فصل الربيع، بعد أن تكون قد قضت فترة الشتاء كلها في المشرق أو في المغرب، وفي ذلك مقولة مشهورة لأحد الملاحين الجنوبيين: "...هناك ثلاثة موانئ هائلة في البحر ائمنوسط، قرطاج، وجوان وجويلية" ⁽²⁾.

ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي بدأ سكان المدن الساحلية في حوض المتوسط يتحررون تدريجياً من هذه القيود التي فرضتها الظروف الطبيعية والبشرية منذ فجر التاريخ، عندما شرع العمل بالتقنيات الحديثة المستكشفة في ميدان الملاحة، مثل البوصلة والإسطرلاب. وكذلك استعمال الخرائط البحرية التي صارت عدة لنفلاحيين، يستصيعون بواسطتها معرفة اتجاه السفن وتحديد مسافات السواحل وموقع الجزر ⁽³⁾، وكلها عوامل ساعدت على التقليل من خطر الإبحار، وألهمت، بالتالي، المعنيين بقطاع التجارة على التوجه نحو بناء السفن الشراعية الضخمة التي تقاوم ارتفاع الأمواج، ⁽⁴⁾ بحيث صار بإمكان هذه السفن الضخمة أن تبحر في أي فصل من فصول السنة من دون الخوف من

⁽¹⁾ - Cambridge économie history of Europe, vol.3. p 54-55.

⁽²⁾ - "Il y a trois port sur, disait le vieux prince Génois . Carthage, juin et juillet.

-F.Braudel : La méditerranée, espace et histoire. op.cit, p 62.

⁽³⁾ - Goff, J & J. c. Shmitt : Dictionnaire raisonné . op.cit, p 700.

⁽⁴⁾ - Goff, J : Marchands et banquiers du moyen âge , p 15.

أخطار الغرق،⁽¹⁾ لا سيما أن حركة الرياح الشرقية والغربية في البحر المتوسط تساعد السفن على التحرك ببسر، مما جعل المدن التجارية الإيطالية تقوم بأكثر من رحلة في السنة إلى الموانئ الإسلامية⁽²⁾.

أما فيما يخص خطر القراصنة الذي كان يشكل منذ العصور القديمة حجر عثرة في طريق تطور حركة النشاط التجاري بحوض البحر الأبيض المتوسط ويكلف التجار خسارة كبيرة، فقد تم التخلص منه، أو على الأقل التقليل من خطورته،⁽³⁾ من خلال السعي لتوفير الحماية الكافية لقوافل السفن في تنقلها ذهابا وإيابا عبر الطرق، منذ أن أخذت المدن التجارية على عاتقها تجهيز سفن حربية سريعة لمرافقة القوافل التجارية والانقضاض على القراصنة وملاحقتهم في عرض مياه البحر.

ونظرا لموقع بلاد المغرب في الضفة الجنوبية المقابلة لأوروبا، فقد كانت هناك العديد من الطرق التجارية المؤدية إليه من مختلف جهات أوروبا الجنوبية. وفيما يخص الطرق التي تسلكها، في العادة، قوافل جنوة إلى موانئ بلاد المغرب فيأتي في المقام الأول، الطريق الجنوبي الذي ينطلق مباشرة من ميناء جنوة إلى ميناء بجاية أو وهران حسب الظروف، مروراً بجزيرتي كورسيكا وسردينيا الواقعتين على نفس مسار الاتجاه⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ Braudel, F : La méditerranée, espace, p 64 & 69

-Heers, J : type de navire et spécialisation des trafics, p 110

- ذكر الرحالة أنسلمو أدورنو anselmo Adorno الذي قام برحلة سنة (1472-1473م) من مدينة جنوة إلى المشرق، مروراً بوسس والإسكندرية، أنه عثم قدم بجوة نصحوه جماعه من سجناء انعارفين بشؤون الملاحة وابحر ركوب سفينة من نوع galère لأنها الأصخم، ولأنها تستطيع الإبحار في أي فصل من فصول السنة، راجع .

- Itinéraire d'Anselmo Adorno, op.cit, p 53.

⁽²⁾ Heers, J : "types de navires et spécialisation des trafics, op.cit, p 111.

⁽³⁾ لم يكر من السهل التخلص من خطر القراصنة نهائيا، خلال فترة العصور الوسطى، لأنه كثيرا ما كانت المدن الإيطالية نفسها تلجأ إلى ممارسة أعمال القرصنة والعنوان البحري، كلما وقع خلاف سياسي بينها. ومصادر التاريخ مليئة بحوادث من هذا النوع بين الأمم المسيحية نفسها، ناهيك عن الصراع الدائم بين المسلمين والمسيحيين.

⁽⁴⁾ Jehel, G : les Génois, p 312.

وأحيانا يفضل قادة الأسطول ارتياد الطريق الذي يمر عبر الجزر من جنوة إلى كورسيكا- سردينيا -صقلية- بنطارليا، ثم إلى تونس أو المهدية. أو يسلكون الطريق الآخر الذي ينطلق من جنوة باتجاه كورسيكا إلى سردينيا ثم إلى جزر البليار، و من هذه الأخيرة. تأخذ القافلة وجهتها إما إلى بجاية أو إلى وهران، ويسمى هذا الطريق طريق الجزر.⁽¹⁾ وهو الطريق المفضل لدى السفن المتجهة إلى المغرب والأندلس،⁽²⁾ لكونه يوفر عدة مزايا منها : أنه قليل الأخطار لأن قافلة السفن تنتقل من جزيرة إلى أخرى قريبة منها في مدة زمنية قصيرة، وعادة ما كان ربان السفن يتخيرون الظروف الجوية المناسبة للانتقال من محطة (جزيرة) إلى أخرى، فيتقادون بذلك الأعاصير والتقلبات الجوية، فيما كان يعرف في مصطلحات الملاحة البحرية بالإبحار عبر الجزر la navigation par les Îles. ثم أن هذا الطريق مريح جدا للتجار والمسافرين حيث يسمح لهم بالاستراحة في كل محطة، والتزود في كل مرة بالسلع والمؤن اللازمة⁽³⁾.

وحلال القرن الخامس عشر الميلادي أضافت جنوة قافلة تجارية أخرى تجوب طريق ساحل الشمال الأفريقي في رحلة ضوينة ذهابا وإيابا من المشرق إلى أقصى المغرب، وقد تواصل هذه القافلة سيرها إلى ما وراء مضيق جبل طارق، حتى تصل إلى جنوب إنجلترا وسواحل بلاد الفلاندرز، وهي الرحلة التي كان يشار إليها في مصطلحات الملاحين والتجار الجنوبيين بـ " per costeriam " بمعنى السير بمحاذاة الساحل⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ Jehel, G : op cit, 312-3

⁽²⁾ ابن جبير في رحلته إلى المشرق، ركب سفينة جنوبية سنكت هذا المسلك، راجع - الرحلة،

ص 2-5.

⁽³⁾ Braudel, F: la medeterranée et le monde méditerranéen. T1, p 95 96.

- Dufourcq, ch : Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine Musulmane, op.cit, p 175.

⁽⁴⁾ Heers, J: " Gènes et l'Afrique du nord, op.cit, p234-35.

Sottas, J : le messageries maritimes de Venise au XIV et XVS, paris, 1983, p 107.

-Doumerg, B : Venise et le sultanat des Hafsides, op.cit, p 104-105.

وربما جاء قرار الحكومة الجنوبية بتنظيم مثل هذه الرحلة تقليدا للنظام الذي كان متبعاً في البندقية في ذلك الوقت، إذ كانت جمهورية البندقية أول من وضع برنامجاً لاقافلة تجارية تربط موانئ بلاد المغرب بموانئ المشرق ابتداء من سنة 1422م، يطلق عليها اسم El Traffego، نحصصت مهنها في نقل التاجر والحجاج المعاربة وسلمهم إلى الإسكندرية وبلاد الشام⁽¹⁾.

وأظهرت الوثائق أن مواعيد إقلاع القوافل التجارية الجنوبية باتجاه بلاد المغرب لم تكن منتظمة، وارتبطت، في غالب الأحيان، بالظروف المناخية وحركة الرياح. والواقع أن أصحاب السفن كانوا يفضلون فترات معينة للخروج في الرحلة إلى بلاد المغرب والأندلس. تنطلق الأولى مع منتصف فصل الربيع² وتعود مع بداية موسم الخريف. وتبحر الثانية، مع نهاية فصل الخريف لتعود مع منتصف الربيع⁽²⁾، فيما تدوم رحلة مباشرة بين جنوة وبلاد المغرب حوالي شهراً، أو أربعين يوماً.⁽³⁾

على أن المرحلة الأولى من مواعيد رحلات القوافل الجنوبية -منتصف فصل الربيع إلى مطلع موسم الخريف- تبقى، حسب المصادر الجنوبية، المرحلة الأكثر إقبالا على السفر لكون ملاك السفن، والمؤجرين لها، وكذلك أصحاب البضائع من التجار، يشعرون بالارتياح أثناء السفر في هذا الموسم لأن البحر غالباً ما يكون هادئاً، والظروف المناخية المعتدلة مواتية لراحة المسافرين⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ Sottas, J : op.cit, p107.

⁽²⁾ نخر الرحلة تحوي A. Adorno أنه ركب القافلة الجنوبية المتجهة إلى تونس يوم 7 مايو.

-Itinéraire d'Anselmo Adorno, op.cit, p 53.

⁽³⁾ - Jehel, G : les Génois, p 314-315.

⁽⁴⁾ أظهرت المصادر أن توقيت خروج قوافل التجارة المتجهة إلى المشرق تكون الأولى مع نهاية شهر جويلية وتعود في شهر نوفمبر، فيما تنطلق الثانية مع نهاية فصل الشتاء (فبراير) وتعود في شهر أبريل، وهذا التوقيت في الواقع يتزامن مع وصول قوافل السفن الإسلامية الآتية من البحار الشرقية (قوافل التوابل) التي كانت تصل إلى الموانئ المصرية والشامية، مرتين في السنة، مرة في شهر سبتمبر، ومرة ثانية في شهر مارس، للمزيد راجع :

-Dopp, P.H : l'Egypte au commencement du 15^{ème} siècle, d'après le traite d'Emmanuel Piloti de crète. Le Caire, 1950. p18.

**** جدول يبين عدد الرحلات التي قامت بها السفن الجنوبية ، حسب وقائع تعود إلى سنة 1445م.**

مكان الاتجاه	عدد السفن أ- الجنوبية 52 ب- الأجنبية 12	النسبة	سفن جنوبية 52	النسبة
شمال الأطلسي	32	% 30	20	24%
شرق البحر المتوسط	27	% 25	24	30%
غرب البحر المتوسط	47	% 45	37	45%
المجموع	106	% 100	81	100%

5- إجراءات الاستقبال في الموانئ المغربية

اشتهرت على سواحل بلاد المغرب، خلال مرحلة العصور الوسطى، عدة موانئ بحركتها التجارية النشيطة منها: طرابلس، المهدية، تونس، بجاية، وهران، حنين وسبينة. غير أن أهم الموانئ التي شكلت الوجهة المفضلة للتجار الجنوبية، خلال هذه الفترة، هي

- A.Sapori : le marchand italien au moyen age, p 80 - 81.

(*) Ph.Gourdin : présence génoise en méditerranée et en Europe du nord au milieu du XVS, L'implantation des hommes d'affaires d'après le registre douaniers de 1445. in " coloniser au moyen age, p 16.

ميناء سبّنة على عهد الدولة الموحدية، ثم حول الجنوبية، بعد ذلك، اهتمامهم إثر انهيار الدولة الموحدية إلى ميناءي تونس وبجاية⁽¹⁾. فيما شكلت موانئ وهران وحنين، في نفس الفترة، قبلة التجار القطلونيين و الأراغونيين على عهد الدولة الزيانية في تلمسان⁽²⁾.

ونعد مؤسسة النديوان أول جهاز حكومي يستقبل التجار الأجانب الوافدين إلى النديار الإسلامية للتجارة، ولأن هذه المؤسسة تعد من أهم المصادر المالية لخزينة الدولة، فقد أولت السلطات الإسلامية، منذ بداية عهدها بالبحر، عناية خاصة بالموانئ البحرية، بأن أحاطتها بالأسوار حتى لا يغامر التجار الوافدون الاتصال مع الأهالي إلا من خلال بوابة الميناء، كما أقامت عليها أبراجاً وحصون للمراقبة، وجعلت عليها حاميات لحراسه الميناء الإقليمية، وزودتها بوسائل الإنذار المبكر. كما وسعت الأرصفة وربطتها بسلاسل حديدية حتى تمنع تسلل أية سفينة إلى خارج الميناء قبل أن تأخذ إذنًا من السلطات المعنية⁽³⁾.

وخلافاً للمدن الداخلية التي يتصرف فيها حاكماً مدنياً (والي)، فإن المدن الساحلية - المدن الموانئ كما تسمى عادة - قد وضعت تحت إدارة قائد عسكري غالباً ما يتم اختياره من بين أفراد الحاشية المقربة من الخليفة أو السلطان، على اعتبار ضخامة المهمة الموكلة إليه⁽⁴⁾. فهو مطالب، في المقام الأول، بأن يكون القائد الذي يتولى الدفاع عن الميناء في حال تعرضه للغزو أو الغارة، كذلك فهو مكلف بجمع الإيرادات على مختلف السلع التي تصل إلى الميناء ويحولها إلى خزينة الدولة، إضافة إلى ذلك، فإن صاحب النديوان الذي يعرف عادة، بالمباشر أو المشرف⁽⁵⁾، هو الشخص الوحيد المخول له الاتصال مباشرة مع التجار الأجانب، وممثليهم من القناصل، للتفاوض معهم بشأن القوانين المستجدة، أو لفض خلاف بينهم وبين التجار المسلمين، وهو من يمنح الأشخاص الوافدين جوازات السفر

(1) راجع ما سبق

(2) M. Mauroy, op-cit, p. 102-3

(3) - راجع في هذا الصدد كيف صمم ميناء المهدية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص 230

(4) غالباً ما يشار إليه في المصادر الجنوبية باسم L'Alcayt

(5) Encyclopédie de l'Islam, T2, p. 150.

(تصاريح الأمان Sauf Conduct) التي تسمح لهم بالدخول إلى البلد والاستمتاع بالإقامة فيه،⁽¹⁾ وهو وحده من يعطي الإذن لريان السفن والركاب بمغادرة الميناء بعد أن يكونوا قد انتهوا من أشغالهم ويقررون الرحيل، مع مراعاة استيفائهم لجميع الضرائب والرسوم المستلزمة عليهم⁽²⁾.

وتأتي أهمية مباشر الديوان في كونه صاحب السلطة المطلقة على شؤون التجار الأجانب، إذ خولت له الاتفاقيات معاقبة التجار وسجنهم، بمن فيهم، القنصل، إذا تبين أن هؤلاء خالفوا الضوابط المعمول بها⁽³⁾. كما يحق له احتجاز السفن في حال تملص التجار أو بعضهم من تسديد ما عليهم من الأداءات الجمركية، أو ارتكابهم جرماً يستحق العقاب. ومن مهام مسؤول الجمارك، أنه هو الذي يشرف على شراء البضائع التي تحتاجها الدولة وتدخل ضمن احتكاراتها، كالأخشاب، والمعادن الثمينة⁽⁴⁾، كما يمثل السلطان في طلب القروض واستئجار السفن لنقل أموال السلطان من مدينة إلى أخرى⁽⁵⁾.

أما عن الإجراءات المتبعة عند وصول السفن التجارية إلى الموانئ الإسلامية، فإن المصادر التاريخية التي أشارت إليها لم تميز بين الإجراءات التي تتبع مع أمة دون أخرى. ومن المحتمل أن تكون هذه الإجراءات المتبعة في الموانئ الإسلامية واحدة، تخص جميع سفن الأمم التجارية الأجنبية بدون تمييز، وهي في الغالب تتم كالتالي:

ففي اللحظة التي تظهر فيها إحدى السفن على خط الأفق، يقوم حراس البرج بإرسال إشارة إلى مسؤول الديوانة الذي يقوم، على الفور، بإيفاد أمير البحر Amiralduš، ومعه بعض الموظفين للاتصال بطاقم السفينة القادمة في عرض مياه

⁽¹⁾ M. Gaudfroi & Demonbynes: Les institutions musulmanes, Paris, 1953, p. 191

⁽²⁾ Ph. Gourdin: Les relations..., p. 149.

⁽³⁾ De Mas Latrie: traites II, p. 138.

⁽⁴⁾ في المشرق، المتجر.

⁽⁵⁾ T. Mansouri: La vie portuaire à Tunis au bas moyen age XII-XVS, in Tunis cité de la mer (Actes du colloque de L'UNESCO, Tunis capitale culturelle) 1997. ed L'or du temps 1999, p. 147.

البحر لمعرفة جنسيتها، وعدد ركابها، وغرضها من المجيء، ونوع حمولتها، ثم ترسل هذه المعلومات إلى الوالي عن طريق الحمام الزاجل⁽¹⁾. ليؤذن، بعد ذلك، للسفينة بالدخول إلى الميناء. وبمجرد رسوها عند الرصيف تبدأ المرحلة الثانية من الإجراءات، حيث يصعد أمراء آخرون إليها ليقوموا بإحصاء الركاب ونفيسهم. ونسجل البضائع الواردة على متنها⁽²⁾ بحضور قنصل الجالية التي تتبعها السفينة⁽³⁾. ثم، بعد ذلك، تنزع أشربة السفن، وصاريها، ليتم وضعها في مكان أمين تحت رقابة السلطات المحلية، حتى لا يمكن لأصحاب السفن من مغادرة الميناء إلا بعد دفع الرسوم الجمركية المستدقة، وحصولهم على الإذن بالسفر⁽⁴⁾.

وبعد الانتهاء من عملية التفتيش والتسجيل، يسمح للركاب بالنزول إلى أرض الميناء. و عند ذلك تبدأ عملية تفريغ وإنزال البضائع على السلالم الخشبية أو ألواح الخشب المحمولة على ظهور الحمالين، ليتم نقلها إلى المستودعات الخاصة بكل امة. وفي داخل هذه المستودعات أو اندكاكين، يشرع المبشرون في عملية الوزن، والتفيس، وتحديد ثمن كل سلعة، ليؤدي عليها أصحابها الرسوم المعتادة، وتتم العملية بعد مسؤوليات مع سلطات الجمارك، بحضور القنصل ممثل التجار لدى هذه السلطات⁽⁵⁾.

وكانت أكبر كمية من السلع الواردة تباع داخل هذه المستودعات، لأن التجار المحليين كانوا دائماً يتسابقون على شراء السلع الثمينة الواردة، كما أن أصحاب المصنع.

⁽¹⁾ Frescobaldi: visit to the holy palaces of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384. (Fransiscan press) Jerusalem, 1948, p. 37-8.

- Harff, Von: The pilgrimage of von Harff. London, 1946, pp. 92-93.

• نفس هذه الإجراءات كانت متبعة في موانئ الإمارات الصليبية في فلسطين وبلاد الشام، للمزيد، راجع: يوشع براور: عالم الصليبيين، مرجع سابق، ص. 165-166.

⁽²⁾ راجع كذلك، ابن جبير، الرحلة، ص. 6-7.

⁽³⁾ Frescobaldi: op-cit, p. 38.

- Harff, V: op-cit, p. 93.

⁽⁴⁾ - نيت، ج: "السواسلات في سمر الإسلامية" (مجلة السقنل) 1937، ص. 40.

⁽⁵⁾ - يوشع براور: المرجع السابق، ص. 166.

من الأوربيين، كانوا هم الآخرون يرغبون في تسويق بضاعتهم بأسرع وقت، حتى يتسنى لهم التفريغ لشراء ما يحتاجونه من السلع المحلية⁽¹⁾. أما السلع التي لم تجد من يشتريها بمستودعات الجمارك، فإنها تختتم بختم للتأكد من أن الرسوم المستحقة عليها مدفوعة، ثم يختتم آخر للدلالة على مصدرها منعا للغش. ويتولى هذه العملية موظفون أطلق عليهم "مباشري الختم"⁽²⁾. وفي المرحلة الأخيرة يسمح لصاحب البضاعة بنقل بضاعته إلى الفندق الذي يقيم فيه ليتصرف فيها بحريته.

وكانت هذه الفنادق تبني في الغالب بالقرب من الميناء على قدر الإمكان حتى يسهل على التجار الانتقال إليها ببضائعهم من دون مشقة وعناء، ولقد نصت بنود المعاهدات المبرمة بين ممثلي الجاليات التجارية والسلطات الإسلامية على ضرورة حماية التجار الوافدين في أرواحهم وأموالهم، ويكونوا مطمئنين عندما يبيعون بضائعهم بالأسواق المحلية أو يعودون بها إلى أوطانهم. طبقا لما جرى به العرف القديم⁽³⁾.

ولاجل مساعدة مباشر الديوان. في أداء مهامه المتعددة على أحسن الظروف، فقد سخرت السلطات الإسلامية مجموعة كبيرة من الموظفين الإداريين والمساعدين. منهم الموتقون، والترجمة، والحمالين، والكيالين، والوازنين والبواحين، والدلائين. والحراس وغيرهم من الأشخاص الذين يتطلب حضورهم بمؤسسة الجمارك ضرورة نافعة لسيير العملية التجارية.

وعلى ذكر الموتقين، يجب الإشارة، إلى أن السلطات الإسلامية في بلاد المغرب. منحت الحرية التامة للجاليات الجنوبية المقيمة على أراضيها لإدارة شؤونها الاقتصادية وترتيبها فيما بينها على حسب الحال التي يرتضونها، وعلى هذا الأساس، سمحوا للموتق

(1) Cahen, c: "Douane et commerce dans les ports Méditerranéens de l'Egypte médiévale d'après le min hadj d'Al Makhzumi (JESHO), vol, VII, 1964, p240.

(2) سعيد عاشور: العصر المالكي في مصر والشام، القاهرة، 1965، ص. 305.

(3) De Mas Latrie: Relations p. 348.

Notarius بأن يباشر أعماله وفق ما يقتضيه العرف الجنوبي⁽¹⁾. إذ تكشف الوثائق العدلية في أرشيف جنوة، أن الموثقين الجنوبيين المقيمين بالموانئ المغربية أشرفوا على تحرير مجموعة كبيرة من العقود التجارية، ونخص بالذكر في هذا المقام، سجلات الموثق الجنوبي Petrus Batifolius التي تحوي على أكثر من 133 عقد تجاري قام بتحريرها لما كان يشغل منصب موثق بميناء تونس في الفترة ما بين (1288م - 1289م)⁽²⁾. كما وصل عدد الموثقين الإيطاليين الذين امتنعوا هذه المهنة وهم مقيمون بالموانئ المغربية، حسب ما أظهرته وثائق الأرشيف، 14 موثقاً. أكثريتهم كانوا مقيمين في ميناء تونس، ومرسى الخرز (القالة)⁽³⁾.

وإلى جانب الموثق آنذي كان يعد دعامة أساسية في النظام التجاري المعمول به في تجارة البحر الأبيض المتوسط، فقد اعتمد التجار في تسيير أعمالهم، كذلك، على شخصية أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، إنها شخصية المترجم Drogman، الذي وضعت السلطات الحكومية في خدمة التجار الأجانب بالموانئ والأسواق، ومختلف مراكز البيع والشراء، لتسهيل عملية التواصل والتفاهم بينهم وبين التجار المحليين.

والترجمان شخصية مرموقة يتم اختيارها، في الغالب، من بين الفئات المثقفة النزيهة التي تملك مؤهلات علمية على فهم اللغات الأجنبية. وترجمتها في يسر ولباقة، إذ لم يكن مسموحاً لأي شخص من هؤلاء مباشرة هذه المهنة، إلا بعد أخذ الموافقة والاعتماد من السلطات المحلية المعنية، كما يستلزم في تعيينه حصول موافقة التجار الأجانب، وقد تتعدى صلاحيات الترجمان إلى القيام بدور الدلال أثناء عملية البيع في المزاد العلني

⁽¹⁾ L. Balleto: L'administration de la justice dans les établissements génois d'outre mer in coloniser au moyen- age; op-cit, p. 259.

⁽²⁾ راجع بهذا الشأن:

- G. Piztarino: Notai genovesi in oltre mare, atti rogati a tunisi da Pietro Battifoglio (1288-1289) (collana storica di fonti e studi, 47) Genova, 1986.

- Jehel, G: Catalogue Analytique et chronologique des actes du notaire pétrus Batifolius. (Cahiers de Tunisie), TXXXV, N° 99-100, 1977.

⁽³⁾ Ph Gourdin: Les relations, p. 213.

(الحلقة). ولدينا شهادة عن طبيعة عمل الترجمان في بلاد المغرب، من خلال رسالة بعث بها المواطن البجاوي أحمد بن تميم الترجمان إلى حاكم مدينة بيزة الإيطالية Lomerto de Vernaccio ، يطلب منه فيها أن يتوسط له لدى القنصل والتجار البيازنة، لكي يقترحوه على حاكم بجاية للموافقة على تعيينه كاتباً وترجماناً للجنالية البيرية، ودلالاً لها في الحلقة. ⁽¹⁾ Halaqa.

ومن أهم ما كشفت عنه الوثائق ذات الصلة بالنشاط التجاري بين أوروبا وبلاد المغرب، أن حاجة التجار إلى ترجمة يساعدونهم في أداء عملهم، لم تكن مقتصرة على أولئك الذين ينشطون بالأسواق والموانئ الإسلامية فحسب، بل إن كثافة العلاقة القائمة بين المسلمين والأوروبيين، مثل: إرسال الوفود الإسلامية إلى بلاطات الدول الأوروبية، وكذلك سفر بعض التجار المغاربة إلى المدن المسيحية للتجارة، قد حتم وجود شخصية الترجمان العربي في بعض المدن الأوروبية.

ولنضيف في هذا الجانب مجموعه من الوثائق التي تبين وجود تراجمه مسلمين، ويهود، يشتغلون كترجمة معتمدين مقيمين لدى حكومة جنوة، مكلفين بترجمة الرسائل والمعاهدات التي تأتي من بلاطات الحكومات الإسلامية.

فلقد أشارت مصادر جنوية، تعود إلى سنة 1247م، إلى شخص يهودي اسمه Moses كان يشغل منصب كاتب اللغة الشرقية ⁽²⁾ Scriba litterarum sarracinarum وفي نفس السياق، أورد المؤرخ كنال Canale أنه في حدود سنة 1251م كان يعيش في مدينة جنوة شخص عربي مسلم اسمه Abid Taikli كان يشغل منصب الترجمان الرسمي المعتمد لدى حكومة جنوة في اللغة العربية ⁽³⁾. كما تحدثت المصادر عن وجود

⁽¹⁾ Amari, M: Idiplomi Arabi del Archivio Fiorentino, p. 76.

⁽²⁾ Jehel, G: Jews and Muslim in médiéval Genova from the twelfth to fourteen centry, studies in honour of David Jacobym edited by Ben Jamin Arbel, London. 1996, p. 122-23.

⁽³⁾ Canale, M: Nouava istorie TII, op-cit, p. 352 & 354.

شخص آخر في مدينة جنوة سنة 1274م، من أصل تونسي اسمه أحمد عبد الرحمن، كان يشغل منصب كاتب في اللغة العربية لدى قومونة جنوة *Scriba linguae sarracenicae communio janue*.⁽¹⁾

وهناك أدلة أخرى تؤكد عدم اشتغال مواطني جنوة بمهنة الترجمة من اللغة العربية، كما كان شائعا، على ذلك العهد، لدى البيازنة⁽²⁾. من ذلك مثلا، أن الحكومات المغربية اعتادت، كلما أرسلت سفارة أو بعثة إلى جنوة، إدراج ترجمان ضمن الوفد المرسل ليتولى الوساطة في عملية الترجمة بين أعضاء الوفد المغربي والجهات الجنوبية المعنية.

ففي سنة 1238م عندما أوفد السلطان الحفصي بعثة إلى مدينة جنوة لشراء سفينة⁽³⁾. روعي تعيين ترجمان يسافر مع أفراك البعثة⁽⁴⁾. وإلى نفس السياق، أشارت مصادر إسبانية تعود إلى سنة 1346م، عن وصول سفارة مغربية إلى جزيرة مايوركا، كانت عائدة من مدينة جنوة، وكان من ضمنها السفير محمد أهازن *Ahazen*. وبصحبه ترجمانا اسمه العباس *Abbas*، إلى جانب أربعة أشخاص آخرين⁽⁵⁾.

وفي أغلب الحالات كان الموثق والترجمان، ومثلهم المساسره والندالين، وغيرهم من الوسطاء، يتقاضون عمولة معلومة يحددها القانون حسب حجم الصفقة، ونوع السلعة وجنسية البائع.

(6) - صادرات جنوة إلى بلاد المغرب

⁽¹⁾ Canale, M: op cit, p354

⁽²⁾ Jehel, G: Jews and Muslims in medieval Genova, P. 123.

- ربما هذا ما يجعلنا نفهم سر عدم وجود وثائق عربية، على الإطلاق، بالأرشيف الجنوبي، عكس ما هو متوفر في أرشيف المدن الأوربية الأخرى.

⁽³⁾ أشارت ذات المصادر إلى اسم قائد البعثة *Bubranus messaticus regis tunexis*، وكذلك سعر السفينة 1200 بيزنس *Besants*.

⁽⁴⁾ Dufourcq, Ch: *Aperçu des relations*, op-cit, p. 722.

⁽⁵⁾ Thid

كانت السلع التجارية هي القوة التي تدفع، دوماً، التجار و المغامرين إلى قطع المسافات البعيدة وطرق أبواب المدن والموانئ الأجنبية للبحث عنها أو تصريف جزء منها. فلقد بحث تجار أوروبا، منذ العهود القديمة، على الكثير من السلع الآسيوية والإفريقية التي نعدم في بلادهم، وبخاصة سلع الخزف كالنوابل، والحريز، والعطور، وبعض الصناعات المتطورة. وعلى نفس الدرجة تقريباً، احتاج سكان الضفة الجنوبية والشرقية لحوض المتوسط إلى سلع أوربية لتوفير ما كان ينقصهم من متطلبات الحياة مثل: العبيد الذين كانوا يسخرون للاستغلال الزراعية والخدمات المنزلية، والخشب، والحديد لتسعمالهما في بناء السفن وصناعة السلاح.

ولقد نمت المبادلات التجارية وازدهرت بين سكان المشرق وأوروبا إلى درجة صار كلما حدث انقطاع أو خلل في تيار هذه التجارة المتدفق عبر طريق البحر الأبيض المتوسط، بسبب الحروب، أو المعوقات الطبيعية، إلا وشعر سكان تلك الأقطار بالضرر الذي يصيبهم من جراء النقص في تلك البضائع المتبادلة.

ولقد أشار المؤرخ البلجيكي الشهير هنري بيرين إلى ما عانتة المجتمعات الأوربية من ويلات لما انقطعت الصلات بين أوروبا والمشرق. خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين = الأول والثاني الهجري، بسبب الحروب والصدمات العنيفة التي دارت رحاها في حوض المتوسط بين المسلمين والبيزنطيين⁽¹⁾.

(1) - هذه المسألة أشرنا إليها سابقاً، ولقد تبين بصورة موضوعية أن الصلات التجارية بين أوروبا والمشرق لم تنقطع بصفة نهائية جراء تلك الأحداث، إنما، انظر، أنها عبرت طريقها أمالوفه، ولذلك لا يمكن الحكم على معونه بيرين Pirenne بشكل أكيد، إلا بعد جمع المعلومات التي تقدمها المصادر الأدبية العربية ودراسها لمعرفة أماكن تواجد هذه السلع، التي أمكن للمسلمين استيرادها من أوروبا. للمزيد. راجع: - اشنور: التاريخ الاقتصادي، مرجع سابق، ص. 120.

وفيما يخص السلع والمتاجر التي تم تبادلها بين تجار المدن الإيطالية وبلدان المغرب، فليس لدينا المعطيات الكافية لمعرفة أنواعها بدقة أو تقدير كمياتها، لأنه غالبا ما كان التجار الأوروبيون المترددون على موانئ المغرب، يتحاشون الإشهار عما يحملونه على متن سفبهم ويبيعونه للمسلمين، خوفا من إثارة حفيظة رجال الدين المسيحيين، الذين لا يتسامحون مع من يتعاطى التجارة مع المسلمين، أولئك (الكفرة) على حسب نعتهم لهم.

ولأجل إعطاء هذا الحظر الصبغة الشرعية، فقد عددت البابوية قائمة من البضائع التي يتوجب على أي مسيحي الامتناع عن تصديرها للمسلمين، تشتمل في المقام الأول، على الأخشاب، الحديد، الرصاص، وكل أنواع الحبوب والمواد الغذائية، باستثناء الخمر، التي لم يورد الإشارة إليها ضمن قائمة المحظورات⁽¹⁾، إلى درجة أنه غالبا ما يضطر تجار المدن الإيطالية إلى استعمال الحيلة للتهرب من هذا القيد الشرعي من خلال التهريب و التستر على حقيقة ما يصدرونه من البضائع⁽²⁾، غير أن هذا السلوك لم يكن دائما نافعا، ففي بعض الحالات يتم القبض على التاجر متلبسا بالمخالفة، ويكون جزاؤه انعرامة والعقاب. مثل ما حدث سنة 1423م مع أحد التجار الجنوبيين الذي تمت معاقبته من طرف البابا مارتان الخامس Martin V (1415-1431م) لأنه أقبل على خرق الحظر، بعد أن ثبت قيامه بتصدير شحنة من الأخشاب لسلطان تونس، ولم يجد المتهم التبريرات المقنعة

⁽¹⁾ ر. برونشيك: ج II، ص. 267

⁽²⁾ الملفت للانتباه أن البابوية لم تكن صادقة في مواقفها، وكان هدفها تدمير العالم الإسلامي وإضعاف استعدادات تطرد المسلمين من حوض البحر الأبيض المتوسط. وإلا كيف نفسر إرسال البابا حريجار 9 واثناست 4 منشآت مسيحية وأسلحة لحكام النوبة الموحدية لاستعمالها في حروبهم ضد المتمردين: ومع ذلك، فمنذ انعقاد المجمع الكنسي الثالث Concile III في لاتران سنة 1179، الكنيسة الرومانية، منعت على المسيحيين أن يبيعوا للمسلمين السلع التي يمكن استعمالها في صناعة السلاح أو في بناء السفن، كما شمل المنع في بعض الأحيان المواد الغذائية وبخاصة الحبوب. وباتهام الصليبيين في عكا 1291م: وخروجهم نهائيا من بلاد الشام، الكنيسة حرمت التجارة تماما مع المسلمين في جميع السلع. ولكن مع تزايد التجار الأوروبيين على قرارات الحرمان اضطرت البابوية إلى استبدالها بقرارات أخف تفرض العرامة. للمزيد، راجع: الوثيقة في الملحق رقم 12

- Doufourqc, Ch: La vie quotidienne, p. 114-15.

لتبرئة نفسه من عقاب البابوية، سوى الادعاء بأنه إنما قام بالعملية لفك جماعة من المسيحيين الأسرى في تونس⁽¹⁾.

ومن خلال ما توفر لدينا من معلومات عن البضائع التي كانت محل تصدير من طرف الجنوبية إلى بلاد المغرب، يمكننا ترتيبها حسب أهميتها:

أ- الخشب: وبصفة خاصة النوع الذي يدخل في صناعة السفن، وقد نقل الخشب إلى المغرب على هيئة رزم أو قطع معدة للصناعة، وربما اشترى المغاربة من الجنوبيين مباشرة مراكب جاهزة⁽²⁾.

وكان التوجه العام في سياسة دول المغرب، في جميع الأوقات، يرمي إلى تشجيع استيراد مادة الخشب وادخاره، وذلك حيلة وتوقعا لما ستكون عليه الحالة في الأيام المقبلة، وربما كان الأسطول الذي امتلكه الحفصيون خلال القرن الرابع عشر الميلادي، و أكثروا الغزو به في مياه المتوسط، قد اعتمد في إنشائه على ما كان يأتي به تجار جنوة وامن الإيبانيين الأخرى.

ب- الحديد: تعد مادة الحديد من السلع التي كان الطلب عليها كبيرا في البلدان الإسلامية، وبخاصة في المشرق⁽³⁾ لافتقار المنطقة إلى هذه المادة في شكلها الخام. أما في منطقة بلاد المغرب فكانت مادة الحديد الخام متوفرة، غير أن صناعته متخلفة جدا، وما وجد منها لم يكن يكفي لسد حاجات المجتمع. لذلك احتاجت دول المغرب أحيانا إلى تحديث المصنع في شكل سبائك. وكانت الكمية المستوردة تستعمل في صناعة السيوف والخناجر وآلات الحرث وغيرها، كما كانت جنوة تصدر إلى بلاد المغرب الخرداوات carrelum

(1) L. Baletto: Gênes et le Maghreb, p. 91-106.

(2) اشرنا سابقا إلى بعثه كان قد أرسلها السلطان الحفصي سنة (1238م) لشراء سفينة من جنوة بمبلغ 12000 برس

Besants، راجع ما سبق

(3) Sprandel. Le commerce de fer en Méditerranée orientale au Moyen age (8^e colloque sur histoire maritime), Beyrouth, 1966, p. 387-89.

ferrerum، والمسامير التي تستعمل في تثبيت ألواح السفن⁽¹⁾، ولم تتجح مساعي البابوية، ومعها ملوك أوربا، لمنع هذه التجارة. وكانت مستوردات الحديد كلها من اختصاصات الدولة، سواء كانت من المعدن الخام، أو من الحديد الخالص المصنع⁽²⁾.

كما صدر الجنوية إلى بلاد المغرب مع نهاية العصور الوسطى مادة النحاس، وكانت هذه المادة من قبل متوفرة في كامل بلاد المغرب، حيث كانت تستخرج كميات كبيرة منها من مناجم تمبوكتو، ثم نصبت هذه المناجم فصارت بلاد المغرب تعتمد على ما تأتي به سفن المدن الإيطالية⁽³⁾.

ت- الخمر: اشتهر شريط ليجوريا الساحلي بإنتاج كميات وافرة من عنب الخمر، ولذلك اعتاد نجار جنوه نصدير كميات كبيرة من الخمر إلى البلاد الإسلامية وبخاصة إلى بلاد المغرب. وبرغم أحكام الشريعة الإسلامية التي تحرم على المسلمين تناول الخمر فإنه رجس من عمل الشيطان، إلا أن أتباع هذه الديانة كثيرا ما كانوا يتجاوزون الالتزام بهذا الأمر الشرعي، و النصوص التي تتحدث عن تصدير الخمر إلى أقطار بلاد المغرب وبيعها للمسلمين كثيرة.

جاء في وثيقة مارسيلية تتعلق بنظام عمل فندق المرسييليين الموجود بمدينة سبتة أنه كان يتوفر على محلين لبيع الخمر، واحد خاص بالمسيحيين، والآخر بالمسلمين⁽⁴⁾. كما أظهرت وثائق جنوية، كذلك، وجود مخامر Tavernes في تونس يديرها بنادقة تحقق إيرادات ضريبية معتبرة، حيث كان يذهب إلى إيراداتها إلى الجمهورية، فيما تعود الثلثان $\frac{2}{3}$ المتبقيان للفنصل ممثل الجالية البندقية.

⁽¹⁾ Jehel, G: Les Génois..., p. 352.

⁽²⁾ نجاة الباشا: التجارة في المغرب الإسلامي. ص. 66.

⁽³⁾ Jehel, G: L'Italie et le Maghreb, p. 162.

⁽⁴⁾ De Mas Latrie Relations p 369

- كما أورد ماسلاتري، في نفس السياق، معلومة تفيد بوجود مخمرة تابعة للمرسيليين في مدينة تونس تقدم الخمر للمسلمين. Ad vinum ibidem vendentum saraccenis

وكان الخمر الذي يأتي به الجنوبية إلى بلاد المغرب معروفا بنوعيته الجيدة يسمى (Chiavani Albarno)، غير أنه في الحقيقة لم تكن الكميات المصدرة يسمح ببيعها للمسلمين في الأسواق أو المستودعات مثل باقي السلع الأخرى، لأن الأعراف المحلية لا تسمح بذلك، إنما روعي في تصريفها جانب الحيلة والسرية، إذ غالبا ما كانت الكميات التي تدخل إلى البلد، تصل تحت غطاء الاستهلاك الخاص للقنصل وجاليته، ثم يشرع هؤلاء الأجانب، بعد ذلك، في بيعها في سرية للمستهلك المسلم. ففي معاهدة سنة 1465م بين الجنوبية والسلطنة الحفصية ورد بند يسمح للقنصل بتوريد ما حجمه 200 مازاريليا viczzarilia من الخمر لاستهلاكه الخاص بما يعادل تقريبا أربعمئة برميل⁽¹⁾. ومن المعلوم أن هذه الكمية كبيرة جدا تفوق طاقة استهلاك القنصل، بما يعني أن جزءا كبيرا منها سوف يحول للبيع للمسلمين بطرق ملتوية.

وكانت صادرات جنوة من هذه السلعة الاستهلاكية إلى بلدان المغرب كبيرة جدا حسب ما أظهرته بعض الوثائق، إلى درجة أن اسكوس المستحقة عليها كانت تدر أرباحا ضائلة على الدولة الحفصية⁽²⁾. كما أشارت مصادر أخرى إلى استقبال بلاد المغرب لكميات كبيرة من الخمر من جهات أخرى، من صقلية، بيزة، البندقية، وراكوزا Ragusa⁽³⁾؛ إضافة إلى ما كان يستورده يهود المغرب من هذه المادة من أوروبا، ويتواطئون مع بعض الجهات النافذة لبيعها للمسلمين⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ De Mas latrie: op.cit, p370

⁽²⁾ 1 مازاريليا تساوي 95.3 كلغ، أي ما سبعة 2 برميل، علما أن البرميل الجنوبي يساوي 47.6 كلغ

⁽³⁾ H. Bresc: un monde méditerranéen, op.cit, p. 433.

⁽⁴⁾ J.-A. Du cellier: Raguse, "L'Italie et la Berberie au moyen age, a propos de quelques documents inédits ou peu connus", Cahier de Tunisie) N°: 61-62, 1968, p. 35.

⁽⁵⁾ B. Doumerg: Venise et Sultanat Hafside, p. 157.

- وكان هذا التصرف من جانب اليهود، كثيرا ما يؤلب عليهم العامة من المسلمين، التي كثيرا ما تغضب عندما ترى استغلال ظاهرة بيع الخمر من طرف اليهود، جهارا نهارا، فتقوم بالثورة عليهم. كما حدث أيام حكم السلطان يوسف بن يعقوب المريني، عندما أفتى شيوخ المغرب بالآثمة لليهود بعدما تأكد أنهم يبيعون الخمر للمسلمين وتماديهم عليه بعد النهي عنه ... فقتلوا لذلك وسبوا ببلاد بني مرين كلها. " للمزيد، راجع: الوثائقي: المعيار، ج 2 ص 250.

ث- **لأكبسة والصناعات الصوفية:** كانت الدول الإسلامية حتى القرن الثالث عشر الميلادي على رأس دول البحر الأبيض المتوسط في تصدير المواد النسيجية، القطنية منها، والصوفية والحريرية، وخلال وجود الصليبيين ببلاد الشام أمكنهم الإطلاع على تقنيات هذه الصناعة المتطورة، وأخذوا يقلدونها، وما أن حل القرن الثالث عشر الميلادي حتى أضحت هذه المنتجات النسيجية من أكثر السلع التي تصدرها جنوة إلى بلاد المغرب⁽¹⁾. وكانت الكميات الكبيرة من هذه السلع يأتي بها تجار جنوة من وسط أوروبا من بلاد الفلاندرز، وبورغونيا، و ألمانيا⁽²⁾، يأتي على رأسها الملايا Les Draps التي كانت تلقى إقبالا كبيرا لدى سكان المغرب وبخاصة الفئات المرموفة في المجتمع نجودتهم وجمال ألوانها الفاتحة، إلى جانب بعض الأقمشة الصوفية والكتانية، حيث أظهرت وثائق جنوية تخص عقود تصدير هذه السلع إلى الأسواق الخارجية، أن بلاد المغرب استقبلت أكبر كمية منها بما يعادل 36% من مجموع 95 عقود صفقات التصدير⁽³⁾. وكانت هذه الأقمشة الجنوبية مطلوبة في كامل جهات بلاد المغرب. فمن مجموع 50 عمية لتصدير الأقمشة من جنوة إلى بلاد المغرب، نجد 12 عملية تمت مع بجاية، (المغرب الأوسط)، 13 مع تونس (المغرب الأدنى) و 10 مع سبتة (المغرب الأقصى)⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ D. Abu latia: The impact of the. Of the orient: Economic interactions between east and west in the medieval mediterranean, (IMR international medieval rechearch, Vol 1, 1997, P. 10

⁽²⁾ Sayous, A: Commerce et Finance en méditerranée, p. 220. Recueil d'étude, ed Variorum reprints London 1988

- Y. Renouard: Etudes d'histoire médiévale, T1, (S.E.V.P.E.N), Paris, 1968, p. 366.

⁽³⁾ Jehel, G: Les Génois, p. 466.

⁽⁴⁾ Ibid

ج- لأحجار الكريمة والجواهر: تشكل الأحجار الكريمة والمصوغات صنفاً آخر من البضائع التي تاجر فيها الجنوبية مع بلاد المغرب، وكانت غالبية هذه السلع ذات القيمة العالية، مثل الماس، والزمرد، واللؤلؤ، والأصداف، والياقوت، والعاج، يأتي بها تجار جنوة من أسواق المشرق، التي كانت تصلها، هي الأخرى، من الهند والصين وإفريقيا⁽¹⁾. كما صدر الجنوبية إلى بلاد المغرب الأواني الزجاجية، والحلي المصنعة من الذهب والفضة، وشجع حكام المغرب استيراد مثل هذه السلع الثمينة وميزوها بتعريفه جمركية ضعيفة لا تتعدى نسبة 2% من قيمتها⁽²⁾.

ح- التوابل: تحت اسم التوابل تندرج مجموعة كبيرة من المواد الزراعية والنباتية المتنوعة، منها: الفلفل، الزنجبيل، الكافور، العود، والحبان، والزعفران، والدار صيني، وغيرها من العقاقير الطبية، ومن المعلوم أن أوروبا لم تعرف استعمال هذه المواد، وفي حدود ضيقة، إلا منذ القرن الثامن الميلادي، وخلال مرحلة الحروب الصليبية كثر استعمال الأوروبيين لهذه المواد الغذائية والطبية إلى أن صاروا يحتكرون تجارنها عبر البحر الأبيض المتوسط⁽³⁾. ولما كان ثمة نقص في بعض من هذه المواد في بلاد المغرب، فقد تولى تجار المدن الإيطالية، وفي مقدمتهم تجار جنوة استغلال هذه التوابل والأفاويش من أسواق المشرق إلى موانئ المغرب⁽⁴⁾. وظلوا مصدر التموين لهذه المواد إلى بلاد المغرب والأندلس حتى نهاية العصور الوسطى.

وبالنظر إلى تصدير الأقمشة التي كانت تكتسي صبغة عامة ومتواضعة، كان توريد بعض المواد الخام أو المصنوعة يمثل بصورة محسوسة مكانة أدنى، فنجد في المقام

⁽¹⁾ Jehel, G: L'Italie et le Maghreb, p. 167

⁽²⁾ Ibid

⁽³⁾ توشريسي: التعمير، ج1، ص26.

الأول الورق الذي قال بشأنه أحد المؤلفين المغاربة في القرن الخامس عشر الميلادي، " أنه لا توجد في كامل أنحاء إفريقيا، من تلمسان إلى طرابلس، أية ورقة غير واردة من بلاد النصارى"⁽¹⁾.

(7) - مشتركات الجنوبية من سلع بلاد المغرب:

بلاد المغرب كانت تصدر أكثر مما تستورد، وتعد صادراتها على جانب كبير من الأهمية، لأنها تقوم بالدرجة الأولى على المواد الأولية والمعادن الثمينة منها: الأصواف، والجلود، والذهب، والقمح، والزيت والملح، وغيرها من المواد ذات الاستهلاك الواسع في حياة الشعوب.

فمنذ العهد الفينيقي كانت منطقة شمال إفريقيا تعد مخزنا للمواد الأولية وموزعا لها نحو شمال البحر الأبيض المتوسط ومشرقه. ولكن مع نهاية العصور الوسطى غدت تجارة المغرب أكثر ارتباطا مع أوروبا، حيث لعبت المدن الإيطالية دور الوسيط في هذه التجارة المردهرة. كما تعد جمهوريه جنوة التي تقع قبالة السواحل المغربية أكبر شريك أوروبي في تجارة بلاد المغرب.

ولقد تركز اهتمام الجنوبية بتجارة المغرب، بالدرجة الأولى، فيما كانوا يستوردون من سلع ثمينة واستراتيجية. وفيما يلي أصناف السلع التي حرص الجنوبيون على استيرادها من أقطار بلاد المغرب خلال القرون الأخيرة من العصور الوسطى:

أ - الذهب: أو المعدن الأصفر، كان يحظى بتقدير لدى جميع سكان العالم المتمدين. قال بشأنه الجاحظ: "... يستحب من الذهب سبيكه وغير سبيكه ... وإنما دامت دولته لأنه لا تدحضه خبث الكير ولا يفسده مر الدهور، وقيل إنما صار الذهب ثمينا لقلّة تغيره وازدياد نضارته وحسنه إذا عتق، ولأن الأشياء تنقص عند المس والدفن. ما خلا

(1) برونشفيك، ر: ج II، ص. 271،

الذهب فإنه لا ينقص البتة".⁽¹⁾ ولقد بدأ الذهب يتدفق إلى أقطار شمال إفريقيا من مناجم السودان الغربي التي كانت بها أشهر المناجم المنتجة له منذ أن فتح المسلمون أقاليم جنوب الصحراء، ثم ازداد وصول كميات كبيرة من هذا المعدن منذ القرن الحادي عشر الميلادي، خاصة عندما تمت السيطرة على طرق قوافل الصحراء بصورة قانونية من قبل سلالات المرابطين والموحدين، فمنذ ذلك العهد بدأت موانئ المغرب والأندلس تضطلع بدور مهم في توزيع هذه المادة إلى المناطق المجاورة من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى قال في شأنها البكري: "المغرب بلاد الذهب".⁽²⁾

ونظرا لأن المسلمين محرم عليهم شرعا تخزين الذهب والفضة، فقد عمدوا إلى سبك كل ما وقع في أيديهم من كميات كبيرة من هذا المعدن في شكل عملات نقدية وطرحوها للتداول في الأسواق، مما ترتب عنه ظهور قطع نقدية بأوزان معلومة من الذهب الخالص نالت شهرة عالمية، وصار الدينار المغربي، منذ ذلك الوقت، مطلوباً في جميع أنحاء العالم، لتفاوته في الوزن، وقيمه العالية.⁽³⁾

ولما كان الذهب نافصاً عند الأوروبيين. فقد دفع بهم إلى البحث عنه وطلبه لدى بلدان شمال إفريقيا، خصوصاً بعد القرن الثاني عشر الميلادي، لما كان يتوجب على تجار أوروبا الذين اكتشفوا أسواق المشرق المزدهرة دفع مشترياتهم بالعملة الذهبية.⁽⁴⁾

وليس هناك من بين تجار المدن الأوربية الذين ساهموا بنصيب وافر في تجارة انذهب في بلاد المغرب والأندلس مثل أنجوبيين، الذين توسعوا في هذه التجارة إلى درجة

⁽¹⁾ الجاحظ البصري: كتاب التنصير بالتجارة، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه، حسن حني عبد الوهاب، دمشق، 1932م. ص. 7-8.

⁽²⁾ البكري: المصدر السابق، ص 151 & الاستنصار: ص 145

⁽³⁾ M. Broome: A Hand book of Islamic coins, ed Sea by, London, 1985, p. 50-65.

- أ.أ. شتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق 1985. ص. 54-244

⁽⁴⁾ Heers, J: Les Barbaresques, op.cit, p. 248.

كانوا يمثلون الموزعين الأساسيين لمادة الذهب إلى كل أقطار أوروبا⁽¹⁾، كما حاولوا احتكار تجارته في بلاد المغرب، من خلال السعي للوصول إلى منابع إنتاجه وتتبع طرق قوافله. ويذهب بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن تجارا جنوبيين، ربما زاروا مدينة سجلماسة الواقعة عند حدود الصحراء خلال القرن الثاني عشر الميلادي، سالكين في ذلك طريق ساحل المحيط الرابطة بينها وبين سبتة⁽²⁾.

ويعتقد أن تجار جنوة وربوا الذهب الإفريقي إلى مدينتهم في شكل سبائك، و عملات، وأحيانا تربة أي التبر Poudre، ومن هنا شاع اسم Aurus Tiberi في جنوة، على ما كان يصل إليها من الذهب الإفريقي⁽³⁾، ومع ذلك فإنه من الصعب معرفة حجم واردات جنوة من هذه المادة بالأرقام الدقيقة، لأن التجار اعتادوا الحرص على إتباع السرية التامة كلما تعلق الأمر باستيراد أو تصدير الذهب خوفا من القراصنة، أو المصادرة⁽⁴⁾. وكانت الكميات التي تصل إلى جنوة من الذهب تحول إلى سبائك، Lingots ونقود Monnaies وأسلاك ذهبية fils d'or ليتم، بعد ذلك، توزيعها إلى ما رواء البحر، وإلى وسط وشمال أوروبا لاستعمالها في شراء سلع أخرى. فيم يبقى جزء كبير من الذهب المستورد داخل مدينة جنوة لتزويد المصاغات، أو لضرب العملة⁽⁵⁾.

ب- الأصواف والجلود: اشتهرت بلاد المغرب منذ القديم بأنها بلاد الخراف لاحتوائها على مساحات شاسعة من المراعي⁽⁶⁾، تمتد على طول الأراضي الواقعة بين التل والصحراء، وعلى العكس تماما فإن جنوة لا تملك الأرض الكافية لتربية الماشية، لذلك

⁽¹⁾ Heers, J: Le Sahara et le commerce méditerranéen à la fin du moyen age (A I E O) 1988, p. 252.

⁽²⁾ Dufourcq, ch.: Commerce du Maghreb, p. 168-9

⁽³⁾ Ph. Cantamin: L'économie médiévale, p. 259.

⁽⁴⁾ Heers, J: Les Barbaresques, p. 252

⁽⁵⁾ علما أن جنوة سكّت عملة ذهبية سنة 1252م عرفت باسم Genovino d'oro، الذي أصبح أساس المعاملات التجارية في داخل جنوة وخارجها. للمزيد، راجع:

- Ph. Cantamin: L'économie médiévale, p. 259.

⁽⁶⁾ M. Lombard: Etudes d'économie médiévale, T3, .p. 71.

اعتمدت في كل احتياجاتها من هذه المواد الأولية الحيوانية على ما تستورده من العالم الخارجي، وشكلت منطقة بلاد المغرب إحدى أهم المراكز للتموين بمادة الصوف والجلود. ولقد وردت جنوة من بلاد المغرب كميات ضخمة من هذه المواد، ويتوفر الأرشييف الجنوبي على عدد كبير من الوثائق التي تبين تواصل عملية توريد جنوة لهذه المواد من أقطار المغرب منذ عهد الموحدين، وكانت الكميات الكبيرة من هذه الأصواف والجلود المستوردة من بلاد المغرب يعاد توزيعها في البلاد الأوربية المجاورة، ليتم تحويلها إلى مواد مصنعة، إذ وصل قسم كبير من هذه المواد الخام إلى مصانع بلاد الفلاندرز في شمال وسط أوروبا⁽¹⁾.

**** جدول يبين حجم استيراد الجنوبية لمادة الصوف المغربي خلال النصف الثاني من القرن 13 م⁽²⁾.**

مكان الاستيراد	السعر بالجملة	الكمية المسوردة	السنة
تونس	S 14 و 261 ليرة	5 قنطار	1253م
بجاية	104 ليرة	26 قنطار	1274م
بجاية	497 / 9 S22'D ليرة	33 حمل Sac	1278م
بجاية	1664 ليرة	480 قنطار	1287م

(1) J. L. Gayet: Histoire du commerce, T2, p. 251.

(2) Jehel, G: Les Génois, p. 465

* المبلغ المحسوب بالليرة، و Solidus، و Denier.

- الليرة Livre: وحدة وزن من عهد الرومان تساوي 324 غ وهي تعادل 20 Sou و 240 Denier.
Sou من Solidus عملة نقدية ذهبية أنشأها الإمبراطور قسطنطين تساوي 4.53 غ؛ تساوي 12 Denier فضة.

- Denier: (درهم) وحدة نقدية ووحدة وزن من العهد الروماني. للمزيد. راجع:
- Ph. Cantamin: L'économie médiévale, p. 411-12.

ومع ظهور صناعات نسيجية في مدينة جنوة ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي، ازداد الطلب على الأصواف المغربية بعدما صارت كميات كبيرة منها توجه لتغذية المصانع المحلية، وكانت هذه الأصواف مطلوبة جدا لدى أصحاب تلك المصانع لوجودها ورخص أسعارها، وهي عدة أنواع منها: صوف البندروي Boidrones الذي لا يتعدى سعر القنطار منه دينار ونصف⁽¹⁾، و Motonera الذي يباع في الأكياس، والمسمى Mazagran ويأتي من نواحي تلمسان⁽²⁾. كما أشارت المصادر الجنوبية إلى أنواع أخرى من الصوف، منها: Lana di Garbo التي يحتمل أنها نوعية تأتي من المغرب الأقصى، إلى جانب نوع آخر من الصوف اشتهر بنوعيته الرديئة لكونه يحمّل الكثير من الأتربة والحصى. Lana Barbaresche, son grosisme et granizo et pierre sabion ponderoxe.⁽³⁾

أما أجود أنواع الأصواف التي بحث عنها الجنوبيون في بلاد المغرب هي الصوف المسماة Mineros⁽⁴⁾، ومن المحتمل أن يكون هذا الاسم تحريف لاسم دولة المرينيين التي كانت تسيطر على إقليم المغرب الأقصى. كما بحث الجنوبيون في بلاد المغرب، كذلك، على نوع فريد من الصوف، هو ما يعرف بالصوف الناعم الذي يتم الحصول عليه من الخراف الميثة عند الولادة، حيث يستعملونه صناع النسيج الجنوبيون في صناعة نوع من اللباس الناعم الذي يباع بأثمان غالية⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ بيعت كمية منه تزن 5 قناطر بـ 12 دينار. راجع:

- Dufourcq, ch: " Prix et niveau de vie. dans les pays catalans et maghrébins à la fin du XIII et au début du XIVs. In (le moyen age LXXI, 4^e série, XX), Bruxelles, 1965 .
Variorum reprint, p. 481.

⁽²⁾ Ibid.

⁽³⁾ - Dufourcq, ch: Aperçu sur la relation, p. 732. / - Jehel, G: Les Génois, p. 354

⁽⁴⁾ J. Augetil: Les routes de la laine, Paris, 2001, p. 160.

Dominique, Cardon: La draperie au moyen age essor d'une grande industrie européenne (CNRS) Paris, 1999, p. 72.

⁽⁵⁾ Y. Renouard: Etudes d'histoire médiévales, T1, (SEV PEN), Paris 1968, p. 365.

- Dufourcq, ch: Aperçu sur les relations, p. 732.

و على العموم فإن حجم مستوردات جنوة من مادة الصوف المغربية Lana di

Babaria بلغت معدلات كبيرة حسب ما كشفت عنه إحدى الدراسات، بما يساوي 54%

عبر ميناء بجاية، 13.7% عبر ميناء تونس، و 12.7% عبر ميناء بونة⁽¹⁾.

وبفس انكمية، كذلك، استورد الجنوبية الجلود المغربية Cora di Barbaria، وانصب اهتمامهم على جميع أنواع الجلود، سواء كانت خاما أو مدبوغة أو مصنعة⁽²⁾. ولقد كشف الباحث ديفورك Dufourcq عما وصل إليه سعر هذه الجلود سنة 1307م، حيث بيعت رزمة من 95 جلد بقر بـ 63 دينار ذهبي، ورزمة أخرى من 50 جلدا بـ 30 دينار، أي بمعدل $\frac{2}{3}$ و $\frac{1}{4}$ لسعر الجلد الواحد⁽³⁾. والإشارات في المصادر اللاتينية الوسيطة إلى الجلود المغربية والأندلسية كثيرة منها: مثلاً: Guadameci الذي ذكر مرارا في هذه المصادر، واسمه بالتأكيد مشتق من مدينة غدامس المغربية، إلى جانب القرطبي Cordebisus، والشطبي Shatibi، وهما مدينتان بالأندلس⁽⁴⁾.

ت- العبيد: اشتهر الجنوبية في العصور الوسطى، أكثر من غيرهم، في المتاجرة بالعبيد بصفته الأبيض والأسود، وكانوا يحصلون على الرقيق الأبيض من مستعمراتهم بالبحر الأسود، أما الصنف الأسود، رقيق إفريقيًا، فكانوا يشترونه من بلاد المغرب والأندلس، ولقد لقيت تجارة العبيد في مرحلة العصور الوسطى رواجًا كبيرًا بين مجتمعات حوض البحر المتوسط، وبخاصة لدى المسلمين في المشرق والأندلس. حيث

⁽¹⁾ Jehel, G: Les Génois, p. 235.

⁽²⁾ سمي تجود اتحام Cora pilosa، المدبوغة Cora confecta.

- Ph. Gourdin: " Les approvisionnements en cuire de la ville de gènes pendant la 2^e moitié du XVS (d'après les actes du notaires Nicolo Raggi" in (Nouava Rivista storica), vol LXXV, Anno 1991. p. 577.

⁽³⁾ Dufourcq, ch: "Prix et niveau de vie, p. 479,

⁽⁴⁾ أ.ر. كونسيل: التجارة والتجارة في الأندلس، ص. 288 - 89.

لجأ ملوك هذه الأقطار إلى شراء الرقيق لاستعماله في تشكيل فرق عسكرية محاربة، أو لرغبتهم في تزويد قصور الحريم بالعنصر السنوي⁽¹⁾. أما العبيد السود فكان الجنويون يستوردونه من بلاد المغرب، وبخاصة من مملكة الحفصيين بتونس. وفي ذلك شهادة من أحد الكتاب المعاصرين الذي شهد بأن التجار الجنوبية كانوا يقومون بشراء الأطفال السود من مملكة تونس⁽²⁾، ثم يبيعونهم في أوروبا، وبخاصة في صقلية. وكان هذا الصنف من العبيد، عادة ما يستعملونه الأوربيون في الأعمال الزراعية. فلقد بلغ عدد العبيد السود في صقلية، مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، عشرين عبداً⁽³⁾. كما وصل عدد العبيد من اصول إسلامية، من ذكر وأنثى في مدينة جنوة بين 1239 و 1288م، حوالي 36 عبداً⁽⁴⁾. ولم يتوقف نشاط الجنوبية في التجارة بالعبيد الأفارقة، إلا بعد منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، عندما استطاع البرتغاليون الوصول إلى سواحل المحيط الأطلسي، في موريتانيا والسنغال، وحولوا هذه التجارة إلى الطريق الأطلسي⁽⁵⁾.

ث- المرجان: لقد شكل المرجان إحدى الأصناف الرئيسية من بضائع تجارة البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى، واشتهرت المناطق البحرية القريبة من مدينتي سببة والقالبة (مرسى الخرز Marsacares) كمراكز هامة لإنتاج المرجان⁽⁶⁾ corail، ومنذ البدايه أظهر رجال أعمال جنوة اهتمام خاص بالتبحث عن سلع المرجان والمنجزة

⁽¹⁾ Ch. Verlinden: "Aspect de l'esclavage dans les colonies médiévale italiennes" Hommage a Lucien Febvre, ed Evantail de l'histoire vivante, T2, Paris 1954, p. 91-103.

- Lopez, S. R: Naissance de l'Europe, p. 153.

⁽²⁾ Dopp Piloti: traites d' Emmanuel Piloti, . P. 135.

⁽³⁾ Ch. Verlinden: "Aspect quantitatifs de l'esclavage méditerrané au bas moyen age in Annurios de estudios medievales) 10/ 1980 p. 774

⁽⁴⁾ Jehel, G: Jews and Muslim, op-cit, p. 125.

⁽⁵⁾ Ch, Verlinden: op-cit, p. 786.

¹⁸- انمفيسي: أحسن التقاسيم ، ص226 و 239 / الإصطخري: المسالك والممالك، ص 38

- الحميري : الروض ، 386

بها، وتمكنوا من التوسع في هذه التجارة واحتكارها على عهد الموحدين حيث كانوا يقومون بتصديرها إلى أوروبا والمشرق.

وخلال القرن الرابع عشر واجه تجار جنوة مزاحمة شرسة من طرف الأسبان في مدينة سبنة، مما اضطرهم التحال إلى تركيز أعمالهم. بصفة خاصة، في ميناء القالة، ووضعوا أيديهم على مهنة صيد المرجان وتسويقه فيها، وأنشئوا لذلك شركات خاصة لاحتكارها بموافقة سلطات تونس الحفصية⁽¹⁾. ولقد أشرنا من قبل، كيف تمكن فنصل الجنوبية في تونس سنة 1450م من افتكاك امتياز خاص من السلطان يسمح له باحتكار لوحده عمليه صيد المرجان في مرسى الخرز والتصرف فيه مقابل مبلغ ألفين 2000 دينار مضاعف Double سنويا⁽²⁾. كما سمحت له الاتفاقية بجلب اليد العاملة من أوروبا، وإسكانها في فنادق خاصة بعين المكان. والظاهر أن صاحب شركة المرجان قد حقق أرباحا طائلة من وراء هذه العملية، مما دفع بعدد من المستثمرين الجنوبيين إلى شراء حصصا بالشركة، حتى وصل عدد الحصص فيها أربعة وعشرون حصص 24 Carat⁽³⁾. وبقي أصحاب هذه الشركة يشتغلون في ميناء القالة إلى أن جاء الأتراك، مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وسقوط الإمارة الحفصية.

ج- مواد الصباغة: حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، كان الأوروبيون يعتمدون على المنسوجات الشرفية في لباسهم، ثم أخذوا ينشئون المصانع لتقليد هذه الألبسة المشرقية، بحيث لم يمض وقت طويل حتى صاروا ينتجون عينات متطورة منها⁽⁴⁾، وزاد من انتشار هذه الصناعة في المدن الإيطالية سهولة الحصول على مواد الصباغة التي تعتبر أساس هذه الصناعات النسيجية من آسيا وإفريقيا. وتشتمل مواد

⁽¹⁾ Heers, J: Gènes au XVS, Civilisation méditerranéennes, grand capitalisme, et capitalisme Populaire, ed Flammarion, Paris, 1971, p. 162

⁽²⁾ Ph. Gourdin: Emigré au M. age, p. 131-71.

⁽³⁾ Heers, J: op- cit, p. 162-163.

⁽⁴⁾ D. Abulafia: The impact of the orient, p. 10.

الصباغة هذه، التي تدخل كلها في أغراض الصناعات النسيجية والجلدية وتلوينها، على عدة أصناف، منها: النيلة l'indigo، والشب l'alun، والقرمزي Kermes، والزعفران Zafran وغيرها. واشتهر تجار جنوة، أكثر من غيرهم، في العصور الوسطى بالتجارة في هذه المواد وأقاموا لأجلها الشركات الاحتكارية، مثل تلك التي أسسها رجل الأعمال الجنوبي Benedeto Zaccaria مع نهاية القرن الثالث عشر الميلادي لاستغلال مناجم الشب l'Alun في جزيرة فوقيه Phoccea بأسيا الصغرى وتصديرها إلى أوروبا⁽¹⁾.

وكانت توجد ببلاد المغرب مساحات كبيرة من نبتة النيلة، وإنتاجها يعد من النوع الترفيع خاصة ما يستخرج من منطقة سنجماسة الذي يشتهر في بلاد المغرب باسم النيلة الدرعية⁽²⁾. وكان الجنوبيون يكتثرون من الطلب عليها⁽³⁾. وهي من السلع التي غنموا من ورائها كثيرا. كما بحث الجنوبيون، كذلك، في أسواق المغرب على مادة الشب l'alun، إلى جانب مواد أخرى منها الزعفران، والقرمزي وغيرها، التي كانوا يجدونها بكثرة في سببة⁽⁴⁾. ونافسهم على التجارة فيها يهود المرية الذين كانوا يصنّونونها إلى المشرق وإسبانيا وأوروبا، وأنشؤوا مصانع للصباغة في غالنسيا⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ Renouard, Y: Les Villes d'Italie, T1, p.257-8

عن الشب يقول ابن مهاتي:

(-) حجر الشب معروف يحتاج إليه في أشياء كثيرة أهمها صبغ الأحمر، وللروم فيه من الرغبة بمقدار ما يجدون مسن انقائده، وهو عندهم لا يثمنه، ولا مدوحة... فواين الدواوين تحقيق ع س، عضية، مكتبة مديونية.

مصر 1991، ص. 328.

⁽²⁾ انظر هري: كتاب اتجريفيا، ص. 190.

- ورد الإشارة إليها في المصادر الجنوبية باسم نيلة الغرب L'indingo di di Garbo . للمزيد.

⁽³⁾ Jehel, G: L'Italie et le Maghreb, p. 162.

- J.C. Gayet: Histoire du Commerce, T2, p. 251.

⁽⁴⁾ J. Wolffe: Histoire économique, p. 63.

⁽⁵⁾ D. Abulafia: The impact of the orient, op.cit, p. 18 .

ح- المواد الغذائية: إن صنف المواد الغذائية المغربية التي كانت مطلوبة من قبل

التجار الجنوبيين هي: القمح، والزيت، والملح. وهذه المواد، في الحقيقة، لم تكن مطلوبة

على الدوام، إنما احتاج إليها الجنوبيون في السنين العجاف، لأن إنتاج القمح والزيتون

يتعرض، في بعض الأحيان، لظروف الطبيعة القاسية فتتفصر غلاتها سواء في أوربا أو

في بلاد المغرب، ويضطر سكان هذه الأقطار إلى استيرادهما.⁽¹⁾

وعلى هذا الحال، كان الجنوبيون غالبا ما يستوردون القمح والزيت من بلاد

المغرب، كما أظهرت الوثائق، بالمقابل، قيامهم بتصدير هاتين السلعتين إلى إفريقية على

فترات متقطعة. ففي سنة 1280م تحدثت المصادر عن وصول شحنة من زيت الزيتون،

على متن سفن جنوبية إلى تونس بلغت 2200 جرة (Jars) بمبلغ 200 دينار مضاعف

(Double). كما أشارت مصادر جنوبية أخرى تعود إلى سنة 1289م أن تجار

جنوة أحضروا في سفينة لهم كميات من الزيت، وكان الأهالي في تونس ينتظرون وصول

هذا الزيت بفارغ الصبر، ولما لاحظ الجنوبية حاجة أهل البلاد إلى الزيت لندرتة في تونس،

رفضوا تسويقه في الميناء، وقام القنصل بتخزينه في الفندق، بهدف المضاربة على سعره،

واشترط أن يدفع ثمنه مسبقا، غير أن السكان رفضوا الخضوع لهذا الشرط، بعد أن أفتى

رجال الدين بعدم جواز هذا التصرف، وعلى إثر ذلك قامت مجموعة كبيرة من الأهالي

Magna quantitas sarranorum بالهجوم على فندق الجنوبية مسلحين بالعصي

والحجارة وأرغموا القنصل على العدول عن قراره.⁽²⁾

وفي نفس السياق تحدثت مصادر جنوبية أخرى عن اهتمام التجار الجنوبيين باستيراد

الزيت من إفريقية، وكان زيت جربة من أهم الأنواع التي تستهويهم أكثر، خاصة أنهم

⁽¹⁾ Vernet, R : Les relations cerealières entre le Maghreb et la péninsule Ibérique du XII au XVs. (A.E.M.), 10, 1980, p321-335

⁽²⁾ Jehel, G: L'Italie et le Maghreb, p. 180.

⁽²⁾ Dufourcq, ch: "Chrétiens et Musulmans durant les derniers siècles du Moyen âge, op-cit, p. 216-17.

يستعملونه في حفظ سمك التونة الذي كان يسمح لهم باصطياده في سواحل سوسة وتصديره إلى المشرق وأوروبا⁽¹⁾. ولقد وجد الرحالة الجنوبي Anselmo Adorno وهو في طريقه من تونس إلى الإسكندرية جالية من أبناء مدينته عند سواحل سوسة يشتغلون بصيد سمك التونة، وأعجب كثيرا بالطريقة المنبعا في صيده⁽²⁾. وكان ريت صفاقص، كذلك، مشهور ومفضل في الغرب، وعادة ما كان الجنوبية يصدرونه إلى صقلية وإيطاليا⁽³⁾.

ومن مستوردات جنوة من المواد الغذائية من بلاد المغرب القمح. ولما كان القمح يأتي على رأس انموذج الكثيره الأسنهنك لدى سكان شمال إفريقيا، وأن نقصه أو ندرته في الأسواق المحلية قد يسبب في حدوث مجاعات واضطرابات اجتماعية، لذلك حرص حكام المغرب على أخذ الحيطة الضرورية لتوفير هذه المادة الحيوية للمواطنين دائما بأسعار معقولة، بأن وضعوا شروطا صعبة على تصديرها إلى الخارج، وبصورة خاصة إلى بلدان أوروبا المسيحية، إلا في حالة الضرورة القصوى، أي في أوقات الأزمات الحادة Carestia. وهناك أدلة على حركة تصدير القمح إلى جنوة تخص أوقات الأزمات حددتها الاتفاقيات المبرمة.

فلقد ورد بند في أول معاهدة رسمية بين جنوة وإمارة الحفصيين (معاهدة 236م)، يفيد بأن يسمح بتوريد القمح granum من إفريقيا إلى جنوة خلال فترة الأزمات Carestia، بشرط أن لا يكون سعر القمح منه في السوق المحلية يتعدى ثلاثة دنانير ونصف، وكذلك أن لا تزيد الكمية المسموح بإخراجها حمولة خمس سفن كبيرة⁽⁴⁾. ثم جدد هذا البند بموجب معاهدة 433م (بند 26) الذي حدد سقف كميات القمح المسموح للجنوية

⁽¹⁾ Heers, J: Gènes au XVS, Civilisation méditerranéennes, op.cit, p. 323.

⁽²⁾ A. Adorno : Itinéraire d'Anselmo Adorno, p103-4

- Heers, op.cit, p. 323.

⁽³⁾ Jehel, G: L'Italie et le Maghreb, p. 161.

⁽⁴⁾ راجع البند 17 من معاهدة 1236 بالملحق رقم 2

بتوريدها بما يعادل 1500 قفير⁽¹⁾. وعلى هذا الأساس أرسلت القومونة، حسب ما كشفت عنه الوثائق، سفينة من صنف Nef إلى تونس لشحن 1400 حمل Mine من القمح بما يعادل 15% احتياجات القومونة سنويا⁽²⁾. ثم في سنة 1272م أرسلت جنوة سفارة إلى أمير تلمسان للتفاوض معه بغرض شراء 80.000 حمل Mine من القمح⁽³⁾.

وهناك مواد غذائية أخرى أظهرت السجلات الغذائية ثبوت توريدها إلى جنوة، وهي: السكر والعسل والتمور وبعض الفواكه الجافة، بالإضافة إلى الملح والشمع.

وعلى ذكر الملح والشمع، يجب التوضيح على أن هاتين السلعتين كانتا، طيلة فترة العصور الوسطى، وراء شهرة بلاد المغرب الإسلامي، وذبوع صيته في العالم أجمع. فأما ملح المغرب فهو من أجود الملح وقد أطبقت شهرته الأفاق لاسنعمانه من ضرف التجار المغاربة في المقايضة بمعدن الذهب مع سكان جنوب الصحراء لعهود طويلة⁽⁴⁾. ولقد أظهرت المصادر، كذلك، أن تجار المدن الإيطالية بحثوا عن الملح الإفريقي وتاجروا فيه، فكانوا يشترون كميات كبيرة منه بأسعار مرتفعة، أعلى من السعر الذي كان معروضا للبيع في الإسكندرية، وربما يعود اهتمام الإيطاليين بالتجارة في ملح إفريقية إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، حيث أشار البكري على هذه أن ملح ماحلة لمطة كان يصدر إلى بلاد الإفرنج.

وأما الشمع فكانت أوربا تستورده بكميات كبيرة من مدينة بجاية، ومن المحتمل أن تكون كلمة Bougie التي تطلق على الشمعة في أوربا، قد أخذت من اسم مدينة بجاية

⁽¹⁾ Marengo, E: Genova e Tunisi, document N° 3, p. 146.

- De Mas Latrie: traites, II, p. 138.

⁽²⁾ Heers, J: Gènes au XVS activités économiques et p sociaux, p. 340.

⁽³⁾ Jehel, G: Les Génois, p. 345.

⁽⁴⁾ تحدثت كثير من المصادر العربية عن هذه التجارة مع بلاد السودان، التي دامت حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. للمزيد. راجع:- القزويني: أثر البلاد وأخبار العباد، ص 19

التي كانت مصدر تلك الشموع التي أنارت ليالي أوربا وشوارعها، والتي تمثل في تاريخ التنوير تقدما لا يستهان به.

(8) - الضرائب الرسوم التي يدفعها التجار الجنوبيين بالموانئ المغربية:

اتبع حكام العالم الإسلامي، على العموم، نظام التجارة الحرة، حيث كان يسمح للتجار الأجانب بالسفر إلى المدن والموانئ الإسلامية للإقامة والتجارة فيها بكل حرية وأمان، ولا شيء يعرقل أعمالهم سوى ما يدفعونه من ضرائب ومكوس على بعض البضائع والصفقات⁽¹⁾. وربما شكلت حكومات العالم الإسلامي الزبون الأول لهؤلاء التجار الأجانب. ولقد لاحظ ذلك على أرض الواقع عالم الاجتماع ابن خلدون وسجله في كتابه المقدمة "...إن الدولة والسلطان هو السوق الأعظم للعالم...ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم"⁽²⁾.

ولقد أدرك حكام المغرب في العصور الوسطى منذ عهد المرابطين والموحدين مدى أهمية التجارة الدولية في استقرار ملكهم وازدهار مجتمعاتهم، فأقبلوا على تشجيعهم وتوفير سبل الراحة والأمان للتجار الأجانب القاصدين ثغورهم، فعلى عهدهم شرع العمل بالمعاهدات التجارية التي تضمن للتجار الأجانب ديمومة أنشطتهم لفترة زمنية قد تصل إلى أربعين سنة⁽³⁾.

ومنذ البدايه ارتبطت حركة نقل السلع والمتاجر بين المدن الإيطالية وبلاد المغرب بمسألة الضرائب والرسوم الجمركية، التي كان يتوجب على التجار الأجانب دفعها بالموانئ المغربية وفق إجراءات وقوانين عادة ما يكون منصوص عليها في المعاهدات.

⁽¹⁾ Goeitein, sh: A Mediterranean society, vol 1, p. 61-70.

⁽²⁾ ابن خلدون: المقدمة، ص. 257

⁽³⁾ معاهدة البندقية مع الإمارة الحفصية سنة 1231م حددت صلاحياتها بـ 40 سنة، للمزيد، راجع ما سبق.

ويعد إجراء أخذ الضرائب على السلع بمؤسسة الديوانة من أول الفروض التي يطلب من التجار الأجانب أدائها، إلى جانب احترام قوانين وتقاليد البلد المضيف⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس جرت العادة أنه عند وصول التاجر الأجنبي إلى المرفأ، يبدأ في إنزال ما معه من بضاعة ليتم تسجيلها ووزنها، كمقدمة لتحديد الرسوم والمكوس المستحقة عليها عند بيعها. ومقدار الضريبة، حسب ما قضى به الشرع الإسلامي نظرياً، أن يؤخذ على التاجر الحربي العشر 10%، وعلى التاجر الذمي الخمس 5%، وعلى التاجر المسلم الربع 2,5%⁽²⁾، شريطة أن لا يزيد تحصيلها على مرة واحدة من كل تاجر في السنة، حتى لو رجع التاجر إلى بلاده ثم عاد للتجارة في نفس السنة، فلا يؤخذ منه شيء اكتفاء بما أخذ منه في المرة الأولى⁽³⁾.

غير أن هذه القاعدة الشرعية في التحصيل الجمركي لم تكن متبعة في جميع الأماكن، إذ غالباً ما كانت النسبة تحسب وفقاً لقيمة البضاعة ونوعها، وفي بعض الأحيان يؤخذ بعين الاعتبار جنسية التاجر وعلاقة بلده بالدولة المضيفة. فالتجار الذين كانت ترتبط بلادهم مع الدول المضيفة بعلاقات ودية يميزون، أحياناً، في الضريبة بأن يدفعوا نسبة أقل من تجار الأمم الأخرى، التي تكون علاقات بلدانهم متوترة مع الدولة المضيفة. كما هو الشأن بالنسبة للجنوية على عهد الدولة الموحدية، حيث ميزهم الخليفة عبد المؤمن،

⁽¹⁾ De Mas Latrie: Relations, p. 186.

⁽²⁾ ذكر ابن حوقل في أواسط القرن العاشر، أن التجار الاندلسيين والأوربيين الوافدين إلى المغرب، كان يطلب إليهم العشر عند نزولهم إلى الموانئ. للمزيد، راجع: - كتاب صورة الأرض. ص. 94.

- راجع كذلك، للمزيد: أ. نيقيا، ر، كونسيتل: التجارة والتجار في الأندلس، مرجع سابق، ص 200-201.
⁽³⁾ - د. يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط6/ 1994م، ص 36-7.
كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية. مترجم.

ط3، بيروت 1983م، ص 159

جوزيف نعيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.

الإسكندرية 1988، ص 116.

دون غيرهم من الأمم الأوروبية الأخرى، بارتياح عدد من الموانئ المغربية، ودفع ضريبة على السلع التي يوردونها بنسبة أقل من العشر. 8% فقط⁽¹⁾.

و الواقع أن السلع التي كانت تأتي بها سفن المدن الإيطالية إلى موانئ بلاد المغرب لم تخضع كلها لقاعدة ضريبية ثابتة، بل اختلفت نسبة الضريبة باختلاف قيمه السلعة وأهميتها Ad Valorem ، فقد كانت تؤخذ نسبة 30% على السلع المتوسطة القيمة، و 10% على السلع الثمينة، أو ذات الاستعمال الواسع لدى حكام بلاد الإسلام. كالحديد و الخشب، وكل المواد التي تدخل في صناعة وتجهيز السفن. ورد في كتاب المخزومي "... واجب الأخشاب على اختلاف أصنافها والحديد والمسمار والسياله، وهو المسمار المكسور، والزفت السائل واليابس، الذي يبتاعه متولي المتجر، على رسم مستقر لا يختلف مما يؤخذ من جميع الأجناس عن كل مائة دينار العشر عشر (ة) دنانير".⁽²⁾

ولقد ميز حكام المسلمين هذه السلع لحاجة الدولة إليها بسبب النقص الذي تعانيه في هذه المواد الاستراتيجية، وهذا ما دفع، بالطبع، البايوية مرارا إلى إصدار مراسيم تبيح هذه المواد على التجار المسيحيين تصدير هذه السلع الإستراتيجية إلى البلاد الإسلامية⁽³⁾.

ويأتي على رأس السلع التي يوردها الأجانب إلى بلاد المغرب، وخصها الحكام بتخفيض كبير في نسبة الأداءات الجمركية، المعادن الثمينة: كالذهب والفضة (يقصد بها المصنعة أي في شكل عملات وحلي وأسلاك وخيوط)، وكذلك الأحجار الكريمة، من ذلك، مثلا، أن المعاهدة المبرمة سنة 1251م بين السلطان المستنصر وسفير البندقية قد وردت في نصها بند يعفي البنادقة إعفاءا شاملا من المكوس على ما يوردونه من المعادن الثمينة التي كان يبيعها التجار البنادقة لدار السكة الحفصية⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ De Mas Latrie: Relations, p. 200.

⁽²⁾ المخزومي: المرجع السابق، ص. 9.

- Dufourcq, ch: La vie Quotidienne, p. 116.

⁽³⁾ Encyclopédie de l'Islam, T2, p. 20-21.

⁽⁴⁾ نجاة الباشا: التجارة في المغرب الإسلامي، ص. 72.

كما دفع تجار المدن الإيطالية جميعا ضرائب صغيرة معلومة مقابل بعض الخدمات في الموانئ والأسواق، مثل ضريبة السمسمرة وقدرها 0.25%، ضريبة الترجمة وقدرها 0.25% على كل صفقة⁽¹⁾، وكذلك ضريبة الوسطاء الحماليين الكياليين، الدالين، وغيرهم من الوسطاء⁽²⁾.

ولم يثبت، على الإطلاق، أن أجبر حكام المغرب التجار الوافدين إليهم من الجاليات الأجنبية على دفع الجزية كما كان يفعل سلاطين المماليك في مصر مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي⁽³⁾.

ومن الملاحظ أن نظام الضرائب هذا، كان معمولا به كذلك لدى جنوة، وربما، لدى باقي الدول الأوروبية الأخرى، بحيث كان أصحاب المراكب الأجنبية (الإسلامية) الواصلة إلى ميناء جنوة، حسب ما ورد في بعض السجلات الوثائقية الجنوبية لسنة 1143م، يدفعون ضريبة عند الوصول تساوي اثنتان وعشرون (22) سوليدي Solidi، وتدعى عشرا Dremum، تأخذ على المراكب انقادمه من المشرق والإسكندرية وموانئ شمال إفريقيا والمرية وبعض المناطق الأخرى⁽⁴⁾. كما تذكر مصادر من مدينة مرسليليا، تعود إلى سنة 1228م، أن العشر كان مفروضا على العرب الواصلين إلى المدينة⁽⁵⁾. وهذه

(1) De Mas Latrie: Relations, p.195-99

(2) Dufourcq, ch: La vie Quoudienne, p. 117.

(3) Jacoby, D: Les Italiens en Egypte au XII et XIII, op-cit, p. 88.

- ذكر ابن جبير، كذلك، أن سلطات الإسكندرية كانوا يرغمون الوافدين من المسلمين على الميناء بدفع الزكاة، حتى وإن لم يكن قد حال عليهم الحول. راجع: الرحلة، ص. 7.

(4) R. Doehard: impôts directs acquittés par les Marchands et les Artisans pendant le moyen age, in onore di Armando Saponi, p. 79-99.

(5) أوليفيا كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص. 207.

- وكان النصاري في الإمارات الصليبية ببلاد الشام يعاملون المسلمين بالمثل، كما يفيدنا في تلك الرحلة ابن جبير. يقول: واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع ... وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وبجار النصارى أيضا يؤنون في بلاد المسلمين على سنهم. للمريد، راجع: الرحلة، ص 260-261.

الشهادة في حد ذاتها إثبات على تنقل المغاربة والأندلسيين إلى الموانئ الأوربية المسيحية للتجارة إبان مرحلة العصور الوسطى.

(9) - نظام إقامة الجالية الجنوبية بالديار المغربية.

أولت سلطات بلاد المغرب أهمية خاصة لاستقبال التجار الأجانب الذين يقنون على موانئها ومدنها للتجارة، بأن وفرت لهم ظروفًا مقبولة للنشاط والإقامة عملاً بما تقره الشريعة الإسلامية التي تشدد على ضمان حرية تنقل الأجانب إلى الديار الإسلامية، وإقامتهم فيها كمستأمنين في حدود حول كامل كحد أدنى⁽¹⁾، حتى وإن طال بهد الأمد أكثر من هذا الزمن، فإنهم يصبحون من جماعة أهل الدمة، ووجب على السلطات الإسلامية عندئذ، معاهدتهم على توفير الأم والحماية والرعاية لهم، في مقابل أن تعترف هذه الجماعة بالسيادة العليا للأمة الإسلامية، وتدفع الضريبة المستحقة عليها، الجزية⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس عمدت الجهات الحاكمة في البلاد الإسلامية إلى إقامة أماكن خاصة لاستقبال وإيواء الجماعات المسيحية القاصدة لغورها من التجار والحجاج والعاشرين. على أن أهم ما يسترعي النظر فيما يخص أماكن الاستقبال التي تقسمها السلطات الإسلامية للجاليات الأجنبية الوافدة إليها، الفندق Funduq⁽³⁾، الذي يعد من أولى الامتيازات التي تحرص، دوماً، الدول المسيحية التي ترغب في الارتباط بعلاقات ودية وتجارية مع بلدان العالم الإسلامي على طلبها والحصول عليها لإيواء رعاياها، وتخزين بضائعهم وممتلكاتهم.

⁽¹⁾ B. Lewis: Les Juifs en terre d'Islam, Paris 1986, p. 38.

⁽²⁾ - آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، مترجم، ج 1، دار الكتاب العربي، بيروت، ص. 96.

⁽³⁾ كلمة فندق، ليست عربية، يرجع أصلها إلى اللغة الإغريقية Pandakaia، ثم استعملها الإيطاليون في لغتهم بلفظ Fandoco، ثم بدأت تظهر لدى المسلمين في المشرق على عهد الأيوبيين. للمزيد.

- Cahen, E: Douane et Commerce, op- cit, p. 238.

- ما تجدر الإشارة إليه، أن نظام الإقامة في بنايات مخصصة للجاليات الأوربية في القاهرة والإسكندرية كانت معروفة على عهد الفاطميين، غير أن المصادر المعاصرة، لا تسمى هذه البنايات فنادق، إنما ورد بشأنها اسم دارمناك Dar Manak. للمزيد، راجع:

- يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، مرجع سابق: ص. 233-34.

والفندق كما صورته مصادر تاريخية من العصور الوسطى، عبارة عن بناية كبيرة
مربعة الشكل محاطة بالأسوار كأنها قصر حصين⁽¹⁾. تتألف، في الغالب، من طابقين أو
ثلاثة، وتعد من أحسن وأضخم المباني التي وضعتها الحكومات الإسلامية تحت تصرف
التجار الأجانب، ونقع، في الغالب، بالقرب من الميناء⁽²⁾.

ومخطط الفندق بسيط يتألف من ثلاث طوابق خصص الطابق الأرضي لتخزين
السلع وتبويب الحيوانات، فيما يجوى الطابق الذي يعلوه مباشرة على دكاكين وحواليات
لعرض السلع للبيع واستقبال العملاء وعقد الصفقات، وصمم الطابق الأخير في شكل
غرف للنوم والاستراحة لنزلاء الفندق⁽³⁾. فيما تتوسط أبنية الفندق ساحة تتسع لنزول
البضائع وشحنها، زرعت بشتى أنواع النباتات والزهور لتذكير النزلاء بأوطانهم وتعطيهم
الإحساس بالراحة والانبساط⁽⁴⁾.

ولقد جهزت السلطات الإسلامية هذه الفنادق بمختلف مرافق الحياة الضرورية، من
مخبر، وحمام، ودار للعبادة (كنيسة صغيرة chapelle)، لتتمكن كل جالية أجنبية من أداء
شعائرها الدينية⁽⁵⁾، وتكييف حياتها بحسب عاداتها وتقاليدها الخاصة، علما أنه كان يسمح

(1) هاب، ج: تاريخ التجارة، ج III، ص. 303.

(2) A. Adorno: Itineraire, p. 103.

(3) Ibid

(4) هاب، ج: المرجع السابق، ج III، ص. 303.

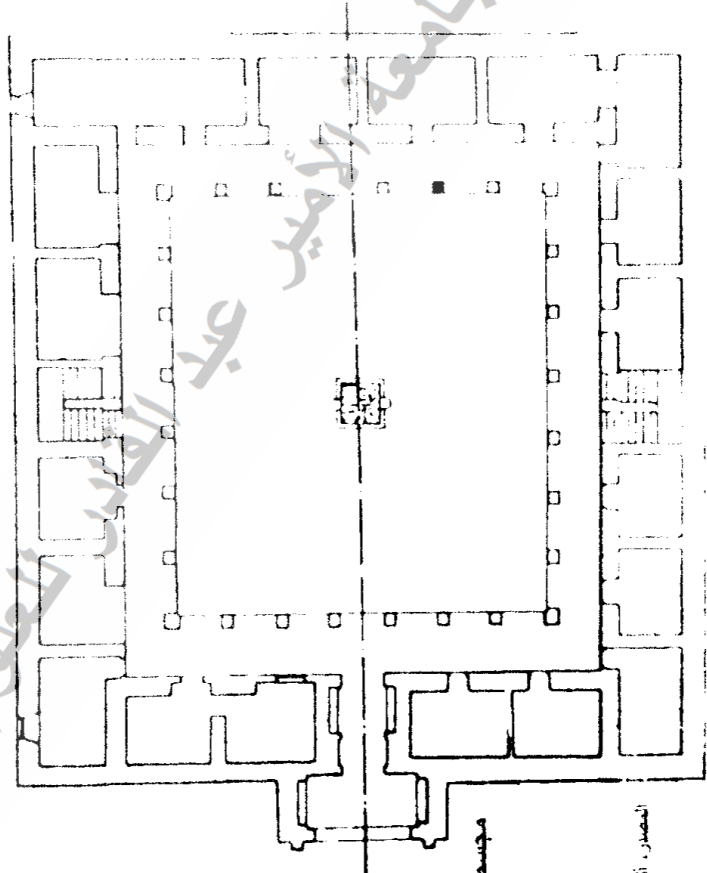
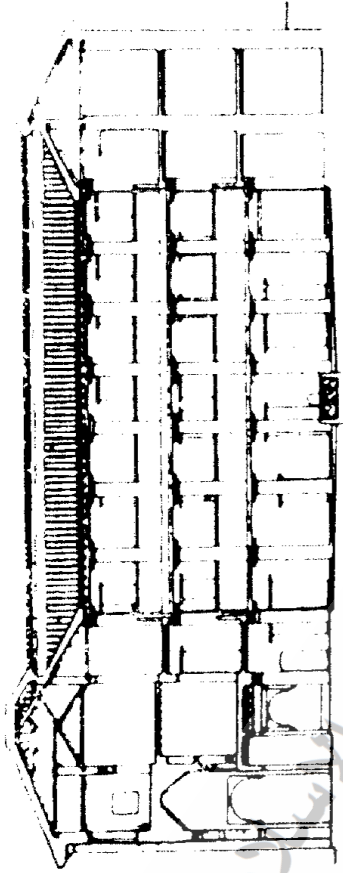
- صبحي ليب: الفندق ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية، مرجع سابق، ص. 292.

نشرت الباحثة الأمريكية المتمكنة صورة لمجسم بناية تقول أنها لفندق أندلسي يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر
الميلادي، بقي قائما في مدينة غرناطة، راجع، كتاب الباحثة: - أوليفيا كونستبل: التجارة والتجار، ص. 186.

(5) كان كل أمة تسمى كنيسها باسم الشخصية الدينية التي يمجدها، فمثلا: كنيسة أنجوية في ميناء بوس باسم

القديس سان لوران ST. Laurent، اليبازنة باسم القديسة ماري Sainte Marie اليبانقة باسم القديس مرفص ST. Marc

- A. Adorno: Itineraire, p. 103./ - Ph.Gourdin : Les relations, p172



مجسم الفندق بمدينة غرناطة من القرن 14م

المصدر: أليخاندرو، كونستانتينو: التجارة والتجارة في الأندلس من 190

بوجود قساوسة داخل الفندق يسهرون على أداء تلك الشعائر (1).

ويشرف على إدارة مؤسسة الفندق، في العادة، القنصل يساعده في أداء مهامه بعض الموظفين يتولى هو تعيينهم، يأتي على رأسهم مدير الفندق Fandicarius، إلى جانب ثلاثة من الموظفين يسهرون جميعهم على أمن ونظافة الفندق من الداخل، وجميعهم معفون من الضرائب (2).

وتمتع نزلاء الفندق بكل متطلبات الأمن والحماية على أرواحهم وأموالهم، حيث وضعت السلطات المحلية قوانين تمنع على الأهالي ارتياد هذه الفنادق تحت أي ظرف من الظروف، إلا إذا تعلق الأمر بتاجر يريد شراء سلعة، على أن يتم ذلك بموافقة القنصل والمشرفين على إدارة الفندق. كما وضعت قوانين تحظر على نزلاء الفندق من مغادرته ليلا وفي أوقات صلاة الجمعة لمدة ساعتين أو ثلاثة لمزيد من الاحتياط (3)، وهو تصرف محمود وإجراء وقائي الغرض منه حماية المسيحيين حتى لا يتعرضون لسوء معاملة المسلمين، خصوصا أن الجاليات المسيحية كانت تشرب الخمر ولها مخامر Tavernes داخل الفنادق (4).

وتعود أول إشارة لحصول الجنوية على فندق لجالياتها ببلاد المغرب إلى سنة 1223م في مدينة تونس، وجاء ذلك جراء مفاوضات أجراها سفراء القومونة Sismondi

(1) هايد، ج: المرجع السابق، ج III، ص. 303.

(2) Huart: Histoire des arabes, Paris, 1913, p. 117.

(3) J. Thénoud: Le Voyage d'outre mer de Jean Thénoud. publié par, Ch. Shefer, Paris, 1884, p. 27.

(4) Dufourcq, Ch: La vie quotidienne, p. 120.

- M. D. Lopez Pérez: Marchand esclave, et mercenaire, les transferts des populations dans le Maghreb médiéval in (Migration et diasporas en méditerranée (X-XVS) S/ Direction de M. Balard et A. Ducelier. Publication de la Sorbonne, 2002. p. 404.

Belgrano و Marchisio Scriba مع والي تونس، ممثل الموحدين، أبي العلاء ⁽¹⁾. ثم في سنة 1234م منحت الجالية الجنوبية امتيازاً آخر للاستفادة من فندق في مدينة سبتة ⁽²⁾. ويعد فندق الجنوبية بتونس - حسب شهادة الرحالة أنسلموا أدرنو A. Adorno الذي زار تونس (1470-1471م) - من أكبر الفنادق وأحسنها بنيانا، إلى جانب فندق البنادقة ⁽³⁾. كما ملك بعض الجنوبية من فئة التجار الأغنياء وأصحاب الشركات فنادق خاصة بهم في بعض الموانئ المغربية، كما هو الشأن على سبيل المثال، Andruis Spinola, Bernadus recarius, Clemente Cicero وهم ثلاثة مستثمرين جنوبيين كانت لهم فنادق خاصة بهم في كل من تونس ومرسى الخرز ⁽⁴⁾.

وبرغم الحصانة التي يتمتع بها الفندق بحكم كونه مؤسسة قانونية مسيحية على أرض إسلامية مرتبطة بمزايا التبعية الخارجية مع الميترربول، إلا أنه عادة ما يتعرض للاعتداء والتخريب من طرف السكان المحليين كلما اشتدت الخلافات بينهم وبين أفراد الجاليات المسيحية، والواقع أنه كثيرا ما كانت تحدث مشادات بين الأهالي من المسلمين وأفراد الجاليات الأوربية، خصوصا عندما يعتدي أحد أفراد هذه الجاليات على المقدسات الإسلامية ⁽⁵⁾، أو يخل بأعراف المسلمين، أو تتسبب دولته في الاعتداء على مصالح المسلمين، فإن ردة فعل الأهالي تكون بالثورة على تلك الجاليات والاعتداء على فنادقها ونهب سلعها، كما تشهد على ذلك، أحداث مدينة سبتة سنتي 1234-1235م، عندما اتهم

⁽¹⁾ Dufourcq, ch: " Le consulat de Tunis ", "Le consulat de Tunis et de Bougie aux temps de Jacques le conquérant" (Anuario de estudios medievales) 3 (1966), p. 438.

⁽²⁾ S/D Martinez Gros: Pays d'islam et monde latin 950-1250, op-cit, p. 283.

⁽³⁾ A. Adorno: Itinéraire, p. 103.

⁽⁴⁾ ليس لدينا تأكيد إن كانت هذه الفنادق ملكية تابعة لهم، أو مستأجرة من السلطات التونسية.

- Ph, Gourdin: Les relations, p. 172.

⁽⁵⁾ أورد المقرئزي حادثة وقعت في زسائه، سنة 822 هـ / 1419م "عندما اجتمع غفر كبير من الناس وأخذوا السلاح والأحجار وكسروا للفرنج ثلثمائة بنية خمر، ثمنها عندهم أربعة آلاف دينار، ثم مالوا على جميع بيوتهم (يقصد فنادقهم) ومخازنهم فأراقوا ما فيها من الخمر، فكان يوما مشهودا".

- المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج4، ص. 503.

حاكم مدينة سبتة، آنذاك، اليانسي الجنوبية بأنهم كانوا يخططون لغزو المدينة والاستيلاء عليها، وقام يحرض القبائل المجاورة للذود عنها، فصدقت القبائل هذه الدعاية المغرضة، وقدمت إلى المدينة في أعداد كثيرة، وراحوا يعتدون على أحياء الجنوبيين وفندقهم، فأوقعوا بهم قتلا وتخريبا، حتى اضطر الناجون منهم إلى إلقاء أنفسهم في البحر هربا من جحيم القتل⁽¹⁾. كذلك وقعت حادثة مماثلة في مدينة تونس سنة 1239م، عندما قامت جماعة من الأهالي مسلحين بالعصي والحجارة على فندق الجنوبية، واستولوا على جرار الزيت التي رفض القنصل تسويقه للمسلمين، وكانوا في أمس الحاجة إليه⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر هذه الفنادق فإن كل من شاهدها من المعاصرين أكد بأنها تعد من أجمل المباني التي شيدت بالديار الإسلامية، لدرجة أن بعض الدول الأوربية أنشنت في بلادها، في تلك الفترة، فنادق على شاكلة الطراز المعماري الإسلامي.

(1) Lopez, R: Storia della colonie genovesi nel mediterraneo, p. 141-2.

- Dufourcq, Ch: La question de Ceuta, p. 99.

(2) Dufourcq, ch: La vie quotidienne, p. 120.

الخاتمة:

برهنت الدراسة أنه على الرغم من وجود رقعة مائية شاسعة تفصل الساحل الشمالي للقارة الإفريقية عن البر الأوربي، إلا أن توسع دول أوروبا العسكري والاقتصادي الذي بدأ يتأكد منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، قد أثر بصورة مباشرة على بلاد المغرب، فيما عانته بعض المدن الساحلية (طرابلس -المهدية - تونس - بجاية - سبتة) من ويلات الغزو والقرصنة، وكان أبناء قومونة جنوة، في كل مرة طرفا فاعلا فيها، وعجزت أقطار بلاد المغرب، في كثير من المرات عن التصدي لها، واكتفت بدور سلبي اقتصر على مهادنة الغزاة والرضوخ لمطالبهم، والقبول بالشروط التي تفرض عليهم وتقديم المزيد من الامتيازات للتجار الجنوبية بالموانئ والأسواق المغربية.

غير أن سياسة العدوان الحربي، الذي ما فتئت تمارسه جمهورية جنوة، على نطاق واسع، ضد بلاد المغرب والأندلس، لم تكن دائما في صالحها، إذ كثيرا ما كان حكام المغرب يصبون جام غضبهم على الجاليات الجنوبية المقيمة بأراضيهم، فيجسّدونهم من أموالهم وأموالهم، ويدخلونهم السجن، وتضطر سلطات القومونة، عقب ذلك، إلى الجنوح إلى السلم، من خلال إيفاد البعثات الدبلوماسية لأجل إطلاق سراح مواطنيها، وإعادة العلاقات إلى مسارها الطبيعي، وهناك دلائل كثيرة، حسب ما كشفت عنه الوثائق، تبين أن حكومة جنوة كانت دوما وراء المبادرة بإجراء مفاوضات مع بلدان المغرب حتى لا تتعرض مصالحها للحظر والتهميش.

وأوضحت الدراسة أن نشاط جنوة التجاري مع بلاد المغرب مر بمرحلتين: المرحلة الأولى تبدأ من منتصف السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ودامت إلى غاية نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، تميزت بنوع من التواصل والازدهار،

و السبب خسارة جنوة لمواقعها الحيوية بالضفة الشرقية للمتوسط على أثر الانتصار الذي حققه صلاح الدين الأيوبي على الإمارات الصليبية في بلاد الشام، إضافة إلى استحواذ جمهورية البندقية لوحدها على التركة البيزنطية بعد سقوط عرش أباطرة بيزنطة اليونانيين في القسطنطينية، وقيام مكانهم إمبراطورية لاتينية حليفة للبندقية.

أما المرحلة الثانية من علاقات جنوة مع بلاد المغرب التي تمتد على طول القرن الثامن الهجري (14م)، وحتى منتصف القرن التاسع الهجري (15م)، فتميزت بالتذبذب وعدم الاستقرار، ويعود السبب في هذا التدهور إلى عودة جنوة إلى مواقعها القديمة في بيزنطة على إثر سقوط الحكم اللاتيني في القسطنطينية وعودة السلطة الشرعية إليها، التي أغدقت الامتيازات على الجنوبية في حين حرمت البندقية والبيزانة منها، فكان أن احتكرت جنوة لوحدها النشاط التجاري بين بيزنطة وأوروبا، وحققت من وراء هذه التجارة أرباحا طائلة، إلى درجة جعلها تستغني عن التجارة الإفريقية، وتجاهر بالعداء والعدوان على سواحل المغرب. وظلت العلاقات متوترة بينها وبين بلدان المغرب، إلى منتصف القرن التاسع الهجري (15م)، عندما جاء الأتراك وقضوا على الإمبراطورية البيزنطية نهائيا، واستولوا على كامل أراضيها، فخسر الجنوبية، جراء ذلك، مواقعهم في المنطقة، واضطروا مرغمين، مرة أخرى، إلى التوجه صوب بلاد المغرب للتعويض عما لحقهم من خسائر وإهانات.

ومن الحقائق التي كشفت عنها الدراسة أن منطقة بلاد المغرب العربي ظلت على مدى فترة العصور الوسطى منطقة جذب هامة للتجار الأوروبيين لموقعها عند منتهى طرق قوافل جنوب الصحراء، التي ظلت تزود مجتمعات البحر المتوسط بمادة الذهب، إضافة إلى سلع أخرى منها الأصواف والجلود ومواد الصباغة، التي كانت مطلوبة بكثرة لدى أصحاب مصانع النسيج في أوروبا. وهناك سلعة حيوية (القمح) لم تجد جنوة بديلا في البحث عنها واستيرادها من بلاد المغرب، خصوصا في أوقات الأزمات، كل هذا جعل

سلطات جمهورية جنوة تحرص دوماً على مراعاة حكام المغرب حتى لا تخسر هذه الامتيازات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملاحق

ق

جامعة الأمير
عبد القادر للعطوم الإسلامية

* معاهدة سلم وتجارة بين قومونة جنوة وأمارة جزر البليار الإسلامية بتاريخ

صفر 577هـ (1) 1181م

كتاب مصالحة ومعاهدة ومسالمة ومعاهدة أمضاها على بركة الله تعالى أبو إبراهيم إسحاق بن محمد بن علي أيد الله أمره والرسل الخليل رطوان دموروا (1) وفقه الله لما يرضاه العاقد عن الأرجباسقة (2) والقناصلة العظماء الجلة الزعماء والشيوخ والأعيان ذوي الحل والعقد من أهل جنوة ومن وراهم من خاصيتهم وعامتهم أدام الله كرامتهم ...

.....فعقد إسحاق بن محمد بن علي والرسل الخليل رضوان دموروا

هذه المهادنة عن صفاء من الضمائر والنيات ووفاء بالعهد وخصوص الطويبات وعلى إعطاء عهود الله سبحانه وتعالى وموائقه في كل ما يتضمنه هذا الكتاب من العقود المرعيات وعن إخلاص تسنمر به انصداقة ... فالنظم الفقيه الأجل أبو إبراهيم إسحاق بن محمد على أيده الله ونصره بهذه المعاهدة للرسل الخليل رطوان دموروا ومرسليه المقدم ذكرهم الأرجباسقة والقناصلة وجميع أهل جنوة وفقهم الله بتقواه، ألا يطرق أحد من أهل بلاده ميورقه ومنورته ويابسه وفرمنتيره حرسها الله بلاد جنوة وحدها من أنيسة (3) إلى قربه (4) شبر في بر ولا بحر ولا يتعدى أحد من رجاله ومتصرفيه في القطائع وغزائه على من حمته بلادهم وحوته نواحيهم وأقطارهم ولا ينالهم من الجزائر الأربع نكاية ولا إضرار، وكذلك التزم الرسل الخليل رطوان دموروا المذكور ... ألا يضر أحد منهم ولا من متصرفيهم وغزاتهم في القطائع وغيرها الجزائر الأربع ميورقه ومنورته ويابسه Ibisa وفرمنتيره (5) ومن حوت من ساكنيها واشتملت عليه من أهلها ونويها في بر ولا بحر بوجه من الوجوه ولا يلحقهم منهم أذية ولا ضرر التزاما نلك كله في عقد هذه

المسالمة في أعمالها سواءا وتعادلا في ربطه وإبرامه محاذاة واستواءا وألزم المذكور ذلك كله من سمي ممن أرسله بمقتضى ما أسندوه إليه وعقدوا له وقلدوه في كتابهم الواصل من قبلهم صحبتته وارتضوا فعله في ذلك وعمله ومما التزمه للفقهاء الأجل أبي إبراهيم إسحاق بن محمد بن علي أيده الله ونصره الرسل الجليل رطوان دموروا المذكور وفقه الله لما يرضاه ووقع الارتباط عليه وألزمه مرسله المذكورين ألا يعمرؤا في ضرر أحد هذه الجزاير الأربع المذكورة بأنفسهم ولا يعون يعينوا به أحدا من أعدائها عليها لا بقول ولا بفعل ولا بنفس ولا بمال والتزم الفقيه الأجل أبو إبراهيم أيده الله ونصره للرسل رطوان دموروا المذكور ولمرسله من تلك مثل ما ألتزمه الرسل المذكور ألا يضرهم ولا يعين عليهم بنفس ولا مال ومما اتفقنا عليه وارتبط الرسل المذكور رطوان دموروا يسره الله لما يرضاه عنه وعن مرسله المذكورين إليه أنه من سافر من أهل بلادهم في مراكب أعداء هذه الجزاير الأربع حرسها الله المضرين بها أنه متى تمكن منهم ان يجروا مجرى أعدائها وكذلك التزم لهم الفقيه الأجل أبو إبراهيم إسحاق بن محمد أنه متى غضب لهم جفن في هذه الجزاير الأربع أن لا يعترضوا في شيء مما أخرجه البحر ورمى به إلى البر ومتى ذهبوا إلى الكراء على إخراج ما في البحر فذلك مباح لهم إن شاء الله

وضرب الفقيه أبو إبراهيم إسحاق والرسل الجليل رضوان دموروا يسرهم الله لما يرضاه لهذه المهانة والمعافاة المربوطة المشدودة أجلا من عشرة أعوام متوالية أولها تاريخ هذا الكتاب وهو شهر صفر الموافق لشهر يونيه سنة سبع وسبعين وخمسمائة تمهيدا للعقد وشدا للعهد.

1)- Amari,M : Nouavi Ricordi Arabi su storia di

Genova,(ASLSP)V,fasc,IV,1873, p1-5

(1)- Radoano di Mauro (سفير جنوه) / (2)- Archevêque (القس)

(3)- Nice (مدينة نيس) / (4) Corvo (منطقة مدينة) / (5)- Formentera (مدينة)

**** معاهدة تجارية بين جمهورية جنوه والإمارة الحفصية بتاريخ 10 جوان 1236 م.⁽¹⁾**

Une convention de paix signée entre BOUZAKARIN,⁽¹⁾ seigneur del'Afrique, d'une part, et Conrad de CASTRO,⁽²⁾ légat de la commune de Gênes, mandaté parelle, d'autre part.

1)- Il est clair que ledit BOUZAKARIA a donné et confirmé la paix à la Commune de Gênes et à l'ensemble des Génois, leur donnant la sécurité tant pour les personnes que pour les biens, par tout son territoire, à savoir depuis Tripoli de Barbarie jusqu'aux frontières du royaume de Bougie, pour toutes les ventes licites partout dans les limites ci-dessus désignées, pour toute vente ou achat de marchandises et toutes négociations commerciales, et spécialement dans les lieux et terres des connexions ci-dessus dans lesquelles les Génois ont eu l'habitude d'en user pour cause de négoce. Mais dans les autres lieux de son territoire, en dehors de ceux où les Génois ont l'habitude d'en user pour cause de négoce, le roi ne leur donne pas licence de vendre ni d'aborder, sauf nécessité urgente, étant clair que, pour leurs navires armés et pour leurs bateaux, dans ces endroits, si la nécessité les y forçait, soit pour l'approvisionnement du vaisseau, soit pour les vivres de l'équipage, en dehors de toute autre négociation, il ne serait pas même fait mention de cette restriction.

2)- Maintenant, si quelque Génois sortait pour faire la guerre et nuire à quelque Sarrasin de Gênes ou du district de Gênes, ou d'ailleurs, qu'il soit une obligation de le capturer et de le tuer, et de faire présent de ses biens aux Almohades, mais que, si l'on ne parvient pas à mettre la main sur sa personne, qu'il soit une obligation de confisquer ses biens et de les présenter aux Almohades. Et si vraiment quelque Génois malfaisant en venait à la rébellion, et que les Almohades arment des galées contre ce malfaiteur, qu'il soit une

obligation pour les Génois d'armer leurs bateaux pour aller ensemble avec les Almohades.

- 3)- . Outre cela, que les Génois soient tenus de ne pas faire la guerre et de n'offenser personne qui soit en paix avec les Almohades, dans quelque port ou sur quelque rivage du district des Almohades.
- 4)- Au surplus, que les Génois soient tenus de ne pas naviguer dans des bateaux Armés clandestinement, qu'ils ne prennent aucun Sarrasin dans leurs navires, et qu'ils ne naviguent pas avec eux. Mais que si quelqu'un contrevenait à ces interdictions, il est clair que, par exemple s'il prenait des Sarrasins, ou s'il naviguait avec eux, il ne serait plus pour les Almohades obligatoire d'observer la paix.
- 5)-. En outre, que les Génois soient tenus de payer le droit coutumier sans aucune addition. Et que le roi et les siens soient tenus de ne pas imposer aux Génois quoi que ce soit de nouveau, qui ne soit pas coutumier. Et que les Génois s'acquittent de ce droit en milliarens ou en argent, ou en or en lingot, et des aurei originaux, qu'ils payent le tribut tel qu'il est fixé par la coutume, et qu'ils soient astreints à le porter et à le donner sur le territoire des Almohades, et qu'ils doivent être traités de la part des Almohades suivant la voie de la justice et de la rectitude, de la part des auxiliaires, selon ce qui convient pour ceux qui sont en paix avec les Almohades.
- 6)-. Maintenant, si les Génois étaient trouvés par les galées des Almohades, ou par quelque bateau de leurs galées, ils ne devraient pas faire l'objet d'offenses, ni pour leur personne, ni pour leurs biens ; et que si alors quelque Sarrasin les offensait, ils devraient de cela obtenir justice et réparation.
- 7)-. Mais si quelque Génois vendait un navire ou un bateau à un autre Génois, ou Chrétien, qui soit en paix avec les Almohades, il ne devrait pas de là payer le droit ; en revanche s'il a vendu à d'autres qui ne sont pas en paix, il doit alors payer le droit. Mais il ne doit pas payer le droit relatif au fret des navires et des bateaux.
- 8)-. Mais si les Génois ont importé une marchandise dans les territoires des Almohades, et qu'ils ne peuvent pas la vendre, qu'ils puissent la ramener de façon licite, sans payer à nouveau un droit, là où ils voudront. Si maintenant les

obligation pour les Génois d'armer leurs bateaux pour aller ensemble avec les Almohades.

- 3)- . Outre cela, que les Génois soient tenus de ne pas faire la guerre et de n'offenser personne qui soit en paix avec les Almohades, dans quelque port ou sur quelque rivage du district des Almohades.
- 4)- Au surplus, que les Génois soient tenus de ne pas naviguer dans des bateaux Armés clandestinement, qu'ils ne prennent aucun Sarrasin dans leurs navires, et qu'ils ne naviguent pas avec eux. Mais que si quelqu'un contrevenait à ces interdictions, il est clair que, par exemple s'il prenait des Sarrasins, ou s'il naviguait avec eux, il ne serait plus pour les Almohades obligatoire d'observer la paix.
- 5)-. En outre, que les Génois soient tenus de payer le droit coutumier sans aucune addition. Et que le roi et les siens soient tenus de ne pas imposer aux Génois quoi que ce soit de nouveau, qui ne soit pas coutumier. Et que les Génois s'acquittent de ce droit en milliares ou en argent, ou en or en lingot, et des aurei originaux, qu'ils payent le tribut tel qu'il est fixé par la coutume, et qu'ils soient astreints à le porter et à le donner sur le territoire des Almohades, et qu'ils doivent être traités de la part des Almohades suivant la voie de la justice et de la rectitude, de la part des auxiliaires, selon ce qui convient pour ceux qui sont en paix avec les Almohades.
- 6)-. Maintenant, si les Génois étaient trouvés par les galées des Almohades, ou par quelque bateau de leurs galées, ils ne devraient pas faire l'objet d'offenses, ni pour leur personne, ni pour leurs biens ; et que si alors quelque Sarrasin les offensait, ils devraient de cela obtenir justice et réparation.
- 7)-. Mais si quelque Génois vendait un navire ou un bateau à un autre Génois, ou Chrétien, qui soit en paix avec les Almohades, il ne devrait pas de là payer le droit ; en revanche s'il a vendu à d'autres qui ne sont pas en paix, il doit alors payer le droit. Mais il ne doit pas payer le droit relatif au fret des navires et des bateaux.
- 8)-. Mais si les Génois ont importé une marchandise dans les territoires des Almohades, et qu'ils ne peuvent pas la vendre, qu'ils puissent la ramener de façon licite, sans payer à nouveau un droit, là où ils voudront. Si maintenant les

Génois dans leurs navires ont amené des hommes vers les terres des Almohades, s'ils sont en paix avec les Almohades, qu'ils soient traités comme des Génois ; au contraire, si ces hommes ne sont pas en paix avec les Almohades, qu'on ne leur garantisse aucune sécurité ni pour leur personne ni pour leurs biens.

- 9)-. Maintenant, si les Almohades avaient besoin des navires des Génois, qu'ils puissent licitement avoir le tiers de leurs navires qui se trouveraient sur leur territoire, une convention étant faite préalablement sur le fret avec les patrons et les armateurs desdits navires selon ce qui est équitable, sans interprétation restrictive .
- 10)-. En outre, si leurs navires louaient les services de l'état pour défendre certaine « honorée » et s'ils ne pouvaient avoir cette « honorée », néanmoins ils auraient à payer le droit relatif à la convention passée avec eux. Au surplus, on ne peut empêcher aucun navire des Génois de participer aux services de l'état visant à l'attribution des « honorées ».
- 11)-. Et si les Génois sont poursuivis par leurs ennemis et arrivent à un lieu quelconque du territoire de ABOUZAKARIA, les Sarrasins de ce lieu doivent les soutenir et leur prêter aide et conseil, leur prêter main forte en hommes contre leurs ennemis, et ceci de quelque endroit que proviennent ces ennemis.
- 12)-. Et si les navires ou les bateaux des Génois subissaient un naufrage dans quelque partie de son territoire, le roi garantit qu'ils puissent avoir en toute sécurité les biens qu'ils sauveront du naufrage, mis à part ce qui sera vendu ou acheté sur place
- 13)-. En outre, dans toutes les cités où les Génois ont l'habitude ou l'usage de procéder au négoce des marchandises, il est de nécessité qu'ils aient, en dehors des autres et pour eux, un fondouk spécial.
- 14)-. Au surplus, qu'il soit interdit, pour les officiers de l'état, de permettre à aucun Sarrasin d'acheter ou de vendre à un Génois qui ne soit connu comme marchand légalement installé.
- 15)-. Au surplus, qu'aucun marchand de Gênes ne doive ni ne puisse être exclu ou détenu, que cela affecte sa personne ou ses biens, si cette mesure sert de substitution pour viser un malfaiteur, ceci dans tout le territoire ci-dessus

désigné. Si toutefois quelque Génois subissait une injustice, qu'il puisse librement se présenter personnellement à l'audience royale pour faire valoir son droit à la justice et à l'application de la loi.

16)- Pour tout ce qui serait vendu à l'encan, avec les témoins de la douane, et, en dehors de l'encan, avec les drogmans connus des officiers de l'état, que cela soit sous la responsabilité de la douane.

Tous les drogmans de la douane doivent être communs pour les achats et pour les ventes. Les Génois ne doivent payer qu'avec des besants à dix le centenier et des « milliarens » pour les drogmans.⁽³⁾

17)- Maintenant, s'il y avait dans la cité de Gênes une cherté publique des vivres en grains, que les navires génois puissent librement exporter cinq « honorées » de vivres, en faisant attention à ce que ces navires devront porter l'honorée à Gênes si le grain vaut en Afrique, en besants, jusqu'à 3.5 pour le caffèse⁽⁴⁾ que ce soit, sans payer aucun droit. Mais si vraiment le grain valait au-delà du prix indiqué, qu'il n'y ait aucune obligation d'avancer comme précédemment citée.

18)- En outre, que l'ensemble des Génois doive être sauvegardé, protégé et respecté, tant pour les personnes que pour les biens, dans tous les lieux, tous les territoires et districts que le susdit BOUZAKARIA a acquis ou conquis suivant des procédés reconnus, le roi usant de son droit et de ses raisons plénières sur ses propres domaines et dépendances, selon le modèle de la justice et selon ce qui se fait dans ses autres territoires et dépendances.

1)- De Mas latrie : Traites de paix et de commerces, T2, p116-17

(1) - أبو زكرياء (2) - سفير جنوه كونراد دي كاسترو (3) - الترجمان (4) - القفيز .

**** معاهدة تجارية بين جمهورية جنوة والسلطنة الحفصية عقدت بتونس بتاريخ 18 أكتوبر 1250م بين السلطان أبو عبدالله محمد المستنصر بالله وممثل الجمهورية الجنوية السفير جيجيلينو سيبو (1)**

Ceci est la convention de paix signée entre BOABDIL (ABOU ABDOU ALLAH) roi de Tunis, d'une part, et Guillelmino CIBO, légat de la commune de Gênes, mandaté par elle, d'autre part, traité pour les dix prochaines années.

- 1). Il est clair que ledit émir ABOUABDOU ALLAH a donné et confirmé la paix à la commune de Gênes et à l'ensemble des Génois, donnant à eux sécurité pour les personnes et pour les biens, à travers tout son territoire, celui qu'il possède et qu'il a acquis dans les règles. Que les Génois puissent vendre partout avec autorisation dans tout le royaume, vendre et acheter des marchandises et faire des négociations de commerce, spécialement dans les lieux dans lesquels les Génois ont l'habitude d'en user pour cause de négoce

Dans les autres lieux, il est vrai, de son territoire, mis à part donc ceux dans lesquels les Génois ont coutume d'en user, ils ne se voient pas donner la liberté de vendre ou d'acheter, si ce n'est sous l'effet d'une nécessité urgente, pour leurs navires armés et leurs bateaux dans ces endroits, qu'ils puissent le faire pour assurer des vivres pour eux et pour leur équipage selon accord.

- 2). De même, que les Génois ne donnent pour les paiements des droits que des besants dix au centenier et des « milliarens » pour les drogmans. Que les Génois, de tout ce qu'ils auront porté sur le territoire du royaume, ne paient que de besants, de milliarens et d'or, qu'ils ne donnent que des besants au centenier, à la mode commune.
- 3). De même, si quelque Génois vend son navire ou son bateau à quelque autre Génois, ou même à quelque étranger ayant la paix avec les Almohades, il n'est pas tenu de payer la dîme ; mais s'il veut vendre à quelqu'un qui n'est pas en paix avec les Almohades, alors il devra payer cette dîme.

- 4). De même, si quelque Génois a importé des marchandises et n'a pas pu les vendre, qu'il lui soit permis de les emporter librement où il voudra, sans aucune autre imposition.
- 5). De même, ledit émir BOABDIL a permis et prévu que les Génois Doivent avoir à Tunis et dans les autres régions de son royaume, tous les « fondouks » qu'ils ont pu avoir jamais, afin d'avoir toutes les protections juridiques et tous leurs privilèges.
- 6). De même, de tout ce que les Génois vendront en douane, à l'encan ou hors encan par les mains des drogmans de la douane, en présence des témoins de la douane, qu'il soit établi que c'est à la douane d'en prendre la responsabilité et d'en répondre aux Génois eux-mêmes.
- 7). De même, si quelque bateau génois a été victime d'un naufrage, et a accédé à quelque lieu du rivage des Almohades, qu'il soit permis à ces Génois de décharger à terre, qu'ils soient maintenus sains et saufs et que leurs biens soient garantis, mis à part ce qu'ils auraient pu acheter ou vendre.
- 8). De même, si des Génois sont pourchassés par l'un de leurs ennemis, ou par leurs ennemis en général, et que ces mêmes Génois accèdent à quelque lieu ou port des Almohades, que ceux de ce lieu où ils accèdent soient tenus de les aider et de les défendre. Et qu'il ne soit pas interdit aux Génois de décharger autant qu'ils peuvent de leurs biens sur ce territoire quand, comme il est précisé plus haut, ils sont pourchassés par leurs ennemis ; qu'il soit obligatoire de leur prêter aide et conseil jusqu'à ce que leurs ennemis dégagent de ces lieux.
- 9). De même, que tous les drogmans forment une seule société d'achat et de vente, de telle sorte que personne n'ait ses propres drogmans.
- 10). De même, les porteurs, débardeurs, crieurs publics, courtiers Doivent revenir à de bonnes manières et coutumes, comme quand ils étaient au temps de la paix ancienne .ils doivent tous se tenir à de bonnes mœurs et de bonnes coutumes, et ne pas imposer aux Génois quelque mauvaise pratique ou quelque mauvaise habitude que ce soit.

- 11). De même, ledit émir ABOUABDOU ALLAH a promis de sauvegarder et de protéger les Génois, tant pour les personnes que pour les biens, sur tous ses territoires, dans tous les lieux et toutes les régions à travers tout son domaine, sa propriété, son acquisition dans les règles, il a promis de les défendre contre toutes personnes.
- 12). De même, qu'on ne capture aucun marchand génois à la place d'un autre qui aurait commis un méfait.
- 13). De même, si à cause de la cherté qui affecte les Génois, la nécessité les pressait, qu'il soit permis à la commune de Gênes d'exporter 5 navires « honorés » de grain par an de la terre des Almohades, ceci cependant si la caïlis valait en Barbarie entre trois et trois et demi en besants, caïlis des Almohades, sans aucune imposition ; ainsi toutefois que les Génois soient obligés de l'exporter vers Gênes et non ailleurs. Si vraiment la valeur dépassait trois besants et demi (ou l'équivalent en milliars, qu'on ne puisse permettre cette exportation.
- 14). De même, s'il était nécessaire aux Almohades d'avoir des navires pour transférer leurs marchandises, les Génois devraient leur concéder le tiers des navires qui seraient dans les ports du royaume, leur donner un fret convenable de façon à s'accorder, seulement selon la justice et selon la raison, sans dommage pour aucune des deux parties, mis à part toutefois que ne serait détenue aucune nef « honorée », ou inscrite pour être « honorée » ; néanmoins ils doivent avoir tout le fret dont il a été convenu, à partir de quoi commence la question du classement des navires honorés.
- 15). De même, si une offense ou des faits aggravés sont commis contre un Génois, qu'il lui soit permis de se présenter à l'audience du roi pour réclamer le droit et la justice.
- 16). De même, les Génois ne doivent pas payer de droit particulier pour le fret de leurs navires et bateaux
- 17). De même, que les Génois soient obligés de ne pas naviguer avec aucun bateau de corsaires, et de ne porter aucun Sarrasin dans leurs navires qui naviguerait avec les corsaires.

- 18). De même, que les Sarrasins soient protégés et sauvegardés à Gênes et dans son district.
- 19). De même, si quelque Génois sortait en mer ou allait en course pour s'en prendre aux Sarrasins, soit qu'il sorte de Gênes, soit d'ailleurs, que les Génois soient dans l'obligation de le capturer pour ses méfaits, et de le tuer, et de faire présent de ses biens aux Almohades. Et si la personne de ce malfaiteur ne peut être saisie, les Génois doivent donner les biens de ce malfaiteur aux Almohades. Et si par fortune les Almohades voulaient armer des vaisseaux et des bateaux à eux pour capturer ledit malfaiteur, que les Génois soient astreints à armer simultanément, et à être en même temps que les Almohades lancés à la capture de tel malfaiteur.
- 20). De même, qu'on fasse honneur aux Génois chez les Almohades, et qu'on procède avec eux selon les bonnes coutumes.
- 21). De même, si quelqu'un d'étranger aux Génois se trouvait sur les navires des Génois, et qu'il soit de ceux qui sont en paix avec les Almohades, qu'il paie le même droit qu'un Génois ; mais en revanche, s'il est de ceux qui ne sont pas en paix avec les Almohades, qu'il fasse l'objet d'une procédure de délitance, tant pour sa personne que pour ses biens, de par la volonté des Almohades.
- 22). De même, de l'or vendu à la Monnaie de Tunis et de Bougie, qu'il ne soit prélevé aucun droit si ce n'est suivant la coutume.
- 23). De même, que les Génois soient tenus quand ils arment Gênes et son district, de ne faire aucune offense à personne dans le port des Almohades.
- 24). De même, si les galées des Almohades trouvent des Génois avec des navires et des bateaux, qu'ils ne les offensent, ni sur le plan des personnes, ni sur le plan des biens, et si l'on en vient à agir contre ce précepte, l'émir BOABDIL et les Almohades seront tenus de réparer et de restituer.

Pour la signature de cette paix sont intervenus, avec ledit légat Rubald Macia, consul de Gênes à Tunis, Johannes de Maroco, et moi-même Michaël, scribe du consulat de Gênes à Tunis, qui ai écrit cette convention, sur le précepte du susdit

légal et susdit consul, l'an de la Nativité du Seigneur 1250, indiction octave, le 18 du mois d'Octobre.

Moi Michaël de SANCTO DONATO, notaire du Saint Empire, avec le précepte du susdit légal et susdit consul, je l'ai écrite.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

** تعهد من تاجر مسلم تونسي بالتنازل عن شكوى رفعها أمام البودستا (حاكم جنوه)
ضد جماعة من القراصنة الجنوبية، في حال قبل قائدهم دفع مبلغ 25 ليرة كتعويض لما
لحقه هو وأصحابه من خسائر وأضرار، وذلك في غضون 15 يوم.⁽¹⁾

جنوه بتاريخ 11 يوليو 1251م

Au nom du Seigneur, Amen. Moi BOCHERIUS ⁽¹⁾, Sarrasin et commerçant de Tunis, je promets et je conviens avec toi, Conrad de PAXANO, représentant et délégué des hommes de Porto Vénère, porte- parole de ceux qui étaient ou qui furent dans la course où moi et mes associés ont été pillés par eux, et moi en particulier, qui fus pillé, étant donné que ceux qui étaient liés avec moi par des accords ne sont pas là, je requiers que, dans un délai de quinze jours, ces hommes me donnent et me paient, en tant que mandataire des miens, vingt-cinq livres de Gênes en monnaie numéraire répertoriée afin qu'en échange je me charge de la renonciation au ban par lequel, sur mon intervention, nous avons eu le soutien du podesta de Gênes : et qu'à partir de là, je ne poursuivrai plus à l'avenir ces hommes pour leur pillage, et ils ne seront Poursuivis par aucun de mes associés, ni par aucune autre personne. Du reste, je garantis, en fonction de ta demande d'engagement formel, sur un montant double des dommages et par conséquent je m'engage à te fournir la preuve de nantissement de la garantie par tous mes biens en ma possession et dans mes droits.

Et ceci je le fais en personne, étant présent, exprimant ma volonté, avec la confirmation de mon conseil maître Abul Faihii Lesedi, Sarrasin.

Fait à Gênes, dans la maison d'Ugo Fornario. Témoins : Alberto de Ricio, notaire, et Bacegio Lxentis, l'année de la Nativité du Seigneur MCCLI, indiction octave, le 11 jour du mois de Juillet.

1)- De Mas latrie: Traites de paix et de commerce, TII, p121

المعاهدة التي أبرمتها السلطنة الحفصية مع الأمير شارل ذي أنجو شقيق الملك لويس
التسع عقب فشل الحملة الصليبية الثامنة بنصها العربي الأصلي. (1)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم

تسليماً

هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد بن عبد
القوي: الملك الأجل المعظم المختار قليب بنعمة الله تعالى ملك فرنسا ابن الملك الأجل
الأقدس لويس، والملك الأجل المعظم حارل بنعمة الله تعالى ملك صقلية، والملك الأجل
المعظم تيباط ملك نغارة، أمدهم الله تعالى لتوثيقه. والخليفة الإمام المويد المنصور أمير
المؤمنين أبو عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته
ورضى عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم. على شروط يأتي ذكرها وهي:

أن يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين. وسواهم تحت
طاعته ومما ينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والأقماط والزعماء،
أو إلى الجزاير المعروفة بهم، أو ما هو تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم. في
أمان الله تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل. وأن يكونوا عناية كل
من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم. وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات
وقطع وشباطى وغيرها من ساير الأجافان كبيرها أو صغيرها، لضرر أو نعد على شيء
من بلاد أمير المؤمنين وسوا ينضاف إلى طاعته وما بينها من جميع البلاد والجزاير
والسواحل والمراسي، أو على أحد من سكانها.

من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل بعدهم مثل
الملك انورد أو غيره كائناً من كان، ولا يبقى في بر المسلمين أحد إلا أن بقي لهم أقال أو
بعض ناس فيكونوا في موضع معين لهم من جهة أمير المؤمنين، ويكونوا محفوظين منه
إلى حين رجوع المراكب إليهم؛ وعلى أن مدة انعقاد هذا الصلح بين أمير المؤمنين
والملوك المذكورين وغيرهم من الأقماط والزعماء إلى تمام خمسة عشر عاماً شمسية،

أولها شهر نوفمبر المتصل بأكتوبر الموافق لشهر التاريخ؛ وعلى أن يعطى لهم مائتا ألف أوقية ذهباً وعشر آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما قدره خمسون درهماً من دراهمهم في الوزن والطيب، يعجل لهم منها نصف العدد محضراً، والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين، والذين يبقون في برامير المسلمين بعد سفر الملوك وأجنادهم على ما ذكرنا يكونون مخفوفين من جهة أمير المؤمنين. وإن تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين رد ذلك إليهم، والأنبيرور الأجل بادوين صاحب قسطنطينية، والكمث الأجل الفوس كمت طولوزة، والكمث الأجل كي كمت دافلندر، والكمث الأجل هري كمت لوسنيرك، وجميع من حضر من الأقماط والزعماء والفرسان -دخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك. شهد على جميع من ذكر في الأعلى المشهودين بما فيه بعد تقريره عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كل واحد منهم بمحضر جميعهم، وليعطي أمير المؤمنين على المال المتبقي ضماناً من تجار النصارى للملوك المذكورين؛ وإن كل من يكون عدواً للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقبل. وشهد أيضاً من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك، وأمير المؤمنين أيده الله تعالى، وولده المبارك الأسعد، والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي، وعدواً على بينهم وأمانتهم لتمام ذلك. بتاريخ الخامس لربيع آخر عام تسعة وستين وستمائة. ويضاف إلى هذا العقد أن يؤدي إلى الملك الأجل حارل بنعمة الله ملك صقلية عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يؤدي للأنبيرور بموا. ويؤدي للملك الأجل المذكور من اليوم رجاء في كل عام ما كان.

فمتى أصيب أحد من المسلمين المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده، سواء كان المسلمون وأردين على البلاد المذكورة أو صادرين عنها؛ وعلى أنهم لا يمدون أحداً يريد ضرر بلد من بلاد أمير المؤمنين ولا ما ينضاف إليها ولا أحد من أهلها؛ ولا على أنه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن، أو جفن للنصارى وفيه أحد من المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم، فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك إلى بر طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم ورد جميع ذلك إلى المسلمين، وعلى أن يكون جميع من يحل من

مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة ومما ينضاف إلى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين في أمن مثل أمن أهل البلاد المذكورة، ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين وأردين أو سادرين؛ وعلى أن يكون جميع من يصل من تجار أهل بلاد الملوك المذكورين، وعلى جميع النصارى الذين هم أصدقاؤهم، في أمن الله تعالى في أنفسهم وأموالهم على المعهود المتعارف فيما لهم وعليهم من بيعهم واشريتهم، حفوظين في تربهم وإقامتهم، ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على رباط هذا الصلح، ويكون لهم من الشروط مثل ما اشترط على الملوك المذكورين سوا حرف بحرف، وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكانا في بلاد أمير المؤمنين، وهو يعطيهم سوتنعا يعشرون فيه ديارا وبيوت الصلاة، وسواضع لدفن موتاهم، والرهبان والقسوس المذكورون يعظون ويصلون مجهرا في كنائسهم، ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم، وعلى أن جميع التجار الذين في بلد أمير المؤمنين من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوايدهم في جميع أسرارهم. ويرد لهم كل شيء أخذ لهم وكل شيء لهم عند الناس وعلى الناس، وعلى أن الملوك المذكورين لا يقبلوا في بلادهم من يكون عدوا لأمير المؤمنين ولا يتجدوا لمن يتحرك لضررا ولتعد على شيء من بلادهم، وعلى أن من حصل من الأسرى بين المسلمين أو بين الملوك المذكورين وبقي حيا فيرد كل أسير إلى أهل دينه، وعلى أن يقطع الملوك المذكورون وجميع من إليهم وفي محلته من أهل طاعتهم ومن غيرهم يودى للأبرور مثنيا. والحمد لله تعالى، شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته عب الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفى، وعلى التميمي بن إبراهيم بن عمر، وأبو القسم بن أبي بكر النجبي.

⁽¹⁾ M. Talbi : Documents divers relatifs à la croisade de saint louis (1970). In (Cahiers de Tunisie), TXXV, N° 92-100, 3° ET 4° Trimesters, 1077. p 259-62

- رسالة من الحكومة الجنوية الى السلطان الحفصي (أبو فارس عبد العزيز) بشأن حل قضية المواطن التونسي ابن سكري، وطي صفحة الخلافات بينهما.⁽¹⁾

بتاريخ 24 مايو 1427م

Au seigneur Roi de TUNIS.

Sérénissime et très puissant prince. Nous ne nous étonnons pas si Votre Majesté, impliquée dans de grandes négociations, n'a pu imposer une conclusion à nos agents. A la vérité, comme il y a quelque temps nous avons envoyé à TUNIS six ballots de coupons d'étoffe longues à raison de trente par "ballet, en supplément de seize mille doublons d'or pour le rachat de tous nos captifs - les étoffes - ont été confisquées, selon une version par votre sérénité, soit selon une autre par des officiers des douanes, alors que notre porte-parole d'alors Ambrosie Spinula n'a fait aucune mention de ce fait pas plus que Guirardo Gentili alors consul. comme si ces coupons eux-mêmes n'avaient pas fait l'objet de mesure le tout nouveau Cristofere Marruffo a voulu parvenir à un calcul pécuniaire avec le seigneur vice-roi et les officiers des douanes, il lui fut répondu par les officiers des douanes que sire sa Majesté avait disposé de ces coupons d'étoffe selon son bon plaisir, bien qu'il s'agisse au total de 350 cannes, chiffre vérifié. Ce qui nous contraignit à faire part de notre étonnement, non sans raison, car vu que les coupons d'étoffe avaient été mesurés ici avec une très grand exactitude, et qu'ils s'étaient trouvés correspondre à 365 cannes - point sur lequel nous sommes absolument affirmatifs, il ne peut se faire qu'à TUNIS se soit révélé un déficit de 15 cannes. Le même Ambrosio nous affirme aussi que le prix pour ces coupons d'étoffe valant en doublons courants cinq et demi la canne quelle qu'elle soit, ceci en concordance avec le préfet des douanes.

C'est pourquoi, une fois ces calculs faits correctement, votre Majesté resterait débitrice envers nous de 400 doublons, que nous vous supplions de bien vouloir restituer à Guirardo Gentili bientôt de retour sur place. Et pour qu'aucun autre doute ne puisse naître sur les mesures des coupons d'étoffe, le susdit Cristoforc et le préfet des douanes ont été d'accord solidement pour les mesures correspondant aux certifications de nos documents.

Un grand étonnement aussi nous a été imposé Quand nous avons appris que la flotte royale, à l'encontre du traité de paix, avait capturé comme ennemis 17 hommes de nos sujets, de BONIFACIO, CALVI et du CAP CORS, dont les embarcations ont été coulées à la mer - hommes qui, eux-mêmes, ont été emmenés à Tunis et vendus comme esclaves sur le marché public; et dans leur nombre il s'en trouvait certains que peu auparavant votre Majesté avait rendus libres à Ambrosio Spinule, et qui étaient rentrés chez eux. Et vu que le même Cristoforo a supplié que ceux-ci et tous les autres Gênois et sujets de la Commune de Gênes lui soient livrés en fonction de la directive de paix, on lui a répandu que, quand votre Majesté viendrait à Tunis, elle examinerait la question et s'enquerrait pour savoir qui est Gênois et qui ne l'est pas. C'est pourquoi nous supplions votre Sérénité pour qu'elle veuille bien, selon la directive de paix, à relâcher tous les Gênois et tous les sujets de la Commune de Gênes, que cela se fasse avec Guirarde déjà cité ou avec notre nouveau consul sur place. Nous vous supplions aussi de mander à vos galères et navires qu'à l'avenir ils s'abstiennent d'offenses envers les nôtres, et qu'ils observent une paix mutuelle sans aucun accroc, de même que de notre part elle est observée et sera observée dans le futur.

Or les noms de nos captifs votre Majesté a dû les transmettre par écrit au secrétaire dudit cristoforo auquel votre Majesté fait toute confiance.

En outre, comme votre très grande prudence le comprend, quelle que soit l'intention droite de votre Majesté ou de nous-même à paraître suffire à la conservation de la paix, c'est toutefois une chose inouïe et contraire à tout droit des gens, de vivre sans paix écrite et attestée par des traités solennels. c'est pourquoi nous requérons à elle-même pour le bien mutuel de la paix, afin qu'elle veuille bien confirmer par un écrit solennel la paix elle-même, pour chasser tous les doutes et tous les inconvénients qui pourraient naître à tout moment de la situation actuelle.

Or il y a déjà une paix sincère sous ferme de traité excellent, qui naguère a été signée par Federico Lecavello, et puis maintenant avec les arides additionnels transmis aussitôt à votre Majesté par Cristoforo Marruffo. A partir de ces documents, nous donnons mandat opportun à nos consuls, l'ancien et le nouveau. De plus, nous supplions votre Majesté afin qu'il soit jugé digne ordinairement pour le droit et la justice, que nos marchands ne soient pas forcés à acquitter une taxe quelle qu'elle soit en dehors des dispositions du traité de

paix antique, et ceci quels que soient les calculs que fassent les officiers royaux et quand "bien même il leur semblerait correct de leur attribuer ce qui reste le droit commun, c'est-à-dire le fameux "dritu bensicare" (= le droit d'Aben Sichiari) ; car entre notre opinion et celle de ceux-ci, qui disent en rester jusqu'à présent à une taxe d'environ mille doublons, la différence est grande. Or nous, nous offrons pour tout ce qui concerne votre Majesté la gloire d'une amitié sincère.

1)- Marengo,E: Genova e Tunisi 1388-1515 Relazione storica. (Atti della Ligure di storia patria). Vol XXXII, Roma,1901.p 143-45

- رسالة من السلطان الحفصي عثمان بن محمد إلى دوق قمونة جنوه يعلمه فيها بالمظالم والتجاوزات التي اقترفها بعض العناصر الجوية ضد مواطنو السلطنة. بتاريخ 14 محرم 856هـ = 1452م، (1)

من عبد الله المتوكل على الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين عثمان بن مولان ولي عهد أمير المؤمنين إلى عبد الله محمد بن مولان أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز ابن مولان أمير المؤمنين إلى العباس أحمد إلى دوج جنوة وكمونها القائمين بالنظر في جميع أمورها يضالبون فيما ينكرونه فيها بضرورة الحفاظ على العهود [ورسولنا يلقي إليكم هذا الكتاب الكريم ويتلقا منكم ماطالبناكم به من الإدعان إلى الحق وألغا السلم للموافقة عليه والتسليم ويصل إلى الدوج أرشده الله حصانان اثنان أحدهما بسرج ولجام ومهري واحد من مراكب الإعجام إظهارا لوفاء سنمه وإكراما تكبره في قومه وننعرضوا منه أرشده الله أن يكون لرسولنا عودا على شرا ما أمرناه بشرائه من البزة correggasi والعدة وأن ينفذ في حصول غرضنا الكريم والسلام وكتب بتاريخ الرابع عشر لشهر الله محرم فاتح أشهر عام ستة وخمسين وثمانماية.

هذا المکتوب يشتمل على فصول يطلب الجواب عنها من دوج جنوة وكونهم هداهم الله إلى طريق الصواب، وكتب في الثاني عشر شهر الله المحرم فاتح عام ستة وخمسين وثمانماية.

-الفصل الثالث:

أن لوكه ⁽¹⁾ الجنوبي أكرأ مركبه للمسلمين ليحملوا فيه القمح لطرابلس فوسقوه بالقمح فخان ومشأ بالمركب لجنوة وباع قمح المسلمين ثم وقال نودى ⁽¹⁾ قيمته وهذه خيانة ظاهرة وبلغنا أنكم لم تودبوه على ذلك ولم يقع عليه في ذلك منكم تتكيل وهذا فيه ما فيه من الفساد.

-الفصل الرابع:

أن جلبان ذابردورة Sappram de Giuliamo بلغنا أنه أخذ المسلمين وأسره في جفن صاحب بونة الذي رأسه الفقيه يونس واجتمع مع أجفان صاحب أرغونة واقتسموا أموال المسلمين وأعطأ المسلمين للقطلان وهو بعمالكم ولم يطرأ عليه تغيير في ذلك وهذا يناقض ما وقع عليه الصلح بيننا.

-الفصل الخامس:

أن القائد أحمد بن سعيد أخذ له فرنسكو قالبو Galvo مريكب من الخشب والحديد ومنه مشترا خمسمائة ذهب وكتب لكم بسببه مرارا فيما وصله من ذلك سوى ثلاثين دينارا على يد القنصل جينير Chera ولم توافوه ببقية ماله بل الخمسمائة ذهب دنانير محضره غير تمن المركب، وما فيه من الحديد والخشب قيمة ألفين ذهب.

-الفصل السادس:

في مسله مندى Sigismondo di Mondى وفرنشلي Franscello اللذين كانا بصفاقس لما هربا من صفاقس ليصلا إلى Luchese للكير قبضنا عليهم بالطريق مند

وصولهما إليه وكنا ما فعلنا ذلك حتى تحدثت مع القنصل والتجار الجنوبيين فوافقوا على حبسهم وحوز أموالهم فحبسناهم وخزنا أموالهم حينئذ بعد موافقة القنصل الذي كان ذلك الوقت وتجار الجنوبيين ويصلكم كتب جاقمو النيكوي (il Banchiere) بذلك ونحن نتكلم على حقوقنا كما أنكم تتكلمون على حقوقكم.

أنتم تعلمون أن هذه الأمور كلها توجب فساد الصلح وما ذكرنا لكم من فعل هو لا فيه خيانة ظاهرة لا تخفكم فتحن نطلب منكم الجواب عن ذلك كله فصلا فصلا.

وكذلك بلغنا عن قسطنطين Costantino الجنوبي التاجر الذي عندنا اليوم هو وشركاؤه أنهم احتالوا على قائب الحديد الناصري وضربوا به في جنوة دارهم وجابوها (جلبوها) إلى صفاقس وطرابلس وأخرجوها هنالك حتى وقع عليهم الحياط هربوا وهذا في ديننا يلزم عليهم قطع اليد وكذلك في دينكم على ما بلغنا وهذا أيضا كما يوجب فساد الصلح ألا حكمتم فيهم بالواجب

إلى نوج جنوة وكمونها الفاسمين بأمورها.

-المصدر-

معاهدة سلم وتجارة بين السلطان الحفصي أبو عمر عثمان وسفير جمهورية جنوة

انطونيو غريمالدي بتاريخ 15 مارس 1465م⁽¹⁾

Le premier chapitre d'entre eux , et que tous les Génois comprendront, c'est que dans la haute terre et dans la cité, et dans toutes nos possessions et contrées de l'orient et de l'occident, il y a pour eux la sécurité, la sécurité de Dieu, aussi bien pour leurs biens que pour les personnes, autant de la part du haut siège que de ses sujets et des fonctionnaires, dans leurs transactions comme au moment de leur établissement et lors de leur résidence, et ainsi, s'ils veulent partir vendre et acheter Dans les lieux accoutumés à leur « descente », de toute façon ils comprendront combien leurs navires et leurs routes sont en sécurité, ils seront sous la protection formelle de la cité haute et de toutes ses possessions - lesquelles sont à présent sous son autorité, et il en sera pareillement à l'avenir.

Et quand paraîtra dans le port de la haute cité, voire dans d'autres ports des districts, quelqu'un de leurs ennemis, pour leur causer des dommages, tant sur le plan des biens que sur le plan des personnes, il ne pourra pas s'impliquer dans une telle menace, ni demander un péage, ni encore les Génois ne pourront se voir demander des indemnités pour les dommages faits par leurs ennemis dans lesdits ports.

Et si, par quelque occasion, il y avait quelque Maure, voire quelque Chrétien, qui soit dans la région de la paix, dans les lieux soumis au roi, et qui fasse outrage aux Génois, ou encore qui leur fasse violence, ou qui leur cause des injustices, le seigneur de la douane serait tenu de leur faire rendre la justice et d'obtenir réparation de celui qui aurait commis outrage ou violence.

Et encore nous les avons dotés dans leurs « fondouks » et magasins de la puissance nécessaire à leur habitation, avec toutes leurs juridictions, leurs puits, leurs fours, leurs églises, et afin que nulle autre personne ne puisse habiter avec eux sans leur consentement, et que, s'il est besoin de réparer lesdits « fondouks », églises, puits et fours, l'administration douanière soit obligée de les faire réparer

Et sont nommés à leurs « fondouks » des portiers fidèles, lesquels interdisent l'entrée de ces « fondouks » aux Maures, et aux autres personnes, sauf avec leur consentement.

Et encore, qu'à eux soit concédé le pouvoir de faire en tous les lieux du district et en accord avec le consul de Tunis, ce qu'ils font raisonnablement entre eux.

Et si quelque Génois devait une dette à un Maure, le consul devra traiter l'affaire raisonnablement, et s'il ne le faisait pas, alors le seigneur de la douane peut intervenir et imposer une solution raisonnable entre les deux.

Et si quelque Génois devait récupérer une créance sur des Maures, ledit Génois doit la revendiquer devant le seigneur de la douane.

Ne sont pas tenus à payer les marchands génois de Tunis et des autres lieux du district, pour les marchandises qu'ils apporteront dans leurs lieux, sauf la dîme et les autres espèces accoutumées dès les temps passés, et non pas de nouvelles.

Et encore lesdits marchands ne sont pas tenus de payer des doubloons et des monnaies estampées d'argent, autrement dit ni or ni argent sauf pour la demi-dîme sans aucun supplément.

Et si quelque marchand génois portait des monnaies estampées qui n'étaient pas de la lignée de la « Zecca »²¹ de la cité, qu'il soit permis au seigneur de la douane de pouvoir la prendre voire de l'écarter et de la rendre à son patron au prix d'une demi-dîme.

Et encore, de tout ce qu'ils vendent à leur nom de leurs marchandises, qu'il leur soit licite de payer la dîme raisonnablement, à condition que ce ne soit pas pour leur faire outrage ou par une tromperie caractérisée.

Et encore ils doivent attendre pour leur dîme à moitié, due après la vente de leur marchandise, voire après le passage de la douane, et si, par occasion, la marchandise étant vendue, le marchand n'avait pas effectivement perçu le montant en dinars, que le seigneur de la douane soit alors obligé de faire exécuter le paiement ou d'attendre que finalement le paiement du prix de ladite marchandise soit obtenu. Et si quelque Génois portait des marchandises ou des biens comme les perles, les pierres précieuses, l'or, l'argent, ou toute autre marchandise de cette catégorie, dans la cité haute ou bien dans la contrée soumise à son autorité, et s'il ne pouvait vendre ces marchandises, qu'il soit licite pour lui de pouvoir retourner là d'où il vient, sans payer aucun droit à ce sujet,

Et de toutes les marchandises qu'ils porteront dans la cité et les autres lieux, et sur lesquelles auront été payées les dîmes exigibles, ils pourront à partir du rapport de ces marchandises, acheter telles denrées commerciales qu'il leur plaira, sans qu'ils aient à payer à ce sujet nulle dîme ou autre droit. Et encore ils ne sont pas tenus, pour la marchandise achetée avec des dinars, de payer la dîme ou aucun autre droit.

Si quelque Génois vend un navire ou un bateau aux Maures, ou à d'autres Chrétiens qui sont en paix avec les Maures, qu'il ne soit pas tenu de payer la dîme pour une telle vente, ni aucun autre droit ; et qu'avec les dinars d'une telle vente, il puisse acquérir ce qui lui plaira ; ce n'est que si l'acheteur n'est pas en paix avec les Maures, qu'il sera exigé du vendeur le paiement d'une dîme pour la vente.

Et si quelqu'un avait vendu de la marchandise répertoriée dans les livres de la douane à un Chrétien, qu'il soit en paix ou en guerre, qu'on ne soit pas tenu de payer la dîme ni toute autre taxe sur ladite vente.

Et si quelqu'un avait vendu des marchandises dans quelque terre que ce soit, et avait dans ladite terre payé la dîme, et que ledit vendeur veuille aller dans d'autres lieux pour acheter des marchandises, les fonctionnaires de la douane doivent lui établir un laissez-passer afin qu'il ne paie aucun droit supplémentaire ; et qu'il lui soit permis de désigner un mandataire pour acheter à sa place, ce mandataire n'étant soumis à aucune taxe supplémentaire.

Et tous ceux qui vendront par l'intermédiaire du drogman, dans la « Calega »⁽³⁾, avec des témoins, soient sous la protection de la douane, et ainsi dans tous les lieux soumis à l'autorité de la cité majeure. Et de tout ce qui sera vendu, de quelque qualité et de quelque volume que ce soit, sans témoins et en dehors de la « Calega », la douane n'en tiendra aucun compte.

Si quelqu'un vend des marchandises par l'intermédiaire du drogman, une fois que la marchandise a été vue et que les arrhes ont été versées, alors l'acheteur devra réceptionner obligatoirement ladite marchandise et la payer, sans pouvoir rompre la vente.

Si quelque marchand achète, pour lui ou pour d'autres, à ceux qui sont officiers de la douane, et s'il a quittance de ladite vente, on ne pourra pas rompre la vente. Qu'elle soit forte et ferme ; et si ledit officier était en service, il ne pourrait venir après rompre la vente.

Et tous les drogmans doivent former une communauté solidaire afin qu'aucun marchand ne puisse traiter à part avec un seul drogman, lesdits

drogmans devant par ailleurs payer cinq millièmes pour toute centaine de besants, et pas plus.

Et qu'il soit ordonné dans les douanes, aussi bien pour la cité que pour les autres terres et lieux, que les secrétaires fassent leurs comptes toujours pour ceux qui les demanderont ; et si pour les marchands leurs comptes ont été faits, et s'ils ont la police du contrôle, lesdits marchands peuvent aller par tous lieux suivant leur bon plaisir, tant par mer que par terre.

Et si pour quelque cas ils retournaient à la cité, il ne pourrait se faire de leur imposer nul obstacle, nulle difficulté, une fois vérifiés lesdits comptes, sauf mise au jour d'un véritable motif de contestation.

Et encore, ils peuvent aller et venir par les terres comme cela s'est fait dans le passé, et qu'il ne leur soit pas interdit d'acheter du grain et de la farine pour les besoins de la nourriture des marins et des patrons, et ils ne doivent payer aucune taxe pour cela.

Et encore, ils peuvent monter et descendre à leur bon plaisir, s'agissant de leurs navires et bateaux, et qu'il n'y soit mis aucun obstacle.

Aucun Génois ne peut se voir jeter en prison, ni encore se voir capturé pour des méfaits commis par d'autres, on ne peut le saisir, ni lui, ni sa marchandise, ni ses biens, ni ses documents. Quant à leur consul, qu'il soit licite pour lui de pouvoir entrer deux fois par mois à l'audience du roi, et qu'il lui soit concédé de pouvoir parler avec son altesse le roi, et que cela ne lui soit pas dénié.

Et si à quelqu'une des nations chrétiennes était concédé le droit de trafiquer avec ses barques au « Cavo » du canal ⁴, que ce soit également licite pour la nation génoise.

Et encore, qu'il leur soit concédé de pouvoir acheter jusqu'à la somme de quinze mille charges de froment chaque année, quand le grain vaut cinq besants la charge, cela pour le cas où il y aurait disette à Gênes, car ils ne peuvent le vendre ailleurs ; achat pour lequel ils ne paieront pas de droit de sortie ni aucune autre taxe ; et si le grain valait plus que le prix de référence, ils ne pourraient l'acheter, sauf si le roi y consentait par faveur particulière.

Si quelque navire était endommagé ou, d'une façon globale, avait besoin de réparations, en quelque lieu qu'on veuille, soumis à l'autorité de la cité, qu'il leur soit licite de pouvoir décharger toutes les marchandises, toutes les affaires, sans payer aucun droit, et qu'ils bénéficient de la sécurité complète, tant pour les

biens que pour les personnes, et tout ce qu'ils auront déchargé, ou alors aussi ce que la mer aura rejeté sur le rivage par fortune, et les dites affaires, ils peuvent les recharger, sans payer nulle taxe ni pour leurs navires ni pour d'autres.

Et encore, si quelques-uns de ceux qui ont conclu la paix avec la cité, sont avec leur navire et leur équipage sur les lieux, qu'ils soient traités comme eux.

Si quelque navire ou bateau de Gênes, voire de ses sujets, était trouvé en haute mer par quelques bateaux de la cité royale, voire des sujets de ses contrées, il ne faudrait lui faire ni obstacle ni outrage.

Et si le roi voulait l'un des bateaux qui se trouve dans le port de la cité ou dans les autres ports, qu'il puisse louer le tiers des navires suivant ses besoins, et que soit payé par l'intermédiaire du chef de la douane ce qui fera l'objet d'un accord en qualité et en quantité.

Et si l'un de ces navires avait déjà ordonné le commencement du chargement, qu'il ne puisse y être mis aucun obstacle.

Si, à l'occasion, le roi nolisait un navire, voire un bateau, entier, et n'en chargeait que la moitié, plus ou moins, qu'il soit tenu à payer tout le loyer à l'accomplissement du contrat. Pour le courtage de la soie, ils ne sont pas tenus de payer plus de deux S'il advenait quelque procuration d'un Génois et qu'elle soit en écriture « christianesque », et que le consul et les marchands certifient par leur témoignage qu'elle est authentique, elle devra être traduite en arabe et certifiée conforme par des témoins, alors elle sera valable et produira tous ses effets.

Et encore, qu'il soit licite, pour tous les marchands génois d'acheter dans la cité et les autres terres toutes les marchandises courantes, et qu'il ne soit plus possible de leur interdire cela, et qu'ils les mettent dans les magasins et les lieux prévus par la coutume. Et de toutes ces marchandises qu'ils achètent et qu'ils vendent, ils ne devront les donner ou les porter des vaisseaux où elles seraient, sauf pour autant qu'elles seraient à la pièce, sinon cela constituera un dommage.

Et si quelque marchand génois veut partir pour quelque port qu'il le désire, c'est le devoir des témoins, c'est-à-dire des officiers de la douane, qualifiés pour y superviser de telles opérations, d'aller dans leurs maisons, voir leurs espèces et leurs marchandises, s'il n'a pas été délivré de document en douane ou autre part, et ils ne doivent pas payer à des «cameis», marins et autres officiers, ni à personne, en dehors des usages consacrés et authentiques.

Et cette forme de paix s'entend ainsi pour tous les lieux soumis à la cité haute, comme pour la cité haute proprement dite, qu'il ne puisse, qu'il ne soit licite encore à Aucun officier ou douanier, ni à aucun fonctionnaire en général, de devoir enfreindre Aucun des chapitres de la présente paix, ni d'y contrevenir par quelque façon de procéder ou par quelque autre cause qu'on le veuille, et au contraire ils se doivent de tenir copie de la présente charte et de mander par tous les lieux soumis à la cité haute, qu'ils soient appliqués dans lesdits lieux comme dans la cité haute.

Qu'il ne soit licite pour aucun Génois d'aller avec des navires de corsaires pour se livrer à la course, et que tous les Maures ressortissants de la cité et des terres qui lui sont soumises, soient en sécurité complète, tant pour leurs biens que pour leur personne, sur les territoires des Génois et de leurs sujets.

Et si quelque bateau sortait du territoire de Gênes ou de ses sujets, et allait en expédition de course maritime, et causait des dommages aux Maures, les Génois devraient capturer de tels bateaux, et rassembler tous ceux qui seraient sur lesdits bateaux, et saisir leurs biens dans quelque lieu qu'on le veuille et les adresser à la douane de la cité haute, et s'ils ne pouvaient les capturer en personne, ils devraient en tout cas saisir leurs biens et les adresser à ladite douane.

Si par la cité haute il y avait des bateaux armés pour s'emparer des corsaires et malfaiteurs génois, alors les Génois devraient armer des bateaux semblables et aller de concert avec ceux de la cité haute, dans tel lieu que commanderait le grand roi de la cité haute.

Si alors quelque navire du district des Génois ou de leurs ressortissants, trouvait des bateaux ou des marchandises et des affaires de corsaires dans la cité haute, ils ne doivent pas y faire obstacle. Et pareillement les navigateurs de la cité haute et leurs sujets ne doivent pas faire obstacle aux Génois et à leurs sujets sur ce point.

Si quelques Génois, ou leurs sujets, venaient dans les ports de la cité haute ou d'autres soumis à celle-ci, et causeraient des dommages aux Maures, alors les Génois qui se trouveraient dans les lieux de la cité haute, devraient porter assistance aux Maures pour attaquer lesdits malfaiteurs.

Et le susdit ambassadeur chrétien promet que tous les Génois et leurs sujets, pour toute affaire et marchandise, ou encore espèce, paieront la dîme ; et ceci s'entend pour toutes les terres soumises à la cité haute, et dans la cité haute, et ladite dîme s'entend en fonction du nombre, et l'or, l'argent, et les victuailles et

les blés doivent payer demi-dime, comme il est convenu dans les registres de la douane. On ne doit rompre ni annuler aucune des clauses de la présente paix. Et tous les navigateurs sur les bateaux des Génois, y compris ceux qui ne sont pas en paix avec la cité haute, doivent et peuvent user de la présente paix, autant qu'il appartiendra pour la sécurité de leur personne, quant aux autres points il est clair qu'elle n'est pas applicable. Et doivent payer les citoyens de la cité haute et leurs sujets dans les territoires des Génois, comme paient les Génois dans les territoires soumis à la cité haute. Et encore, il a plu à son altesse le seigneur roi de leur faire attribution gracieuse d'autres clauses, auxquelles il lui tient à cœur de souscrire :

Premièrement, tous les prisonniers sujets du duc de Milan et de la république de Gênes et leurs sujets, sont inclus, comme on le comprend bien, dans la présente paix et charte délivrée selon les termes exposés plus haut.

Deuxièmement, que ledit ambassadeur puisse, par le haut commandement de son altesse le roi, se voir accorder en franchise autant de tonneaux de vin qu'il en aura besoin, sans payer aucun droit, pour tout le temps ou il sera ici en mission ; et de plus il est permis pour les consuls présents et à venir d'importer deux tonneaux de vin chaque année, pour lesquels ils ne devront payer aucun droit.

Troisièmement, les patrons des navires peuvent, pour leur besoin personnel, acheter cent « cantaras » de biscuit sans payer aucun droit, et ceux des petits bateaux cinquante.

Et une fois que ces clauses sont remplies, les susdits pactes de la paix sont complets, pour une bonne utilisation et pour un bon contrôle.

Attesté par le témoignage du susdit ambassadeur qui est satisfait des choses contenues dans le texte ci-dessus, le susdit ambassadeur attestant sain de corps et d'esprit et par sa libre volonté, il témoigne ainsi en assentiment avec celui qui a fait les présents pactes avec le dit ambassadeur ; celui qui est le lieutenant du grand roi ci-dessus - Dieu fasse durer ses honneurs et prospérer dans la grandeur la haute seigneurie, en toutes choses ; lequel roi est en toute perfection d'assentiment, et de tous autres points, pour pouvoir attester de cela.

Et les témoins soussignés témoignent et font foi du fait qu'ils ont entendu, de la bouche même du roi, de quelle façon il avait donné large et ample pouvoir afin de confirmer les ordres susdits et le pacte susdit au niveau de l'état : et les clauses susdites ont été attestées dans la seconde décade du mois de « razez »

béni de l'an 869 (= Mars 1465) - Que Dieu nous donne le bien pour cette année, nul bien ne peut advenir sinon de Dieu.

Et ces attestations officielles des éléments susdits, y compris les pactes susdits, ont été faites pour une durée de trente ans, années lunaires, en partant du jour et de l'année écrits ci-dessus.

S'il venait du côté de Gênes ou des pays qui lui sont soumis, des navires ou autres bateaux pour louer aux Maures, ces bâtiments ne doivent pas partir sans laisser un « reconna » ⁽⁴⁾.

Et aussi, au sujet de la clause écrite plus haut, pour ce qui est des victuailles, son altesse le roi veut qu'ils puissent exporter des grains du pays soumis à la cité haute, quand le cours est à cinq besants.

A présent son altesse le roi veut et se satisfait, pour pratiquer le change des monnaies, qu'on s'entende sur une limitation (?) quand les grains montent à quinze besants, c'est-à-dire cinq « sextus » du doubion d'or, pour contrôler les victuailles, comme il est convenu dans un commandement pieux signé de la main de son altesse royale Amena Octononia (Omar Othman) - Dieu lui apporte victoire, miséricorde, honneurs et révérence - Lesdits témoins ont vu ledit commandement.

Et pour le total des chapitres et des pactes susdits — lesquels ont été confirmés par la haute seigneurie — que Dieu la préserve —, il faut rajouter un chapitre qui contient ceci :

Que tous les captifs génois, qui sont mentionnés dans la charte et dans les pactes susdits seront toujours, par principe, de la part de la cité haute comme des contrées qui lui sont soumises (et de quelque captif génois qu'il s'agisse), livrés immédiatement au consul, et qu'ils ne devront jamais rester au pouvoir de personne qui les retiendrait prisonniers ; et si par hasard le consui n'était pas là, il faudrait les donner aux marchands génois. Et son altesse le roi veut que cette situation stabilisée dure, et qu'il ne doive plus y avoir aucune contradiction....Et ainsi se conclut le chapitre susdit.

1)- Marengo,E: Genova e Tunisi ,p166-176

-(2) اتسغه (3) اتلغه (4) حلو اتواحد (5) دهن

- ملاحظة: المعاهدة موقعة بين ممثل السلطان العثماني أبو عمر عثمان، القائد أبي العامر جعفر - le caid Abelfos Dafar -

(ربما يكون ممثل البطاركة) و السفير الجنوبي انطونيو غريمالدي مبعوث حاكم مدينة جنوة نوق ميلانو.

* وثيقة تبين علمية بيع آمة (يحتمل أنها مسلمة، أسمها ميمونة) في سوق الرقيق بمدينة جنوة.

*** Le commerce des esclaves. Gênes, 11 mai 1248.⁽¹⁾**

Moi, Giunta, fils du défunt Bonaccorso de Florence, je vends, donne et livre à vous, Raimondo Barbieri, l'une de mes esclaves blanches, appelée Maimona, venue autrefois de Malte, pour le prix de 5 livres 10 sous de Gênes, que je reconnais avoir reçu de vous, contre cette esclave... Et je me proclame bien payé et quitte envers vous, et renonce à l'exception de l'argent non versé. Je reconnais que je vous ai donné tout pouvoir et toute domination sur l'esclave, et la promesse de ne jamais chercher à reprendre la dite esclave : au contraire je contribuerai à la protéger en votre nom et à la garder hors de toute atteinte de quiconque, sous la garantie de 20 livres de Gênes que je vous promets de vous donner. Et j'en fais le serment, renonçant à l'exception d'en appeler à un tribunal. Et moi, la dite Maimona, je reconnais que je suis une esclave, et je désire vous être livrée et vendue, à vous Raimondo. Et je reconnais que j'ai plus de 10 ans. Témoins : Oberto de Cerredo, notaire, et Antonio de Piacenza, notaire. Donné à Genes, devant l'église de Saint-Laurent, en 1248, 5^e indiction, le 11 mai, avant tierce.

1)- R.S. LOPEZ : « La vendita d'una schiava di malta a Genova nel 1248 », in:
« Archivio storico di Malta » VII - 1936 - P.391.

نموذج عن عقد كراء السفن التجارة فيما وراء البحر بتاريخ 23 فبراير 1250م⁽¹⁾

« Nous, Corrado Guarco, Ponzio Riccio Doria, Guido Spinola, et Lanfranco Riccio, actionnaires de la nef appelée Grand Paradis, chacun de nous responsable pour l'ensemble du montant, affréons notre dite nef pour effectuer le présent voyage outre-mer, au prix [naulum] précisé plus bas, et avec les marins et équipements précisés plus bas, à vous, les marchands Ido Lercario junior, Ottolino di Negro (en ton nom propre et en celui de Lanfranco Dugo), Guglieimo Tartaro (en ton nom propre et en celui de Giacomo Spinola et de Benedetto Castagna), Filippo de Stacione, Bartolomeo de Mari, Giacomino de Verduno, Ughetto Lomellino, Giacomo Rosso, et Diotisalve Bonaventura.

Pour cela nous promettons et nous nous accordons avec vous, les dits marchands, en votre nom propre et en celui des autres mentionnés plus haut, d'avoir la dite nef armée et prête, avec [les équipements suivants] : six voiles de coton, dont trois doivent être neuves, une voile de chanvre, neuf espars bons et solides, vingt-deux ancres, et vingt-cinq ancres pour le retour, vingt glènes de corde neuve en plus des autres cordes trempées, et dix glènes [de corde] avec balises, et tous les autres équipements et installations suffisants pour la dite nef, pour effectuer le dit voyage. Et avec cent marins, dont vingt doivent être des arbalétriers, et deux des capitaines [nauclerii] expérimentés. Et dans le nombre ne sont pas comptés les serviteurs ni les actionnaires, sauf le pilote en personne.

Et nous vous promettons, à vous marchands, en votre nom propre et en celui des personnes mentionnées plus haut, d'avoir la dite nef, armée et prête à quitter le port de Gênes avec les marins et tout ce qui a été précisé plus haut, et de commencer ce voyage au milieu de mars prochain, et d'aller avec la dite nef à Monaco ou à Antibes pour prendre la cargaison de la dite nef, et de reprendre le dit voyage de là afin de le mener à son terme [...]. Mais si nous apprenons que quelque expédition navale est organisée en Sicile ou une autre place - fasse le ciel que cela ne se produise pas ! - et si à cause de cela nous ne pouvons aller en sécurité avec la dite nef et vos marchandises à Acre, nous vous promettons d'aller avec la dite nef et vos marchandises à Tripoli, si vous, marchands

présents sur la dite nef ou la majorité d'entre vous le désirez, la majorité étant déterminée proportionnellement aux cargaisons embarquées [pro partie cantarate]. En outre nous vous promettons, à vous marchands en votre nom propre et en celui des personnes mentionnées plus haut, de ne pas admettre sur la dite nef, tant à l'aller qu'au retour, plus de cent pèlerins, parmi lesquels on ne doit pas trouver de femme ceci à la condition que nous n'autorisions pas les pèlerins à rester dans l'espace compris entre le mât central et la poupe de la dite nef. Et une fois la cargaison de la dite nef évaluée, [nous promettons] de prendre à bord de la dite nef un marchand pour chaque dizaine de cantares d'Acre de marchandises prises à bord de la nef, et à ne pas admettre de marchand sur la dite nef, à Gênes, à de meilleures conditions que n'importe lequel d'entre vous sans la permission et volonté de vous, ou de la majorité d'entre vous. Nous pouvons cependant prendre à bord jusqu'à deux cents balles entre les deux ponts de la dite nef pour le voyage outre-mer. Mais au retour des terres d'outre-mer à Gênes sur la dite nef nous promettons de ne prendre ou accepter sur la dite nef aucune marchandise entre les deux ponts, ni au départ ni dans aucun des ports que nous toucherons avec la dite nef durant le voyage de retour des terres d'outre-mer à Gênes.

Par ailleurs nous promettons et nous nous accordons avec vous, les dits marchands, en votre nom propre et en celui des personnes mentionnées plus haut, d'avoir la dite nef armée pour le milieu du mois de septembre prochain, et la tenir prête avec tout ce qui a été dit plus haut, dans les terres d'Acre ou en tout lieu où nous prendrons la cargaison, afin de mettre voile pour retourner à Gênes avec la cargaison de la dite nef [...].

Inversement nous, les dits marchands, en notre nom propre et en celui des personnes mentionnées plus haut, promettons, et nous nous accordons avec vous, les actionnaires mentionnés plus haut, d'embarquer sur la dite nef avec toutes nos marchandises et balles afin de commencer et mener à bien dans les délais prévus le dit voyage comme décrit plus haut [...]. Et nous promettons de vous donner et payer pour prix du fret onze besants sarracénats^(*) de Syrie par cantares^(**) d'Acre du total de ce que nous chargerons sur la dite nef [...].

Nous, les actionnaires, en notre nom et nous, les dits marchands, en notre nom propre et en celui des personnes mentionnées plus haut, promettons d'entreprendre et de respecter toutes les clauses susdites et de n'en violer aucune. Sinon nous promettons de payer une amende de mille livres de Gênes, chaque partie faisant cette promesse aux autres. Pour l'amende et pour être en mesure de l'acquitter, nous mettons en gage - chaque partie pour l'autre - tous nos biens

présents et futurs. Et nous tous actionnaires, sommes solidaires pour l'ensemble du dit montant mis en gage.

Fait à Gênes, dans l'église de Santa Maria délie Vigne, en l'an 1250, septième indiction, le 23 février, entre tierce et none. Témoins : Marino de Parma et Nicolino Guarnerio juge, et Tommasino Doria ».

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1)- E.H. Byrne (éd.), *Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries*.
Cambridge, Mass., 1930, pp. 85-88.

(*) - في المصنفين

(**) - فنظار مضاف - علما أنه في العصور الوسطى كانت كل دولة وإمارة لها وحدات الوزن والقياس الخاصة

بها

- حول نشاط مكتب (إدارة) القرصنة في جنوة⁽¹⁾

À PROPOS DE L'OFFICIUM ROBARIE

«La commune de Gênes a un office qui dans ce domaine s'oppose constamment à l'intérêt de Dieu et de la chrétienté et aux décisions de l'Eglise. Cet office s'appelle l'Office de la Piraterie. Il y a là un coffre, c'est-à-dire dans le palais de la commune de Gênes, avec trois serrures, sur lequel veillent trois agents. Quiconque, chrétien, juif ou sarrasin, d'où qu'il soit, sauf d'un pays actuellement en guerre avec Gênes, ou qu'il ait été lésé par un Génois, introduit personnellement ou par un représentant, dans le coffre susdit, sans être vu, une cedula² contenant sa plainte sur la spoliation qu'il a subie. Les préposés à cet office, astreints par serment, ouvrent à des dates fixes de l'année le coffre, lisent à fond les cedulae et convoquent aussitôt les spoliateurs qu'ils contraignent à rendre aux spoliés tout ce qu'ils ont dérobé. S'ils refusent de comparaître, leurs biens meubles sont saisis, on rend aux spoliés ce qui convient. [...] Cet office est si puissant et ses règles sont observées de façon tellement stricte qu'aucune dispense ne peut empêcher l'exécution (de ses décisions). Tous redoutent de saisir des ressortissants d'Alexandrie pensant devoir encourir par là la colère de leur commune, qui doit les contraindre à rendre (les biens saisis).

* خطاب أو منكره بخصوص شكوى

1)- Source : Mas Latrie, L'officium Robarie ou /l'office de la piraterie à Gênes au

Moyen Âge, Bibl. Ecole. des Chartes. T. LVI, pp. 270-272.

قرار المجلس الكنسي الرابع المنعقد بـ لاتران سنة 1215م ، الذي أقر الحرمان الكنسي على كل مسيحي يبيع سلعا ممنوعة للمسلمين، أو يتعامل معهم . (1)

Quatrième concile de Latran (1215)

«Nous excommunions également et décrétons d'anathème ces faux chrétiens, ces impies, adversaires du Christ en personne et du peuple chrétien, qui livrent aux Sarrasins des armes, du fer et du bois pour leurs galères; ceux qui leur vendent des galères ou des nefis, ceux qui pilotent les navires pirates des Sarrasins et travaillent aux machines; tous ceux quels qu'ils soient qui leur prêtent aide et conseil au préjudice de la Terre sainte; que leurs biens soient confisqués et eux-mêmes réduits en esclavage par ceux qui les capturent. Nous enjoignons de publier une telle sentence dans tous les ports chaque dimanche et chaque jour férié, et de fermer à ces pécheurs le sein de l'Église jusqu'à ce qu'ils aient restitué intégralement les richesses condamnables ainsi acquises, et assigné à l'aide de la Terre sainte une somme équivalente sur leur propre fortune: ainsi, en toute équité, leur faute recevra le châtement adéquat».

1)- Présenté et traduit par R. Foreville, dans G. Dumeige : Histoire des conciles
(Ecuméniques TIV,,Paris, L'Orante. 1965, p. 221

جدول خاص بأوزان ومقاييس جنوه Genoa

ملاحظة: تقريبا كل المراكز التجارية الكبيرة، بحوض البحر الأبيض المتوسط لها نظام بالأوزان والمقاييس Poids et Mesures خاص بها.⁽¹⁾

- جنوة تستعمل نظامين Deux Systemes للوزن و . الليرة Lira والقنطار Cantaro
- الليرة : تعد الوحدة الأساسية للوزن. وزنها 317.66 غ , وتستعمل في وزن جميع التوابل الخفيفة، إلى جانب الحرير والزعفران Tutte espezerie sottile seta ezaferanno
- القنطار : وزنه 47.6 كلف. مخصص لوزن المواد الثقيلة، والكبيرة الحجم ، مثل الحديد - الصوف وبعض المواد الغذائية .
- الاوقية Once : تستعمل لوزن الذهب و الفضة و الأحجار الكريمة وبعض السلع مثل العنبر . المسك .
- البرميل baril : يستعمل لوزن الزيت، يزن 47.6 كلف يساوي حوالي 8 روف (كروقة تساوي حوالي 8 كلف) Rove
- الميزارولة Mezarella وهي وحدة، كذلك، لوزن السوائل، مثل الخمر والزيت والعسل تساوي 95,3 كلف. أو 0,2 برميل 02 barils
Mina – (المين)، الوحدة المستعملة في وزن الحبوب والملح، سعتها تساوي 105 ليرة Lira , أو 82 كلف. ولأن جنوة لا تنتج حبوبا، وهي تعتمد في كل حاجياتها منها على استورده من الخارج، فهي لذلك تستعمل عادة الأوزان الأجنبية مثلا.
1Mina جنوبية – 116 فيفاز Caffise اسبيلني.
- Balla (بالة) وتسمى كذلك «Pondi» تستعمل في الملايا والأقمشة وتساوي 90 كلف

01 Pondi = 90 كلغ.
وهناك وحدات أخرى للوزن منها:
- Caisse (صندوق) تستعمل لوزن السكر وتساوي 64 كلغ.
- Sac (كيس) ويستعمل لحمل عدة أنواع، منها:
Sac (كيس) القطن يساوي 95 كلغ.
Sac (كيس) الصوف يساوي 157,5 كلغ.
Sac (النيلة) L'indigo يساوي 110 كلغ.
- حمل Fardeau الحرير يساوي 80 كلغ.
* وحدات قياس الطول:
- Palma (قدم) تساوي ما بين 25 و 30 سم
- Canna (عصا) تساوي 12 Palma أي حوالي 3 م. ²

(1) - هذه الأوزان والمقاييس النقيده من عدة مصادر:

Pegolotti : la pratica della mercatura, p85, 237,300, 307, 308, 357

,Rocca,P : « Pese e Misure antich di Geuova e del Genovese ato », Genes, 1871
p9, 18, 23, 53

Heers. J: le livre des comptes de Giovanni piccamiglio. Homme d'affaire -
.Génois (1456- 1459). Paris, 1959- p11-12

*** أوزان + مكاييل + مقاييس الدولة الحفصية

الأوزان

أداة الوزن	تقديره	ملاحظة
- الأوقية	31.48 غرام	- تعد الوحدة العادية للوزن
- المتقال	4,72 غرام	- عرفوا به عملتهم الذهبية "الدينار" أو "الدبلون"
- الدرهم	1,50 غرام	- متذبذب الأوزان، بين 1,49 ، 1,5 ، 1,75 . لكن الغالب عليه 1.50 غرام .
- القنطار	مئة رطل أي 50,4 كغ	- لكن فيما يخص بعض المواد مثل

المكاييل

أداة الكيل	تقديرها	ملاحظة
- القفيز	187,58 لتر	- يتجزأ إلى ستة عشر (16) وية
- الوية	11,72 لتر	- تتجزأ بدورها إلى اثنا عشر مداً (12) أو صاعاً
- المد أو الصاع	0.98 لتر	ملاحظة : مختلف هذه
- الجدة	03 أمتار	المكاييل خاصة بالمدن .
- المزبولة (وحدة مستعملة لكليل الخمر)	إلى حوالي 50 لتر حوالي 50 لتراً	

وحدات القياس

وحدة القياس	تقديره	
- الذراع	0.48 مترا	ليست معلومة عند الحفصيين لكن الذراع العربي = 0.48 مترا - يساوي 3 قبض = أي نصف الذراع - يساوي أربعة أصبع - يساوي 1.45 م
- السبتر	0.24 متر	
- القبضة	0.08 مترا	
- الخطوة	3 أذرع	
- الميل	1000 خطوة	

(1) - المقنيسي : كتاب أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص 241
- ر، يرونشفيك: ج 11، ص 259 - 264.

قائمة بقناصل جمهورية جنوة الذين تم تعيينهم لمنصب القنصلية لدى السلطنة

الحفصية خلال القرن الخامس عشر الميلادي⁽¹⁾.

- I. Battista Imperiale, 15. 11. 1404.
- II. Gherardo Gentile, 20.12. 1425-24.V.1427.
- III. Nicolo Bracelli, 17.5.1427-1428.
- IV. Antonio de Zignago, 10.12.1428-Settembre 1432.
- V. Andrea de Mari, 14.9.1432-1434.
- VI. Andrea de Mari, 9.2.1435-1439.
- VII. Bernabo de Columpnis Scoto, 10.4.1439, partito 13.1.1440-1442.
- VIII. Melchiorre Campofregoso, 26.2.1442-Juin 1443.
- IX. Cipriano de Mari, 17.5.1443- Decembre 1445...
- X. Zaccaria Spinola....1446.....
- XI. Segurano Imperiale...1446-1447.
- XII. Silvestro de Noxeto, 21.6.1447.
- XIII. Domenico Marabotto, ante luglio 1447.
- XIV. Lacopo Cicero, 28.7. 1447.
- XV. Giannotto Salvago ...fevrier, 1448...
- XVI. Pellegro de Negro ...Juillet- decembre 1449...
- XVII. Climente Cicero ...mars 1450 – Decembre 1451....
- XVIII. Bernardo Imperiale, mars 1452. Destitué 27.2.1454.
- XIX. Simone Calvo, élu 27.3.1454 (ma ancora a Genova il 20.5.1454)- 4.10.1456.
- XX. Costantino de Marini, par interim il 20.5.1454.
- XXI. Galeotto Grimaldi, 4.10.1456- Juillet 1458...
- XXII. Segurano Imperiale, ad interim, in attesa di Galeotto.
- XXIII. Baldassare Doria, 13.7.1458- avril 1459.
- XXIV. Giovanni Battista Grimaldi, 1.5.1459- octobre 1460...
- XXV. Gioffredo Lercari, 1.9.1459.
- XXVI. Tilippo de Negro...11.6.1463-3.1.1464.
- XXVII. Giovanni di Levanto....1466-1468.....
- XXVIII. Giovan Francesco, Grillo, 20.10.1468.

- XXIX. Olivieri de Negro.....25.5.1469-20-12-1471....
 XXX. Baliano de Forani....ottobre 1472
 XXXI. Raffaele Grimaldi...12.V7.1473-23.12.1478.
 XXXII. Francesco Doria- 11.11.1479-1.10-1481.
 XXXIII. Teodoro Spinola1481-Mars 1485...
 XXXIV. Francesco Panigazola.....13.5.1488-Septembre 1490.
 XXXV. Battista Grimaldi.....Septembre 1490.Fevrier. 1492.....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- (1)- ابن أبي الدينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق، محمد شمام، المكتبة العتيقة، الرباط، ط 3، 1967.
- (2)- ابن أبي الزرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973
- (3)- ابن الأبار القضاعي : التكملة لكتاب الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1989
- (4)- ابن الأثير، عز الدين الجزري : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 6، د.ت
- (5)- ابن أبيك، ابو بكر بن عبدالله : تحفة نوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء و الملوك و النواب، القسم الثاني، تحقيق إحسان بنت سعيد خكوصي، زهير حمدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق 1992
- (6)- ابن الأحمر إسماعيل : روضة النسر في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 1، المطبعة الملكية - الرباط [1991].
- (7)- ابن آياس، أبو البركات: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1980.

(8) -ابن بسام الشنتيري: - الذخيرة في محاسن الجزيرة، قسم 4، ج7، 8 تحقيق إحسان

عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000.

(9)-ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب

الأمصار و عجائب الأسفار، ج2، القاهرة 1937

(10)- ابن حيان القرطبي : المقتبس في بلد الأندلس. تحقيق عبد الرحمان الحجى، نشر

وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ج4،

(11)- ابن حوقل النصيبى: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

(12)-ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم

والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 أجزاء.

ط. بولاق 1299 هـ / 1867 م،

(13)----- : مقدمة ابن خلدون ،تحقيق درويش الجويدي،المكتبة العصرية

صيدا، بيروت، ط2، 1996

(14)-ابن الخطيب لسان الدين: أعمال الأعلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق ليفي

بروفنسال ،دارالمكشوف ،بيروت لبنان طبعة 1956،

(15)----- : شرح رقم الحلل في نظم الدول ،إعداد و تعليق عدنان درويش

دمشق 1990

(16)----- :اللحمة البدرية في الدولة النصرية ،منشورات دار الثقافة الجديدة ،

(17)-ابن رسته : الأعلام النفيسة ،تحقيق de Goeje مدينة ليدن 1891

(18)- ابن الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق، عبد الله المعلي الزيدان،

عز الدين أحمد موسى، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990.

(19)-ابن زغلول: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ،تصحيح الطاهر

أحمد الزاوي الطرابلسي ،مكتبة النور طرابلس

(20)-ابن العبري(اغريغوريوس المالطي) : تاريخ مختصر الدول، ط . بيروت، المطبعة

الكاثوليكية، لأباء اليسوعيين بيروت/ 1958 م.

(22)-----: كتاب تاريخ الزمان ،نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة ،دار

الشرق 1986

(23)- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق

ومراجعة، ج. س. كولان، إ. ليفي. بروفنسال دار الثقافة،

بيروت، ط 3، 1983

(24)-ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط . بيروت بدون تاريخ،

6 أجزاء

(25)-ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز

الخويطر، الرياض 1976 م

(26)- ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات

الجامعية، الجزائر، ط 2، 1982.

(27)- ابن شاهين الظاهري : زبده كشف الممالك و بيان الطرق والمسالك ،اعتنى

بتصحيحه بولس روايس ،دار الغرب اللبناي 1988/1989 /القاهرة

(28)- ابن شداد الحلبي: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ت، سامي

الدهان، جزاءن، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق 1962

(29)- ابن الشماخ، أبو عبد الله محمد : الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ،تحقيق

.د.الظاهر بن محمد المعموري،الدار العربية للكتاب 1984 .

(30)- ابن الفرات، ناصر الدين محمد : تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الأمم والمنوك.

تحقيق قسطنطين زريق، و نجلاء عز الدين، ط. بيروت، 1942

(31)- ابن فضل الله العمري: وصف إفريقية والأندلس وأوسط القرن الثامن للهجرة من

كاتب "مسالك الأبصار" نشر وتعليق، حسن حسني عبد الوهاب.

مطبعة النهضة، تونس، 1965.

(32)- ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان ،تحقيق م.دي.خويه ،مدينة ليدن ،

ط2، 1886

(33)- ابن القطان المراكشي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ،تحقيق

الدكتور محمود علي مكي ،دار الغرب الإسلامي بيروت 1990

- (34)- ابن القلانسي التميمي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمدرور « Amedroz » مع مقدمة بالإنجليزية، طبعة بيروت 1908.
- (35)- ابن القنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي، الدار التونسية للنشر، 1968
- (36)- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك: قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء تحقيق العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد 2، 1965/1966م
- (37)- ابن منقذ الشيرازي: كتاب الاعتبار أو حياة أسامة بن منقذ، تحقيق ونشر فيليب حتى، جامعة برنستون (الولايات المتحدة الأمريكية) 1930 م.
- (38)- ابن الوردي، بن أبي الفوارس: تنمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، الجزء الثاني، المطبعة الخيدرية 1969
- (39)- أبو زكرياء يحي بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984
- (40)- أبو زكرياء يحي ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق، عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980.
- (41)- أبو المحاسن بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16 جزء، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1929 - 1943.

(42)-أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء

- جزءان القاهرة

(43)- الأدريسي، الشريف: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،

ترجمة محمد الحاج صادق U. P.O 1983.

(44)- إدريس عماد الدين القرشي: تاريخ الخلفاء الفاطميين، من كتاب عيون الأخبار،

تحقيق، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985.

(45)-:-----: تاريخ الدولة الفاطمية من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل

الأئمة الأطهار، نشر، فريحات الدشراوي، مطبعة الإتحاد العام التونسي

للشغل، تونس، 1981.

(46)- إسحاق ابن حسن الزيات : ذكر الأقاليم ،تحقيق Francisco castello ،الطبعة

.Barcelona.1989

(47)- الإصطرخي أبو القاسم إبراهيم : المسالك والممالك، طبع بمدينة لندن 1870

(48)-الأصفهاني، عماد الدين: تاريخ دولة آل سلجوق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت

(49)-الأنطاكي يحيى: تاريخ الأنطاكي المعروف بتاريخ أوتيا، تحقيق عمر عبد السلام

تدمري جروس برس ، طرابلس ،لبنان ،1990.

(50)- أماري ميخائيل: المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم

والمراجع، مكتبة المثنى، بغداد، 1857.

(51)-بنيامين التطلّي: رحلة بنيامين، مترجم بغداد 1945

(52)- البرزلي التونسي: فتاوي البرزلي. تحقيق د. الطاهر المعموري،

الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ

(53)-البكري الأندلسي: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب،

طبعة، Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris 1965

(54)- البيدق الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت و ابتداء دولة الموحدين، تحقيق ليفي

بروفونسال paris 1920

(55)-التيجاني عبد الله : رحلة التيجاني ،قدم له حسن حسني عبد الوهاب .الدار العربية

للكتاب، ليبيا، تونس ،ط1981

(56)-الجاحظ البصري : كتاب التبصرة بالتجارة ،عين بشره و تصحيحه والتعليق عليه

حسن عبد الوهاب،دمشق 1932

(57)-الحميري، محمد عبد المنعم : الروض المعطار في خير الأقطار ،تحقيق إحسان

عباس ،مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980

(58)-الحسن الوزان: وصف إفريقي ،مترجم ،دار الغرب الإسلام بيروت 1983

(59)-الحسيني، أبي الفوارس: أخبار الدولة السلجوقية المسمى زبد التواريخ في أخبار

الملوك والأمراء السلجوقية، اعتنى بتصحيحه محمد أقبال،

نشریات كلية فنجان بلهور 1933 م.

- (60)-الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، ط1983.
- (61)-الداعي إدريس: تاريخ الحلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب تاريخ عيون الأخبار، تحقيق محمد العيلاوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1 1985.
- (62)-الذهبي، الحافظ الدمشقي: كتاب دول الإسلام. إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر 1988.
- (63)-الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية تحقيق محمد ماضور، تونس. 1966 .
- (64)- الزهري، أبي بكر عبد الله بن محمد: كتاب الجغرافية. تحقيق، محمد الحاج الصادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت
- (65)-سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق مسفر بن سالم بن إبراهيم البغدادي، المملكة العربية السعودية، 1408هـ، 1987م
- (66)-الصنهاجي، أبي عبدالله محمد: أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، تحقيق جلول أحمد الجزائر 1980. ENAL
- (67)-صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ،تحقيق فرنسيس هويس اليسوعي كمال سليمان الصليبي ،دار المشرق ببيروت 1969.
- (68)-عبد الله التتيسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ،مقتطف من نظم الذر و العقيان في

بيان شرف بني زيان ،تحقيق محمود بو عياد 1985 ENAL

(69)-عبد الباسط المالطي: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين، تحقيق محمد

كمال الدين ،ط1 1987 .

(70)-العبدري، ابي عبد الله محمد-اليمني :الرحلة المسماة رحلة المغرب ،تحقيق محمد

الفاسي ،الرباط 1968

(71)-عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين و الموحيدين ،تحقيق حسين مؤنس ،ط1 ،

الناشر دار الثقافة الدينية ، القاهرة، 1997

(72)-- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد زينهم

محمد عزب، دار الفرجاني للنشر و التوزيع ، القاهرة .1994

(73)-العمرى ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، نشر أحمد زكي باشا،

ج1، (ط، دار الكتب المصرية القاهرة 1344 هـ / 1924 م).

(74)-العلائي، إبراهيم بن محمد : الجواهر الثمين في سير الخلفاء و الملوك و السلاطين،

تحقيق يسوع عاشور ،مراجعة أحمد السيد دراج ،المطبعة

المملكة العربية السعودية ،جامعة أم القرى

(75)-الغبريني، ابو العباس: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة

ببجاية ،حققه عادل نويهض ،منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت 1979

(76)- الغرناطي أبو حامد : تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ،قام بنشر النص العربي في

(77)-القلقشندى أبو العباس: كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق، نبيل

خالد الطيب، ج 5، دار الكتب المحلية، بيروت، 1987.

(78)--المازري : فتاوى المازري، تحقيق: الطاهر العمودي، الدار التونسية للنشر

(79)- مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد

المغرب، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة

الإسكندرية، 1958.

(80)- مجهول: العيون و الحقائق في أخبار الحقائق كتاب في التاريخ، تحقيق عمر

السعيدى، الطبعة 1972

(81)- المقدسين شمس الدين أبو عبد الله : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق

دي.خويه. لينن، 1992.

(82)-محمود مقيدش : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار، تحقيق علي

الزوارى محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامى، ط1، 1988، المجلد 1

(83)-المقريزي، تقي الدين أبو العباس: المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف بالخطط المقرئية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1987.

(84)-----: إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: ج 1 نشر جمال الدين

الشيال، القاهرة 1367 هـ / 1938 م، ج 2 - 3 نشر محمد حلمي أحمد،

القاهرة 1971 ، 1973 م.

(85)-المقري، التلمساني : نفح الطيب في غضن الأندلسي الرطيب منشورات وزارة

الثقافة 1990.

(86)-ناصر خسرو: سفر نامه، مترجم، دار الكتاب الجديدة بيروت، ط1970

(87)- النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب،

تحقيق، عزيز سريال عطية، مج 20، 24، 26 ، طبع بالهند 1920

(88)-الونشريسي، أبي العباس أحمد : عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع و

الفروق، تحقيق حمزة أبو فارس، ط1، دار الغرب

الإسلامي بيروت 1990

(89)-----: المعيار أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد صبحي ، ج 1، 2، 8

دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981

(90)-ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الصادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة

والنشر، بيروت، 1984.

(91)- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب : كتاب البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، 1987.

ثانيا- المراجع العربية والمعرية:

- (1)- أباطة فاروق : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الإسكندرية 1988
- (2)-إبراهيم حركات : النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع هجري ، طبع بإفريقيا الشرق 1996
- (3)-أحمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوروبية (مصر الإسلامية)،أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ،مارس - أبريل 1969 .
ج1،مطبعة دار الكتب
- (4) - -----: الممالك و الفرج في القرن 9هـ /15م. القاهرة 1961.
- (5)-أحمد عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1983..
- (6)-أبو الأعلى المدودي : حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية. نشر دار الفكر
- (7)-إحسان عباس : العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب، دار المعارف 1956 .
- (8) إسماعيل العربي: دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
- (9)-إسحاق عبيد: الإمبراطورية البيزنطية في عهد باليولوقوس 1261-1282. بيروت
- (10)-أشباح يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين .ج2،1، ط2، مترجم، مكتبة الخانجي القاهرة 1996

(11)- أرشيبالد. ر. لويس: القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة

أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، مؤسسة فرنكلين للطباعة،

نيويورك، القاهرة،

(12)- إسحاق عبيد: الإمبراطورية البيزنطية في عهد باليولوقوس 1261-1282،

ط بيروت

(13)- إسمنت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة و مسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار

المعارف 1982

(14)- ألكيسي جيورافيكسي: الإسلام و المسيحية، تعريب خلف محمد الجراد، سلسلة عالم

المعرفة، الكويت 1991.

(15)- أنطوني بريدج: تاريخ الحروب الصليبية، مترجم، دار قتيبة للطباعة و النشر 1985

(16)- بالارم: الحملات الصليبية و الشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى الرابع

عشر، مترجم عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية. ط1، 2002

(17)- جواتيان: دراسات في التاريخ الإسلامي و النظم الإسلامية، تحقيق، عطية

القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.

(18)- جونثان راسل سميث: تاريخ الحروب الصليبية، مترجم، 1991، دار المعارف

(19)- جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط

خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين 10/9م، ديوان

(20)- جوزيف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور

الوسطى الإسكندرية 1988

(21)- جوزيف رينو: الفتوحات الإسلامية في فرنسا و إيطاليا و سويسرا في القرون الثامن

و التاسع و العاشر الميلادي ، تعريب اسماعيل العربي ، opu.الجزائر 1984.

(22)- جوليان ش.أ : تاريخ إفريقيا الشمالية ، ج2، تعريب محمد مزالي البشير بن سلامي،

الدار التونسية للنشر 1978.

(23)- جيبون إدوارد :اضمحلال الإمبراطورية الرومانية و سقوطها ،ثلاثة أجزاء. ط2.

الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997.

(24)- الحبيب الجنحاني: الصراع الفاطمي الأموي في المغرب خلال القرن الرابع هجري

(الكراسات التونسية) العدد 103 / 104 ، 1987.

(25)- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد

المغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958.

(26)- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

(27)- حسن حسني عبد الوهاب: قصة جزيرة صقلية (المجلة التاريخية المصرية)

المجلد الثاني، العدد2، 1949.

(28)- حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس عصر الموحدين و

المرابطين مكتبة الخانجي القاهرة ، ط2، 1980 .

(29)- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، دار العصر الحديث للنشر والتوزيع،

بيروت، 1992

(30)-----: أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية و الاقتصادية و

الاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية ط1991. دائرة المعارف

الإسلامية، مجلد 5، العدد9.

(31)- الدشرأوي فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب (269 - 365 هـ / 900 - 975 م)

التاريخ السياسي والمؤسسات، ترجمة، حمادي الساحلي. دار

الغرب الإسلامي. بيروت، 1994.

(33)- ديل شارل : البندقية جمهورية أرستقراطية تعريب أحمد عزت عبد الكريم و توفيق

إسكندر، القاهرة 1948

(34)- روبار بروشفيك : تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15 م ،

جزءان ،تعريب حمادي الساحلي ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، ط1. 1988

(35)- روبرت.س.لوبيز: التأثيرات الشرقية و النهضة الأوروبية في الغرب ، مترجم

،ضمن كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي ،إشراف توفيق إسكندر ،القاهرة 1961.

(36)- السيد الباز ألعريني : الحضارة و النظم الأوروبية في العصور الوسطى،

القاهرة 1963 .

(37)-سامية عامر: الصليبيون في شمال إفريقيا، حملة لويس التاسع على تونس 1270 م،

ط1، القاهرة 2002

(38)-سهيل زكار : مدخل تاريخ الحروب الصليبية دراسة تتناول قيام الإمبراطورية

السلجوقية و أحوال الشام و الجزيرة عشية الغزو الصليبي، دار الفكر

ط2، 1973

(39)-سيد يول، أ.أ: تاريخ العرب العام حضارتهم، مدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية

ترجمة عبد الله علي الشيخ، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 2002

(40)-- السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر

والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

(41) - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب

الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، د.ت.

(42)-سريال عزيز عطية : العلاقات التجارية بين الشرق والغرب وخاصة في العصور

الوسطى ط 1، دار الثقافة 1972.

(43)- سلفاتور بونو: العلاقات الجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط .

ترجمة عمر محمد الباروني، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، يوليو

1986، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي

(43)-شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا وإيطاليا وجزائر البحر

- (44)-صبحي لبيب : الفندق ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية من كتاب مصر و عالم البحر المتوسط إعداد و تقديم د.رؤوف عباس ،دار الفكر للدراسات و التوزيع ،القاهرة .ط، 1986.
- (45)-الطالبي محمد: الدولة الأغلبية- التاريخ السياسي(148- 296 هـ/ 800-909 م)، تعريب المنجي الصيادي، مراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1995.
- (46)-الطحاوي حاتم : بيزنطة و المدن الإيطالية العلاقات التجارية (1081-1204 م)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية. 1998
- (47)-العبادي م.و عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، الجزء الثاني. الإسكندرية.
- (48)- عبد المجيد مزيان: النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، دراسة فلسفية واجتماعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2، 1988.
- (49)-عطا الله دهبنة : العلاقة التجارية بين المغرب و السودان عبر الصحراء من القرن 6هـ إلى القرن 8هـ و دور تلمسان في هذا الميدان ، (مجلة الأصالة) عدد جويلية، أوت 1975.

(50)-عبادة كحيلة: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ط1، المطبعة الإسلامية الحديثة

-القاهرة 1418 هـ/1998م.

(51)-عنان عبد الله: دول الطوائف في الأندلس منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة

الخانجي، القاهرة، ط3، 1988.

(52)-ج.العروسي المطوي: السلطة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب

الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1968

(53)-عز الدين عمر أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1،

1983، دار الشروق

(54)-س.ع. عاشور: الحركة الصليبية، جز 1، الناشر مكتبة لأنجلو المصرية، ط

2002

(55)-----: بعض الأضواء على العلاقات بين بيزة و تونس في عصر

الحروب الصليبية، مجلة الآداب، جامعة القاهرة، مج27، 1965-66

(56)-----: العصر المماليكي في مصر و الشام، القاهرة 1965

(57)-عصام سالم: جزر الأندلس المنسية، دار العلم للملايين، ط1، 1984

(58)-فيلاي عبد العزيز: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول

المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

(59)-فيت، ج: المواصلات في مصر الإسلامية (مجلة المقتطف) 1937

(60)-فيشر، هـ، ل: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، مترجم، ج1، دار المعرفة مصر

- (61)- فيليب حتى : تاريخ العرب ،مطول ،مترجم ،ط4 ،1965
- (62)- الكنانى حسن مصطفى: العلاقات بين جنوة و الفواطم في الشرق الإسلامى
1181/1088 ، 567/488هـ، الإسكندرية 1981.
- (63) - ----- :حملة لويس التاسع على الصليبيين على تونس 1270م
668-669هـ، الإسكندرية 1985.
- (64) - كاهن كلود: تاريخ الشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية
العثمانية، ترجمة، بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، ط 3، 1983.
- (65) ------: تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين و الأيوبيين، ملخص، أبحاث
الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .ج2
- (66)- كولتون ،ج،ج: عالم العصور الوسطى في النظم و الحضارة ،مترجم ،
الإسكندرية 1983
- (67)- كونستبل .ر.ا : التجارة و التجار في الأندلس ،تعريب فيصل عبد الله ،مكتبة
العبيكان 2002
- (68)- كيليليا ساليروني : مجاهد العامري قائد الأسطول العربى غرب المتوسط في القرن
الخامس هجري، ط1 القاهرة 1961
- (69)- لمبارد موريس: الإسلام في مجده الأول / القرن 8 - 11م (2 - 5هـ) ترجمة
وتعليق، إسماعيل العربى . المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1979

(70)-متر آدم : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ،أو عصر النهضة في

الإسلام ،جزءان، مترجم، دار الكتاب العربي بيروت

(71)-محمود مكي : تاريخ الأندلس السياسي (92هـ/897هـ)-(1492/711) من كتاب

الحضارة الإسلامية في الأندلس، الجزء الأول،مركز دراسات الوحدة العربية

(72)-موسى س: ميلاد العصور الوسطى،مترجم ،مطابع الهيئة المصرية للكتاب 1998

(73)-ميغال دي ايبالزا : بين التعصب والإسلامية أو الإسلام من خلال بعض الشخصيات

في العالم المسيحي الملتقى الثامن للفكر الإسلامي.بجاية ،المجلد 3 ،مطبعة

البعث.قسنطينة 1976

(74)- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد: الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى.

مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.

(75)- نجاه باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن

للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976.

(76)-نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أو اخر

العصور الوسطى) ، القاهرة 1973.

(77)-نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ،ج1،دار الفكر،دمشق 1982.

(78)-نيكيتا إليتشيف: المشرق الإسلامي في العصر الوسيط،مترجم ،مؤسسة دار الكتاب

بيروت 1986

(79)-م. هيسي: العالم البيزنطي، مترجم، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و

الاجتماعية، ط1997.

(80)- وات مونتمغري: الفكر السياسي الإسلامي "المفاهيم الأساسية"، ترجمة صبحي

حديدي، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت 1981.

(81)-----: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، ط1، دار

الشروق 1983

(82)-هايد.ح: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، 4ج، مترجم، الهيئة

المصرية العامة للكتاب 1994.

(83)-وول ديورنت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بنيران المجلدين 15/17، 16/18، دار

الجيل للطبع و النشر و التوزيع بيروت.

(84)-يوشع براور: عالم الصليبيين، مترجم، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و

الاجتماعية، ط1، 1999 .

- 1- Abulafia,D.: The Western Mediterranean kingdoms. 1200-1500,
Londres. 1997
- 2-----: Italy. Sicily and the Mediterranean. 1100-1400. Variorum
Reprints. Londres. 1987 (recueil d'articles).
- 3- ----- : "L'attività commerciale genovese nell Africa normanna :
la città di Tripoli", Atti del Convegno Internazionale di Studi
Sicilia Normanna. Palermo. 1973, p. 1-8 (repris in
Commerce und Conquest in the Mediterranean. 1100-1500.
Variorum Reprints. Aldershot. 1993
- 4- -----, "The role of trade in Muslim-Christian contact during the
Middle Ages", The Arab Influence in Medieval Europe.
Folia Mediterranea Scholastica. D. A. Agius et B. Hitchcock
(éd.). Ithaca. 1994. p. 124.
- 5- Ahabab (Jamal): La piraterie en Irîqiyâ aux trois derniers siècles du Moyen
âge (XIIIe-XVe siècle). Mémoire de maîtrise, sous la direction de
Françoise Michau, Université Paris-1, 1997-1998.
- 6- Airal di, G: "Da Genova al Maghreb nel Basso Medioevo". Italia e Algeria.
Aspetti storici di un'amicizia mediterranea, dir. Romain H.
Rainero. Milan. 1982. PP, 69- 80.
- 7- Alphonse & Upton, Le Chrétienté et l'idée des croisades, Paris 1954
- 8- Amari,D : storia di musulmani di sicilia . 3T 1872.
- 9-----: Nuova ricordi arabi su la storia di Genova, (Atti della società
ligure di storia patria),V, fasc IV,1873
- 10- Ashtor,E.. "Aperçus sur les Rhadanites". (Revue suisse d'histoire).
27 ,1977.(repris dans Studies on Levantine Trade in the

- 11- ----- : "Quelques observations d'un orientaliste sur la thèse de Pirenne".(JESHO), 13, 1970, pp. 166-194,
- 12- Attiya (A.S.): Crusades, commerce and culture, New York 1961
- 13- Aube, P : Les empires normands d'Orient. Hachette Pluriel. Paris. 1991.
- 14-Archibald, Lewis: European Naval and maritime History 300-1500. Indiana University press. 1985.
- 15- Bach (Erik): La Cité de Gênes au XIIe siècle. Copenhague, 1955.
- 16----- : Etudes génoises ; le minutier de Lanfranco". Studi in onore Di Amando Saporì, I, Milan. 1957. pp. 375-389.
- 17- Balard, M : «Gênes et le Maghreb au XVe siècle". In L'occident Musulman et l'Occident chrétien au Moyen Age, Rabat, 1996, pp. 91-106.
- 18----- : La Romanie génoise (XII'-début du XV siècle .Paris,-Rome 1979.
- 19----- : "Les Génois en Romanie entre 1204 et 1261. Recherches dans les Minutiers notariaux génois". Mélanges d'Archeologie Et d'Histoire. LXXVIII.1966. p. 467-502.
- 20- ----- : "Les républiques maritimes et le commerce en. Syrie Palestine XIII^e siècles".(Anuario de Estudios médiévales). 24.1994. p. 313-347.
- 21- -----: "Notes sur le commerce génois en Tunisie au XIII^e siècle". (Cahiers de Tunisie). N^o 155-56, p. 369-386.
- 22- Balard, M. et Ducellier, A. (éd.). État et colonisation au Moyen Âge. Ed,La Manufacture. Lyon, 1989.
- 23- Balard: M. et Ducellier.A. (éd.): Coloniser au Moyen Âge. Armand Colin. Paris, 1995.
- 24- Balard M. et Ducellier A. (éd.) : Le partage du monde. Echanges et Colonisation In, la Méditerranée médiévale. Publication de la Sorbonne.Paris. 1998.
- 25- Bellotto,L : "Tra Genovesi e musulmani nel XII secolo". Le Maghreb et

la mer à travers l'histoire (éd. M.-T. Mansouri). Mesogeios.1.2000,
p. 153-183.

- 26 ----- : « Gènes et le Maghreb au XVS. »In, l'occident
Musulman et l'occident chrétiens au moyen age.
Rabat, 1996 p 91-107
- 27- Barrucand, M. (éd.). L'Egypte fatimide. Son art et son histoire.
Presses Universitaires de la Sorbonne. Paris. 1999.
- 28- Bautier R.H : "Les grands problèmes politiques et économiques de la
Méditerranée médiévale". Revue historique, 1965. p. 1-28.
- 29----- : "Les relations économiques des Occidentaux avec les pays
d'orient au Moyen Age. Point de vue et documents". Sociétés et
compagnies de commerce en Orient et dans l'océan Indien, VIII^e
Colloque d'histoire maritime Beyrouth, 1966, p. 263-331 (repris dans
Commerce méditerranéen et banquier italiens au Moyen Âge,
Variorum Reprints, Bromfield. 1992).
- 30- ----- "Notes sur les sources de l'histoire économique médiévale
In, les archives de Toscane". Mélanges d'archéologie et d'histoire.58.
1941 .pp.291 -306
- 31-----"Sources pour l'histoire du commerce maritime en
Méditerranée du XI^e au XV^e siècle". Les Sources de l'histoire
maritime en Europe du Moyen Age au XVIII^e siècle, actes du IV^e
Colloque international d'histoire maritime. Paris. 20 - 23 mai 1959, dir.
Michel Mollat. Paris. 1962. pp. 137- 179.. 1956. 2vol.
- 32- Bourouiba, R : Les Hammadites, Alger. 1984.
- 33- Bovill,E.W,: The Golden trade of the moors,2Ed, Oxford, 1970
- 34- Bratianu, G,T : Etudes byzantine d'histoire économique et sociale.
paris 1930
- 35- Brehier,L : la civilisation byzantine ,ed,Albin Michel 1970.
- 36- ----- : vie et mort de Byzance – ed Albin Michel, paris 1947
- 37- Bragadin, M.A : histoire des république maritimes Italiennes au moyen

- 38- Bresc Henri: "Course et piraterie en Sicile (1250-1450)".(A.E.M.). 10, 1980, PP 751-765.
- 39-----: "Le royaume normand d'Afrique et l'archevêché de Mahdiyya".
Le partage du Monde. Publications de la Sorbonne. Pans. 1998.
p. 347-366.
- 40-----: Politique et société en Sicile, \7/^l-.v^{ti} siècles. Variorum
Reprints. Londres. 1990
- 41-----: Un monde Mediterranen Economie et société en Sicile 1350-1450.
Palerme, 1986.
- 42- BRETT M: "Ifriqiya as a market for Saharian trade". (Journal of African
History). III.1969, p347-364.
- 43- -----: "Muslim justice under infidel rule. The Norman in Ifriqiya
(517-55H/1123-1160AD)". (Les Cahiers de Tunisie).
XXXIII. 155-156,1^{re} et 2^e trimestres. 1991.p325-367.
- 44- Byrne E.-H.. "Commercial contracts of the Genoese in the Syrian trade
of the XIII century". In. (The Quarterly Journal of Economic).
XXXI. P.128-170.
- 45- -----: Genoese shipping in the twelfth and thirteen centuries,
Cambridge (Mass.). 1930.
- 46-----"Genoese trade with Syria in the twelfth century", (American
Historical review), 25/2, 1920, pp. 191-219.
- 47-----: "Commercial contracts of the Genoese in Syrian trades of the
12th Century", (Journal of the Economic)., Vol. XI II (1916-1917).
- 48- Bury J.B.: History of the Eastern Roman Empire. London 1912.
- 49- Caffaro de caschifelone : delebiratune ciusaturn orientis (R.H.C) H.occ.
TV,1844-1895
- 50- Cahen C: "Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de l'Egypte
médiévale". JESHO, 7, 1964. pp. 217-314. rééd. Makhazumiyyat,
Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale.

Leyde. 1967.

- 51----- : "L'alun avant Phocée", (Revue d'histoire économique et sociale)
pp.433-447.
- 52-----"L'histoire économique de l'Orient musulman médiéval". (Studia
islamica). 3, 1955, pp. 93-115, rééd. Les peuples musulmans,
pp. 209-229...Spolète.1978.PP. 299-319.
- 53----- : "Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman
à la fin du Moyen âge", Studies in the économie history of the Middle
East. dir. M.A. Cook. Londres. 1967, pp. 31-36, rééd. Les Peuples
Musulmans, pp. 359-366.
- 54----- : "Quelques problèmes concernant l'expansion économique
musulmane au haut Moyen-Age", L'Occidente e l'Islam
nell'alto Medio Evo. Settimane di studio del Centro Italiano di
Studi sull'Alto Medio Evo. Spolète.1965. pp.391-432.
- 55- Cambridge Medieval History, Vol,VII,Cambridge University press 1932,
- 56- Cambridge economic history, vol,III,Economic organisation and policies in
the middle ages. Cam University press,1932
- 57- Canale (M, G): Nuova Istoria della Repubblica di Genova. del suo commercio
e della sua letteratura dalle origini all'anno 1797. II et III.
Florence,2Vol 1860,
- 58- Cardon Dominique: La Draperie au Moyen Age. Essor d'une grande
industrie européenne. Paris. 1996.
- 59- J. carpenter L f. librum ; histoire de le méditerranée, Ed seuil paris 1988
- 60- Chapoutot- Remadi: "Tunis", Grandes villes méditerranéennes du monde
musulman médiéval, dir. Jean-Claude Garcin, Rome,
2000, pp. 235-262.
- 61- Cipolla C, M: Money, prices and civilisation in the Mediterranean
world, Princeton, 1956.
- 62- Contamine,Ph: l'Economie medivale,Ed,Armand Colin,1993
- 63-G, Caro : Genova e la supremazia sul Medittraneo 1237-1311, 2 vol

- 64- Daniel, N: Islam, and the West. The Making of an Image.
Edimbourg .1960.
- 65- Delort, R. (éd.) : Les Croisades. Le Seuil. Paris. 1988.
- 66-----: Quelques précisions sur le commerce des esclaves à Gênes à la
Fin du XIVs (mélanges d'archéologie et d'histoire Ecole
française de Rome; LXXVIII, 1966.
- 67- Depping G, B: Histoire, du commerce entre le Levant et l'Europe depuis les
croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amérique, Paris, 1830, 2 vol.
- 68- Dévisse Jean : "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en
relation avec la Méditerranée, un essai sur le commerce
Africain médiéval du XI^e au XVI^e siècle". (Revue d'Histoire
économique et Sociale). 50, 1972. pp42-73. & 357-397.
- 69- Diehl,Ch : Byzance grandeur et décadence , ed, Flammarion paris, 1979
- 70-Diehl & G,Marcais : le monde Byzantin 385-1081, 2 ed paris 1944.
- 71- Di Tucci R. : Studi sull'economia genovese del secolo XII. La nave e i
contratti marittimi. La banca privata. Turin, 1933.
- 72- Doumerg, B : "La ville et la mer : Tunis au XVe siècle", Villes et
sociétés urbaines au Maghreb, Actes du IV^e congrès
International d'histoire et de civilisation du, Tunis, avril 1986,
(Cahier de Tunisie), XXXIV, n° 137/138, 1986, PP, 111-130.
- 73- -----: Venise et l'émirat hafside de. Tunis (1231-1535). Paris. 199.
- 74-----: les communes d'Italie du XII au XV^s. presse Universitaire
du Mirail, 2004
- 75- Doehaerd (Renée) : Les Relations commerciales, entre Gênes, la Belgique et
l'OutreMont, d'après les archives notariales génoises
aux XIII^e et XIV^e siècles, Bruxelles, Rome, 1941.
- 76- Ducellier (Alain) : "Raguse, l'Italie et la Berbérie au Moyen Age : à
propos de quelques documents inédits ou peu connus".
(Cahiers de Tunisie), n° 61/64. 1968, pp.27-44.

- 77----- : les byzantins, histoire et culture , ed seuil , 1988
- 78-Dufourq, Ch-E: Liberie chrétienne et le Maghrib XIV-XV siècles.
Variorum reprints, 1990.
- 79- -----, "Aperçu sur le commerce entre Gènes et le Maghrib au
XIIIe siècle". Economies et sociétés au Moyen Age. Mélanges
Offerts à Edouard Perroy. Paris. 1973, pp. 721-736.
- 80- ----- : "Le commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe
Chrétienne et marine musulmane : données connues et
Problèmes en suspens". Colliers du CERES, Série histoire,
Actes du congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb,
Tunis, 1974. Tunis. 1979, pp. 161-192.
- 81- ----- : "Les consujats catalans de Tunis et de Bougie au temps de
Jacques le conquérant", AEM, 3, 1966, pp. 469-479.
- 82- ----- : L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XI^e siècles,
de la bataille de Las Navas de Tolosa 1212 à l'avènement du
Sultan mérinide abou Hassan, 1331, Paris, 1966.
- 83- Durand, R : Musulmans et chrétiens en Méditerranée occidentale X^e-
XIII^e siècles. Contacts et échanges. Presses universitaires de
Rennes, Rennes, 2000.
- 84- Encyclopedie de l'Islam, Ed, Leyde; 1960-1990
- 85- Epstein, St, A: Genoa and the Genoese. 958-152S. Chapel Hill. 1996.
- 86-Fattal, A : Le statut légal des non musulmans en pays d'islam.
Beyrouth, 1958.
- 87- Fernand, B: Les mémoires de la Méditerranée, Ed, De Fallois, Paris, 1998
- 88----- : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe
II. Paris. Ire édition. Paris. 1949. 4e éd. corrigée. Paris. 1979. 2 vol.
- 89- Fossier, R : le Moyen-Âge . Age 3T. Ed, Armand colin, 1982
- 90- -----: Les relations des pays d'Islam avec le monde latin du milieu du
X^e –au milieu du XIII. Paris. 2001

- 91-Forcheri (Giovanni) éd : Navi e navigazione a Genova nel Trecento
(il Liber Gazarie), Gênes, 1974.
- 92 :Frenceshi,V.M: Guerre et commerce en mediterrannée du 10 au 20s
- 93- le Goff, J : Dictionnaire raisonné de l'occident Médiéval paris, 1991.
- 94- ----- : Marchands et Banquiers du Moyen-Âge. Puf, 1986
- 95----- : la civilisation de l'occident médiéval ed Arthaud, paris 1984.
- 96- Gourdin (Philippe). "Les approvisionnements en cuir de la ville de Gênes pendant la deuxième moitié du XVe siècle d'après les actes du notaire Nicole Ragg)", (Nuovo Rivista Storica). LXXV. 111, 1991. pp. 571-612.
- 97----- :. "Les marchands étrangers à Tunis à la fin du Moyen Age". Tunis cité de la mer. Actes du Colloque de Tunis (1997). Tunis, 1999. pp. 157-184.
- 98----- : "Le "partage" du Maghreb entre l'Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291)". Le Partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale, dir. Michel Balard et Alain Ducellier, Paris, 1998, pp. 399-409.
- 99- ----- : les relations politiques économiques entre l'Italie Tyrrhénienne et le Maghreb au XVS, vol1 Synthèse, M.c. 5508 U. Sorbonne,I
- 100- Guichard (Pierre) : "Les Almohades", Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe - XVe siècle. I, Paris, 1995. pp. 205-232.
- 101----- : "Les Almoravides", Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval. Xe- XVe siècle, I, Paris, 1995. pp. 151-167.
- 102----- : "De captione Almerie et Tortuose ("La prise d'Almeria et de Tortose"),Extrait traduit dans P. Guichard. L'Espagne et la Sicile..., p. 67-69.
- 103 -----: L'Espagne et la Sicile musulmanes aux XI^e et xii^e siècles.

- 118----- : "Il commercio nel Mediterraneo alla fine del sec. XI^{ve} nei primi anni del XV", Archivio storico italiano. 113. fase. 2. 1955. pp, 157-209
- 119----- : Gènes au X^{ve} siècle. Activité économique et problèmes Sociaux. Paris, 1961.
- 120----- : Gènes et l'Afrique du Nord vers 1450 : les voyages "per costeriam", AEM 21, 1991, pp. 233-245.
- 121----- : "Le prix de l'assurance maritime à la fin du Moyen Age". (Revue d'histoire économique et sociale), 37, 1959, pp. 7- 19
- 122----- : Le Sahara et le commerce méditerranéen à la fin du Moyen Age".(Annales de l'institut d'études orientales). Alger, 1958. pp. 247-255.
- 123----- : "Types de navires et spécialisations des trafics en Méditerranée à la fin du Moyen Age", In, Le Navire et L'économie maritime du Moyen Age à la fin du XVIII^e siècle Principalement en Méditerranée. Actes du 2^e colloque international d'histoire maritime, 1957, Paris. 1958, pp. 107-118.
- 124- Heyd (W.) : Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. Leipzig, 1885-6 ,2 vol.
- 125- Idris, R : la Berbérie orientale sous les Zirides X^e XIII^s, 2T paris 1962
- 126- Jacoby, D: Trade. Commodities and Shipping in the Medieval Mediterranean. Variorum Reprints, Aldershot. 1997.
- 127- Jehel, J : Les Génois en Méditerranée occidentale fin XI^e – début XIV^e Siècle, Ebauche d'un stratégie pour un empire, s.l., 1993.
- 128----- : " Gènes et le maghreb au moyen age " dans (Studi Maghrbeni), XXII, 1990
- 129----- : l'Italie et le maghreb au moyen age, Conflits et échanges du VII-XV^s. Puf, 1987
- 130----- : la Méditerranée Médiévale de 350 à 1450 ed Armand Colin, 1992.

- 131- Jehel G. et Racinet, P., Les relations des pays d'Islam avec le monde latin du X^e siècle au milieu du XIII^e siècle. Textes et documents Ed, du Temps. Paris. 2000.
- 132----- : "Gênes et le Maghreb occidental" In, L'Occident Musulman et l'Occident chrétien au Moyen Age, Rabat, 1996.
- 133- Joinville : Histoire de Saint Louis, reproduit dans Historiens Chroniqueurs du Moyen age. p. 201-366.
- 134- Jorga ,N: Brève histoire des croisades et des leurs fondations et terre sainte, Paris, 1924.
- 135- -----: Notes et extraits pour servir a l'histoire des croisades Au XV^e siècle.(Revue de l'Orient Latin). 1896-1901.
- 136- Jennifer, L: Encyclopedie of the Byzantine Empire, USA 2004.
- 137- Kedar B.-Z : Mercanti Genovesi in alessandria degitto negli annisessanta nel secoloXIII, in (Miscellanea di studi storici,II,Genes,1983,p 19-30
- 138- Kueger H.-C: "Genoese merchants. their pannerships and investments. 1155 to 1164", Studi in onore di A. Saponi, I, Milan. 1957. p. 257-272.
- 139-----: "Genoese trade with north-west Africa in the XIIth century". Spēculum, 8, 1933, pp. 377-395.
- 140----- : "Navi e proprietà navale a Genova seconda metà del sec. XII". (A.S.L.S.P). XXV, fasc. 1, 1985.
- 141- -----: The Italian cities and the Arabs before 1095, in setton (éd.) Vol.1
- 142-----: Genoese trade with the North West of Africa in the 12th century in (speculum), Cambridge (July 1933), Vol. in N°, 03.
- 143- Krueger (Hilmar C.), Reynoids (Robert L.). éd : Noitii lignri dei secoli XII e XIII, t. 6: Lantranco (1202-1226). Gênes. 1951-1953. 3 vol.
- 144- .Lacourt,J,gayet : histoire du commerce de l'ancien monde a la fin du xvs 2^e ed Spid , paris 1950.
- 145- Lane,F,C : Venise une république maritime. ed Flammarion ,1
- 146-Lewis, B : Que s'est'il passé ? L'Islam, l'occident et la modernité. Ed, Gallimard. 2002

- 147- Lombard, M : "Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane du V^e au X^e siècle". Le Navire et l'économie maritime du Moyen Age au XVIII^e siècle, Principalement en Méditerranée. Actes du II^e colloque International d'histoire maritime. Paris. 1958. pp. 53-106.
- 148- Lopez, R., S : "L'Attività economica di Genova nel marzo 1253. secondo gli atti nottari del tempo », (A. S. L. S. P.), 64, Genes, 1935. pp. 166-270
- 149- : "Aux origines du capitalisme génois". (Annales d'Histoire Economique et Sociale), 9, 1937, PP. 429-454.
- 150- : "I Genovesi in Africa Occidentale nel Medio Evo", Studi Sull'economia genovese nel Medio Evo. I, Turin, 1936. pp. 1-61.
- 151- : La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale. Paris, 1974.
- 152- : Storia delle colonie genovesi nel Mediterraneo, Bologne, 1938, reed Genes, 1997.
- 153- Lopez, R. & Raymond, I. : Medieval Trade in the Mediterranean World. Oxford University Press. & Londres. 1955.
- 154- Liber jurium reipublice Genvensis, Il codice diplomatico della repubblica di Genova, 3 vol, 1936. 42.
- 155- Lisiandrelli, P : Trattati, e negoziazioni politiche delle repubbliche 958-1797 (ASPLS) LXXV, 1960.
- 156- Leo, H : Histoire d'Italie pendant le moyen Age, Tome 1, Paris, 1837
- 157- Malvin, M. knight : Histoire économique de l'Europe jusqu'à la fin du Moyen age, Paris 1930
- 158- Mansouri, M.-T. : "Vie portuaire à Tunis au bas Moyen ". Tunis, cité de la mer. Actes du colloque UNESCO-Université de Tunis la Manouba. novembre 1997. A. Baccard, éd.. L'or du temps. Tunis. 1999. p. 143-156.
- 159- Marçais, G : « Les villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen Age ». (AIEO). 13. 1955. PP. 118-142.
- 160- Martin J.-M.. Italie normandes XI-XII^e siècles. Hachette. Paris. 1994.

- 161- Marengo,E :Genova e Tunisi 1388-1515 relazione storica,
(ASLSP), Vol, 1901
- 162- De Mas latrie: Traités de paix et de commerce et documents divers
Concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de
L'Afrique septentrionale au Moyen- Age. Paris, 1866, suppl.1872.
- 163- De Mas latrie : relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec la
Nations chrétiennes ou moyennes .age, paris1886
- 164-----: Aperçu des relations commerciales de l'Italie septentrionale
avec les états musulmans. 1843-44
- 165- Mollat, M : « le Passage de st louis a Tunis » sa place dans l'histoire des
croisades, extrait (R.H.E.S) TL, N03, paris 1972 p 289-303.
- 166----- : «De la piraterie sauvage à la course réglementée. XIII-XIVe
Siècle". Etudes d'histoire maritime { 1938-1975). Turin. 1977.
pp. 591-609.
- 167- Ostrogosinski , g : History of Byzantine, empire oxford 1956
- 168- Planhol .X, (de) : L'Islam et la mer. La mosquée et le matelot .VII - XXe
siècle. Paris, 2000.
- 169- Pernoud,R--- : les villes marchandes au XIVe et XVe,Paris.1949
- 170- Pirenne .H : Mahomet et Charlemagne, Paris, 1937, rééd. 1992.
- 171-----: Histoire de l'Europe els invasions au XVI siecle paris 1936
- 172- Petti Baibi ,G : "Il consolato genovese di Tunisi nel Quattrocento",
(Archivio storico italiano), 576, 1998, pp. 226-256.
- 173- Picard, Ch : La mer et les musulmans d'Occident au Moyen Age. Puf,
Paris.1997.
- 174 :----- Le monde musulman du XI^e au x^e siècle. SEDES, Paris. 2000.
- 175- Pistarina, G : Genova e il Maghreb nel secoli XII in Italia e Algeria
aspetti storica di un reineria, Milan 1982 p 23-68.
- 176-Pistarina, G : « Genova e l'Islam nel Mediterraneo occidentale » (anuario de
Estudios Medievales) TX, 1980, p 189-205
- 177- Recueil des Historiens des Croisades. Historiens occidentaux, 5 vol.,

- Paris. 1844 – 1895: Historiens orientaux. 5 vol.. Paris, 1872-1906.
- 178- Renouard ,Y : le villes d'Italie de la fin du XI au début du XIVS, T1,
(S.E.D .E.S) 1961
- 179----- ; Les Hommes et les affaires italiens au Moyen Age,
Paris, 1968.
- 180- Ricard R : "Les établissements européens en Afrique du Nord du XVe
Au XVIIIe siècle et la politique d'occupation restreinte". RA.
79. 1936. pp.687-688.
- 181- RICHARD J: Histoire des croisades. Fayard. Paris. 1996.
- 182-----: Orient et Occident au moyen âge : contacts et relations (XII-
XV siècles), Variorum Reprints. Londres .1976 (recueil d'articles).
- 183- Rocca P : Pesi e misure antiche di Genova e del Genovesato.
Gênes.1871.
- 184---Rosenberger,B: le controle du Détroit de Giblartar au XII & XIII, In
L'occident musulman et l'occident chrétien au moyen âge.
Rabat, 1995, p1 -42
- 185- Saponi ,A: Le Marchand italien au Moyen Age, Paris. 1952.
- 186- Sayous A,E : Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII^e siècle
Jusqu'à la fin du XVI^e, Société d'éditions géographiques,
maritimes et coloniales. Paris, 1929.
- 187- Senac,Ph : Provence et piraterie sarrasine , paris, 1982
- 188- Sismondi : Histoire des républiques maritimes Italienne au Moyen- âge.
5 Vol, 5^e- ed, Bruxelles, 1838.
- 189- Sprandel, R: "Le commerce du fer en Méditerranée orientale au Moyen
Age". Sociétés et compagnies de commerce en Orient et
dans l'océan Indien. Actes du VIII^e colloque international d'histoire
maritime. Paris. 1970. p. 387-392.
- 190-.le Syrien, M : chronique, ed, chabot, t III, paris1905
- 191- UNALI A: "Pénétration religieuse et territoriale des chrétiens au Maghreb
au XIII^e siècle". Le Maghreb et la mer a travers l histoire.

Mesogeios. 1.2000. p. 143-152.

- 192- Udovitch ,A, L : "At the origins of the Western Commenda : Islam.
Israël, Byzantium ?" (Speculum), 37. 1962. pp. 198-207.
- 193- Valérian.V: Bougie port maghrébin à la fin du moyen age (1067-1510),
Thèse de Doctorat, Sous la Direction du Pr M, Balard, Paris1-
Sorbonne.2000
- 194- Verlinden Ch : L'Esclavage dans l'Europe médiévale, t. I. Péninsule
ibérique - France, Bruges, 1955.
- 195- Vemet ,R : "Les relations céréalières entre le Maghreb et la Péninsule
ibérique du XI^e au XV^e siècle". AEM, 10. 1980. pp. 321-335.
- 196- J wolff : Historie économique de L'Europe 1000-2000 ed, Albin Michel
Paris, 2000
- 197-Verginia ,w: J Genoa the superb, the city of Columbus, Boston . USA 1892
- 198- Wely, d: the Italian city republic 3ed, N york, 1988
- 199- Yver ,G: Le Commerce et les marchands dans l'Italie méridionale
aux XIII^e et XIV^e siècles. Paris, 1903.

فهرس المواضيع

الصفحة

الموضوع

* - المقدمة ----- 11-1

* - الفصل الأول:

- الأوضاع العامة في عالم البحر الأبيض المتوسط مع نهاية

القرن 5هـ=10م ----- 41-12

(1) - الأوضاع بالحوض الشرقي. ----- 24-13

أ) - الأوضاع في الإمبراطورية البيزنطية. ----- 19-13

ب) - الأوضاع بالمشرق الإسلامي. ----- 24-19

* - الخلافة العباسية في بغداد. ----- 20-19

* - الخلافة الفاطمية في مصر. ----- 24-20

(2) - الأوضاع بالحوض الغربي. ----- 41-24

أ) - الأوضاع في بلاد المغرب. ----- 28-24

ب) - الأوضاع في الأندلس وجزيرة صقلية. ----- 35-28

ج) - أوضاع الغرب اللاتيني. ----- 41-35

* - الفصل الثاني:

- جنوة أهمية موقعها، تاريخ نشأتها وعوامل نهضتها السياسية والاقتصادية. 92-42 -----
- (1) - أهمية موقع مدينة جنوة وتاريخ نشأتها 49-43 -----
- أ- أهمية موقع جنوة. 45-43 -----
- ب- الظروف التاريخية منذ نشأة المدينة إلى القرن 10م. 49-45 -----
- (2) - تطور النظم السياسية بمدينة جنوة وأثره على انتعاش الحياة بها. 55-49 -----
- أ- نشأة نظام القومون La Commune 52-51 -----
- ب- ظهور الاتحادات المهنية ودورها في ترقية وتدعيم السلطة السياسية بالمدينة. 55-52 -----
- (3) - نشاط رجال الأعمال الجنوبية وأثره على نهضة القومونة وازدهارها. 67-55 -----
- أ- مساهمة الجنوبية في الحروب الصليبية. 62-57 -----
- ب- مشاركة الجنوبية في الحركة التجارية بين أوروبا والمشرق. 67-62 -----
- (4) - صلات جنوة مع الإمبراطورية البيزنطية وأثره في ازدهار النشاط الاقتصادي بالمدينة. 76-67 -----
- أ- ظروف انتشار النفوذ الجنوبي بالموانئ والأسواق البيزنطية. 74-67 -----
- ب- مستعمرات الجنوبية في القسطنطينية والبحر الأسود. 76-74 -----

- (5) - حروب جنوة ضد منافسيها على تجارة البحر المتوسط. ----- 92-76
 أ- حروبها ضد جمهورية بيزة. ----- 84-77
 ب- حروبها ضد جمهورية البندقية ----- 92-84

* - الفصل الثالث

- نشاط جنوة الصليبي في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر
 إلى القرن الخامس عشر الميلادي. ----- 203-93

- (1)- تدهور البحرية الإسلامية في غرب المتوسط منذ القرن الخامس الهجري /
 الحادي عشر الميلادي. ----- 100-94
 (2)- نشاط القرصنة الجنوبية في غرب المتوسط قبل بداية الحروب الصليبية- 110-100
 (3)- الحملة الصليبية على المهديّة سنة 1087 م. ----- 117-110
 4 - تصاعد أعمال القرصنة والعدوان البحري الجنوبي على عهد المرابطين
 و الموحدين. ----- 130-117
 (5)- العدوان الجنوبي على مدينة سبتة (629-633هـ-1231-1235م) - 152-130
 (6)- مساهمة الجنوبية في الحملة الصليبية الثامنة على تونس 1270م- 669هـ-152-174

- (7) - أعمال القرصنة والعدوان البحري الجنوبي على بلاد المغرب خلال القرنين
الرابع عشر والخامس عشر الميلادي. ----- 184-174
- (8) - مشاريع الصليبيين لغزو بلاد المغرب ودور الجنوبية فيها. ----- 186-184
- (9) - حملة جنوة على مدينة طرابلس عام 1354م. ----- 190-186
- (10) - جنوة والحملة الصليبية على مدينة جربة 1388 - 1398م. - - - - 194-190
- (11) - الحملة الجنوبية الفرنسية على مدينة المهدية 1390م. ----- 203-194

* - الفصل الرابع

- نشاط جنوة التجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر
إلى القرن الخامس عشر الميلادي. ----- 282-204

- (1) - بداية الصلات التجارية للمدن الإيطالية مع بلدان العالم الإسلامي
بالضفة الجنوبية للمتوسط. ----- 217-206
- (2) - نشاط جنوة التجاري في بلاد المغرب على عهد المرابطين. - - - - 221-217
- (3) - صلات جنوة التجارية مع إمارة بني حماد في بجاية. ----- 223-221
- (4) - ازدهار النشاط التجاري الجنوبي في بلاد المغرب خلال النصف الثاني

- من القرن الثاني عشر. ----- 235-223
- (5) - نشاط جنوة التجاري مع بلاد المغرب خلال القرن 13م. ----- 241-235
- (6) - حادثة 1223م وأثرها في تعثر نشاط جنوة التجاري مع الإمارة الحفصية. 244-241
- (7) - معاهدة 1236م والأمنيات التي استفاد منها التجار الجبويون. ----- 248-244
- (8) - معاهدي 1250م - 1272م. ----- 253-248
- (9) - تدهور العلاقات التجارية بين الجنوبية وبلدان المغرب خلال القرن الرابع عشر الميلادي. ----- 262-253
- (10) - محاولات جنوة لاسعادة مكانها التجارية في بلاد المغرب حائل
- القرن الخامس عشر الميلادي. ----- 281-262
- أ- تذبذب وعدم الاستقرار خلال النصف الأول من القرن 15م. - 275-262
- ب- ازدهار العلاقات واستقرارها بين الجنوبية والإمارة الحفصية
- في النصف الثاني من القرن 15م. ----- 281-275
- (11) - انهيار نشاط جنوة التجاري مع نهاية القرن 15م. ----- 282-281

* - الفصل الخامس

- التنظيمات التجارية والمعاملات المالية في تجارة جنوة

مع بلاد المغرب. ----- 342-283

- (1) - أنواع الشركات والعقود التجارية. ----- 293-285
- (2) - أنواع السفن التجارية الجنوبية ----- 301-293

- (3) - نظام النقل البحري في جنوة. ----- 302-301
- (4) - طرق القوافل التجارية الجنوبية إلى بلاد المغرب. ----- 308-302
- (5) - إجراءات الاستقبال في الموانئ المغربية. ----- 314-308
- (6) - صادرات جنوة إلى بلاد المغرب. ----- 322-314
- أ- الخشب ----- 317 —
- ب- الحديد ----- 318-317
- ت- الخمر ----- 320-318
- ث- الألبسة والصناعات الصوفية ----- 321-320
- ج- الأحجار الكريمة والجواهر ----- 321 —
- ح- التوابل ----- 322-321
- (7) - مشتروات جنوة من السلع المغربية ----- 334-322
- أ- الذهب ----- 324-322
- ب- الأصواف والجلود ----- 327-324
- ت- العبيد ----- 328-327
- ث- المرجان ----- 329-328
- ج- مواد الصباغة ----- 331-329
- ح- المواد الغذائية ----- 334-331
- (8) - الضرائب والرسوم الجمركية التي يدفعها التجار الجنوبيين
بالموانئ المغربية. ----- 338-334
- (9) - نظام إقامة التجائيات انجوية باتديار المغربية. ----- 343-338

* - الخاتمة ----- 346-344

* - الملحق ----- 388-347

* - ببيلو غرافيا ----- 424-389

* - المصادر العربية ----- 399-389

* - المراجع العربية ----- 409-400

* - المصادر والمراجع الأجنبية ----- 424-410

* - فهرس المواضيع ----- 431-425